لأجلنا ولأجل خلاصنا

كلمات في أعياد الظهور الإلهي

(الكتاب الأول)

طبعة مزيدة ومنقحة

دكتور جورج حبيب بباوي

لأجلنا ولأجل خلاصنا

كلمات في أعياد الظهور الإلهي

دكتور جورج حبيب بباوي

يناير ٢٠٢٠
الطبعة الثانية – معدلة

الكتاب : لأجلنا ولأجل خلاصنا

المترجم : الدكتور جورج حبيب بباوي

الناشر : جذور للنشر – ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

الطبعة : الثانية ٢٠٢٠

رقم الإيداع : ٢٠٢٠/٣١٠٢

ترقيم دولي : 978-977-5086-34-1

المطبعة : جي سي سنتر ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
١٤ ش محمود حافظ . ميدان سفير . مصر الجديدة

محتويات الكتاب

القسم الأول: تجسُّد الابن الكلمة ربنا يسوع

لماذا نؤمن بتجسُّد الكلمة؟ عشرةُ أسبابٍ تدعونا للإيمان بتجسُّد الكلمة ١١
التجسُّد ومعمودية الرب يسوع بشارة تؤهلنا للقيامة ١٥
ميلاد الابن الوحيد الأزلي ربنا يسوع المسيح بالجسد ١٩
تجسُّد الكلمة؛ رسالة إلهية إنسانية للكون المضطرب ٣٣
عيد تجسد الابن الكلمة، ربنا يسوع المسيح ٥٣
تجسد الكلمة، والعواصف التي تضرب سفينة الوطن ٧٥
الكلمةُ صار جسداً ٨٠
الكلمة صار جسداً، وُلِدَ في حياتنا لكي يحيا معنا وفينا ٨٦
"في ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة" (غلا ٤ : ٤) ٩٠
تجسُّد الكلمة – استعلانات الكلمة ٩٧
"والكلمة صار جسداً وسكن بيننا" ١٠٠
عيد تجسُّد الله الكلمة، هو عيد تجسُّد المحبة الإلهية ١٠٦
تجسَّد الله الكلمة لكي يجعلنا أبناء للآب، وهيكلاً للروح القدس: ١٢١

القسم الثاني: معودية ربنا يسوع

عيد الظهور الإلهي ١٢٧
لماذا اعتمد يسوع؟ ١٢٩
إطلالةٌ على الكلمة والروح القدس ١٤٤
مُسحنا في يسوع؛ لنكون مسيحيين، أي مُسحاء ١٥٨
الظهور الإلهي للثالوث في معمودية الرب يسوع في نهر الأردن ١٦٨

معمودية الرب يسوع في الأردن، لأجلنا اعتمد، ولأجلنا مُسح بالروح القدس لأنه صار إنساناً لأجلنا ١٧٨

عيد معمودية الرب ١٨٩

عيد الثيئوفانيا – الظهور الإلهي المسمَّى شعبياً عيد الغطاس ١٩٥

الظهور الإلهي وذكرى معمودية الرب ٢٢١

عيد الغطاس، هو العيد الذي اخذنا فيه اسمنا (مسيحيين) ٢٢٤

القسم الثالث: الختان والتجلي

سكين الشريعة في جسد يسوع ٢٢٩

ختان الرب بالجسد – ماذا حدث للغرلة؟ ٢٣٥

جبل طابور، والجلجثة والقبر ٢٣٨

جبل طابور – جبل التجلي ٢٤٨

تجلِّي ربُّنا يسوع على جبل طابور........ ٢٥٨

لمحات من آباء الكنيسة الجامعة ٢٦١

القسم الرابع: لأجلنا ولأجل خلاصنا

التجسُّد، العقيدة، والاستعلان الكامل والأخير ٢٧١

تأله ناسوت الرب يسوع ٢٩٦

تدبير الخلاص، أم الهلاك؟ ٢٩٩

عندما صار الكلمةُ إنساناً: الإنسان والإنسانية في يسوع المسيح ٣٠٥

تجسد الكلمة وحقائق لا يجب أن ننساها أبداً ٣١٨

كيف نفهم إيماننا؟ المسيح الإله الكامل والإنسان الكامل ٣٢٥

التجسد ودعوة الإلحاد في مصر –١– ٣٢٧

التجسد ودعوة الإلحاد في مصر –٢– ٣٤٣

التجسد ودعوة الإلحاد في مصر –٣– ٣٤٨
التجسد ودعوة الإلحاد في مصر –٤– ٣٥٥
مع المسيح في تجاربه في البرية ٣٦٣
نحن والمسيح شركاء جسده الواحد، ولنا فيه حياةٌ واحدةٌ ٣٦٦
خواطر أرثوذكسية في احتفالنا بتجسد الكلمة ٣٧٣
هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا ٣٨١
لماذا نخطئ في فهم تجسُّد ابن الله الكلمة؟ ٣٨٢
صدمة تجسد ابن الله ٣٩٣
التجسد بين خداع النظر وخداع اللفظ ٣٩٨

تقديم

الظهور الإلهي وأساسات التدبير

هذا ملفٌ قديمٌ وجديد.

قديمٌ؛ لأن المقالات التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه، سبق أن نُشرت تباعاً على موقع الدراسات القبطية. وجديد؛ لأن ظهور واستعلان الثالوث هو حقيقة جديدة مستعلَنة لنا دائماً، لا سيما في خدمة الثالوث لنا في السرائر.

وعندما يصلي الكاهن خديم سر الشكر: "اظهر وجهك على هذا الخبز ..."، فهو يطلب استعلان الرب لكي "يُظهِر لنا جسده بحلول الروح القدس" (راجع صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الباسيلي).

هكذا يجب أن نفهم أن الاحتفال بالأعياد السيدية، هو احتفالٌ باستعلان الثالوث القدوس، وهو ما تشير إليه كلمات اللحن: "عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن بمجد أبيه والروح القدس".

رجاؤنا أن يعيد لنا الرب التقوى الأرثوذكسية لكي نحيا في ملء الفرح بالخلاص الأبدي.

أول نوفمبر ٢٠١٨م — ٢٢ بابة ١٧٣٥ش

شهادة القديس لوقا الإنجيلي

د. جورج حبيب بباوي

القسم الأول

تجسُّد الابن الكلمة ربنا يسوع

لماذا نؤمن بتجسُّد الكلمة؟

عشرةُ أسبابٍ تدعونا للإيمان بتجسُّد الكلمة[1]

أولاً: عيد الميلاد ليس عيداً نحتفل فيه بميلاد طفل كما هو شائعٌ عندنا، بل -حسب تعليم الكتاب المقدس- هو عيد ميلاد عمانوئيل، أو بالحري تجسُّد ذاك الذي قالت عنه النبوة: "لأنه يولد لنا ولد ونعطى ابناً وتكون الرئاسةُ على كتفه ويكون اسمه مشيراً عجيباً أباً أبدياً رئيس السلام" (أش ٩: ٦).

لقد وُلِد الملك في مدينة داود الملك (مت ٢: ١). لقد وُلِد ابن الله "المسيح الرب" (لو ٢: ٧). هذا هو اليوم الذي تم فيه "ملء الزمان وأرسل الله ابنه مولودٌ من امرأة مولوداً تحت الناموس" (غلا ٤: ٤). إنه عيد تنازُل الله المطلق، والذي لا مثيل له في التاريخ، فقد "أخلى ذاته وأخذ صورة عبدٍ وصار في شبه الناس" (فيلبي ٢: ٧).

ثانياً: هو عيد تحول الإنسانية من الميلاد البيولوجي الزماني الأرضي إلى ميلاد من فوق، من الماء والروح القدس؛ لأن الإنسان الأول ترابي من الأرض، أمَّا الإنسان الجديد، آدم الثاني أو آدم الأخير الذي تشرق بميلاده الإنسانية الجديدة فهو الرب من السماء (١كور ١٥: ٤٣ — ٤٧).

([1]) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الكلمة ٢٠٠٧.

يقول القديس أثناسيوس الرسولي إن الكلمة تجسَّد ووُلِد من امرأة لكي يحول بداية الحياة الإنسانية الجديدة إلى كيانه الإلهي الذي تجسَّد لكي يحول الإنسانية إلى حياة سمائية (راجع الرسالة إلى أدلفوس فقرة ٤).

نحن نولد من لحم ودم وبإرادة الرجل والمرأة في الزواج، لكن الآن في المسيح، وبسبب ميلاده من الروح القدس، نولد من فوق، من الله نفسه، ليس من دم ولحم ولا بقوة التناسل الطبيعي البيولوجي، بل من الله (يو ١: ١٣).

ثالثاً: نحن نحتفل بشركتنا في مجد الله الخالق. مجد شركتنا في مجد الله ذاته. لقد جاء هذا المجد مع الذي له ذات مجد الآب وفيه مجد البنوة، ولذلك هو عيد تحوُّل الإنسانية من شقاء الحياة الترابية إلى مجد يسوع المسيح؛ لأن "الذين سبق فعرفهم ... هؤلاء دعاهم ... هؤلاء مجَّدهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو البكر بين أخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩).

رابعاً: هو عيد إشراق المحبة الإلهية، ليس بالكلام، ولكن بحدثٍ عظيم، فقد ظهرت محبة الله ليس في تعليم نبوي كما كان يحدث قديماً، بل في تجسُّد ابن الله (يو ٣: ١٦).

خامساً: أعاد التجسُّد مساواة الرجل والمرأة. فقد وُلِدَ المسيح رجلاً، ولكن من امرأة، وبذلك مجَّد جنس الرجال باتحاده بالإنسانية، وجنس النساء بميلاده من امرأة. ولذلك يقول الرسول بولس: "في المسيح يسوع ليس ذكراً ولا أنثى" (غلا ٣: ٢٨).

سادساً: تجسَّد الابن له المجد ولم يعُد الحق فكرةً نقرأ عنها في كتاب، بل صار الحق شخصاً هو شخص الإله المتجسِّد. وعن ذلك يقول المزمور: "الحق من الأرض أشرق" (مز ٨٥: ١١).

وعندما يقول الرب يسوع "أنا هو الطريق والحق والحياة" (يو ١٤: ٦)، فهو لا يدعونا إلى اعتناق فكرة، بل يدعونا إلى شركة في الحق نفسه. وهو حق المحبة

وليس مجرد حق على شفاه البشر. حقٌ أشرق في اللحم والدم.

سابعاً: صار السلام شخصاً، ولم يعد علاقات تولد من نظام ما. لقد جاء المسيح ليصبح الشخص هو مصدر السلام، السلام النابع من شخص الإله المتجسِّد، والذي عندما نؤمن به ونشترك في حياته يصبح السلام نابعاً منَّا نحن، من البشر الذين صاروا أولاد الله، وليس من نظام قابل للفساد مفتوح على نافذة أهواء البشر.

ثامناً: لقد جاء التجسُّد باتحاد أبدي بين الإنسانية والله. اتحاد في يسوع المسيح الذي هو "أمس واليوم وإلى الأبد" (عب ١٣: ٨). لقد صار الله فعلاً معنا؛ لأن الكلمة تجسَّد وسكن فينا (يو ١: ١٣ – ١٤). وهو اتحاد أبدي لا يقبل الانفصال؛ لأنه لا يعتمد على قوة بشرية، بل على اتحاد اللاهوت بالناسوت، فقد حلَّ ملء اللاهوت في الناسوت لكي نمتلئ نحن فيه وبه.

تاسعاً: جاء التجسُّد كدعامة أبدية في شركتنا مع الله، وفي حياة الله نفسه. فقد اتَّحد اللاهوت بالناسوت ليس حسب طقس ولا بقوة الشريعة، ولا حسب رغبة الإنسان، بل حسب مسرة الله، فقد سُر الله بنا حسب صلاحه. وجاء التجسُّد ليضع الأساس لعلاقة أبدية لا تموت؛ لأن المتجسِّد قام وغلب الموت. علاقة أبدية لا ترتبط بالأرض وبكل ما فيها، بل بالسماء؛ لأن المتجسِّد صَعِد إلى السماء.

عاشراً: بتجسُّد الكلمة لم يعُد الإنجيل عبارات تقال وتُكتب، بل صار الإنجيل بشارة حياة، وصار تجسُّد ابن الله هو الإنجيل الحي الذي كُتِبَ في اللحم والدم، في تحول الترابي إلى جسد مجده. وفي بشارة ليست هي نهاية الحياة بالموت، بل بداية الحياة في الشركة في طبيعة الله (٢ بط ١: ٣).

لقد جاء التجسُّد بأكبر تحول في الحضارة الإنسانية. فقد صار للإنسان قيمة عظمى هي عطية التبني (غلا ٤: ٤). وصار الإنسان أعظم من النظام، وصار

الامتحان الحقيقي للمحبة هو في أن نضع أنفسنا في مكان الآخر. فقد جاء الذي ليس هو بإنسان لكي يكون إنساناً "أخذ الذي لنا". لقد صار مثلنا، فنقل الإنسانية من كلام إلى عمل لا لكي نتكلم ونكتب عن البذل، بل لكي نحيا البذل.

وحقاً قال شيخ المؤرخين في هذا العصر أرنولد توينبي: "بالتجسُّد أكمل المسيحُ التاريخ، فقد فتح التاريخ على ما هو أبدي، ونقل مصير الإنسان إلى ما هو إلهي، وأكمل الحضارة عندما صار للإنسان قيمة أعظم من كل النظم وجعل الإيمان ممارسة المحبة".

التجسُّد ومعمودية الرب يسوع

بشارة تؤهلنا للقيامة[١]

عيد الميلاد المجيد هو "عيد تجسد الكلمة"، وليس عيد ميلاد طفل اسمه يسوع في بيت لحم. فقد حرصت الأناجيل الأربعة على أن تؤكد أن الذي وُلِدَ من القديسة مريم هو "المخلِّص"، "المسيح الرب"، وأن "الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا". وشتان بين الاحتفال بميلاد طفل، وبين الاحتفال بتجسد ابن الله، وظهور الله في الجسد. ولذلك، فمراجعة ما نقول وما نكتبه ضروري لكي تكون لنا قوة البشارة بالحياة الجديدة.

لقد وُلِدَ "آدم الثاني"، أو "آدم الأخير" (١كو ١٥: ٤٥ - ٤٧)، وكان في ميلاده بالجسد بداية لعمل الروح القدس نفسه في خلق الخليقة الجديدة. **لقد كان دخول الروح القدس في شركة مع الابن في تكوين "الجنين"، أي الحبل، ثم الولادة، هو بداية زرع الحياة الجديدة الآتية من فوق.** الحياة التي تشق طبقة التراب الأولى، أي تلك التي من آدم وترفع رأسها في الرأس الجديد يسوع المخلِّص. **ويظل سر الحبل من الروح القدس محفوظاً غير مُعلن لا يعرفه إلَّا الثالوث،** ولكن تدركه العذراء التي فتحت "رحم" البشرية، فصارت الأم الجديدة التي تعلن في حبلها وفي ولادة ابنها، العصر الجديد، عصر الخلق الجديد، الذي بدأ في "بيت لحم الصغرى" نقطة التقاء السماء أي اللاهوت، بالأرض أي الإنسان، مدينة "داود الملك" التي فيها وُلِدَ "الملك الحقيقي" يسوع المسيح لكي يؤسس مملكة حقيقية لملوك يملكون معه ويجلسون معه على عرشه الإلهي (رؤ ٣: ٢١).

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٠ يناير ٢٠٠٨.

قال الرب بعد تجسده: "لقد كمل الزمان"، وقال الرسول: "في ملء الزمان"، وكلا العبارتين تعني **أن الزمان قد توقَّف عن أن يكون له دور في لقاء الله مع الإنسان**. ولم يعد لدينا زمان تصلح، أو لا تصلح فيه الصلاة والعبادة حسب تحذير الرسول بولس: "فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شُرب، أو من جهة عيد أو هلال أو سبت، التي هي ظل الأمور العتيدة، وأما الجسد فللمسيح ..." (كولوسي ٢: ١٦ وما بعده).

إن تجسد الرب يسوع -كما يقول القديس غريغوريوس النزينزي- "حلَّ قوة قوانين الطبيعة، أي الخليقة الأولى"، وجاء هذا التغيير الجذري بالتجسد، أي باتحاد اللاهوت بالناسوت دون وسيط، ودون أي دور للزمان، فقد تحوَّل مكان ميلاد الرب بالجسد إلى بيتٍ الخليقة الجديدة، لأن الروح القدس قد دخل في "زمان التجديد" لكي يضع بداية غير تلك التي بدَّدها آدم في الفردوس القديم.

وجاء الرب يسوع بالحياة الجديدة التي وُلِدَت، ليس كفكرة أو قصة، بل حقيقة "الذي رأيناه، الذي سمعناه، الذي لمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة" (١يوحنا ١: ١ - ٣)؛ لأن كلام البشارة صادرٌ عن حقيقة تجسد الرب وليس العكس، فقد صارت كل كلمة تقاس أو توزَن بميزان تجسد الكلمة، وهو ميزان دقيق جداً، هو مقياس "التمييز" بين الحق والباطل والخير والشر، المحبة والبغضة والعداوة. الله كما هو في حقيقة تواضعه عندما يقبل أن يكون ملموساً حياً ساكناً بيننا في جسده الخاص به، وأيضاً الإنسان كما يجب أن يكون بعد أن أشرق عليه نور الحياة بتجسد الكلمة. وصار الكلمة المتجسد "البكر بين إخوة كثيرين"، وهي أحد ملامح البشارة التي عثر فيها أريوس ونسطور وأوطاخي وبعض أدعياء المعرفة .. الخ. فقد حمل إلينا الابن الوحيد الجنس هذه الصفة الأقنومية الخاصة به واتحدت هذه الصفة -كما يقول القديس جيروم- بالتجسد، فصار "الابن الوحيد بالجسد من العذراء التي لم تلد آخر بعده. لكن بنوة الابن الأزلية ليست صفة تمنع المفديين من الشركة في بنوته؛ إذ يبقى هو دائماً الرأس، دائماً المتقدم، ودائماً

"البكر" الذي له حق الوراثة حسب الشريعة القديمة، والذي له حق توزيع هذا الميراث حسب الشريعة الجديدة.

هذه هي -إذا جاز التعبير- إرهاصات القيامة الآتية، فكل استعلانات الخلاص لها "جذرٌ" واحد، وهو الحياة التي تتدفق من فوق، من الله نفسه لكي تغرس الولادة الجديدة "بالغرس الجديد" يسوع الناصري، وهي حياة لا يقف أمامها عائق أو حاجز.

وقد نظر رسول المسيح إلى قوة المحبة الإلهية فقال: "المحبة لا تسقط أبداً"؛ لأنها "توحِّد". تهدم لكي تبني. تقبل الولادة لكي تعطي ولادة. تقبل الصليب لكي تبيد الموت وتعلن القيامة، وتقوم ناهضة من أوجاع الموت والقبر منتصرة؛ لأن المخلص يسوع ليس ضحية غضب الآب ولا هو عبدٌ سقط تحت حِمل الموت الثقيل، ولذلك قال رسوله وشاهده: "لم يكن من المستطاع للموت أن يمسك به" (أع ٢: ٢٤).

كانت إرهاصات القيامة في غرس البذرة، حبة الحنطة التي كان يجب أن تقع في الأرض، ولكنها وقعت في الأرض وماتت بعد أن مُسحت بالروح القدس. وبين ميلاد الرب بالجسد ومعموديته التي وصفها الرب نفسه بأنها "الصبغة" (مرقس ١٠: ٣٩) يأتي الاستعلان: ما تم في السر والخفاء عندما أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، تحت الناموس، صار الآن علانية "أنت هو ابني الحبيب" الذي يأتي ومعه مسحة الروح القدس (١يوحنا ٢: ٢٠)، فالروح الخفي لم يعد خفياً، وسر الولادة يعلن الآن للعالم وليس للرعاة والمجوس والذين كانوا ينتظرون العذراء، بل للكل، بل ويدخل حياة الكنيسة بعد العنصرة في المعمودية؛ لأن الرب عندما قال: "الروح يأخذ مما لي ويعطيكم" (يوحنا ١٦: ١٤)، فقد كان يؤكِّد هذه الشراكة التي مصدرها الحقيقي الجوهر الواحد للثالوث القدوس ... ولذلك وُلِد من الروح القدس، ثم مُسح بالروح القدس، وصُلِب بالروح القدس (عب ٩: ١٣)، وقام بالروح القدس (رو ٨: ١١).

هذه هي شركة الحياة التي بدأت والتي لا تقف أمام عائق، بل تفتح حضن الآب (يو ١: ١٨) لنا. لأن الكل قد حدث في حضن الآب نفسه، فهو ليس مكاناً، بل قوة المحبة الكامنة في جوهر الثالوث، وينبوع الأزلية الحقيقي الذي جرف الموت وأعطى الخلود ومنح الإنسان أن يكون شريكاً ليسوع المسيح نفسه في عرش ألوهيته لكي يجلس مع يسوع كإله (رؤ ٣: ٢١).

في هذه الأعياد التي نرى فيها قَسَمات القيامة في "الغرس" الجديد، وفي مسحة الروح القدس، مسحة عدم الفساد التي أقامت يسوع من بين الأموات، علينا أن نكون على حذر من سموم الهرطقات القديمة: فلا نقع ضحايا للأريوسية التي تنكر حقيقة تجسد ابن الله(١) أو النسطورية الجامحة التي تعتدي على سر الإفخارستيا في وقاحة لتقول إننا نأكل الناسوت فقط، أو تحت عباءة نسطور تقول إن تألُّه جسد الرب يسوع قاصر عليه وحده، وبذلك تحرم المؤمنين من القيامة ومن الخلود في السماء في عدم فساد.

أما سم الأوطاخية فهو عائد إلى ضعف الإيمان بالطبيعتين في الرب الواحد يسوع المسيح؛ لأن المسيح طبيعة واحدة متجسدة من طبيعتين: الله الكلمة والإنسان؛ ولذلك فإن تأله الناسوت هو تأكيد على أنه ناسوت ويبقى ناسوتاً كمثال لما سنكون عليه في المجد الآتي.

كل عام وأنتم جميعاً بخير

(١) راجع القديس أثناسيوس الرسولي، المقالة الثالثة ضد الأريوسيين، فقرات ٣٣، ٣٤، ٣٥.

ميلاد الابن الوحيد الأزلي
ربنا يسوع المسيح بالجسد

أي ميلاد الابن الذي قَلَب كل القيم والموازين،
وردَّ المحبة وقوتها الشافية إلى مكانها الحقيقي

التجسد والنبوة:

١- في ذكرى تجسُّدك يا ابن الله تعبر أمامي قرون التاريخ القديم. أنظر إليها فأجد أن ذلك الحدث الفريد -الذي وقع في قرية لم يسمع عنها أحد إلَّا في نبوة قديمة[١]- لا زال حدثاً جديداً يدق أبواب الثقافات كلها ... والجديد فيه هو أن الله اتخذ إلى الأبد مكاناً له في حياة البشر وتاريخهم، بتجسده من القديسة مريم، هذه التي لم نقرأ عنها في كتب عظماء المؤرخين، بل في نبوات الأنبياء.

٢- والنبوة ليست قدرة عقلية تنطق بما هو آت، بل هي إلهام إلهي يفتح آفاق الحياة والفكر على ما سيأتي وعلى ما هو حق. النبوةُ جديدةٌ؛ لأنها من الله الذي لا "قديم" فيه. والنبوةُ نافذةٌ على ما يعجز الإدراك عن أن يستوعبه، هكذا سبقت النبوة تجسُّد ابن الله، لا لكي ترتب الأحداث، ولا لكي تُعلن عنه ... هذه أمور بسيطة إذا ما قورنت بالحدث نفسه، حدث دخول الله في صميم وجوهر الحياة الإنسانية ليبقى فيها إلى الأبد، الإله المتجسِّد دائماً والآتي بتجسده دائماً إلى كل إنسان، طالما يوجد إنسان في هذا الكون. ولكن النبوة تسبق التجسُّد؛

(١) "وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ" (مت ٢: ٦).

لأن التجسُّــد هو قلب النبوة وجوهرها، هو ما لا يخطر على قلب إنســان، هو ما يفوق كل توقع ويتخطى أحلام البشر.

٣- قبل ميلادك بالجســد يا ابن الله كان الله والإنســان على طرفي نقيض، تفصل بينهما هوة الخالق والمخلوق: اللاهوت والإنسانية. كانا كلاهما بلا وسيط يقدر على الجمع بينهما. هنا انبرت الثقافة لملء هذه الهوة بالشــرائع والأنظمة. هذه الشرائع وتلك الأنظمة أصبحت مرآةً يرى فيها الإنسان نفسه، لا مرآةً يرى فيها الله. وهكذا غذَّت هذه الشــرائع المعارك الفقهية، وخلقت المدارس القانونية التي عكســت صــراع الإنســان مع أخيه الإنســان، وولَّدت شــهوة القوة والبطش والاســتبداد والقهر، بل والقتل، ليس فقط في مدارس القانون، بل في كل ثقافات البشر وعبر كل العصور. وهكذا جاءت هذه الأنظمة لا لكي تسد الهوة بين الله والإنسان، بل لكي تخلق مئات الفجوات بين البشر، بل وتشتت الجماعات؛ لأنها خلقت -باسم الشريعة أو القانون- سيادةً للإنسان على أخيه الإنسان.

٤- لقد فشلت الشرائع؛ لأنها خلقت الأنظمة، التي صار بعضها بمثابة قيودٍ حديديةٍ وســجونٍ لأهم ما يملكه الإنســـان، وهو الفكر. ولذلك، لا عجب أنْ أطلقت هذه الأنظمة بذار التمرد والثورة من كوامنها؛ لأن الحرية القابعة في الوجدان لا يمكن أن تنام طويلاً. لذلك سوف يظل صراع القانون مع الحرية ومع التجديد ما ظل بشرٌ على الأرض.

٥- والنبوةُ لم تكن شريعةً، بل كانت شرارةُ التجديد، شرارةٌ يلقي بها الروح الإلهي في قلوب البشــر حتى ما يرفع هؤلاء عيونهم إلى ما هو أعظم وأعلا، وإلى ما لا يمكن لشرائع أن تنطق به.

٦- ليس عبثاً أنْ ضَــمَّ العهد القديم ثلاث طبقات متماســكة: النبوة، والتاريخ، والشــريعة. في داخل هذه الطبقات الثلاثة وُلدت العبادة ... المزامير والأناشــيد وطقوس الذبائح ... الخ. ولكن ظلت النبوة ترنو الى آفاق أعظم من التاريخ والطقوس. هي لم ترفض الشريعة، ولكنها كانت تسبق الشريعة معلنةً فجر

الحرية: العهد الجديد الذي سوف يكتبه الله على قلوب البشر لا على ألواح الحجر، وانسكاب معرفة أعظم من تلك التي عُرفت في غابر العصور، هكذا نطق النبي أرميا[1] الذي قضى أحلك أيامه في بئر مظلمة؛ لأن سلطة الملك أرادت أن تبطش به.

وهكذا أيضاً بعد مجيء ابن الله إلينا بالجسد، لخَّص رجلٌ مات شهيداً تحت حجارة الغيظ والانتقام، مراحل تطور الوعي الإنساني بدايةً من سكنى الله في هيكل من الحجر إلى سكناه الدائم الأبدي في قلوب البشر (خطاب اسطفانوس في سفر الأعمال ص ٧).

أليست هذه مفارقة غريبة تدفعنا إلى التساؤل عن علاقة المصير الأليم للأنبياء بما تجيء به النبوة من دعوة سامية لا مجال ولا مكان لها في التاريخ القديم ولا حتى في الشرائع؟

٧- وهكذا لم يقبل الأنبياء أن يكونوا مشرعين وواضعي قوانين. هكذا عاش اشعياء وحزقيال وارميا وغيرهم. اختاروا فقط أن يبشروا بما هو حق وآتٍ، اختاروا أن يلمسوا جمرة الشوق إلى الله، فيخبرون بأن ما سوف يأتي هو أعظم ... فيما تذبح الشريعةُ بعضهم مثل المعمدان، ويوضع أشعياء - حسب التقليد القديم - في داخل جذع شجرة لكي ينشر بمنشار السلطان.

٨- هكذا حمل المسيح يسوع لقب "النبي" لا لأنه جاء بشريعة وقوانين وفرائض، بل لأنه جاء لكي يكمل ما سبق وأخبر به أشعياء النبي: "روح الرب عليَّ لأنه أرسلني لكي أبشر المساكين، لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للأسرى بالحرية وللعمي بالبصر وأرسل المستعبَدين (المنسحقين) إلى الحرية وأبشر بسنة اليوبيل (سنة الرب المقبولة) التي كانت الديون فيها تُلغى والعبيد يصبحون أحراراً" (راجع لوقا ٤: ١٧ - ١٨).

---

(١) "هَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ وَأَقْطَعُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْداً جَدِيداً" (أرميا ٣١: ٣١).

وعندما جلس على الجبل ليعطي دستور الحياة الآتية، ألغى قانون الانتقام "عين بعين" بدستور المحبة ومقاومة الشر بالخير ومحبة الأعداء. لم يكن هذا تشريعاً جديداً، بل كان إطلاق شرارة المحبة والحرية وكسر القيود.

٩- يمر على نداء العظة على الجبل اليوم عشرون قرناً من الزمان، ومع ذلك لا يزال الأقوياء — وقد فهموا أن الشريعة القديمة باقية — يقولون إنك جئت لا لكي تنقض، بل لكي تُكمِّل (مت ٥: ١٧)، فقد خافوا من الكلمة "أُكمِّل"؛ لأن الكمال ليس في تحريم الزنا بالجسد، بل في إدانة "زنى القلب" (مت ٥: ٢٨). والحقدُ ليس في الضرب والقتل، بل في قلب الإنسان المريض الذي لا تملك الشريعة إليه طريقاً. لم "ينقض" لأنه لم يأت بالنقيض، بل جاء بما يصنع الكمال، وينقل الإنسانية المعذبة بالكراهية وشهوة الانتقام إلى رحاب المحبة.

التجسد دعوة للوحدة:

١٠- الانفصال والتقسيم وخلق الحواجز والموانع سهلٌ وميسور ... انفصال المجتمع وتقسيمه لا يحتاج إلى طاغية يفرضه، بل إلى طاغية يحركه.

التقسيم خُلِقَ من أجل تناسق الأنظمة لكي تعمل معاً في انسجام، ولكن سرعان ما ينقلب التقسيم لكي يصبح أداةً سهلةً في يد الذين يسعون إلى السيطرة واستعباد الناس.

قد تكون الحواجز ضرورة لمنع بعض الشرور، ولكنها تعجز عن قلع بذرة العنف والتطاول على الآخرين. قد تكون الموانع مطلوبة لحجز المياه وإعطاء الحياة فرصة النمو، ولكن هذه تختلف عن تلك الموانع العقلية التي يخلقها الخوف، ويضعها البعض أمام غيرهم من البشر حباً في التسلط وامتلاك حرية الاختيار لديهم.

١١- لكنك جئت -يا ابن الله- باتحاد اللاهوت بإنسانيتنا، ونقول "بإنسانيتنا"؛ لأن كلمة "الناسوت" لم تعد صالحة في زمانٍ نزع فيه محبو الانفصال والتقسيم وخالقو الحواجز والموانع، كلمة "الناسوت" من أصلها التاريخي الحي، وهو "الإنسان". لقد أصبحت كلمة "الناسوت" كلمة مجردة abstract تلقي في الوعي فكرة مجردة، لكن كلمة "الإنسان" هي الحقيقة المعاشة. وحتى كلمة "اللاهوت"، فقدت جمالها بسبب سوء الاستعمال. وأصبح من الضروري أن نقول "الله" بكل ما في هذه الكلمة من إشراقات وجمال. لقد تحولت كلمة "اللاهوت" أيضاً إلى بؤرة "التجريد" abstraction خوفاً من دخول الله دنيا وعالم وحياة الإنسان.

١٢- لكن وميض برق "بيت لحم" لا زال يشع رغم تراكمات النظريات وفلول الحياة القديمة، فقد اتحد الله بالإنسان. لكن قافلة التاريخ تمضي ليركب أريوس "جمل" الانفصال: إن المولود ليس هو الله، بل "إلهاً مخلوقاً" مثل "آلهة الإلياذة" وغيرها من أساطير اليونان.

وها هو نسطور يلحق بالقافلة ليركب "حمار" التهكم على تجسُّد ابن الله: لقد تجسَّد، ولكن الإنسانيةَ فيه لم تنل شيئاً.

وينضم للركب آخرٌ ضاق بحياته الإنسانية، فبعد سنوات النسك والزهد، رذل الجسد تماماً، إذ لم ينل الجسد تحلياً أو تجديداً، ولذلك عندما رأى -أوطاخي- الله المتجسِّد، وكان متعباً من جسده ويريد أن يتخلص منه، ألقى بهذا الجسد الصغير في بحر الألوهة مثل نقطة "عسل في محيط من الماء".

هكذا أيضاً عثر أبوليناريوس، فقد أدرك بفطنة ويقظة أن الشرَّ كامنٌ في العقل والإرادة، وأن الإله المتجسِّد لا يمكن أن يكون إنساناً كاملاً؛ لأن العقلَ، ذلك الينبوع المتدفق، لا يخلو من الشرور، وبما أن الكلمة هو القوة العاقلة، فهو بالتالي لا يحتاج إلى عقلٍ أو إلى نفس إنسانية.

١٣- تلك هي تراكمات الحضـــارة، وميراث ثقافات البشـــر في كل مكان وزمان.

هل يُعقل أن يتجسد الله؟ وأيُ عقلٍ يمكن أن نزن به التجسد؟!!

قبل أن نســأل الســؤال علينا أن نفتش عن طريقة البحث. وعندما نســأل السـؤال، علينا أن نقف ونفتش عن المرجعية، ومن الذي يمكنه -بكل صـدق- أن يجيب عليه.

عقل أريوس مشغولٌ بتعالي الله. وعقل نسـطور وأوطاخي يجد في الجسـد عيباً لا يليق. ميزان أريوس هو القوة التي لا يمكن أن تتواضـع. وميزان نسـطور هو العزة التي تترفع. وخوف أوطاخي من الجسـد، هو بدوره عودةٌ إلى الإله الذي لا يريد أن يدخل دنيا الإنســـان وحياته. وأمَّا عثرة أبوليناريوس فهي تعني عدم كمال خلاص الإنسان، فما لم يتخذه الابن لم ينل الشفاء.

١٤- وبـالرغم من الجهـد المبذول، مـا تزال الحواجز والموانع قـائمـة، ومـا يزال الانفصـال والتقسـيم يسـيطر على حياتنا الفكرية. لا زال محبو الانفصـال يطاردون الجسـد الإنساني باسـم التوراة، حيث يغلقون باب الحرية الروحية باسـم الطهارة. لا زال ســادة التقســيم يقولون إن الاتحاد بالمســيح مســتحيل، وإن روح المســيح لا يسـكن فينا. كأن سـكنى الله في الإنسـان أو تجسُّده كانت قاصرة عليه هو وحده، هكذا يحاولون إفسـاد الحدث الأكبر، فيخلقون "سـدنةً" وطقوسـاً وشـرائعَ تحجب المتجسِّــد بعيداً تماماً عن غاية تجســده، وهي أن يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يوحنا ١١: ٥٢).

ولا يكتفون،

فعندما سـلَّم المتجسِّـد حياته في وليمة الفرح الأبدي "الإفخارسـتيا"، أطلت الموانع والحواجز باســـم التاريخ: لا يمكن لمن يجلس في العلية أن يعطي جســـده. وهكذا وجد الكلمة خالق كل الأشياء نفسه مثل البشر الذي خلقهم، عاجزاً أمام أبعاد الزمان والمكان.

فيما بعد، سجنوا المسيح في جدل عقيم: ما هو نوع ذلك الجسد والدم؟ وكيف وكيف ..إلخ

وكأنه لابد من إقامة كل الموانع العقلية لكي لا تصل حياة المتجسِّد إلينا. وتحولت الكلمات، بل وحتى المصطلحات نفسها، إلى "ستارة" أو "قناع" يخفي المأرب الحقيقي: لا اتحاد بين المسيح والبشر. هو في مكانه في السماء، ونحن هنا على الأرض، وعلينا أن نمارس ما نريد ولكن باسمه؛ حتى نعطي شرعية لكل ممارسة، حتى تلك التي تهدم الوحدة السرية، بل وحتى تلك التي تطلق الأسرى من سجن شرائع وطقوس موسى، فتبقى الحواجز والموانع، ونخلق طبقةً من الوسطاء بين المسيح نفسه وبين البشر، لقد انتهى التجسُّد، ولم يعُد ابن الله آتياً لكل إنسان، فلا يجوز الاقتراب منه أو حتى النطق باسمه قبل الحصول على تصريح وفرمان.

١٥- لكن المتجسِّد يضحك شفقةً بهم، لقد جاء إلى الإنسان العطشان إلى الحرية، وجاء ليكون لنا حياة أفضل (يوحنا ١٠: ١٠)، والحياة مثل نهرٍ هي، يتدفق في صمتٍ، يعبر كل السدود، بل يجرفها.

المسيح خالق الحياة، والذي هو الحياة لا يمكن أن يترك الحياة تحت رحمة المستعبَدين للقوة، وعابدي السلطان والباحثين عن السيطرة.

المتجسِّد لا يطفئ جذوة محبة الإنسان رغم ضعفها، فهي تلك "القصبة المرضوضة والفتيلة المدخنة" (مت ١٢: ٢٠) التي تشتعل عندما يعبر عليها روح الرب، وينفخ فيها المسيح فيؤججها.

ليس عبثاً أن تقرأ الكنيسة رسائل مضطهد الكنيسة قبل الإنجيل، شهادةً على أن بشارة الحياة تقيم الموتى وتحرر الأسرى، فقد بدد الرب دخان شاول الطرسوسي عندما أشعل فتيلته.

التجسد وذهنية الموت:

١٦- تُسمَّى "المقابر" في بعض بلاد الغرب "أرض السكوت"، وهو الاسم العبراني القديم "شيئول"، أي الحفرة، أو الهاوية. أرض السكوت هي نفسها أرض الموت. وللموت ذهنية خاصة قوامها: النهاية – انعدام الحركة – الأكفان – ثم القبر نفسه.

١٧- لم يدخل المتجسِّد مقبرة التاريخ، ليس فقط لأنه قام في اليوم الثالث، ولكن –بالإضافة إلى ذلك– لأنه قام متجسِّداً وظلَّ متجسداً بعد قيامته.

ولم يبقَ المتجسِّد في "أرض السكوت"، بل هو دائماً ما يعبر إلى الوعي والقلب في كل يوم. فتراه يتحرك في التاريخ نفسه، يأتي يوماً بالقاتل موسى الأسود، ويوماً بالمتعلم أوغسطينوس، يجتذب الجندي باخوميوس، والفلاح أنطونيوس، والمجاهد أثناسيوس، والفيلسوف أوريجينوس، وينقل –بواسطة هؤلاء– قبساً من نوره إلى البشر.

١٨- لكن ذهنية الموت تأبى إلَّا أن تجعل من يسوع حدثاً انتهى منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة. لكن ما يجب أن نلاحظه هو اغتراب ذهنية الموت عن المحبة.

عندما قارن سليمان الحكيم بين المحبة والموت، قال إن المحبة قوية كالموت. كان يرى ثمرة المحبة ويقارنها بثمرة الموت. الموت يثمر الفناء وانعدام الحركة، وبقاء بقايا الإنسان في الأكفان، ولا يقوى أحد على مقاومة ذلك. هكذا بقى هتلر وستالين، وهم أقرب طغاة الأرض إلى زماننا في أكفانهم وقبورهم، وأسدل التاريخ عليهم ستاراً من الصمت. أمَّا المحبة فهي خالقة، حتى على مستوى البشر؛ لأن بقاء النوع البشري لا يمكن فهمه بدون المحبة. والمحبةُ إلهام لأنها تبني ولا تدمر. والمحبة عندما تشرب من ينبوع المحبة، الروح القدس (رو ٥: ٥)، تصبح أقوى من الصمت وتجرف كل مقومات ذهنية الموت.

١٩- يسوع المسيح هو الإله المتجسِّد الآتي دائماً، والدليل على ذلك ليس فقط في العشاء الرباني السري وليمة المحبة والحياة، بل في بقاء الإنسانية التي اتحد بها.

التجسد والحلول المتبادل في الثالوث Perichoresis

٢٠- صحيح أن التجسُّد، أي الاتحاد بالإنسانية (الناسوت) قاصرٌ على الابن له المجد، لكن مدارس الانفصال والتقسيم تفشل في إدراك إعلان يسوع المسيح نفسه: "أنا في الآب والآب فيَّ" (يوحنا ١٠: ٣٨)، لذلك يجب أن تبقى هذه المدارس بعيداً، لأن يسوع المسيح الإله المتجسد قد جاء لكي يوحدنا بالثالوث من خلال أقنومه المتجسد.

لقد رفع كل حواجز وموانع الاتحاد: الخطية – الموت – الدينونة.

وفتح باب الاتحاد من خلال تجسُّده، لأن جسده أو إنسانيته هي التي عَبَرت هذه الحواجز.

فقد عَبَرت إنسانيته الخطية والموت بالحياة الكاملة التي سُلِّمت للآب.

وعَبَرت إنسانيته الدينونة لأنها رفعت حكم الموت بالصليب (كول ٢: ١٤).

لقد عَبَر الرب كل هذا لأجلنا؛ لكي ينقلنا من الموت إلى الحياة، من الدينونة إلى المجد الأبدي.

٢١- لكن خلف حركة المحبة هذه، نرى حركة محبة الثالوث، تلك التي لا يمكن أن يستوعبها إنسان الموت أو تحللها ذهنية الموت. فقد دخل الناسوت، أو الإنسان يسوع المسيح -الذي ليس له وجود منفصل عن أقنوم الابن، بل إن وجوده الإنساني "متأقنم" في الابن- دخل مجال عمق جوهر اللاهوت حيث يحل الآب في الابن وفي الروح، لكي يحل الابن في الآب وفي الروح، ولكي يحل الروح في الآب وفي الابن. حركةُ المحبة هذه، هي سكنى وحلول كل أقنوم في الآخر.

٢٢- عندما حلَّ أقنوم الكلمة في أحشاء البتول، كان إخلاء الابن لذاته (فيلبي ٢: ٦) هو أيضاً حركة إخلاء الذات للآب والروح القدس. لقد أرسل الآبُ الابنَ لكي يعلنه، فأخلى ذاته وترك الإعلان للابن، وأرسل الابنُ الروحَ القدس لكي يعلنه، فأخلى ذاته وترك الإعلان للروح. وأخلى الروح القدس ذاته وترك الإعلان للكنيسة.

٢٣- كانت البداية في الأزل، والأزل هو ما هو فوق إدراك الإنسان، ولذلك جاء التجسُّد لكي يفتح التاريخ والفكر على ذلك الأفق المستحيل على الإنسان. لقد انعكس تدبير الأزل على الزمان بتجسُّد الكلمة؛ لأن الكلمة أخلى ذاته و"حشر" نفسه في "حدود" الطبيعة الإنسانية لكي يجعل الإنسانية -في حركة عودتها إلى الحياة الإلهية- حرةً من قيود الجهل بتدبير الأزل. وفي بيت لحم دخلت الإنسانية، في يسوع، بحر اللاهوت لا لكي تذوب فيه حسب عدو الجسد والإنسانية الذي يمثله أوطاخي، بل لكي تصل إلى غاية خلقها، وهي الشبع من المحبة الإلهية التي خلقت الإنسانية حسب صورة الله (تكوين ١: ٢٦).

٢٤- وتنمو الإنسانية ليس فكرياً فقط، بل وروحياً أيضاً في قوامها الإنساني من قامة طفل إلى قامة رجل كامل، ومن استيعاب قوانين الحياة الإنسانية إلى الدخول إلى قلب الحياة الإلهية بقوة وإرادة واتحاد اللاهوت بالناسوت. بهذا وحده لم يعُد الإنسان غريباً عن الله.

٢٥- بالميلاد من البتول تعبر الإنسانية -في يسوع- من أصلها الأول آدم إلى أصلها الجديد يسوع. في يسوع نُقلت الإنسانية من الوجود الآدمي إلى الوجود الإنساني / الإلهي لكي يبقى الإنسان كاملاً في محبته لله، ولكي تنسكب هذه المحبة الأزلية في قلب كل إنسان يعيش تحت وطأة الزمان وحدود التاريخ.

٢٦- إن العقل لَيعجز واللسان لَيتحجر، فلا توجد لدينا كلمات يمكننا أن نعبِّر بها عن إدراك يسوع لحركة المحبة في الآب وفي الروح وهو يرى ويريد ويسمع ويحب ويختار في كل لحظة أن يبقى في هذه الحركة، في الحلول المتبادل، وأن يظل

إنساناً مثلنا في كل شيء "بلا خطية".

لذا كان الصمت ضرورياً. فلا توجد كلمات أو مصطلحات قادرة على أن تعبِّر عن ذلك الوعي الذي ينمو "قليلاً قليلاً" مثل باقي البشر (صلاة القسمة). وعندما قال الرسول: "وُجِدَ في الهيئة كإنسان" (فيلبي ٢: ٦) وإنه "وُلِدَ من امرأة" (غلا ٤: ٤) فقد كان يؤكد ذلك النمو (راجع لوقا ٢: ٥٢). لكن ذلك النمو لا يمكن لنا أن ندركه لأنه نمو مَن هو "في حضن الآب" (يوحنا ١: ١٨)، لم يكن بعيداً عن الآب، فهو دائماً في الآب قبل وبعد تجسُّده.

٢٧- مُسِحَ يسوع بروح الآب لكي يصير "المسيح"، ليس عن احتياج، بل لأنه جاء "لأجلنا نحن البشر". والمتجسِّد يأخذ الروح لأجلنا لكي يمسح بذات الروح كل مَن يؤمن به. ثم يأخذ الممسوح أو المسيح، الروح كإنسان لكي يعبر بقوة الروح (لوقا ٤: ١٤) حركة الحلول المتبادل لكي يدخل الناسوت أو الإنسان ذلك الحلول بقوة ومسحة الروح القدس لكي يحفظ للإنسانية، أي لنا نحن البشر، البقاء الأبدي بذات قوة الروح القدس كشركاء له في نوال هذه الشركة؛ لكي نتحرك به، أي بيسوع وبقوة ومسحة الروح القدس في حركة المحبة الإلهية إلى الأبد.

٢٨- إذا عبرنا من التعليم والمعجزات إلى الجلجثة، بل وإلى ما قبل الجلجثة، إلى عطاء الحرية في العلية. نجد أن المتجسِّد قدَّم قربان أو ذبيحة حريتنا في علية صهيون للخاصة من التلاميذ، وعلى الصليب علناً أمام البشرية، تقديم واحد تحركه الإرادة الأزلية.

كان يوحنا يتكئ على صدر يسوع، ولكن يسوع كان في حضن الآب "الكائن في حضنه الأبوي كل حين" (صلاة قسمة صوم الميلاد). وصُلب وهو في حضن الآب، ولذلك صرخ بلسان كل البشر متعجباً أمام جمال وعزة محبة الآب: لماذا تتركني؟ إنه الآن يرى ما سبق أن رآه بعينيه الإنسانية منذ أن بدأ يرى، تلك المحبة النارية الهائلة السامية ذات الجمال الخاص، ولكن هنا على الصليب رأى هذه المحبة يكتنفها ظلام الهاوية أي الموت، لذلك يصرخ: لا تتركني، أو "لماذا تتركني"؟

هذه الكلمات وإن كانت كلمات داود في مطلع مزمور (٢٢: ١) إلَّا أنها صارت كلمات ابن داود.

غير أن شركة ووحدة جوهر الثالوث لا يمكن أن تنقسم، ولا توجد قوة قادرة على أن تفصل الآب عن الابن، أو الابن عن الروح القدس، لكن "مسيح الرب" ينزل إلى "حفرة الموت" الغريبة تماماً على الحياة الإلهية لكي "يسبي الهاوية". لم يعُد للموت سلطاناً، ولا يستطيع الموت أن يحفظ القوي الحي تحت مخاض الانفصال والوجع القديم (أع ٢: ٢٤) الذي عرفه آدم الأول. لقد جاء لكي يمحو كل ذلك، ولكي يبيده في داخل الحياة الإلهية نفسها؛ لكي تصل حركة المحبة والحلول المتبادل فيه حتى إلى ظلام الهاوية ذاته ويضيء الرب بنور قيامته على الموتى (أفسس ٥: ١٤) ويطل الآب والروح القدس على الهاوية ليس من بعيد – حسب البعد الإلهي لجوهر الحياة، بل من قريب في ذاك الذي نزل إلى الحفرة مختاراً لكي يدوس الموت.

الأبعاد الحقيقية لتجسُّد ابن الله

٢٩- دخل الكلمة الخالق التاريخَ من باب الضعف، فأظهر ضعف القوة. لقد تأمل شعراء المسيحية في ولادة الابن في مزود مع الحيوانات، وأدرك هؤلاء حقيقة عمل الله. فقد صار طفلاً رضيعاً ونما وصار رجلاً يافعاً جمع كل حلقات الحياة الإنسانية ما عدا "الشيخوخة"؛ لأنه "بكر الخليقة" الجديدة.

بالضعف قهر المسيح الأنظمة كلها؛ لأنه أعطى الإنسان أن يرى كيف تعجز القوة عن أن تدخل قلوب الناس، فعندما جرد ذاته حتى من جيش الملائكة (مت ٢٦: ٥٣)، وقف أمام الإنسانية مؤكداً أن الضعف أقوى؛ لأنه يخلو من الإرغام بل ويسلك طريق التودد.

جعل من الفقر طريقاً للتحرر من سلطان المقتنيات، فاكتشف النساك تلك الحقيقة الغائبة عن وعي الإنسان: إننا "نُمتلك بما نملك".

وعندما غرس الصليبَ "رايةً للغفران"، صار الصليبُ علامة البذل غير المشروط والمحبة التي لا تفرض نفسها.

٣٠- عندما قبل طبعنا الإنساني، أعلن لنا أنه ليس محباً للبشر بالكلام وحده، بل بالعمل، أي بالبقاء إنساناً إلى الأبد.

٣١- ردَّ المسيحُ المحبةَ إلى مكانها الحقيقي: محبة "الضد"، أي الإنسان، محبة "الأعداء"، "محبة البذل"، محبة "بلا حقوق"، محبة "بلا تمييز"، محبة لا تقيس العطاء بالمكانة أو المقام، محبة هي ينبوع النعمة لمن لا يستحق.

٣٢- لقد سقط عرش الكبرياء عندما تجسَّد، وعندما سجد أمام تلاميذه عند غسل أرجلهم. لقد سجد الخالق كعبد أمام العبيد، فخلع جذور الكبرياء المتأصلة في قلوب البشر، وصدم الإنسانية بهذا الفعل حتى "تفيق" من نوم الكبرياء القاتل.

٣٣- هكذا قلب الربُ الموازين والقيم، فلا دخول للملكوت إلَّا لمن يرجع ويصير "طفلاً"؛ لأن الأطفال -قبل عصر السمعيات والبصريات- لم يكن لديهم أحلام القوة، ولكننا أفسدنا إدراكهم بما يشاهدون على شاشات التلفاز والسينما. وهكذا أصبح "الطفل" الضعيف الذي لا زال يعتمد على غيره اعتماداً تاماً هو نموذج الحياة الجديدة لمن يصير طفلاً للآب السماوي.

٣٤- عندما رسم المسيحُ أيقونة الحياة الجديدة في العظة على الجبل، عاش هو كل ملامح هذه الأيقونة: التواضع – الرحمة – السلام – محبة الأعداء، وجعل هذه الملامح شرط التلمذة.

فيا من صرت إنساناً لأجلنا، لقد حاولت أن أجعل من عدد سنوات عمرك الإنساني على الأرض عبارات وكلمات، ولكن حقيقة استعلان محبتك تفوق كل ما يمكن أن يُقال.

لقد صار تجسدك أساس طقوسنا الكنيسة؛ لأننا بأيدينا نرشم أنفسنا بعلامة

عهدك، الصــليب المقدس. وصــارت طقوســنا عودة إلى ذلك الإســتعلان، ليس كفرائض بل رموز حياة لحقيقة حاضرة.

خلِّصــــنا يا ابن الله من ذهنية الموت تلك التي تحاول أن تغلق باب الحياة، وتســجنك في دفاتر الكتب وصــراعات الفكر، وتحجبك خلف شــهوات القوة والتســلط. لكن وجهك الإلهي المتأنس ســيظل يطل علينا حتى من خلف أنياب الذين يريدون أن يفترسوا ما تبقى لنا من حرية؛ لأنك أنت الذي سحقت أسنان الأشرار. فمهما حاول الذين أقاموا من أنفسهم وسطاء لكي يخلعوك من مكانك، فإنهم لن يقدروا أن ينالوا منك.

نقابلك في وجوه كل البشــــر، حتى الذين –عن جهلٍ– يحاربون الإنجيل من داخل الكنائس. فأنت لا تزال تحب هؤلاء، وتدعونا إلى أن نحب أولئك الذين يظنون أننا ضعفاء بالمحبة؛ لأن الصليب حليةٌ على صدورهم.

تجسُّد الكلمة؛

رسالة إلهية إنسانية للكون المضطرب[١]

الكلمة – اللوغوس، الأزلي الذي وضـــع في كل كائنٍ حي أو مادي "نعمة"، أو "ختم" صـــلاحه، قاد الكل: الأفلاك التي نراها، وتلك التي لا نراها، المنظورات بكل أنواعها وأحجامها، وتنوع واختلاف حياتها، اتحد بالطبيعة الإنســانية "سـكن بيننا"، أو "حل فينا" (يو ١: ١٤).

هذا الاتحاد والســـكنى هو رســـالة لم تكتب على ورق، ولم تكن يوماً خطاباً دينياً. حقاً كتب عنه الذين "لمســوه بأيديهم"، وسمعوه واشـــتركوا بكل حواســـهم: النظر والسمع واللمس والتذوق ... فقد عاش معهم: سمعوه – نظروه – لمسوه – تذوقوا طعام الخلود في العلية – أحبوه – أطاعوه – عثروا فيه – تركوه – خانوه، بل خانه اثنين منهم على وجه التحديد، انتحر أحدهم والآخر عاد إليه، فرسموا بذلك ملامح العلاقة التاريخية لما ستكون عليه علاقة الكلمة المتجسد بكل الذين يأتون إليه ...

الله الخالق لا يعلن عن ذاته في كتب. وحتى العهد القديم ليس كتاباً. خدعتنا النســخة المطبوعة في مجلد واحد ضـمت التوراة – الأسـفار التاريخية – الأنبياء – كتب الحكمـة، في حين أنها - كلهـا معاً - أنوار متعددة وعلامات على طريق الإعلان الأخير: مجيء الكلمة إلينا.

نحن أسرى الكتب، وأسرى المعرفة المطبوعة والمسموعة ... نظن أن التقدم هو بالمعرفة وحدها، أو بتطور اللغة، أو بكثرة الأبحاث ... أبداً. الإنســـان يســـبق كل الكتب، بل حتى الوجود – كما يقول أثناســـيوس العظيم – ســـبق الكلمات،

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٠.

فالحياة تسبق كل تعريف (ضد الأريوسيين ٢: ٢).

هل خلقت الكتبُ العقل؟

صحيح أن الدراسات طورت الفكر فعلاً، نقلت الإنسان من الكهف إلى الأبراج السكنية العالية، ومن الجمل إلى السيارة والطائرة، وأصبحت الشوارع العريضة تعج بمئات السيارات، وانتقلت الزهور بالطائرات من بلاد ذات طقس ربيعي إلى بلاد تنام تحت الثلوج، وها هو ذا التليفون المحمول يرافقنا في كل انتقالاتنا أينما ذهبنا ...

لكن،

هل انعدمت الجرائم؟

هل نمت المحبة؟

هل تحسنت العلاقات بين الشعوب، أو حتى بين أفراد الشعب الواحد؟

صحيح أن الحضارة المادية نمت، وتوسع العمران المدني، ولكن:

هل نمت الثقة بين الناس؟

هل نضجت العلاقات فأصبح الحوار بديلاً عن السلاح؟

هل استطاعت الشعوب المظلومة أن تجد من يسمع لها في أكبر المحافل الدولية، رغم تقدم كل وسائل الاتصالات؟

إن التقدم المادي والعمراني، وكل ما هو تحت سيطرة الحواس الخمسة ظاهر. لكن الظاهر أيضاً هو التراجع عن المحبة والألفة. وغابت الشفافية، وانتشر العنف في كل مستويات الحياة.

انفجرت ثورة المعلومات، هذا صحيح، ولكن تطور معها السرقات الأدبية والمادية.

غزا الإنسان الفضاء وسار على القمر، هذا صحيح، لكن الصحيح أيضاً أن ملايين البشر يموتون تحت وطأة الجوع والأمراض ...

هذه الصورة القاتمة لا تحتاج إلى فكر، بل إلى دم الشهادة. ولا تحتاج إلى مقالات، بل إلى حقٍ متجسد، إلى أناجيل تسير على الأقدام، وتحيا حياةً بشريةً بيننا، تحتاج إلى تجسد للمحبة والقداسة والشهادة.

نريد شهادةً للتجسد لا للفكر، فقد صار الفكر سهلاً يباع، بل أصبح من السهل الحصول على مئات من الكتب على خلية من السيليكون، في مقابل ذلك أصبح من الصعب أن نجد من يحيا للحق ويجسد الحق في حياته، فلا يصبح الحق كلمة تقال، بل حياةً متجسدةً.

الشخص والنظريات والأفكار

وضع التجسدُ الإنسان فوق السبت (مت ١٢: ٥)[١]، بل جعله أعظم من هيكل سليمان (مت ١٢: ٤٢)[٢]، وصار الإنسان فوق الناموس أو الشريعة؛ لأن وصية السبت كُسِرَت بدفن الرب في القبر يوم السبت. وعندما رفض الرب نفسه أن يُصدر حكم الرجم على الزانية التي أمسكت وهي تزني، فقد كسر الناموس أيضاً، ولكن لم يكن الهدف هو مجرد كسر الناموس، بل الإعلان عن حقيقة الإنجيل، وهي أن الناموس لا يخلِّص الإنسانية من الدينونة. وقد استوعب الرسول بولس هذه الحقيقة، فجاء يدق بكل قوة أجراس الفرح: لقد جاء التبرير، وإطلاق سراح الخطاة وكل الذين وقعوا تحت أحكام الناموس. جاء المخلص "بر الله نفسه" (رو ٣: ٢١)، فيسوع هو "البر"، والفداء والقداسة (١ كور ١:

(١) "أَوَ مَا قَرَأْتُمْ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ الْكَهَنَةَ فِي السَّبْتِ فِي الْهَيْكَلِ يُدَنِّسُونَ السَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ؟. وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَهُنَا أَعْظَمَ مِنَ الْهَيْكَلِ!. فَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً لَمَا حَكَمْتُمْ عَلَى الأَبْرِيَاءِ!. فَإِنَّ ابْنَ الإنسان هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضاً».

(٢) "مَلِكَةُ التَّيْمَنِ سَتَقُومُ فِي الدِّينِ مَعَ هَذَا الْجِيلِ وَتَدِينُهُ لأَنَّهَا أَتَتْ مِنْ أَقَاصِي الأَرْضِ لِتَسْمَعَ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ وَهُوَذَا أَعْظَمُ مِنْ سُلَيْمَانَ هَهُنَا!".

٣٠)[١]، والقيامة والحياة (يو ١١: ٢٥)[٢]. لقد نقلنا إلى ملكوت ابن محبة الآب (كولوسي ١: ١٣)، ومن الظلمة إلى النور (كولوسي ١: ١٣)، ومن الدينونة إلى الخلاص[٣].

هذا التحول لم يكن نقلةً فكريةً اخترعها العقل البشري، بل واضع الشريعة نفسه تجسد، فقد أرسل الله ابنه في ملء الزمان مولوداً تحت أحكام الشريعة لكي يفدي الذين تحت أحكام الشريعة لكي ننال التبني (راجع غلاطية ٤: ٤). وختم الله ختم التبني بعطية هي أعظم عطايا الله قاطبةً، فقد أعطانا روحه القدوس (غل ٤: ٤ - ٥)[٤]، أعطانا حياته الذاتية أي روحه القدوس، وصرنا بذلك ورثة الله ووارثون مع المسيح (رو ٨: ١٧)[٥].

لقد دخل الكلمة المتجسد حياتنا الإنسانية، ليس كفكرة، ولا كنظرية، ولا كقانون، أو شريعة، بل كشخص حي جاء بالحياة، ووحَّد الحياةَ بجسده الخاص الذي أخذه من العذراء مريم والدة الإله.

يظل شخص الكلمة، أو حسب لغة الكنيسة "الأقنوم" حاضراً معنا ليس بما يقوله من أفكار أو يعلنه من مبادئ أو حتى تعليم، فذلك النوع من الحضور هو حضور في عقل من يفكر ويدرس التعليم، ويلقي خطاباً عن الكلمة المتجسد.

بالطبع لدينا في التاريخ الكنسي من ارتاد ولا زال يرتاد هذا المجال، أي مجال العلاقة العقلية مع الكلمة المتجسد الذي يُدرس في مناهج "الخريستولوجي"، والذي يقدَّم في عظات تنال التصفيق والإعجاب، أو في كتب وأبحاث جيدة مثيرة للجدل أحياناً ... هذه سمة من سمات اللاهوت المسيحي، لا تزال تجمع العديد

(١) "وَمِنْهُ أَنْتُمْ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ الَّذِي صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللهِ وَبِرّاً وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً".
(٢) "قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا".
(٣) "شَاكِرِينَ الآبَ الَّذِي أَهَّلَنَا لِشَرِكَةِ مِيرَاثِ الْقِدِّيسِينَ فِي النُّورِ، الَّذِي أَنْقَذَنَا مِنْ سُلْطَانِ الظُّلْمَةِ وَنَقَلَنَا إِلَى مَلَكُوتِ ابْنِ مَحَبَّتِهِ، الَّذِي لَنَا فِيهِ الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا".
(٤) "ثُمَّ بِمَا أَنَّكُمْ أَبْنَاءٌ، أَرْسَلَ اللهُ رُوحَ ابْنِهِ إِلَى قُلُوبِكُمْ صَارِخاً: «يَا أَبَا الآبُ». إِذاً لَسْتَ بَعْدُ عَبْداً بَلِ ابْناً، وَإِنْ كُنْتَ ابْناً فَوَارِثٌ لِلَّهِ بِالْمَسِيحِ".
(٥) "فَإِنْ كُنَّا أَوْلاَداً فَإِنَّنَا وَرَثَةٌ أَيْضاً وَرَثَةُ اللهِ وَوَارِثُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضاً مَعَهُ".

من رجال أفذاذ ومفكرين عظماء ... هؤلاء نالوا استنارةً عقليةً، فأناروا عقل الإنسانية. هذا الحضور هو انعكاس نور الكلمة المتجسد على صفحات التاريخ والفكر الإنساني. ولكن هذا هو أدنى وأقل درجات الحضور الإلهي للكلمة المتجسد.

فما هو المقصود بالحضور الإلهي للكلمة المتجسد؟

نحن نقصد ما هو أعظم من الحضور الذي تعبِّر عنه الأفكار والكلمات وتصبح معه كل النظريات مجرد إشارات على الطريق الأعظم والأعلى.

إن ما نقصده تحديداً هو استعلان الحضور المتجسد للكلمة.

لقد جاء الكلمة في الجسد لكي يبقى في الجسد متحداً به اتحاداً لا يقبل الانقسام؛ لأن المحبة لا تقبل الانقسام. إن حضور المحبة المتجسد هو حضور شخصي أو أقنومي، يعلو على كل ما يمكن أن يقال من ألفاظ وعبارات؛ لذلك وهب الآبُ الروح القدس "روح المحبة"؛ لكي تصبح المحبة هي أساس العلاقة "الحضورية" مع الحاضر دائماً في الجسد.

المحبة هي قبول ورغبة وسعي متواصل للاتحاد بالآخر. والمحبة لا تقبل بأقل من الاتحاد. وعندما دافع الآباء في القرن الخامس عن الإيمان ضد النسطورية ونادوا بالاتحاد الأقنومي للكلمة المتجسد، لم يكن ذلك مجرد اعتراض على فكر نسطور، رغم ضرورته، بل كان حفاظاً على بقاء ودوام المحبة الحقيقية التي لم تقبل، أو تتحد بفكرة اسمها "الناسوت"، بل قبلت "الإنسان" نفسه واتحدت به. لذا لا يجب أن نفشل في استيعاب تعبير الآباء: جسده الخاص، أو جسده الذاتي Idios – وهي كلمة كلاسيكية معروفة في الآداب اليونانية السابقة على عصر المسيحية وتعني ما خاص، أو ما صار من خصائص شخصية شخص ما – لأن الجسد أصبح من خصائص الكلمة المتجسد Character ولذلك يوصف هذا الجسد في القداسات

القبطية كلها بأنه "الجسد المحيي". فقد نال هذا الجسد الحياة من الكلمة[١].

وبالطبع كان اعتراض اليهود على خطاب الرب في يوحنا (ص ٦) كيف يعطينا جسده؟ وكيف يهب هذا الجسد الحياة؟ هذا الاعتراض صحيح بيولوجياً، وتجديف لاهوتياً؛ لأنه ليس جسدُ بشرٍ مثلنا خاضع للموت، بل هو "جسد الحياة"[٢]. جسد من غلب الموت وذبحه، بل قتل الشيطان نفسه[٣].

وعندما يصبح الجسد من خصائص الكلمة، ويصبح هذا الجسد بالاتحاد جسداً محيياً، فهو هنا يُعيد –الكلمة– تكوين الدورة البيولوجية الإنسانية: الولادة – النمو – الموت، إلى دورة لاهوتية تبدأ بالخلق من جديد محل الولادة البيولوجية، ثم النمو الذي صار صيرورةً صاعدة نحو المسيح نفسه. أمَّا الموت الذي أُبيد بموت الرب، فقد صار بداية حياة جديدة بالقيامة، أو حسب عبارات رسول الرب بولس والعظيم أثناسيوس هو زرعٌ مثل زرع بذور تلقى في الأرض لكي تنمو (١ كور ١٥: ٣٥ – ٣٨ – تجسد الكلمة ٢١: ١ – ٢)[٤].

وهنا يجب علينا أن نتوقف أمام ثلاثة حقائق نحرص على إلَّا ننساها:

أولاً: لا يوجد كائن ذاتي الحياة، له حياة في ذاته، نابعة منه هو وتحت سلطانه. الآب له حياة في ذاته وقد أعطى الابن أن يكون له حياة في ذاته (يو ٥: ٢٦). إنها الولادة الأزلية، وهي حياةٌ لحياة. وحياة الابن في ذاته تعني أنه ليس مخلوقاً، بل هو الإله الابن الوحيد حسب الترجمة القبطية لنص يوحنا.

ثانياً: الكائنات تحيا وتنال الحياة كهبة، فهي لا تملك حياتها ولا تستطيع أن تبقى في الحياة بالإرادة الخاصة بها، فالإرادة المخلوقة هي مثل وجود الكائن نفسه لا تملك "سلطان الحياة"، والموت الطبيعي هو عدم قدرة الطبيعة المخلوقة على البقاء بالإرادة أو بالقدرة.

---

(١) راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي حيث يقول إن الكلمة أحيا الجسد. (١٧: ٢، ١٧: ٦).
(٢) راجع تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس ٢١: ٤ – ٥، ٧.
(٣) راجع تجسد الكلمة ف ٢٧ كله على سبيل المثال.
(٤) "لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «كَيْفَ يُقَامُ الأَمْوَاتُ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَأْتُونَ؟». يَا غَبِيُّ! الَّذِي تَزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ الْبَوَاقِي. وَلَكِنَّ اللهَ يُعْطِيهَا جِسْماً كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ.

ثالثاً: بما أن الوجود والحياة هبة من الله، فهذه الهبة تحدد علاقة معينة مع الواهب، هي علاقة دائمة؛ لأن الإنسان لم يخلق للموت، بل خُلق للحياة. أما الموت فهو دخيل "دخل الموت مع الخطية" (رو ٥: ١٢). الموت فقدانٌ لهبة الحياة، حيث يصبح الوجود الإنساني "مفرغاً" من الحياة، وهو وجود يوصف في المزمور بأنه وجود "أشباح"، أو "خيالات" (مز ٨٨: ١٠)، هو وجود في "الحفرة"، أو الشيئول Sheol في العبرية.

الوجود هو نعمة، وهو حياة حسب نعمة الله، وهي حياة جعلت الله يخلق الإنسان "حسب صورته" (تك ١: ٢٦). وعندما خلق الله الإنسان، أراد الله أن يبقى الإنسان في شركة، ولكن جاء الموت مع الخطية ليهدم هذه الشركة ويقضي على أهم ما يميِّز الوجود والحياة الإنسانية، وهو الحياة "حسب صورة الله".

كان الإنسان هو الذي صنع لنفسه هذه المأساة. وبالرغم من أن الله سبق وأن حذَّر الإنسان من الموت، لكن تحذير المحبة ضاع في خضم الاهتمام المفرط بالذات، وهو طلب الألوهة الذاتية، وليس البقاء في الألوهة كنعمة مصدرها عطية الصورة والمثال.

الدورة الإلهية الإنسانية لتجديد الإنسان[١]

لقد حبلت العذراء بالكلمة، فتجسد. بدأ الكلمة حيث يبدأ الإنسان بيولوجياً، ولكنه لم يأت ليثبِّت بقاء الدورة البيولوجية للإنسان. فالقديس غريغوريوس النزينزي يصف الحبل بالروح القدس بأنه "انحلال ناموس الطبيعة"؛ وذلك لأن الخالق نفسه جاء لكي يضع ناموساً آخر، و"خلقةً" أخرى ليست من العدم، بل تبدأ من داخل ومن خصوصية الطبيعة القديمة، لكن لا لكي تلد الطبيعة القديمة الخاضعة للموت من جديد، فهذا مستحيل. لذلك كان انحلال

(١) أخذت كلمة "دورة" من "دورة الحمل"، ولا زلت أبحث عن أصلها القبطي؛ لأن الأصل اليوناني هو "تقدمة"، وهو الفعل "قدم". و"تقدمة" وردت في السبعينية، كما وردت عدة مرات في تجسد الكلمة. فقد "قدَّم" الكلمة ذاته للآب لكي يقدمه لنا الآب؛ لأنه هو الخبز الحي النازل من عند الآب.

ناموس أو قانون الطبيعة ضـــرورياً لكي يفتح المجال للجديد. هنا يبرز الفرق بين الغنوصية والأرثوذكسية، فالغنوصية تؤكد على "إبادة القديم"، أمَّا الأرثوذكسية فهي تبشر بـ "تجديد القديم".

حدود الطبيعة، أو حدود الخلقة الأولى هي إن العدم هو الأصـل، والموت هو النهاية. أما مجد الخلقة الجديدة، فهو التبني بالروح القدس والميراث الأبدي في مجد الثالوث. لا يوجد مجال للمقارنة بين الخلقة الأولى التي آدم الأول رأســها، والخلقة الجديدة التي رأسها المسيح آدم الأخير.

اختلاط الأسماء

جلب اختلاط الأسماء الكثير من الفوضـــى الروحية والفكرية، فعندما نقول: "السنة الطقسية"، أو "المناسبات الكنسية"، أو حتى "الأعياد الكنسية"، فإن هذه الأسماء تمحو ثلاثة أشياء:

أولاً: تحذف الظهور الإلهي المحيي، ويتحول العيد أو المناسبة إلى إحياء ذكرى لا اســتعلان الرب يســوع في الليتورجية. وعندما نصــف الصــلاة بأنها "عبادة"، تذوب في ثنايا هذه الكلمة عطية "التبني" ولا ينتبه الوعي إلى حقيقة تغيب، بل هي غائبة بالفعل من لاهوت العصــر الوســيط الأوربي والقبطي، وهي أن الصــلاة شركة في حياة المسيح.

ثانياً: حلَّت كلمة "قداس"، وهي ســـريانية الأصـــل محل كلمة "ليتورجية"، فضـاع منا خدمة الرب يسـوع، فهو خادم الأسـرار كلها لأن كل الأسـرار هي منه وتُعطى لنا لكي تعيدنا إلى الشركة.

عندما تختلط الأسماء، يضـــيع الاســـتعلان الإلهي، فالرب يخدمنا نحن؛ لأن خدمة الرب هي اســـتعلان ملكه، فهو "الملك" الذي يخدم، وليس الملك الذي يجلس في انتظار خدمة الرعية. ولذلك لقب ابن الله الصـــحيح في صـــلواتنا هو:

"ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كلنا يسوع المسيح"، وكل اسم من هذه الأسماء له دلالة لاهوتية،

فهو الرب؛ لأنه غلب الموت فصار رباً بالفعل[١].

وهو إلهنا؛ لأن ألوهيته قد أُعلنت في تجسده وبالأعمال التي عملها في الجسد.

وهو ملكنا؛ لأنه اشترانا وصار يملك كل ما في حياتنا ويسود عليها كرب.

ثالثاً: تحولت كلمة "طقس" إلى مجرد "ترتيب". ولكن الترتيب في الأرثوذكسية ليس هو مجرد نظام وُضِعَ من أجل "العبادة"، فالترتيب هو ما يُقدَّم حسب التدبير وما نقبله نحن في ترتيب يهدف إلى الوصول إلى غاية التدبير، وهو قبول النعمة، وحلول الروح القدس، والاتحاد بالمسيح الرب، وعودتنا إلى الشركة في حياة الآب[٢].

وهنا ندرك أن الدورة الإلهية الإنسانية لتجديد الإنسان، أو بتعبير آخر دورة الحياة الجديدة "مستعلنة" في الليتورجيا؛ لأن بداية الحياة الجديدة هي في رحم العذراء، أي تلك الحياة الجديدة التي جاء بها الله الكلمة من عند الآب (١ يو ١: ١ – ٣)[٣]، ونمت في يسوع الذي حملها في أقنومه الإلهي لكي تصوم وتهزم الشيطان في البرية — بعد أن مُسِحَت بالروح القدس – لكي يدخل الروح القدس شريكاً في "تكوين الإنسان الجديد" (أف ٢: ١٥)[٤]، ثم يدخل معقل الموت والقبر ويهزم ويدوس الفساد والدينونة (كولوسي ٢: ١٤)، ونحن الأموات بالذنوب والخطايا أحيانا معه (كولوسي ٢: ١٣)[٥]، لذا تقوم في عدم فساد متوجةٌ بالخلود

(١) "فَلْيَعْلَمْ يَقِيناً جَمِيعُ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللهَ جَعَلَ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمْ رَبّاً وَمَسِيحاً" (أع ٢: ٣٦). راجع أيضاً شرح القديس أثناسيوس الرسولي لهذا النص: ضد الأريوسيين، المقالة الثانية، الفصل الخامس عشر، الطبعة الثالثة الصادرة عن المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، ابريل ٢٠٠٤، ص ٢٩ — ٤١.

(٢) أنا أدرك مدى صعوبة هذه الأمور على القارئ، ولكن عدم طرحها يعني بقاء الضعف الروحي، بل أقول بكل أسف "العمى".

(٣) "فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا".

(٤) "لِكَيْ يَخْلُقَ الاثْنَيْنِ فِي نَفْسِهِ إِنْسَاناً وَاحِداً جَدِيداً، صَانِعاً سَلاَماً".

(٥) "وَإِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فِي الْخَطَايَا وَغَلَفِ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحاً لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا، إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدّاً لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّراً إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ. إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ أَشْهَرَهُمْ جِهَاراً، ظَافِراً بِهِمْ فِيهِ".

وتجلس عن يمين الآب، وهو الارتفاع والمجد الذي وصـــل إليه آدم الجديد والأخير؛ لأنه "أخلى ذاته ... ولذلك رفَّعَهُ الآب وأعطاه اسماً فوق كل اســـمٍ"، وصـــار الاعتراف به رباً هو لمجد الله الآب (فيلبي ٢: ٩)، ونالت الإنسـانية فيه المجد الذي طلبه الرب نفسـه في يو ١٧: ٢٢، فصـار الاعتراف بيسوع رباً هو مجد الإنسـانية الجديدة أيضـاً "وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ" (يو ١٧: ٢٢). وصار الاعتراف بيسوع رباً هو اعتراف بالمجد الذي أخذناه فيه، ذلك المجد الأبدي الذي لا يضمحل.

من هذه الدورة نبعت كل الأســرار، أســرار اتحادنا بالثالوث في الابن بالروح القدس، حيث يتناغم عمل الروح القدس وشـركته في البداية في الميلاد وفي المسـحة معاً حتى يعمل مع الابن شريكاً في خلاص الإنسان[١]. فقد نبعت البداية الجديدة في بيت لحم، وامتدت لتأخذ مسـحة الأردن في المعمودية، وتمم عملها موت الرب المحيي على الصليب بالقيامة.

سجدت اللغة إلى الكلمة المتجسد[٢]

اللغة هي الأداة الإنســانية التي وُهِبَت لآدم وحواء لكي يحقق بها الإنســـان سيادته على الكون، ونموه الروحي نحو الكلمة صـورة الآب؛ لأنه خُلِقَ على صـورة الكلمة.

ولكن التجسـد جاء بلغة جديدة، وهذه اللغة ليسـت مفردات لفظية جديدة، ولكن التجسـد أضـفى على المفردات معاني جديدة، وهكذا صـار "إخلاء الذات، أو وضــع الذات" (فيلبي ٢: ٦) هو لغة المحبة. وصــارت الطاعة حتى الموت هي طاعة المحبة، فلم تعد الطاعة مجرد "طاعة"، ولم يعد "الموت"، هو ذلك العنصـــر الذي دخل مع الخطية إلى العالم (رو ٥: ١٢)، وصــار بالتالي مرادفاً للخطية، بل تحول الموت – "بســبب موت الرب المحيي" – إلى قوة تهدم وتقلع جذر الخطية.

(١) سوف ندرس باقي الأسرار في مناسبة أخرى.
(٢) العبارة نقلاً عن مار إفرام السرياني.

وهكذا لم يعد "حجد الذات" هو ملاشاة الذات حسب النسك الوثني في الهندوكية والبوذية No - Self بل صار خطوةً نحو محبة تقوم على الشركة؛ وبالتالي لم يعد لدينا تمييز لفظي بين "إخلاء الذات"، و"جحد الذات"، لأن الحركة واحدة في المحبة، وهكذا لم يعد لدينا النسك الذي يتم فيه "إعدام الشخص"، بل "خلق جديد للقديم".

هذا هو تطويع اللغة للتجسد، أو "سجود اللغة للكلمة المتجسد"، أي تصبح اللغة تحت قدمي "الكلمة" لكي تأخذ معانٍ جديدة لم تكن معروفة أو غائبة، أو عجزت عن إعلانها الكلمات.

لقد أعاد التجسد تحديد المعاني على أسس جديدة:

أولاً: هناك علاقة بين الكلمة الخالق والخليقة تسبق نطق الإنسان وقدرته على التعبير بما يفهم ويعرف بحيث ينبني هذا التعبير على تلك العلاقة: "أعطيتني علم معرفتك"، أي عطية النطق بالإلهيات ... وهنا – بالذات في الأرثوذكسية – تسبق العلاقة، أي علاقة الشركة التي تعود إلى التدبير الأزلي السابق على خلق العالم (أف ١: ٣ – ١٤)[١] كل المصطلحات اللاهوتية. العلاقة هنا هي التي تحدد المعنى، وهو ما يختلف تماماً مع الفوضى التي أثارتها ثرثرة الأريوسية عن "أبي أعظم مني"، وهي الثرثرة التي ورثها عن الأريوسية شهود يهوه.

إن عظمة الآب هي في إرسالية الابن الوحيد، وعظمة الآب هي في مجيء الابن لكي يعلن محبة الآب ويعطي الروح القدس. وحتى لو أخذنا بقواعد اللغة حيث تستخدم كلمة "أعظم" للمقارنة، فالمقارنة في إعلان المحبة لا تجعل الابن

---

(١) "مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بَارَكَنَا بِكُلِّ بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ. كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ. إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ لِمَدْحِ مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ، الَّذِي فِيهِ لَنَا الْفِدَاءُ، بِدَمِهِ غُفْرَانُ الْخَطَايَا، حَسَبَ غِنَى نِعْمَتِهِ، الَّتِي أَجْزَلَهَا لَنَا بِكُلِّ حِكْمَةٍ وَفِطْنَةٍ. إِذْ عَرَّفَنَا بِسِرِّ مَشِيئَتِهِ، حَسَبَ مَسَرَّتِهِ الَّتِي قَصَدَهَا فِي نَفْسِهِ. لِتَدْبِيرِ مِلْءِ الأَزْمِنَةِ، لِيَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، فِي ذَاكَ الَّذِي فِيهِ أَيْضاً نِلْنَا نَصِيباً، مُعَيَّنِينَ سَابِقاً حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ؛ لِنَكُونَ لِمَدْحِ مَجْدِهِ، نَحْنُ الَّذِينَ قَدْ سَبَقَ رَجَاؤُنَا فِي الْمَسِيحِ، الَّذِي فِيهِ أَيْضاً أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذِي فِيهِ أَيْضاً إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ، الَّذِي هُوَ عَرْبُونُ مِيرَاثِنَا، لِفِدَاءِ الْمُقْتَنَى، لِمَدْحِ مَجْدِهِ".

المتجســـد أقل من الآب، فليس في المحبة الواحدة أقل وأعظم، وإنما عظمة الآب هي في أنه هو غاية استعلان يسوع المسيح الابن. هي في اعتراف الكل بأن يسوع هو ربٌ لمجد الله الآب (فيلبي ٢: ١١)، وهي هنا العظمة التي ســوف ننتهي إليها جميعاً في الدهر الآتي حيث نكون مع الابن في حضـــن الآب (يو ١: ١٨)؛ لأنه جاء وأخبرنا بهذه البشارة الفائقة.

ولو أن أريوس الذي درس الفلسفة اليونانية، أدرك أن صيغة "أفعل التفضيل" في عبارة الرب "أبي أعظم مني" قد تَغيَّر معناها بسـبب التجسـد، لبقي في شـركة الكنيسة. ولأن التجسد جاء، صارت أفعل التفضيل خاصة بتفضيل ما هو أبدي على ما هو زماني، ما هو سمائي على ما هو أرضـي. وعندما "وحَّد" تجسـد رب المجد بين المنظور وغير المنظور، لم يعد غير المنظور أعظم، بل صـار غير المنظور هو الســر الذي يُعلن إلى أن يحين زمان انعتاق الخليقة (رو ٨: ٢١)، عندئذٍ يظهر كاملاً.

وفي تجسـد الابن الوحيد جاء تفضـيل الرب على كل شـيء هو بداية حياة التلمذة التي اخبر بها الرب تلاميذه ورسله القديسين.

ثانياً: إذا كانت العلاقة تسبق الكلمات والألفاظ، والإنسان يسبق كل لفظ، صـار الشـرح الصـحيح الأرثوذكسـي للأسـفار هو الشـرح الذي ينبني على الواقع الجديد، وهو تجسـد الكلمة، تجسـد مَن هو الحياة، فالحياة لا تؤخذ من الألفاظ، ولذلك قال الرب عن تجســـده وإعلان الحياة: "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة"، ليس لأنه يشـير إلى عطية الحياة، بل لأن الإشـارة، أي الكلمة، لم تعد غريبة وخارجة عن الحياة مثل علامات المرور، أو العلامات الجديدة التي نراها في شـبكة المعلومات، وهي تلك الإشـارات والعلامات التي اتفق عليها البشـر، وهذا مطلوب وجيد، لكن اللفظ الجديد نابع من ذات حياة الابن الكلمة الذي نطق بالحياة فقال: "أنا هو القيامة والحياة"، فلا ثنائية بالمرة بين الكلمة الابن، وكلمة الإعلان عن يســـوع؛ لأنها لفظٌ نابعٌ أو آتٍ من حياة الابن الكلمة، **لكن اللفظ**

ليس هو ابن الله ذاته؛ لأن ثنائية المعرفة واختلاط الخير بالشر، وفوضى المعرفة التي حاول اليونانيون منذ أرسطو ولا تزال المحاولات مستمرة في علوم "الألسنة"، وصفها على قواعد المنطق واللغة، هي سبب الفوضى الفكرية والتخبط الذي نراه في كتابات معاصرة تقوم على أساس الفصل.

إن "كلمة الله حية وفعالة" (عب ٤: ١٢)، ليس لأن لها وجود مستقل، بل لأنها مطر الروح القدس الذي ينزل في حياتنا العقلية، ولا يعود فارغاً، بل يقودنا إلى مصدر الحياة، الروح الحي، الأقنوم "الناطق في الأنبياء" بالحياة (راجع أشعياء ٥٥: ١١).

وهكذا يصبح السؤال عن كلمة الله في الكتاب المقدس، وكلمة الآب ربنا يسوع المسيح وما إذا كانا واحداً، هو ثمرة ثنائية معرفة الخير والشر. والجواب هو إن من يتصور وجوداً اسمه "كلمة الله" لا يعرف أن هذا الوجود له ينبوع هو روح الله، وإن فصل "كلمة الله" عن الينبوع هو ما تريده الخطية فينا لكي نتحول من تلاميذ إلى قضاة يحاكمون كلمة الله على أساس المنطق وفلسفة اللغة والدراسات اللغوية التي إذا حاول أحد أن يُخضع لها كلمات الكتاب المقدس، فإن العلاقة الإلهية – الإنسانية التي تسبق الكلمات تهرب منه ولا يجد أمامه إلَّا قواعد اللغة والكلمات، وهكذا يعود إلى ثرثرة الأريوسيين.

<u>ثالثاً</u>: علينا أن نتعلم كيف يسجد الفهم أو الإدراك للكلمة المتجسد؛ لكي تسجد للكلمة المتجسد كل لغات الأرض، وهو ما عُبِّرَ عنه نبوياً بـ "الشعوب والقبائل والألسنة التي تسبح الرب"؛ ولا يعني هذا التسبيح مجرد تنوع اللغات، بل قبول استعلان الثالوث في الابن بالروح القدس.

لكن في الزمان الحاضر، لنقبل ما هو ثابت في تعليم الآباء القديسين، وهو:

١- التدبير صالح، وهو بشارة خلاص لمن يريد الحياة والشركة في الله الثالوث، وهو الذي يجب أن يحكم شرح الأسفار المقدسة برد كل استعلانات التدبير إلى

حياة واحدة للثالوث؛ لأن التجسد والصلب والقيامة لم تهدم أو تلاشي وحدة جوهر أو وحدة حياة الثالوث. وكل ما قاله الرب يجب أن نرده إلى علاقته الأزلية مع الآب رغم إعلانه في الزمان، طالما أنه يعلن التدبير وإعادة الإنسان إلى الشركة.

٢- إن ما يبدو وكأنه "تناقض" في عبارات وردت في الأناجيل الثلاثة – متى – مرقس – لوقا، أو عبارات وردت بشكل مختلف أو ألفاظ مختلفة، يجب أن يُستوعَب في نور العلاقة الجديدة التي جاء بها الرب والتي لم تشيَّد على ألفاظ أو عبارات، بل على شخصه الإلهي المتجسد، وهنا بالتحديد يجب أن نقول إننا لسنا أمام تاريخ مثل أي تاريخ، بل أمام شهادة شهود حياة جديدة خرجت من حياة قديمة كانت تحت الشريعة القديمة (غلا ٤: ٤ – ٥)، ولكنها جاءت بفداء الذين هم تحت الشريعة، وبالتالي لا يجوز لنا أن نأخذ ما جاءت به الحياة لكي نحكم عليه بأية شريعة، لا سيما شريعة الألفاظ، أي علوم "الألسنة"

عندما تجسد الكلمة، سجدت له كل أدوات التعبير: الشعر – اللغة الإنسانية – النثر – الرسم – الموسيقى.

سجدت عند قدمي الكلمة ... لقد جاء التجسد بما هو ليس في الكتب، أي اتحاد الله بالإنسانية. فلم يعد لدى الإنسان مشكلة البحث عن الله، بل صار الله هو الذي يفتش عن الإنسان. وقد عبَّر القداس الغريغوري عن تلك الحقيقة في صلاة طويلة يكاد يكون عنوانها: "من أجلي":

"خلقتني إنساناً لأنك محب للبشر ...

من أجل تعطفاتك الجزيلة كونتني إذ لم أكن ...

الله الذي يفتش عن الإنسان هو لُب هذه الصلاة:

"أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك".

ولاحظ استعلان المحبة الإلهية:

"كنور حقيقي أشرقت للضالين، وغير العارفين".

لقد حاول كل الهراطقة وضع الله ودخوله عالم الإنسان تحت سيطرة قواعد اللغة الإنسانية، ففي عرف هؤلاء: الإنسان هو الذي يفتش عن الله، ولكن حسب الإنجيل، الله هو الذي يفتش عن الإنسان:

"كراعٍ صالحٍ سعيت في طلب الضال،

كأب حقيقي تعبت معي أنا الذي سقطت".

ولكن تجسد ابن الله يكشف قصور اللغة الإنسانية وقواعد النحو والصرف مهما كانت هذه اللغة: يونانية – عبرانية – قبطية ... إلخ لأننا هنا أمام الاستعلان الأخير لله:

"الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء ... كلَّمنا في هذه الأيام الأخيرة (أي في آخر مراحل استعلانات الله) في ابنه" (عب ١: ١)، ولاحظ أن هذا النص هو البولس الذي يُقرأ في ليلة عيد تجسد الرب.

كيف يجب أن نُخضع اللغة الإنسانية إلى تجسد ابن الله؟

أولاً: ما يؤكد اتحاد الله بالإنسانية في يسوع المسيح ليس هو فكرة أو حدث عارض أو مقالة أو بحث أو ما يولد من عقل البشر. نحن أمام حقيقة أزلية امتدت إلى قلب التاريخ الإنساني، حقيقة سبقت التاريخ نفسه، وسبقت اللغات البشرية، بل وجود الإنسان نفسه، حقيقة تحمل الحياة الإلهية متجسدة في حياة إنسانية، فلم يأت المسيح بأفكار أو شريعة أو تعليم إلَّا ذلك التعليم الذي يؤكد استعلان الآب فيه، ويؤكد عطية الروح القدس، ومجيء ملكوت الله والتوبة.

ثانياً: لم يكن الإنجيل بشارةً في لفظ أو في كلمات، رغم وجود الألفاظ والكلمات، إلَّا أنها الإشارات التي تعلن الخبر السار أو البشارة المفرحة.

هنا غاب عن الهراطقة لُب وجوهر الإنجيل، وهو أن العلاقة الجديدة بين الله والإنسان في يسوع المسيح هي علاقة شركة، أنها ليست علاقة تقوم على نصٍ مكتوب، بل النص المكتوب يشير إلى ويعلن العلاقة، فإذا ضاعت العلاقة أو غابت، وظل النص في أيدينا ضاع منا الخبر السار؛ لأن البشارة أو الخبر ليس هو ما يقال لفظاً بل ما يعطى وما يُوهب، وهكذا أعلن رسول الرب إن الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أبناء — أولاد الله، ليس بسماع خبر، بل هم الذين ولدوا ليس من دم ولحم = ولادة بشرية، ولا من مشيئة جسد = ولادة بيولوجية، ولا من مشيئة رجل = زواج، بل من الله (يو ١: ١٢ – ١٣). هؤلاء نالوا هذه الولادة؛ لأن "الكلمة صار جسداً وحل بيننا، أو سكن فينا، (أي في إنسانيتنا) ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءً نعمةً وحقاً" (راجع يو ١: ١٤).

<u>ثالثاً</u>: إن الجدل المرير الذي دار ولا يزال يدور حول تفسير هذه الكلمات، هو جدل عقيم، جدل أغفل عن جهل أو عن عمد العلاقة الجديدة، علاقة الأبناء، وحوَّل هذه العلاقة إلى كلمات أو ألفاظ ...

ماذا يمكن أن نقول: هل الجسد والدم هما جسد حقيقي ودم حقيقي، أم هما فكرة في عقل المتناولين؟ والبحث عقيم؛ لأن السؤال الذي يجب أن نسأله هو: هل يؤمن مَن يسأل هذا السؤال بالتجسد؟ إن التجسد حقيقة تفضح محاولات الإنسان الدائمة لأن يحوِّل المتجسد إلى فكرة أو فكر أو نظرية. ومع ذلك يبقى المتجسد حقيقة تعلو على الفكر وعلى النظريات مهما كانت "حبكة" الألفاظ.

التجسد وزمن الأفعال

الأفعال في اللغة هي الماضي والحاضر والمستقبل، لكن يسوع رب التاريخ، الحال دائماً، الكائن في كل زمان ومكان، هو في الماضي في النبوة، هو في الحاضر "ها أنا معكم كل الأيام" (مت ٢٨: ١٩)، هو في المستقبل "ها أن آت ... ماران آثا".

"يسوع المسيح هو هو أمساً و اليوم وإلى الأبد" (عب ١٣: ٨)

فهل أفعال الرب هي أفعال ماضٍ، أم حاضر أم مستقبل؟

الجواب: هي أفعال تعلو على كل أبعاد الزمان إذا كانت خاصة بعلاقة الشركة، بالخلاص من الدينونة، بعطية الروح القدس. وهي خاصة بالمستقبل إذا كانت خاصة بالميراث الأبدي. وهي خاصة بالحاضر إذا كانت تخص عمل الرب يسوع في النفس والجسد.

التجسد والصلاة

لم نحاول أن نبحث في أساس الصلاة وجوهرها اللاهوتي في عصرنا الحديث، لكن جاء كتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية" وأغلق فجوةً كبيرة جداً في حياتنا الفكرية، وبالرغم من ذلك، وبالرغم من مرور قرابة نصف قرن على صدور هذا الكتاب لا زلنا نتداول مفردات من قبيل:

- العبادة!!

- العبيد!!

لا توجد "عبادة" في المسيحية الأرثوذكسية. فالكلمة دخلت مع الترجمة العربية. وكلمة "عبد" هي كلمة محبة للرب، وليست كلمة عبودية. لقد اشترانا المسيح من سوق الموت، ولذلك نحن لسنا لأنفسنا (١كور ٦: ١٩ - ٢٠)[١]، ولذلك من "دُعيَ في الرب وهو عبد - حسب العرف والقانون الروماني - فهو حر أو عتيق الرب - حسب الإنجيل"، فلا يوجد عبيد في بشارة الحياة (١ كور ٧: ٢٢)[٢]. أما الحر حسب القانون الروماني، فهو مدعو "عبد للمسيح" والسبب

(١) "أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ ... أَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟ لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ. فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ".

(٢) لأَنَّ مَنْ دُعِيَ فِي الرَّبِّ وَهُوَ عَبْدٌ فَهُوَ عَتِيقُ الرَّبِّ. كَذلِكَ أَيْضاً الْحُرُّ الْمَدْعُوُّ هُوَ عَبْدٌ لِلْمَسِيحِ. قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ فَلاَ تَصِيرُوا عَبِيداً لِلنَّاسِ".

هو "قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس" (١ كور ٧: ٢٣). لقد اشترانا المسيح، ولذلك كم هو غريب على إنجيل المسيح أن نقول إن الرب والابن دفع ثمناً للآب، بينما هو اشترانا (١ بط ١: ١٨ - ٢٠)[١].

عندما نتكلم عن الصلاة، يجب أن نعرف أننا نصلي للآب في ابنه يسوع المسيح، وأننا نصلي في يسوع الذي هو متحد بطبعنا الإنساني، ولذلك الملائكة تسجد للمسيح، وفيه تسجد لنا (أثناسيوس الكبير ضد الأريوسيين ١: ٤٢ - ٤٣)[٢].

الصلاة هي عودتنا إلى حياة الشركة، هي الاستقرار الدائم في حضن الآب، هي خدمة الآب لنا في الكاهن العظيم يسوع المسيح. وعندما نقول في القداس الغريغوري: "أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك"، فذلك ينبهنا إلى أن الليتورجية هي خدمة الله نفسه لنا، وأن الكاهن العظيم يسوع المسيح يأتي لكي يخدمنا نحن ويوزِّع حياته: جسده ودمه علينا. هذه هي الخدمة الحقيقية. فهو الذي غسل أرجل التلاميذ .. ولكنه لا زال يغسل دنس نفوسنا وأجسادنا.

هذا هو أحد جوانب الخلاص.

النور الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم نقول عنه: "يا ربي يسوع

---

(١) "عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ. بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ. مَعْرُوفاً سَابِقاً قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ قَدْ أُظْهِرَ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ أَجْلِكُمْ".

(٢) "لأن مجد الله الآب هو: أن يوجد الإنسان الذي كان قد خلق ثم هلك، وهو: أن يحيا الذي مات، وهو: أن يصير الإنسان هيكل الله. ولأن القوات السمائية من ملائكة ورؤساء ملائكة كانت تعبده دائماً، فإنهم الآن أيضاً يسجدون للرب باسم يسوع، فهذه النعمة وهذا التمجيد العالي إنما هو لنا، وأنه بالرغم من أنه صار إنساناً وهو ابن الله فإنه يُعبد. لذلك لن تدهش القوات السمائية حينما ترانا نحن جميعاً — المتحدين معه في نفس الجسد — داخلين إلى مناطقهم (السمائية). وهذا قطعاً — لم يكن ممكناً أن يحدث بأية طريقة أخرى، اللهم إلا إذ كان هذا الذي كان موجوداً في صورة الله، قد أتخذ لنفسه صورة العبد، وأذل ذاته. راضياً بأن يصل جسده حتى إلى الموت.

أما عبادة الرب الذي صار في الجسد البشرى، ودعي يسوع، والإيمان به كابن الله — والتعرف على الآب بواسطته، فهو أمر جلي، كما قلنا، أنه ليس اللوغوس بسبب كونه لوغوس هو الذي حصل على مثل هذه النعمة، بل نحن. لأنه بسبب علاقتنا بجسده، فقد صرنا نحن أيضاً هيكل الله — وتبعاً لذلك قد جعلنا أبناء الله. وذلك حتى يعبد الرب فينا أيضاً. والذين يبصروننا يعلنون — كما قال الرسول "أن الله بالحقيقة فيكم" (١ كو١٤: ٢٥). وكما قال يوحنا أيضاً في إنجيله "وكل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله" (يو١: ١٢). وكما كتب في رسالته "بهذا نعرف أنه يسكن فينا من روحه الذي أعطاه لنا" (١يو٣: ٢٤)" (ضد الأريوسيين ١: ٤٢، ٤٣ — مركز دراسات الآباء — ديسمبر ١٩٨٤ - ص ٨٢ - ٨٣).

المسيح المولود من الآب قبل كل الدهور، الذي تجسد ...أنر عيون قلوبنا وأنعم علينا ببركة الميلاد البتولي، وأعطنا يقظة لكي نصنع ما يرضيك" (البركة من عيد الميلاد إلى عيد الغطاس).

وفي بركة عيد الغطاس نقول: "يا يسوع المسيح الابن الوحيد وكلمة الله الآب، الذي تعمَّد في الأردن ... وطهَّر جميع المسكونة، طهِّرنا من كل فكر رديء وكل سيرة دنسة وكل حواس مملوءة عيباً".

هكذا تكون خدمة الليتورجية ... الرب يخدمنا، ونحن نقبل هذه الخدمة بما يليق من خدمة هي منه وعائدة إليه.

"البكر بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)

لا زلت أذكر تلك النظرة القاسية التي رمقني بها أحد خدام لاهوت العصر الوسيط عندما سألته عن معنى كلمات الرسول في رو ٨: ٢٩، فقال لي: هو أنت يا فلعوص أخ للمسيح؟ وكان القمص ميخائيل إبراهيم الشيخ العظيم واقفاً يسمع، فقال في صوت ملؤه الحزم والشفقة: مفيش حد فلعوص في المسيح، الرب يسوع هو أخ لكل إنسان بسبب تجسده. وقال لي: أوعى تكون زعلت، فقلت له: لا. لكن لأول مرة آخد بالي من أن أنا أخ المسيح، فأجاب الخادم وقال: يا قدس أبونا الأخ ده هيتكبر ومحدش هيعرف يكلمه. فقال الأب الكبير: يتكبر على أيه، كلنا أخوة للرب ...

للأسف الشديد، لا زالت هذه البشارة غريبة على آذان مستعدة لأنْ تقول إن يسوع ربٌ، وهذا عظيم، يسوع مخلص، وهذا مطلوب، ولكن يسوع هو أيضاً الأخ البكر لأننا وُلدنا من الله ليس مثل ولادته، بل لأنه أتي بهذه الولادة.

أيها البكر ...

أحفظ الكنيسة من كل تعليم غريب

لقد قبلت أن تكون الأخ البكر...

أعطنا أن نقبل أن نكون إخوة لك في ذات المحبة.

أيها البكر ...

لقد فتحت لنا أحضان الآب، فافتح قلوبنا، كلٌّ للآخر.

عيد تجسد الابن الكلمة، ربنا يسوع المسيح[١]

عندما قرأت كتاب تجسد الكلمة في عام ١٩٥٧ أي منذ قرابة نصف قرن من الزمان، أدركت بعد عدة مرات من قراءته أنني أمام حجر الزاوية في الإيمان المسيحي: "الله الذي ظهر في الجسد" (١ تيمو ٣: ١٦). وتمر السنوات في دراسة التاريخ، والآباء والفلسفة ثم الألسُنيات، وبالذات علاقة اللغة الإنسانية بالفكر والحياة النفسية والعلاقات الاجتماعية، ثم علم الاجتماع. وفي كل مرة كنت أعود فيها إلى تجسد ابن الله، أعود إلى "تجسد الكلمة" للمعلم العظيم الذي أدين له بكل ما يوصف حقاً بأنه الايمان المسيحي. وهو نفسه القديس أثناسيوس بابا الإسكندرية الذي حُوكِمَ معي عدة مرات، ووقع عليه هو قرار الحرمان معي بواسطة ٧٢ أسقفاً في كنيسته التي لا تعرفه إلَّا اسماً وعيداً يُذكر في السنكسار، إذا تصادف وجاء خبر نياحته يوم الأحد، ثم يختفي الاسم مع أسماء أخرى لامعة أشرقت بنور المسيح: أنطونيوس الكبير – كيرلس الكبير – ديديموس الضرير – أوريجينوس وغيرهم .. ومع ذلك يظل الاسم علماً يرفرف على تاريخنا الناصع ويدعونا إلى الدراسة.

تُرى ماذا كان سيقول القديس أثناسيوس لو أنه قرأ الدراسات الحديثة في حقل الألسُنيات؟ ودور اللغة في تكوين العقل الإنساني، وعلاقة هذا بتجسد الكلمة Logos؛ لأن الكلمة Logos ليس هو الكلمة التي تنطق، فهي Rema في اليونانية.

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١١.

الكلمة – الفكر – العقل – الجسد:

لم تعد مفردات اللغة مجرد كلمات أو علامات Signs بل هي آليات الفكر، والفكر هو أهم ملامح الحياة الإنسانية. ولكن الفكر لا يولد ولا يتطور من لا شيء: الفكر آتٍ من أفكارٍ سابقة، ومن مكونات عامة سائدة Mental Concepts في الحياة العقلية. هذه تأتي من الحياة الاجتماعية ومن النظم السياسية ومن القيم ومن صراعات الشعوب .. الخ فالينابيع كثيرة ولا يمكن حصرها إلَّا إذا تم الحصر حسب مدرسة School فلسفية معينة.

السائد الآن أن اللغات الإنسانية لا يمكن فصلها عن الجسد الإنساني؛ لأن الجسد له وجود وله وظائف، وهو الحياة الإنسانية في شكلها الإنساني الحقيقي المنظور أو المادي. وكل مفردات اللغة تنشأ دائماً من الاختبار المحسوس لكي ترتفع قليلاً نحو ما هو غير محسوس، Tangible. فالمنظور Visible هو الذي يُكوِّن مفردات أي لغة، وربما يعلو Transcend بعد ذلك إلى ما هو غير مرئي، وهو ما يتفق البشر عليه؛ لأن كل الأوصاف التي تُعطى للإنسان تكون ذات مضمون عقلي معين، وذلك مثل وصف "الإنسان الحر"، فالحرية هي Concept هي مضمون عقلي، اتفق البشر عليه واختلفوا أيضاً. ويعلو المضمون العقلي إلى آفاق عقلية تنظم قواعد الفكر، تلك التي وضع أساسها فلاسفة اليونان فيما يعرف عندنا باسم "المنطق" Logic. وقد تطور المنطق بعد أن امتزج بالرياضيات، وصار لدينا منذ عصر مبكر حوارات أفلاطون التي هي أصلاً حوارات سقراط Dialogues of Socrates التي تمثل إحدى العلامات الهامة في تلك الحقبة على قدرة العقل على إثبات أو إنكار قضية ما. لأن الجدل Dialect هو بداية الفكر الصائب الذي لا يقبل الموروث لمجرد أنه سائد Common وإنما لأن هناك منطق يجعلنا نرفض أو نقبل ما يُقال.

أخيراً جاء عصر خلية الكمبيوتر، وما يُعرف بثورة المعلومات، وانفجرت ينابيع المعرفة القديمة والجديدة .. وكثر اللغو والغث، كما انتشر الجيد والثمين.

وانهارت حقبة عصـر التنوير وتلاها Modernism "الحداثة" ثم Post-Modernism "ما بعد الحداثة"، واختفى النموذج الحضـــاري، بل والفكري Paradigm ولم يعُد لدينا سوى قطع متناثرة مثل فروع شجرة كبيرة وعلى كل فرع مئات الأوراق Leafs.

ومن ثمَّ جاء التشــتت الفكري من تعددٍ افتقر إلى ما يربط تلك الأجزاء المتناثرة بعضـها ببعض. من هنا جاءت مقولة David Le Breton الأستاذ بجامعة ستراسبورج في كتاب مشـهور "انثروبولوجية الجسـد والحداثة"، إذ يقول المؤلف إن الإنسـان في الغرب "اكتشف في نفسه جسداً" وصار الجسد "هو علامة الفرد، ومكان اختلافه وتميُّزِه"[1].

ومع انشـطار ما بعد الحداثة، أصـبح من الضـروري أن يجد الإنسـان مرجعيةً، شـيئاً ثابتاً، فقد تأرجحت النظريات، وأصـبح ما هو ثابت ما هو مرئي أو منظور، وعادت مفردات اللغة من جديد إلى الجسد، إلى ما هو حقيقي أو كائن...

الجسد والتجسد الإلهي:

التجســـد الإلهي هو حقيقة ملموســـة ومنظورة تخترق كل حواجز الفكر. التجســد ليس فكرةً Idea ولا هو مضــمون Concept ولا هو رؤية Vision بل اتحاد إلهي بالإنسان، بالجسد؛ لأن روح الإنسان وعقله يمكن حصارهما في المصطلحات العقلية وكلاهما غير محسـوس. وقد جاءت صـدمة التجسـد للعقل الإنسـاني وحياته من مصدرين:

الأول: هو أن الله نفسه غير مرئي.

الثاني: أن الجسـد الإنسـاني هو محور صراعات ثقافية واجتماعية قد تعلي من قيمته، وقد تنزل به إلى الدرك الأسـفل، وهو عُرضـة لأن يتحول بدوره من وجود Existence إلى فكرة Idea وهو عند الذين كانت لهم خبرات سـيئة لا سـيما في طفولة شـاردة تعيسـة أو أمراض وعلل، مشـكلة. فالجسـدُ عبءٌ لا يمكن أن يتغنَّى

[1] أنظر ص ٧ من الترجمة العربية التي قام بها الأستاذ محمد عرب صاصيلا ١٩٩٣ – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

به أحد، ويبقى السؤال: أليس التجسد بدوره معرضاً للرفض والشجب؟ بكل تأكيد هو عرضة لكل اتهام آتٍ من الماضي أو من خبراتٍ إنسانيةٍ مؤلمة وحزينة. لكن الكلمة Rema مسموعة أو مكتوبة لها مصيرٌ أتعس من مصير الجسد، فهي بدورها معرَّضةٌ للتزييف والتحوير والتدليس، بل والرفض. ولو دخلنا محكمة الحق (كما يقول القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة فصل ٢٩: ١) لوجدنا أن وجود الله في جسد بشري له حظٌ أوفر وأحسن من الوحي الذي يمكن تطويعه لفظياً حسب المواقف والاحتياجات، لكن يظل الوجود الإلهي في الجسد وجوداً متفوقاً على الاستعلانات النبوية، بل ويعلو عليها، ويتحدى كل محاولات تحول هذا الوجود إلى كلمات أو إلى أفكار. من هنا بالذات برزت شخصية يسوع كشخص Person أو أقنوم Hypostasis لأنه يظل فوق كل المحاولات الفكرية – مهما كانت – لأن يتحول إلى كلمات أو أفكار. وحتى مع نشأة الخرستولوجي Christology في بداية القرن الثالث، وهو يعود أصلاً إلى ما قبل الثالث على يد القديس ايريناوس[1]. لكنه، أي الخرستولوجي لم يكن يهدف إلى أن يتحول يسوع الشخص إلى فكرة أو إلى نظام عقلي فلسفي، بل كان دفاعاً عن:

* تواضع الله ومحبته التي جعلته محباً للبشر.

* مشاركة الله الحقيقية للحياة الإنسانية؛ لأنه أخذ جسداً ونفساً وعقلاً وإرادةً وعواطفَ إنسانيةٍ، ولم يكن تجسده خيالاً أو مجرد رؤيا في جسد.

ودخل تجسد الكلمة الحضارات الإنسانية والتي تتنوع مواقفها بين الازدراء والرفض، ولكن ظل تجسد الكلمة تعليماً يتحدى الإنسانية الرافضة للحياة الإنسانية.

في العصر الحديث، في الحضارة الغربية اعتبر البعضُ رسالة المسيح رسالةً مسموعةً Audio لفظيةً، وقصةً تقال ... وضاع من هذا الاتجاه "الزخم والثراء

(١) راجع البحث الممتاز:
Gustat Wingren: Man and the Incarnation, 1947-1959-2004

Wealth" الذي يحمله اتحاد الله بالإنسان، أو اللاهوت بالناسوت كما درج القول. وقد ضاع هذا الثراء؛ لأن الوجود المستيكي Mystical لله – الذي لم يعد موضوعاً عقلياً للتأمل، بل الواقع الإلهي / الإنساني – هو الوجود المستيكي على مستوى الحياة الإنسانية في يسوع المسيح. هذا ما يعبِّر عنه معلمنا الكبير أثناسيوس بوجود الكلمة في العالم وفي الإنسانية التي أخذها من القديسة مريم؛ لأن التجسد لم يُحاصر Limit الله ولا احتواه فصار محدوداً Finite في الجسد.

المواقف المتباينة من التجسد:

قديماً كانت الغنوسية هي أول رفض لتجسد ابن الله؛ لأن الجسد دنيء وحقير ومن صنع إله الشر، والغنوسية هي إحدى شرائح Slices الثقافة الهللينية السابقة على عصر المسيحية. كما تعتبر الغنوسية هي مدرسة اليأس Despair من الإنسان، خصوصاً وأن ظروف الإمبراطورية الرومانية الاقتصادية والعسكرية لم تكن تسمح بالتفاؤل Optimism، فالحروب والمجاعات جعلت الإنسان يهرب إلى عالم آخر هو عالم الرؤى، وعالم ما وراء الواقع الإنساني.

وتضرب الغنوسية موضوع اتحاد اللاهوت بالناسوت بشكل يظهر بأجلى بيان في النسطورية. لأن فكرة استحالة وجود جوهر Essence مع جوهر آخر في شخصٍ واحد، وهي الفكرة التي شاعت في فلسفة أرسطو، كانت هي السبب فيما عجز نسطور عن استيعابه.

هذه الاستحالة بدورها كانت مبنية على تصور فلسفي محض لفكرة الجوهر Essence وهي فكرة مستوحاة من عالم مادي مغلق تحركه القوانين الأزلية، وهي قوانين يخضع الله نفسه لها؛ لأنه جزء من الكون Universe(١).

والجوهرُ ليس وجوداً، بل هو فكرةٌ صائبة وجيدة، تحدِّد – فلسفياً – ما هو كائن ويمكن وصفه. أمَّا اتحاد جوهر بجوهر آخر، فهذه ليست مقولة فلسفية، ولا

(١) راجع: الوجود شركة للأب يوحنا زيزولاس – تعريب د. جورج حبيب بباوي – مركز دراسات الآباء بالقاهرة – الطبعة الأولى، ص ٣ – ١٩.

هي قضية عقلية يمكن أن تُفحص فلسفياً. طبعاً نستطيع أن نقول إن هذا عملاً إلهياً قام به الكلمة الخالق، ولكن هذا هو في الحقيقة أسهل حل Solution تلجأ إليه التقوى المسيحية. وهو أمرٌ مقبول، لكن - فلسفياً - يبدو أن الحل الفلسفي هو أن يحل اللاهوت حسب التواضع الإلهي أو الإخلاء Kenosis (مشتقة من كلمات الرسول بولس في (فيلبي ٢: ٦) "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد")، لكي يحمل هذا الإخلاء ليس جوهراً، بل حياةً لا تلاشي الحياة الإنسانية، بل تتحد الحياة الإلهية بالحياة الإنسانية؛ لأن "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٣). واتخاذ الكلمةُ جسداً يجعل حياةً تنسكب في حياة حتى ما ترتفع هذه الحياة إلى مستوى آخر، هو مستوى الحياة الإنسانية الكاملة التي لا فساد فيها ولا موت، بل خلود ومعرفة الله.

تتبدى مشكلة أرسطو في أن المعرفةَ — عنده - تسبق الحياة، ولكن رسالة الإنجيل تنبني على أن الحياة تسبق المعرفة[١]، فالحياةُ ليست جوهراً حسب فلسفة أرسطو، بل حركةُ كائنٍ حرٍ حيٍ يتحرك نحو كائنٍ آخر حي مُقيد مستعبد Enslaved للموت. ولذلك، فالفرق بين الإنجيل في تطلعاته السامية Semitic والفلسفة ذات المنهج التحليلي Analytical هو فرقٌ بين من يرى الحياةَ شجرةً[٢] تنمو، ومن يرى الحياةَ محدَّدةً Defined بالأفكار والنُّظم Systems التي فرضها العقل على الحياة وحوَّلها إلى منظومة عقلية أو عدة منظومات.

إن مشكلة نسطور، ومن قبله أرسطو الذي لم يسمع ولم يقرأ عبارة الرسول: "حلَّ فيه كل ملء اللاهوت جسدياً .. وأنتم مملؤون فيه" (كولوسي ٢: ٩ - ١٠)، تبدو في عدم قبول هذا الحلول كما سبق وأشرنا.

ولكن حلول ملء اللاهوت في الجسد الإنساني هو الموقف الحقيقي للمحبة، فلقد فرض التجسد - للإنسانية المثقلة بالألفاظ والكلمات والصراعات الفكرية - أن يكون لكل ما يقال، مرجعية Term of Reference وبالتالي لا يمكن الالتفاف

(١) الرسالة إلى ديوجنيتس فصل ١٢.
(٢) شجرة الحياة في سفر التكوين ٢: ١٦ — ١٧.

حوله أو النزاع عليه، وهو ما لم يكن ممكناً أن يحدث في عالم الكلمات، وبحار الأفكار التي تسبح فيها مجالات الفكر بلا شراع ولا بوصلة ولا حتى دفة.

إن العالم العقلي Rational World عالمٌ تتوه فيه حتى أبحاث المؤرخين. وعالم الكتب الذي تراه في كبرى المكتبات، يؤكِّد أن الإنسان أكل فعلاً من "شجرة معرفة الخير والشر" قبل أن يأكل من شجرة الحياة، فأسرع إلى معرفة بلا حياة، فكيف يمكن للمحبة ان تثبِّت أقدامها أمام تيارات الفكر التي لا تتوقف؟

عندما نشر Karl. E. Morrison كتابه المشهور I am you "دراسةٌ في تفسير فهم الآخر في الآداب والفن واللاهوت في الغرب"(١)، فقد كشفت الدراسة إن اختبار وامتحان Test المحبة الحقيقي ليس في الخطاب Discourse بل في استعداد الإنسان لأنْ يكون مثل الآخر، وليس ذلك فقط، بل أن يكون هو الآخر "I am you – أنا هو أنت". وتلك لم تكن قضية جديدة، بل كانت مسموعة Heard ولكنها كانت بلا وجود حقيقي في حياة الإنسان. فالوجود حسب اللحم والدم، وليس بالكلام واللفظ فقط هو الوجود الذي تُمتحن فيه الأفكار. ولو درسنا جيداً الوصية العظمى الثانية: "أحبب قريبك كنفسك"، ثم تعليق الرسول يوحنا: "لا نحب بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق"، لوجدنا أن التعليم الإلهي لم يترك الوصية الثانية العظمى بدون مثال حقيقي: "أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا" (راجع يو ١٣: ٣٤)، فقد صارت محبة يسوع المعلَنة في اللحم والدم، المحبة المتجسدة ليست فقط "المثال"، بل "الطريق والحق والحياة". المحبة الكاملة التي جعلت كنيستنا تقول في عشية يوم الرب ونحن نستعد لقبول الرب يسوع جسداً ودماً ولاهوتاً، يسوع كله:

"هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"(٢).

ومَن يتصوَّر أن يسوع محب البشر سوف يعطي جسده ودمه فقط، وليس

---

(١) الناشر جامعة برنستون، ١٩٨٨.
(٢) راجع الأصول التاريخية واللاهوتية لأصل هذه العبارة في كتابنا "الشركة في الطبيعة الإلهية"، ص ١٣٠ وما بعدها، منشور على موقع www.coptology.com.

كيانه أي أقنومه الإلهي المتجسد، هو مَن سقط -دون وعيٍ- في هرطقة نسطور الذي رفض الإفخارستيا كتناولٍ لحياة وشخص الكلمة المتجسد[1]. إن مَن يعطي جزءً من كيانه، جزءٌ له ما يماثله عندنا نحن البشر، يكون قد أحب بشكلٍ جزئي وليس حسب عبارة الرسول: "أحبهم إلى المنتهى" (يو ١٣: ١)، فالمحبةُ لا يمكن أن تتجزَّأ.

ومَن يعطي في الزيجة، فقط جسده، بينما الفكر والروح بعيدين، هو من يرتكب "زنى مقنَّعاً"؛ لأن الزاني هو من يلتصق بزانية حسب الجسد (راجع ١ كو ٦: ١٦)، وهو مثالٌ على المحبة المجزَّأة. ولذلك، فالفعل العبراني "زنى"، وهو ذات الفعل العربي "زنى"، يعني خلطُ شيءٍ بآخر حتى يفقد كلاهما معاً اللون والطعم والرائحة، مثل مَن يغش اللبن بالماء، أو الخمر بالماء، أو مَن يضيف أحد الأوثان إلى عبادة الله الحي، فتصبح هذه الإضافة "زنىً روحياً"، إذ يفقد الايمان بالله الحي قوامه Structure ولا يعود الله هو الله، بل حتى الصنم نفسه، يفقد خصائصه بسبب الخلط بين الله والصنم، كلاهما يفقد خصائصه.

هكذا تفقد المحبة الإلهية المعلَنة في يسوع المسيح خصائصها، بل تهبط إلى مستوى السلوك الإنساني الدنيء الذي يجزِّئ المحبة.

التجسدُ امتحانٌ لكل خطاب عن الله والإنسان:

التجسد يُعلن توحيد الله بشكل جازم وحقيقي، وما أكثر أنواع التوحيد التي ترسب في الضمائر والوجدان. فهناك توحيدٌ ينكر الوجود الإنساني، وينسحب هذا الإنكار على دور العقل والإرادة، فيصبح بلا فاعلية، بل ويكون خاضعاً مُستعبداً لإلهٍ واحدٍ يفرض إرادته على الإنسان ويعاقبه إن أساء. ولا نتجاوز الحقيقة إن قلنا إنه **توحيدٌ عقابيٌ وإلغائيٌ**، صار الوحي فيه مرجعيةً أبديةً تجُبُّ الماضي والحاضر، بل والمستقبل أيضاً. وقد يكون للموحّدين عذرٌ في التمسك

[1] أنكر نسطور الاتحاد الأقنومي في الرب نفسه، وقاده هذا إلى الهجوم على لقب والدة الإله "ثيئوتوكوس"، ثم قادته نفس الأفكار إلى الهجوم على كهنوت الرب يسوع والإفخارستيا.

بالماضي وفرض الماضي على الحاضر بنصوص مقدسة لا تقبل إلَّا التفسير، وبالتالي لا يجوز أن يرتفع الفكر إلى مســتوى آخر لا ســيما في المســتقبل الآتي دائماً، المستقبل الذي لا يرسُـب في قاع الماضي لأن الماضـي سـيطر عليه. هكذا جاء تجسـد الكلمة لكي يخلع هذا الإطار المفروض على الإنســان، والذي يقهر إرادته Oppress ويحطم كل محاولات العبور من الماضي إلى المستقبل.

وإلغاء حرية الاختيار عند الإنســان باسـم "شـريعةٍ إلهيةٍ" هو إلغاءٌ للإنســان نفسه، ولكن باسم الله الخالق.

وهناك أيضــاً **توحيد العزلة الإلهية**، وهو توحيدٌ يمنع كل اتصــال بين الله والإنســان ويخلق فجوةً Gap أو هوةً لا يمكن عبورها إلَّا بإعلان إرادة الله، وليس بالإعلان عن ذات الله، وعن حياته وعن محبته للإنســان. وهو توحيدٌ يعشــش في أي نظامٍ ســياســي اســتبدادي Totalitarian لا يقبل إلَّا عزلة الله، ويفرض على الإنسـان الخضـوع المطلق دون أدنى إعلان، ولو كان إعلاناً لفظياً Wordy عن الله. وتصــبح الدعوة إليه دعوةً لفرض إرادة عليا لا تقبل الشــركة، ولا يوجد للمحبة مكانٌ فيها.

هذا النوع من التوحيد يفرض على الإنســان إطاراً لا يمكن حتى تطويره، وإن سـعى إلى التطوير والتقدم، فهو يبني على الماضـي؛ لأن الماضـي هو النص الإلهي المقدس الذي لا يقبل البحث، وهو بالتالي يلغي كل ملكات الإنسان وقواه العقلية والروحية، ويخلق الجيتو الديني Ghetto الذي تلعب فيه الممارســات الطقوســية Rituals الدور الأكبر. وهذا النوعُ من التوحيد يملك أن يغرس في الضمائر التعصب والدفاع عن إلهٍ غائبٍ بلا حضور في الإنسـان وفي ملكاته وقدراته. وما أسـهل أن يدافع الإنســان عن إلهٍ بعيدٍ، أعلن عن إرادته وعن إخضــاع الإنســان طوعاً أو كرهاً.

وهناك أيضــاً **توحيد الإثنينية** Dualism وهو **توحيد ماني** Mani الذي تصــوَّر وجود إلهٍ للخير وآخر للشــر، إله الخير خلق العالم الســماوي الروحي، وهو العالم

الذي عاش فيه آدم ومعه حواء قبل أن يهبطا معاً إلى الأرض.

وقد دخل هذا التوحيد في كل مدارس الهرطقات ابتداءً من مدارس الغنوص Gnosticism ثم تسلل إلى الأريوسية بعد ذلك في مطلع القرن الرابع الميلادي، وجعل الآب هو الإله الأعظم، والابن هو الإله المخلوق الأصغر، وشطر Split أريوس الحياة الإلهية إلى إلهين Two Gods. وعندما يحدث هذا الانشطار يسقط الإنسان نفسه فريسةً لإرادة الإله الأعظم المحتجب Hidden والمرتفع بالكبرياء، وهذا الإله لم يخلق الإنسان، بل ترك مهمة خلق الإنسان إلى الإله الأصغر يسوع المسيح.

وفي هذا النوع من التوحيد عودةٌ إلى الوثنية الصريحة، ولكن هذه المرة باستخدام أسماء مسيحية. ومن المؤسف حقاً ان بعض الذين يكتبون عن الأريوسية في مصر بالذات، ولعل آخر هؤلاء هو الأستاذ فاضل محمد فؤاد محمد كامل سليمان في بحثٍ قدَّمه للجامعة الأمريكية المفتوحة بعنوان: "الدفاع عن النفس من دوافع فتح المسلمين لمصر". فقد اعتبر الأريوسية دعوةً للتوحيد، بل وتجاسر على أنْ يكتب أنَّ الأريوسية تثبت أن أجداد مسلمي مصر هم الأريوسيون الموحدون الذين كانوا يمثلون "فئةً كبيرةً من الشعب المصري قبل الفتح"، وهي كما نرى عبارةٌ عامة بلا تاريخ، فلم يكن هناك إحصاء سكاني عن عدد الأريوسيين، هذا إذا كان له وجود في الواقع على أرض مصر. والعجيب أن القرآن، وهو كتاب الإسلام الأول لم يأت فيه ولو لمحة عن الأريوسية، ولا حتى في أقدم المصادر الإسلامية مثل السيرة النبوية لابن هشام وغيرها، ولا حتى في كتاب "المغازي". وإذا كان الأستاذ فاضل محمد فؤاد قد نال درجة الماجستير على هذا البحث، فإن الحرج يمنعني من التعليق؛ لأن أهم المراجع التاريخية غائبة، وما ذكره الأستاذ فاضل محمد فؤاد في بحثه! هو ما "كشطه" من مؤلفات تحارب الأريوسية، وفي مقدمتها المجلد الكبير للأستاذ R. P. C Hanson الذي أعرفه حق المعرفة، وغاب من المراجع كل من Rown Williams, Thomas Torrance وقبل كل هؤلاء المؤرخ الدقيق في تحقيق الألفاظ

والتواريخ John Henry Newman والمجلد الأســاســي في البحث The Arians of the Fourth Century الذي طُبع عدة طبعات.

من المؤســف حقاً أن الاضــطهاد قد وقع على الذين يؤمنون بالثالوث الذي ينكره المؤلف مثل غيره[١].

إن البحث الذي يعتمد على عقيدة الكاتب وحدها، وهي هنا هي الإسـلام، يفرض على الكاتب "نظرةً أحادية الجانب" هي في حقيقة الأمر ثمرةُ توحيدِ عزلةٍ، وهي أحد الأعراض الجانبية Side effects التي تلازم تعاطي دواءً معيناً، لأن إنكار مشـاركة الله للإنسـان في وجوده وفي حياته، تجعل وجود الإنسـان نفسـه في "عزلة" Isolation عن الله وعن الذات الإنسـانية التي لا تستطيع الانطلاق إلى الله؛ لأنه لا يرغب في أي علاقة مع الإنســان. وتظهر الأعراض الجانبية لتوحيد العزلة الإلهية في الحياة الإنسـانية التي لا دعامة فيها لأي صـورة للشـركة مع غيره؛ لأن دعوة الشـركة غير معروفة على المستوى الإلهي نفسـه، فالله ليس سـوى واحداً في عزلةٍ، منزَّهٍ عن كل اتصـالٍ بالإنسـان إلَّا بواسـطة الملائكة. وينعكس هذا على السـلوك الإنسـاني نفسـه، إذ يصبح الإنسـان دون أن يدري صورةً لإله العزلة؛ لأن المثال Ideal نفسـه يحرص على العزلة، وبالتالي تصـاب قوى الحب الخلاَّقة في الإنسـان بالتعطل؛ لأنها محاصرة Under siege في الذات ولا ترتفع أو تسمو فوق الذات.

كذلك هناك ما يســمَّى **بالتوحيد العقلي** Deism وهو ما ســاد في بعض الكتـابات الأوروبية، وهو عبارة عن دعوةٍ إلى الإيمان بخالق العالم، ولكن هو في الســماء ونحن على الأرض. هذا النوع العقلي من التوحيد لا يقبل إلَّا الشــريعة الأخلاقية "لحياةٍ حُرةٍ بدون إله في الســماء"، فقد حدث طلاقٌ Divorce بين الله والإنسان.

(١) تُجرى محاولات تزييف التاريخ بحذف أسماء الأباطرة الذين حاولوا فرض الأريوسية بالقوة العسكرية، وأشهر هؤلاء هو الإمبراطور فالنس الأريوسي – ولنا عودة مع هذه الأكاذيب.

تحدِّي التجسد للفكر الإنساني بكل صوره:

لا يشعر أي مسيحي بالفخر عندما يرى خريطة الانقسامات في الكنيسة، الغالبية العظمى منها حول تفسير نصوص كتابية، والباقي من أسباب الانقسامات: لغة — ثقافة — عداوة عرقية — صراع سياسي.

لكن في خضم الصراع العقائدي كله - مهما كانت أنواعه وأشكاله - يقف تجسد الكلمة في تحدٍّ واضحٍ:

* قد نختلف على معاني وتاريخ كلمة "معمودية"، وحول طريقة ممارسة "المعمودية"، ولكننا لا يمكن أن نختلف على أن معمودية المتجسد هي: غطسٌ في المياه — ظهورٌ للثالوث — حلولٌ للروح القدس.

هذه أحداثٌ ووقائع لا يمكن أن ينكرها أحد.

* وقد نختلف حول العشاء الرباني، وما أكثر الاعتراضات التي تراكمت منذ القرن الحادي عشر بعد الجدل العنيف الذي أثاره (Berengar 1088) وكان رئيس كاتدرائية في فرنسا في Angers وهو السبب التاريخي الذي دعا كنيسة روما إلى تبني الاستحالة الجوهرية Transubstantiation[١] ولكن تبقى حقائق ثابتة:

– الجسد والدم حقيقة لا يمكن أن تتحول إلى فكرة عقلية.

– التجسد حقيقة أبدية، هي التي تعلن كل مقومات الخلاص، فقد وُلِدَ بالجسد وصُلب بالجسد، وقام بالجسد، وصعد بالجسد، وسوف يأتي الإله المتجسد كما صعد، إذ لا يمكن إنكار الميلاد، والصلب، والدفن، والقيامة والصعود، ثم المجيء الثاني.

* ويتحدى التجسد اهتراء الفكر الإنساني واللاهوت المزيف الذي يحوِّل كل

---

(١) لم يحاول العلامة الوحيد مطران دمياط أن يفهم الفرق بين الاستحالة الجوهرية وهو تعبير لم يكن معروفاً قبل القرن الحادي عشر، والاستحالة السرية Mystical وليس لمن لم يدرس التاريخ عذرٌ في جهله، ولكن عندما يتحصن الجهل في سلطانٍ، فإن الجهل هو القاتل الأول للسلطان نفسه؛ لأن الزمان يكشف عورة الجهلاء. الجهل يقتل كل سلطان.

استعلانات الخلاص إلى أفكار .. سوف يظل القلب معلقاً حائراً يبحث عن "الحضور المتجسد"[1] وعن حقيقة علاقة الرأس بالجسد أي المسيح بالكنيسة. ويظل هاجس البحث يلاحق كل الأكاديميين والباحثين حتى في الوقت الذي غابت فيه حقيقة حياة المتجسد ربنا يسوع، وحلَّ محلها أفكارٌ وتحديدات Definitions عقلية تدوس على البعد السري Mystical وهو ما نراه أحياناً عند الذين يتكلمون عن أجساد ثلاثة: جسد المسيح المولود من العذراء — وجسد المسيح في الإفخارستيا — والكنيسة جسد المسيح!

ما أشقى حياةُ أي إنسان له ثلاثة أجساد، وما أسخف أن تنقسم العلاقة الشخصية والاتحاد بالمسيح يسوع إلى علاقة فكرية تُخضع المسيح نفسه لتصوراتٍ بشريةٍ، ولا تحاول أن ترتفع إلى ما هو أعلى وأعظم، أي إلى العلاقة الجديدة التي تجعل المولود من العذراء يعطي حياته، أي كيانه المتجسد، جسده ودمه، في العلية وفي كل قداس لكي "يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١٢: ٥٢)، لا لكي ينقسم هو نفسه على المذابح، أو يترك جسده المولود من العذراء عندما يأتي إلينا حاملاً لنا هبة حياته في العشاء السري[2].

* ويتحدى تجسد الكلمة ابن الله الادعاء بأن التعليم نفسه، أي تجسُّد الكلمة هو تعليمٌ موروثٌ عن الوثنية. هنا يقف الفكر في دهشةٍ، **مصدرها الأول**: هو أن الوثنية هي أصل كل الحضارات الإنسانية. صحيحٌ أنه ضللت الطريق إلى الله، ولكنها ظللت بحث الإنسان الدائم والدؤوب عن الله. تلك هي الحقيقة التاريخية التي لا يريد الأصوليون أن يفكروا فيها ولو إلى برهة. وها نحن نقدم الدليل التاريخي نفسه على أن الوثنية هي أصل كل الحضارات والثقافات الإنسانية:

١- ولدت كل الشرائع القانونية التي تحدد علاقة الفرد بالمجتمع، في الزواج،

---

(١) "الحضور المتجسد"، تعبير لاهوتي للقديس أثناسيوس الرسولي. راجع في ذلك الرد على الأريوسيين ٢: ٨ – ١: ٥٩ – ٢: ٥٥ – ٢: ١٦، تجسد الكلمة فصل ١٨.

(٢) من الأخطاء الشائعة، وصف عشاء العلية بالعشاء الأخير، فليس لدينا سوى عشاء أخير واحد، وهو آخر قداس تقيمه الكنيسة قبل يوم الدينونة.

والطلاق، وتعدد الزوجات، والميراث، والتبني ... الخ في قلب كل الحضـــارات القديمة: المصرية، والبابلية، والفارسية، والأشورية ... الخ.

٢- أماكن العبادة، والهياكل، والصـلوات، والأدعية، والأعياد، ورجال الدين أنفسهم الكهنة والنبيون، فقد كانت لكل وثنية أنبياء وكهنة .. الخ.

٣- الكتب المقدسـة الموحى بها من الآلهة والتي تحدد علاقة الإنسـان بخالقه، ودور الآلهة في الحياة المدنية، والحروب، وقيادة الأمة، واختيار الحكام من ملوك وأمراء.

٤- تقسيم السنة وتحديد مواعيد الزرع والحصاد.

٥- ظهور الطب والكيمياء والهندسة.

هذه بعض ملامح الحياة الإنسـانية القديمة التي ظللت الطريق إلى الله الواحد، ومع ذلك ظلت الإنسانية على علاقة بخالقها، تحتاج إلى إصلاح وإعادة صياغة، لأن الأساس في التدين هو علاقة بين الإنسان وخالقه.

ثانياً: اختلفت العلاقات الإنسـانية/الإلهية في مدارس الحضارات القديمة. وقد حصر علماء الاجتماع هذه الاختلافات في عدة نقاط محددة:

١- علاقة إلغاء الإنسان من أجل الآلهة، والتي كان البشر يذبحون فيها البشر ويقدِّمونهم على مذابح الآلهة.

٢- علاقة "شراكة" تقوم على التوسل، وإرضاء الآلهة والخضوع لها، والبحث عن سبيلٍ إلى إرضائها، وهو ما نراه في الإلياذة والأوديسة، وبعض الطقوس المصرية القديمة مثل اتقاء غضب الإله "ست" وحمل التعويذة .. الخ.

٣- علاقة خاصـة بين الملك والآلهة، مثل علاقة فرعون ابن رع الإله الأكبر، وهي علاقة سياسية بحتة من أجل إقرار وتثبيت الحكم الملكي.

ثالثاً: هل كانت الدعوة النبوية في العهد القديم، ثم اسـتعلان الكلمة ابن الله

هي امتداد للحراك والإرهاصات الإنسانية القديمة؟

والجواب الدقيق لا يحدده البحث التاريخي وحده، بل عقيدة الباحث الدينية. فما نراه في الوثائق القديمة يحدد رؤيتنا حسب اعتقادنا، وحسب إيماننا بنوع **العلاقة العامة** التي يتولاها الله خالقنا نفسه مع البشر عامةً في كل زمان ومكان. هذه العلاقة العامة يؤكدها وجود **خطوط متوازية** Parallel بين الديانات كلها، تظهر كما لو كانت من مصدر واحد، وهو الخبرة الإنسانية. ولكن هنا يجب أن نتوقف أمام هذه الظاهرة التي – حسب الاعتقاد الديني للباحث نفسه – تبدو وكأن هذه الخطوط تؤكد عمل روح الرب، روح الحكمة في كل المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، عمل القيادة والإرشاد، وهو ما يظهر بوضوح في الكتابات النبوية في العهد القديم في اشعياء والمزامير لا سيما مزامير ٩٤، ٩٥ وبالذات ٩٦، ٩٧ لأن الله يملك على كل الأرض، وهذه الدعوة النبوية هي دعوة انهيار الوثنية.

> "اَلرَّبّ قَدْ مَلَكَ، فَلْتَبْتَهِج الأَرْض، وَلْتَفْرَح الْجَزَائر الْكَثيرَة. السَّحَاب وَالضَّبَاب حَوْلَه. الْعَدْل وَالْحَقّ قَاعدَة كرْسيّه. قدَّامه تَذْهَب نَارٌ وَتحْرق أَعْدَاءَه حَوْلَه. أَضَاءَتْ بروقه الْمَسْكونَةَ. رَأَت الأَرْض وَارْتَعَدَتْ. ذَابَت الْجبَال مثْلَ الشَّمْع قدَّامَ الرَّبّ، قدَّامَ سَيّد الأَرْض كلّهَا. أَخْبَرَت السَّمَاوَات بعَدْله، وَرَأَى جَميع الشّعوب مَجْدَه. يَخْزَى كلّ عَابدي تمْثَال مَنْحوتٍ، الْمفْتَخرينَ بالأَصْنَام. اسْجدوا لَه يَا جَميعَ الآلهَة" (مز ٩٧: ١ – ٧).

فالقول النبوي: "اسْجدوا لَه يَا جَميعَ الآلهَة"، هو استعلان الإله الحقيقي على كل آلهة الشعوب؛ لأن الله هو الله العلي على كل الشعوب (مز ٩٩: ٢).

وهنا يقول سفر الأمثال:

> "أَنَا الْحِكْمَةُ أَسْكُنُ الذَّكَاءَ، وَأَجِدُ مَعْرِفَةَ التَّدَابِيرِ. مَخَافَةُ الرَّبِّ بُغْضُ الشَّرِّ. الْكِبْرِيَاءَ وَالتَّعَظُّمَ وَطَرِيقَ الشَّرِّ وَفَمَ الأَكَاذِيبِ أَبْغَضْتُ. لِي الْمَشُورَةُ وَالرَّأْيُ. أَنَا الْفَهْمُ. لِي الْقُدْرَةُ. بِي تَمْلِكُ الْمُلُوكُ، وَتَقْضِي الْعُظَمَاءُ عَدْلاً. بِي تَتَرَأَّسُ الرُّؤَسَاءُ وَالشُّرَفَاءُ، كُلُّ قُضَاةِ الأَرْضِ" (أمثال ٨: ١٢ – ١٦).

فالحكمة هي القوة الخالقة التي رسمت حدود كل شـــيء في الخليقة (أمثال ٨: ٢٧) وراجع التعبير الفخم Elegant

"لَمَّا ثَبَّتَ السَّمَاوَاتِ كُنْتُ هُنَاكَ أَنَا. لَمَّا رَسَمَ دَائِرَةً عَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ. لَمَّا أَثْبَتَ السُّحُبَ مِنْ فَوْقُ. لَمَّا تَشَدَّدَتْ يَنَابِيعُ الْغَمْرِ. لَمَّا وَضَعَ لِلْبَحْرِ حَدَّهُ فَلاَ تَتَعَدَّى الْمِيَاهُ تُخْمَهُ، لَمَّا رَسَمَ أُسُسَ الأَرْضِ، كُنْتُ عِنْدَهُ صَانِعًا" (أمثال ٨: ٢٧ – ٣٠).

وحســـب عقيدة الباحث، يرى أن الله هو الذي يقود الكون ويدبر كل الخلائق؛ لأن الحكمة "فَرِحَةً (فرحانة) فِي مَسْـــكُونَةِ أَرْضِـــهِ، وَلَذَّاتِي مَعَ بَنِي آدَمَ" (أمثال ٨: ٣١).

وعندما يقول أشعياء: "وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بَرِّيَّةِ الْبَحْرِ" (أش ٢١: ١)، "وَحْيٌ مِنْ جِهَـةِ دُومَـةَ" (أش ٢١: ١١)، "وَحْيٌ مِنْ جِهَـةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ" (أش ٢١: ١٣)، يؤكد أن الله لم يترك العالم. وكما قلنا ســـابقاً إن عقيدة الباحث هي التي تحدد الإجابة. فقد جاء عصر الإصلاح الأوروبي بفكرة جديدة لم تكن ضمن عقائد المسيحية شرقاً وغرباً، مؤداها الانقطاع التام، وفصل الخليقة عن الله بسبب سقوط آدم، ولذلك صـــار انفصـــال الخليقة عن الله. وحارب كل من E. Brunner برونر وكارل بارت الآخر، حول ما إذا كان من الممكن معرفة الله بشـــكل "لدني"، وهل هذه المعرفة صحيحة أو مشوهة؟ وثار جدلٌ طويل قد لا ينتهي[1].

وحسب الإيمان الأرثوذكسي نفسه لا يمكن فصل الخليقة عن الله، للأسباب الآتية:

١- لأن الوجود كله يعتمد على الخالق. فلا يوجد كائن ذاتي الوجود، أي له حياة في ذاته.

٢- الوجود كله، وهذا يشـــمل الملائكة، جاء من العدم وكل الأشـــياء كائنة بقوة وعمل الله.

(١) راجع على سبيل المثال المجلد الذي صدر من جامعة اوكسفورد عام ١٩٩٨ بعنوان: تطور العقل The Evolution of the Mind، وهو لمجموعة من الباحثين.

قد يفصل الكائن نفسه عن خالقه، ومع ذلك يظل الله يمده بالحياة. والوجود هو نعمة من الله لا يمكن أن تنتهي؛ لأن هذا معناه نهاية الكائن نفسه وعودته إلى العدم. هذا ما يطرحه بوضوح الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا، والإصحاح الأول من كولوسي، وبشكل محدد في العبرانيين (١: ٢، ٣)[١].

فإذا تعذَّر فصل الخليقة عن الله، ظل الإنسان يحمل صورة الله في داخله، وهي التي تجعله دائب البحث عن الله، وعندما يضل الطريق، يظهر مَن يرده، وهو ليس بالضرورة من أنبياء بني اسرائيل، بل من الفلاسفة مثل سقراط وارسطو وغيره.

وعندما نرفض وجود شركة بين الإنسان والله، فإننا نرفض الإبداع الإنساني في الحضارات القديمة، وهو إبداعٌ كان يحرِّكه الكلمة Logos لأنه هو قائد الخليقة نحو الله. وهو الذي يزرع بذرة الإدراك في كل الكائنات ومن هنا جاء التعبير Logos Spermatikos عند الآباء المدافعين عن الايمان مثل اثيناغوراس، ويوستينوس الشهيد[٢].

هكذا تظهر صورة خريطة الحياة الدينية واضحة بشكل أفضل:

١- إعلان إلهي دائم في القلب والوجدان؛ "لأن معرفة الله ظاهرة" (رو ١: ١٩)؛ لأن الله نفسه هو الذي أظهرها (رو ١: ١٩)، وعرفت كل الشعوب الله (رو ١: ٢١)، ولكن المعرفة وحدها لم تكن كافية، بل جاءت الشرور بظلمة الإدراك (رو ١: ٢١ - ٢٢)، ولذلك انحرف الإنسان نحو عبادة ذاته، أي الوثنية.

٢- اختلاط الحق بالباطل، وهو ما استوجب استعلان الابن الكلمة في جسدٍ، حتى يبقى الجسد الإنساني هو التحدِّي الإلهي "لتوهان" الفكر البشري، وعودته إلى ما أُعلن في الجسد.

---

(١) "الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ، الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ".

(٢) راجع دفاع يوستينوس ١: ٥٩. راجع أيضاً بحث F. E. Peters بعنوان The Harvest of Hellenism "حصاد الهللينية".

الآباء الذين عاشوا تحت ظلال الوثنية:

لم تكن الإسكندرية، حيث بدأت الكنيسة المصرية، مدينةً وثنيةً تماماً، بل كانت تجمع في داخلها أكبر جالية من يهود الشتات، وهم الذين ترجموا العهد القديم المعروف باسم السبعينية إلى اللغة اليونانية. وقد صلنا من مصر - بشكلٍ خاص - أقدم برديات العهد الجديد قاطبة، وهي البردية المعروفة باسم P55 وغيرها من برديات عُثر عليها في الفيوم وفي أماكن متفرقة من مصر. وكذلك بردية P52 وهي شاهد على وجود إنجيل يوحنا، لأنها تحتوي جزء من الإصحاح ١٨: ٣١، ٣٢، ٣٣، وتحتوي على كلمات الإنجيل الخاصة بمحاكمة الرب يسوع أمام بيلاطس ثم صلبه.

ووجود هذه البردية في الفيوم حوالي سنة ١٥٠م يؤكد أن هذا الإنجيل كُتب في عصر مبكر جداً يسبق سقوط أورشليم ودمار الهيكل، لأن الإشارة إلى الهيكل في يوحنا (٢: ١٩) تؤكد أن الهيكل كان لا زال قائماً، أي قبل سنة ٧٠ وهي السنة التي دُمِّر فيها الهيكل. وعلى هذا الأساس، أي وجود الإنجيل في الفيوم في مصر حوالي سنة ١٥٠م نعرف أن المسيحية انتشرت في مصر، ووصلت إلى الفيوم مع بداية القرن الثاني الميلادي.

كذلك لدينا كتابات مسيحية سكندرية من نفس الفترة، وهي رسالة ديوجينيتوس، ثم رسالة برنابا، ودفاع اثيناغوراس، والعلامة أكليمنضس .. هذه كلها تؤكد وجود كنيسة وجماعة مسيحية في مصر. وجاءت بردية دير مار سابا في فلسطين، وهي خطاب العلامة أكليمنضس السكندري الذي يؤكد فيه أن القديس مرقس كتب الإنجيل مختصراً في الإسكندرية لتعليم الموعوظين. هذه البردية أثارت فضول المؤرخين، وقَبِلَها البعض وطعن البعض الآخر في صحتها، ولكنها تؤكد ما سجَّله يوسابيوس القيصري عن كرازة مار مرقس، وهو ما نقله باللغة العربية عن يوسابيوس القيصري (مؤرخ القرن الرابع) العلامة ساويروس ابن المقفع أسقف الأشمونين في كتابه تاريخ البطاركة.

فهل كان الآباء، وهم أكثر من قرأ ودرس الكتابات اليونانية الكلاسيكية مثل أكليمنضس وأوريجينوس .. اقول هل كان هؤلاء يجهلون الوثنية؟ وهل كان أوريجينوس ذو الاسم المصري الأصيل، فهو يعني "ابن الإله حورس" أو "مولود حورس"، والذي أتقن اللغة العبرانية بجانب اليونانية، هل كان أيضاً يجهل الوثنية؟

وإذا كان هؤلاء الآباء قد قرأوا الأدبيات الوثنية ولم يكونوا يجهلونها على الإطلاق، بل كانوا أكثر وعياً من د. يوسف زيدان وغيره بما تُعلم به الوثنية عن الآلهة وعن علاقة الآلهة بالبشر، فهل كان صعباً عليهم أن يكتشفوا أن التجسد هو تعليم وثني قديم؟

غريب جداً هذا الادعاء الذي يحكم على أصحابه بالافتقار إلى الدليل والتاريخ، تعوزهم أرضٌ يقفون عليها سوى كراهية واضحة للمسيحية، وكنيسة مصر[١].

هناك دلائل تؤكد أن بعض اليهود الذين آمنوا بالمسيحية في يوم الخمسين حسب شهادة سفر الأعمال (٢: ١٠) كانوا مصريين، ومن ضمن هؤلاء أبولوس السكندري الذي أضاف الناسخ المصري في هامش على نص سفر الأعمال (١٨: ٢٤) في المخطوطة التي تُعرف باسم مخطوطة Beta أنه "تلقى الإيمان في وطنه الأصلي الإسكندرية".

لقد كان هؤلاء يعرفون تحقيق نبوات العهد القديم، وكانوا في انتظار "المسيح" وآمنوا وأدركوا أنه هو يهوه[٢] الإله المخلص.

(١) تجاسر د. يوسف زيدان على أن يطلق على كنيستنا اسم الكنيسة اليعقوبية، وهو اسم احتقار استخدمه الملكانيون. وهو يجهل أن الاسم الحقيقي التاريخي هو الاسم الذي نردده في القداسات حيث تجتمع الكنيسة. ما أغرب الحقد فهو يخلق كل ما هو غير معقول؛ لأن الحقد يفتقر إلى ما هو معقول.

(٢) استخدم العهد الجديد اسم يهوه نقلاً عن العهد القديم (الترجمة السبعينية) اسم يهوه للمسيح يسوع على الأقل ١٢ مرة وهو ما سوف ننشره في الفصل الثاني من الرد على د. يوسف زيدان.

التجسد الإلهي له أبعادٌ ثلاثة: إلهية / إنسانية:

العيد هو كل يوم. المتجسِّد حقق بتجسده ثلاثة أبعاد إلهية / إنسانية، وعليها شيَّد المتجسد نفسه كل شيء:

أولاً: الاتحاد الدائم الأبدي بين اللاهوت والإنسانية. وقد بدأ هذا الاتحاد في بيت لحم، ونما مع مسيرة الرب نفسه، فقد عَبَرَ الموت وقام حياً في اليوم الثالث، معلناً أن جسده مُتَّحدٌ بلاهوته إلى الأبد. هكذا هدم الرب بالاتحاد الأقنومي كل ما يفصل الإنسان عن الله. **فالعيد هو عيد اتحادنا الأبدي بالله الثالوث**.

ثانياً: أسس الاتحاد حلول اللاهوت فينا نحن البشر. فقد حذَّرنا رسول المسيح أن لا نقع "سبايا" للفكر الفلسفي، وأن لا نقع ضحايا "للغرور الباطل حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم "، أي حسب كل المقاييس والنظريات التي تفصل الإنسان عن الله، وأضاف الرسول مقدِّماً أعظم نصيحة، وهي أن نكون "حسب المسيح" (كولوسي ٢: ٨) وما هو حسب المسيح"؟ والجواب من ذات كلمات القديس بولس عن "حسب المسيح":

"فإنه فيه (المسيح) يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً (كولوسي ٢: ٩). ولكن لم يقف الرسول عند إعلان مجيء الكلمة إلينا، بل أضاف: "وأنتم مملؤون فيه". تردد هذه الكلمات صلاتنا القديمة: "وعند صعودك إلى السموات جسدياً، إذ ملأت الكل بلاهوتك ..."، فقد ملأ الكل بالمعرفة (تجسد الكلمة ١٦: ٣) وبالحياة وبقوة القيامة وردَّنا إلى الشركة مع الآب بالروح القدس.

ثالثاً: ومن الاتحاد الأقنومي نبعت الأسرار: المعمودية — الميرون — الإفخارستيا وباقي الأسرار. وكوَّنت الكنيسة التي يوحِّدها الابن المتجسد "الرأس" بقوة واتحاد لاهوته بنا، كما أخذنا في الأسرار قيامة الجسد وميراث الملكوت الأبدي.

بشارة الفرح العظيم:

أيها الثالوث الواحد والمثلث بالأقانيم وبالمحبة،

محبة ثالوثية ترسل الابن إلينا، وتعطي لنا الروح القدس؛

لكي تجمعنا في "حضن الآب".

* محبةُ الآب التي تقدِّم الابن في تواضع تجسده.

* ذات المحبة التي للابن الذي يتَّحد بنا في سر تجسده.

* ذات المحبة التي تسكب الروح القدس على الجسد الذي كوِّن في أحشاء البتول؛ لكي ننال مِسحة تجسده.

* محبةٌ ناريةٌ تُبيد الموت، وترفع الدينونة، وتُقيم الحياة الإنسانية إلى خلودٍ؛ لكي نصبح نحن وارثين شكل وجوهر حياة تجسده.

* محبةٌ تنسكب في يوم العنصرة؛ لكي يجمع الروح القدس الشعوب معاً؛ لكي تتوحد وتصبح جسداً واحداً، هو جسده الكنيسة.

* بشارةُ فرحٍ أبدي.

الجسد الواحد:

يقول معلمنا العظيم أثناسيوس إن الرب "لم يمت موت يوحنا بقطع الرأس، ولا مات موت أشعياء بنشر الجسد، وذلك لكي يحفظ جسده غير منقسم وصحيحاً تماماً حتى في موته، وحتى لا تكون هناك حجة لأولئك الذين يريدون أن يقسِّموا الكنيسة (تجسد الكلمة ٢٤: ٤).

لم يُقسَّم جسدك يا ابن الله على الصليب، بل "وعظمٌ منك لم يُكسر"، فكيف تتجاسر عقولٌ نائمةٌ في أحلام الانفصال على أن تجعل لك جسداً من العذراء، وآخر في الإفخارستيا، وثالث هو الكنيسة، كأن تجسُّدَكَ لم يكن له هدفاً!! لكنك جئت لكي تجمع "أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنا ١١: ٥٢).

فأنت تجمع لأنك الحياة، أمَّا الفاشلون في المحبة فيُقسِّمون؛ لأن محبتَك مخيفةٌ حقاً، ومرعبةٌ لضمائر تحب العزلة، وتسعى إليها؛ لأن الشركة تهدد الأنانية التي تولد من هاوية البغضة.

لكنك أنت هو المولود من العذراء بلا زواج، وأنت ذاتك الذي هو على المذبح؛ لأن ولادتك من العذراء بالروح القدس، نقلت الحياة من ينبوع آدم الذي هو ينبوعِ الموت إلى ينبوعِ الحياة الأبدية المتدفِّق من ألوهيتك والمستعلَن في تجسُّدِك.

أنت هو هو المصلوب قاهر الموت؛ لأنك بالصليب عبرت بنا كل حدود الانفصال. نعم كل الحدود: حد القبر، وحد الزمان، وحد المكان، فقد دَقَّتْ المسامير في جسدك كل أبعاد الحياة المنظورة، وأعلنْتَ قيامتك.

أنت تحتوي الزمان والمكان؛ لأن الحياة غَلَبَت ليس الموت والفساد فقط، بل وكل ما هو أرضيٌ أيضاً. ولأنك حيٌ بألوهيتك، صار جسدُك حياً ومحيياً بألوهيتك، لا يأكل ولا ينام ولا يتعب ولا تحاصره أبعاد الزمان.

لقد احتوت محبتك ما يفصل المحدود وغير المحدود، فصارت المحبة أقوى من كل الحدود. عبرت بالمحدود، أي ناسوتك إلى غير المحدود بالعدد، وهو الجنس البشري، وعبرت بألوهيتك حدود الزمان؛ لأنك معنا إلى انقضاء الدهر (متى ٢٨: ٢٠) وحدود الأيام.

لقد "ارتفعت" على الصليب، ورفعت ما يمنع الشركة، وارتفعت بالقيامة، فدمَّرت القبر، وارتفعت بالصعود؛ لكي تجمع شتات البشر في ملكوت الآب.

يا وحيد الجنس، إن الكلام سهلٌ، والحديث شيقٌ، ولكن تجسُّدَكَ ليس كلاماً ولا حديثاً، بل هو المحبة الباذلة النارية التي أحبَّتْ جنسنا، فصار لقبُكَ "محبُ البشر" عَلَمَ الخلاص ورايةَ الحياة.

المجد لك مع أبيك الصالح والروح القدس.

تجسد الكلمة،

والعواصف التي تضرب سفينة الوطن[1]

مصر الرائدة:

عامٌ جديدٌ، عامٌ سعيدٌ يا مصر.

"مصـــر بلدٌ يعيش في قلوبنا"، تلك هي كلمة رائد الوطنية مكرم عبيد التي لمعت داخل مســـاحة الصـــراعات الكبرى التي تلبس ثوب العقائد الدينية، تقاوم الحداثة التي باتت تنبت في بلدنا الغالي، والتي شُيِّدت على حقيقةٍ تضرب الأحقاد بكل صــورها، ألا وهي: الاعتراف بحق الآخر، ليس فقط في الوجود، بل في الحياة الحرة والمساواة الكاملة.

في وطنٍ كان رائداً للحضـــارة والثقافة لا بُد وأن تصـــطدم الحداثة بالفقر والأمية. وعندما يصـبح رغيف الخبز مطلب حياةٍ، فمن ذا الذي يمكنه أن يسـأل عن حقوق الآخرين. وعندما يُطبق الفقر على أنفاس البشـــر، فمن ذا الذي يمكنه أن يســأل عن أهمية الديموقراطية – عندما تلوح بارقة أمل في أي نظام وتحت أي شـــعار – إذ كانت آلام المرض والفاقة قد نهشـــت كل القوى الفكرية والروحية، وأصـــبح "الغد" هو اليوم: "احيني النهاردة وموتني بكره". تلك هي صـــرخة الفقر والعوز تحاصر كل ما نعرفه عن الحرية ...

---

[1] مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الكلمة ٢٠١٢.

الكبوة:

نصف قرن من الزمان، والقوانين لا تعرف الاستقرار، والدساتير آلةٌ في يد حفنة تحكم لمصلحة أو مصالح شخصية ... فمن ذا الذي يمكنه أن يصدق الوعود أو القرارات المكتوبة، أو المعلَنة ... تلك آفةٌ تأكل أي نظام سياسي انعدمت فيه الثقة، وصار الشك هو الحاكم الأعلى السائد في ثنائية الخطاب الجماهيري.

كأن تحريك وحشد أكبر قدر من البشر، أصبح هو مقياس الحق، وكلما علا الصراخ كلما باتت الأحكام جاهزة .. ولكنها ليست أحكام القانون، وإنما هي أصوات وصراخ هذا الحشد من الناس. وما ذلك العدو الرهيب الذي ليس له حدود يقف عندها، إلَّا وحش التعذيب النفسي والجسدي بواسطة حماة القانون، وحماة حدود الوطن.

في دول العالم الأول التي توصف بالديموقراطية: الشرطة والجيش هما لحماية الشعب والوطن. أمَّا في دول العالم الثالث – تلك التي تمد يدها تتلقف رغيفَ خبزٍ – فالشرطة والجيش يحميان الحكومات من الشعب .. الشعب يدفع ثمن هذه الحماية للسادة الذين يأكلون "رزق" الشعب، ويقتلون – بعد تعذيبٍ – كل من تجاسر على رفع عقيرٍ، أو صوت يطلب أدنى حق من حقوق الإنسان التي صارت تُعرف بين دول العالم كله على أنها أول مطالب الدولة الحديثة المدنية.

الخديعة:

في أسطورةٍ قديمةٍ سمعنا أن الفضيلة والرذيلة – في يومٍ قائظٍ – ذهبا معاً للاستحمام في نهر. فأسرعت الرذيلة وخرجت من الماءِ ولبست ثياب الفضيلة، ولأن الفضيلة تعرف الحياء، فقد تعذَّر عليها أن تسير عارية، فلبست ثياب الرذيلة .. ومنذ ذلك اليوم، السُّذجُ وحدهم، اختلط عليهم الأمر، فأصبحوا يرون الرذيلة وكأنها الفضيلة، والفضيلة اكتست بالرذيلة ... نعم السُّذجُ وحدهم هم الذين

غامت عن عيونهم الحقيقة.

ولكن القتل باســـم الله، وتحت أي أحكامٍ -مهما كان مصـــدرها التاريخي- ليس سـوى الرذيلة بعينها وقد تلبسـت ثياب الفضـيلة. والقهر والاسـتبداد والظلم والاسـتعلاء والاسـتكبار واحتقار الآخرين — مهما كان ثوب أيهم — ليس سـوى اعتداء على أعظم مخلوقات الله، وهو الإنســـان، تلك حقيقةٌ لا مراء فيها لكل ذوي الفطنة.

وهكذا تجد العواصـف التي تحدث الآن بمصـر، تجد بؤرتها في تلك الشـعارات التي تعادي شـعارات أخرى، وفي الأحزاب تتهم أحزاباً أخرى ... وأصـبح الاتهام بكل أنواعه -ممكنةً أو غير ممكنةٍ- هو ثوب الرذيلة الذي تلبسه في اعتزازٍ تستمده من عنفٍ يسايرها ...

القيامة بالتجسد:

في هذه الأجواء الساخنة والمشحونة، يهل علينا عيد تجسد الكلمة ابن الله .. وبالمناســـبةِ فهو ليس عيداً ســـنوياً كما يبدو في الفلكلور الشـــعبي؛ لأن الكلمة المتجسد قال بفمه الإلهي: "جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي. عُرْيَاناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَزُرْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمْ إِلَيَّ" (متى ٢٥: ٣٥ — ٣٦).

أليست هذه هي أيقونة الحياة التي يحياها المتجسِّد كل يوم وكل ساعة؟

هكذا ترك الكلمة المتجسِّـــد حرية البحث، وحرية المحبة لضـــمائر وقلوب الأحرار. لم يؤسِّـس هذا على شـريعةٍ، سـوى شـريعة الواقع، أي واقع الجائع — العطشـان — الغريب — العريان — المريض، ثم أضـاف يسـوع دون ترددٍ: "المحبوس" أو "المسـجون". وعندما يسـأل الذين وصفهم يسوع "بالأبرار" (متى ٢٥: ٣٧): متى فعلنا هذا، أي: طعام للجائع — ماء للعطشـــان — مأوى للغريب —كســـاء

للعريان — زيارة للمريض والمسجون؟ .. هم يسألون متى فعلنا هذا معك يا يسوع؟ والجواب الحصري: "الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ — نعم أخوة يسوع في الانسانية المعذبة الأسيرة — فقد فعلتموه معي، أو حسب الأصل "فَبِي فَعَلْتُمْ" (متى ٢٥: ٤٠).

وضع يسوعُ إذن الإنسان في قلب الإنسان؛ لأنه إن لم تسكن الرحمة والمحبة والخير في قلب الإنسان، فلا قانون ولا شريعة تستطيع أن تخلق المحبة في قلوبٍ تفتش عن الغيظ والكراهية، وتُسقِطُ الأحقادَ على الآخر، وتجد في الآخر "كبش الفداء"؛ لعل في موته أو عذابه تكمن راحةٌ وفداءٌ من سرطان البغضة الذي لا علاج له إلَّا بموت المريض، لا بموت كبش الفداء. فالبغضة وُصِفَت في العهدين القديم والجديد بأنها الشيطان، وحمل ذلك المخلوق الخفي اسم "المهلك"، ... فهو يبُث ميكروب البغضة ليقتل كل من سرت فيه العدوى.

دينونة التجسد:

إليك يا مصر، لم يغب الكلمة المتجسد عن منازلك وشوارع كل مدينةٍ فيكِ أو قرية أو مزرعة أو ترعة أو صحراء .. فهو يسير مع الجائع، وهو مع الغريب.

وقديماً -يا مصر- وعلى "مصطبة" القرية سمعنا من شيوخ القرية أن "الحسنة تجوز على راكب الخيل"، أي حتى على "الفارس"، فكيف لا تجوز على الجائع والعطشان والغريب والعريان والمريض والمسجون؟

وحكمة دينونة الكلمة المتجسد تتبدى في أن الذين أنكروا الطعام والشراب والكساء والمأوى والسؤال عن المريض والمسجون، قد أنكروا حق يسوع نفسه .. تلك هي آية تجسد الكلمة .. تلك هي آية الحكم الذي لم يصدر عن دستور أو قانون بل صدر من الواقع .. واقع مَن رفض أن يكون إنساناً، فجاء الكلمة لكي يجعل — بتجسدهِ — الإنسان إنساناً حراً، محباً، ميالاً للخير، لا يعيش في سجون القوانين، بل في حرية المحبة.

لقد تجسد الكلمة لكي نكون بشراً، ليس حسب أوهام الكراهية والاستكبار، بل حسب الرحمة والمحبة والحرية من الأهواء.

زمان الكلمة المتجسد لا ينتهي:

نعم، لقد سار الكلمة المتجسد في الكشح، والفكرية، وعزبة دميان، واحتفل برأس السنة في الإسكندرية مع الذين تطايرت عظامهم قبل لحمهم، وفي ميدان التحرير، وهضبة المقطم، وأمام ماسبيرو، وغيرهم، وهو لا يزال يسير مع كل جائع وفقير، حتى مع الذين اختاروا رغيف الخبز وفضَّلوه على حريتهم؛ فسجنوا أنفسهم في سجن الفاقة وفضَّلوه على غنى الحرية ..

لم يكن للجائع -حسب خطاب يسوع- دينٌ أو جنسية، ولم يكن للمريض أيديولوجية كانت هي التي زرعت فيه المرض، وقد يكون المسجون واجباً عقابه، أو قد يكون ضحيةَ عنفٍ لا مبرر له، أو شكاية كاذبة. أياً كان الأمر، لم يشترط يسوع شرطاً واحداً لإطعام الجائع، أو كساء العريان، أو عيادة المريض، بل حَسِبَ أن كل واحدٍ من هؤلاء هو أحد "إِخْوَتِي هؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ".

ذلك هو عيد تجسد الكلمة في جوهره .. أمَّا في مظهره العام، فتلك قضيةٌ أخرى، سبق أن عُلِّقَت أحكامها على الجلجثة عندما ذُبِحَ البريء، الذي سُمِّيَ حملاً؛ ذلك أن الجزار الذي سلخه، لم يمد يده بالذبح ليأكل، بل لكي يطفئ شعلة محبة الآخرين، تلك التي لأجلها تجسد الكلمة.

الكلمةُ صار جسداً[1]

صار الكلمةُ جسداً لأن الفكر بلا جسد إنساني، هو وهمٌ وخيال يفتقر إلى حضور بشري يجعله واقعاً.

"الكلمة – Logos" وحرفياً –حسب اللغة اليونانية الكلاسيكية– هو القوة الفاعلة، هو العمل وليس النطق حسب إيحاء ووقع تعبير "الكلمة" في اللغة العربية. وحتى في العبرانية "الكلمة – Davar" تعني العمل. لأن الفصل بين الكلمة والعمل، بين الكلمة والقدرة، بين الكلمة والإرادة هو فصلٌ وتقسيم لا تعرفه الإنسانية السوية Normal.

إلى عالم العمل والحركة والإرادة والقدرة إذن، جاء "الكلمة"، الذي يحرك الكون ويعطي لكل الكائنات حدود طبعها.

صدمة تجسُّد الكلمة

"قيل وقال" تُعدُّ ملخصاً وافياً لما عرفته الإنسانية من كتابات وأقوال وأناشيد. قال هؤلاء، وقيل عن هذا وذاك .... الأخبار والأقوال ... كلها كلمات ... وهي طبعاً نتيجة أفعال، ولكن هذه الكلمات مهما كانت، سريعاً ما تختفي في طيات الماضي. هي دائماً آتية من الماضي. وهي – أي الكلمات – وإن كانت نتيجة أفعال أو تدعونا إليها، إلَّا أنها – بعد الفعل Action – تختفي، ويبقى الفعل. على سبيل المثال لا الحصر، قد نخاطب بعضنا البعض عن المحبة، وتنقل الكلمات ما نشاء أن نقوله عن المحبة، ولكن يبقى العمل هو معيار صدق ما قلناه

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٣.

عن المحبة، ويظل التصرف يعلو على ما قيل، بل ويصحح ما قيل. فقد وصلنا من التاريخ الكنسي أن عميد مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، سأل عن أعظم وصية، وجاء الرد: "حب قريبك كنفسك"، ولكن التلميذ أوريجينوس قال: "من أحب القريب أكثر من النفس، فهو تلميذ حقيقي ليسوع المسيح؛ لأن المسيح يسوع أخلى ذاته (فيلبي ٢: ٦) وبذلك لم يعد لمحبة الذات أساسٌ في تقديم ذاته قرباناً، بل صار هذا الأساس هو محبة الخطاة، وهم ليسوا مثل نفسه (ذاته)، بل أقل بكثير، ولكنه أحبهم أكثر من محبته لذاته. هذا عملٌ Action وليس قولاً".

هكذا يجيء تجسد الكلمة صدمةٌ قاسيةٌ لكل خطاب، وعلى كل مستوى؛ لأنه يعرِّي كلمات كل خطاب، ويكشف عن المداهنة والنفاق، والتستر وراء الكلمات، كما يكشف عن فشل الكلمات في أن تصبح أداةً مثل الحق؛ لأن الكلمة بدون فعل ميتة. ولم تكن محبة المسيح لنا قولاً، بل فعلاً وعملاً؛ فقد تكلم عن الغفران وغفر، وعن العطاء وأعطى ذاته، وعن قبول الخطاة وقَبِلَ الذين فشلوا في الحياة مثل السامرية. واختار من الحياة اليومية نموذجاً للبشر المجروحين، الابن الضال لكي يجعله مثالاً لقبول مَن شرد. وعَبَرَ حدود الاختلافات العرقية والدينية؛ فقدَّم مثل السامري الصالح.

صدم إذن "الكلمة المتجسد" — بالتعليم والمثال — كل التراث الديني المتراكم في مجتمعٍ عَرِفَ أن يحب القريب وأن يبغض العدو، فقال إن العكس هو حركة المحبة الصحيحة: "أحبوا أعدائكم"؛ لأن الخطاة قادرون على محبة الخطاة، فأيُ تقدمٍ وصل إليه هؤلاء إذا كانوا يحبون مَن يحبونهم؟

المحبة التي لا تتقدم ولا تنمو، تموت.

التجسد وتوحيد المسيحية

على الرغم من أننا في كل مناسبة، نقول: "نؤمن بإله واحد"، إلَّا أن الاتهام بالشِّرك لا زال صداه يُسمع في كل مكان في عالم الناطقين بالعربية. وألوهية

المسيح تجعل من أصحاب هذا الاتهام فئة تظن أن المسيح إلهٌ آخر يُضاف إلى الله؛ لأنه بشرٌ مثل البشر، وهكذا صار تجسده مصيدةً لهؤلاء، لأنهم تعاموا عن الحقيقة، أو بالحري الحقائق الآتية:

١- إن الإنسان يسوع المسيح لم يتحول إلى إله.

٢- وإن ما هو إنساني يظل إنسانياً.

٣- وإن التجسد هو استعلان توحيد محبة وشركة[١] يُشرَح بشكلٍ آخر غير التوحيد الذي ينكر تعدد الآلهة، ويحارب الشِّرك، ويقف عند نفي الخطأ، أي التوحيد السلبي.

٤- وإن توحيد المسيحية هو توحيدٌ جامع، هو توحيدٌ في ثالوث؛ لأن الثالوث هو استعلان توحيد الله، وهذه هي خصائص هذا التوحيد:

أولاً: توحيدٌ أسقط كلمة "الواحد" تماماً؛ لأنها لا تصلح للتعبير عن حقٍ يعطي. هي تعبيرٌ عن حقٍ ينفي، والنفي والعطاء لا يمكن أن يلتقيا معاً. الحق الذي يعطي هو الاتحاد الذي عبَّرت عنه الكلمة العبرانية القديمة: "اسمع يا إسرائيل: الرب إلهنا ربٌ واحد"، وبالعبرانية: "يهوه آخاد"، أي أن الله Unity وليس One فقط. فالله جاء لكي يوحِّدنا به، وتوحيدنا به مبنيٌ على توحيد الحياة الإلهية الواحدة، فلا شريك ولا مثال، ولا يوجد آخر مثل الله، هذا حقٌ ينفي، ولكن لا يجب أن نتوقف عند نفي الخطأ، بل الحق الذي يعطي هو حق استعلان الله بذاته عن وحدانية وعن دعوة للاتحاد Union بالله نفسه مبنيةٍ على ما هو كائن في الذات الإلهية والحياة الإلهية الواحدة.

ثانياً: ليس توحيداً معرَّفاً بكلماتٍ مهما كانت، بل باستعلانات، ومن هنا نشأ كسل المسيحيين عن شرح حياة يسوع كاستعلان لحق الحياة الواحدة التي

---

(١) الرجاء مراجعة كتاب الأب صفرونيوس – من آباء القرن العاشر الميلادي، والذي عاش في منطقة المنيا، وكتب بالقبطية كتابه عن الثالوث توحيد وشركة وحياة، والذي تُرجم ونُشِر على موقع: www.coptology.com.

للآب والابن والروح القدس والتي أعلنها يسوع المسيح بحياته وبصلته الخاصة بالآب وبالروح القدس، فهي ليست صلة لفظية تقوم على الألفاظ والحروف، بل على الحقائق المعلَنة في العلاقة الشخصية التي صارت تُعرَف باسمٍ دقيق يرفع الإدراك الإنساني إلى ما هو فوق الكلمات: "العلاقة الأقنومية".

ثالثاً: توحيدُ عطاءٍ. وهنا نواجه السؤال: ماذا يقدم نفي الشِّرك وتعدد الآلهة للإنسانية؟

النفي لا يحمل رسالةً إيجابيةً أصلاً. هو -حسب اللفظ- نفيٌ لخطأٍ، ونفي الخطأ يقف عند النفي، وبالتالي لا عطاء لنفيٍ. أمَّا العطاء، فهو إشراق المحبة، "هو حركة وفعل وتقديم ما لا وجود له إلَّا في الحياة الإلهية"، ولذلك يقول إنجيل يوحنا: "الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب (جاء) وخبَّر" (يو ١: ١٨). ولعلنا نلاحظ أن إضافة فعل المجيء للنص كما ورد في شرح إنجيل يوحنا لكل من أوريجينوس وكيرلس الكبير، هي إضافة يقتضيها واقع الحال؛ لأن دلالة فعل "خبَّر"، ليست مجرد القول، بل سبق للإنجيلي أن قال: "الكلمة صار جسداً وسكن بيننا" (يو ١: ١٤). ولأنه جاء إلينا، قال الرسول: "ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب"، ومن ثمَّ تكلم عن العطاء قائلاً: "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا" (يو ١: ١٦). فقد أعطي المسيح حياته، تلك التي قبلها من الآب؛ لأنه عطاء البذل في قولٍ مشهور عن محبة الله للعالم، البشر والخليقة كلها: "هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد"، والسبب: لكي يكون لمن يؤمن "حياة أبدية"(يو ٣: ١٦). ولذلك يقول الرب: "كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أن تكون له حياة في ذاته" (يو ٥: ٢٦)، وذلك: لكي يعطي الابن حياة، بل لكي "يحيي الابن من يشاء" (يو ٥: ٢١).

فوحدانية الحياة، جعلت للآب والابن، ثم في استعلان الروح القدس، حياةً واحدة تعطي حياةً لمن يريد. حياة أعظم من الحياة الإنسانية؛ لأن الابن جاء لكي "يخبر" بميلاد جديد مثل ميلاده الجديد، ميلاد يعلو على كل القوانين البيولوجية، هو:

ميلادٌ من الله،

ليس من دم ولا من إرادة إنسـان، أي ميلاد لا دخل للإرادة الإنسـانية فيه، أي ليس من الزواج،

بل من الله،

مثل ميلاد يسوع من العذراء بالروح القدس ...

ميلادٌ من الماء والروح، و"من فوق"، من عند الآب كما في الحديث مع معلم إسـرائيل؛ لأن المولود من الجسـد، يظل جسـدانياً، أمَّا المولود من الروح يصـبح روحانياً (راجع يو ٣: ٦)، مؤهَّلاً لِما هو أعلى. من هنا بالذات جاء اسـتعلان بنوة الابن للآب. ليسـت بنوةً شـرفيةً مثل لقبٍ يعطى لا أسـاس له في الكيان الإلهي.

ولهذا يجب أن يكون واضـحاً أن كل دفاع يدور حول بنوة المسـيح لله، هو دفاعٌ عن رفعة الإنسان، وعن دخول الإنسان في رتبةٍ لا يمكن أن تعطى له بواسطة أية قدرة مخلوقة، بل فقط بالاتحاد بشخص يسوع المسيح لكي نصبح أبناءً؛ لأن الله أرسـل ابنه مولوداً من امرأةٍ لكي ننال نحن التبني، وبما أننا قد صِـرنا أبناء؛ فقد نلنا روح الابن الذي به نصرخ مع الابن "أبَّا أيها الآب" (راجع غلا ٤: ٤ — ٦).

الواحد والوحدة وتوحيدٌ معلَنٌ في تجسُّد الكلمة

جاءِ تجسـد الكلمة بنموذج ومثال الواحد والوحدة. يسـوع المسـيح الرب الواحد من اثنين:

"لاهوت مساو للآب، وناسوت مساو لنا كالتدبير".

تلك الرؤية الصافية وصلنا إليها بعد صراعاتٍ مع مدارس الفلسفة في القرون الخمسـة الأولى. فقد ظلت الحقيقة في حاجة إلى تحديد عقيدي واضـح، ولكنه ليس بكلمات، بل بتذوُّق "مستيكي Mystical".

الواحد من اثنين هو واحدٌ، وهو لا ينقسم لأن كل أشكال الانقسام قد أُبيدت.

الانقسام، قد لا ندرك أنه يولد من صراعات مع ألفاظ ومع أفكار، ولكن الوحدة هي نموذج حياة ومثال محبة تجمع الله والإنسان. فالمسيح ليس إلهاً فقط، ولا هو إنسانٌ فقط. **هو إلهٌ للإنسان، وإنسانٌ بالنسبة لله**، ولكنه في نفس الوقت واحدٌ مع الآب في الجوهر (يو ١٠: ٣٠ وقانون الإيمان).

الوحدة هنا هي نموذج ومثال لا يُدرَك بالكلمات، بل بالشركة.

والواحد والوحدة، حقيقة واحدة، هي شخصٌ حيٌ غلب انقسام الموت بالصلب وبالقيامة. غلب اختلاف الله والإنسان في الطبيعة، بالتجسد. غلب الفرق بين ما هو سمائي وما هو ترابي وأرضي بتوحيد الاثنين في وحدة أبدية.

التوحيدُ هو اختبارٌ نصل إليه بالإيمان بالواحد الحي من اثنين، يسوع، وبالشركة في حياة الواحد في الثالوث.

وعندما نعيِّد لتجسد الرب، فهو عيد توحيدنا، وهو عيد وحدتنا، وهو اعترافٌ بقبول نداء الآب لنا: "هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا". لأننا لم نعد نسمع كلمات، بل نرى أعمالاً تشرحها الكلمات؛ لكي تُسلِّم الشرح إلى قلبٍ يتذوق، ونفسٍ مستنيرةٍ تتذوق وتتوحد بالذي جاء بالتوحيد.

والمجد لله في الأعالي في السموات، وعلى الأرض حلَّ السلام؛

لأن السماء والأرض توحَّدتا،

وصارت مسرة الله في بني البشر؛ لأن ابنه الوحيد تجسد وتأنَّس لأجل خلاصنا.

كل عام وانتم بخير

تهنئة حارة لقداسة البابا تاوضروس الثاني، ولكل مَن هو في كنيستنا أُم الشهداء،

ولمصرنا الغالية علينا.

الكلمة صار جسداً،

وُلِدَ في حياتنا لكي يحيا معنا وفينا[1]

الكلمة صار جسداً. حقيقةٌ، ليست عبارةً أو سطراً. الجسدُ حقيقةٌ تنطق الكلمات، ولا يتحول إلى كلمات. محبةٌ لا تعرف الحدود. لم يتكلم، ولكن تجسد لكي يتكلم، تطابَقَ الخطاب مع حياته، ومع موته. ولما مات على الصليب حُراً، أباد الموت، وقام لكي يحيا من جديد في جسدنا.

وحَّد حياته بحياتنا، من كل كلمة وعبارة، نرى عيونك وهي تشاهد الفلاح يزرع والمرأة تعجن، والصبي العنيد المتمرد، والجبان والمتردد، وحولك المحب والخائن، وجامع الضرائب، والزناة، وفي موتك المحيي مات معك لصٌ سارقٌ، وربما قاتلٌ. هذا دستور تجسدك لأنك لا تزال تطلب أكثر من سامرية في كنائسنا، ومئات مثل المجدلية، وأسقف لا يختلف عن يهوذا إلَّا في الاسم واللقب، وشياطين في أجسام بشر تنطق بالجحود وتحاول تزييف المحبة، وتلبس رداء السلطة، وتغطي السلطة بالصليب الذي لم يكن أبداً سلطةً، بل ذبحاً لكل سلطة.

أخذتَ صورة العبد (فيلبي ٢: ٦)، فصار العبدُ فيك ممجَّداً، فقد عَبَرَ فيك حواجز الانفصال، والموت، وخلع شوكة الدينونة، وأبطل حكم الفساد الذي طلبه آدم لنفسه ولنا.

وقمت -دون ان يفسد جسدك- لأن عدم الفساد هو ختم قربانك، تختم به من يأكله لكي يجلس معك على عرشك الإلهي حيَّاً مثلك إلى الأبد، ولكن بك (رؤ ٣: ٢١).

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٤.

عندما خلقنا الله على صورته، ردَّ الإنسان المعروفَ الإلهي، فخلق لنفسه آلهةً. وعندما تفشل الأصنام المنظورة، يعود فيخلق لنفسه الأصنام غير المنظورة، تلك التي تُسمَّى الآن "عقدٌ نفسيةٌ". عندما يجتمع عابدو الأصنام يختارون صنماً يسجدون له ويجدِّفون عليه في قلوبهم. فالعبيد يأكلون الخوف، ويشربون العبودية، ومن قدَّم لهم كأس الحرية شتموه وقتلوه. أمَّا أنت يا سيد الأحرار لا ترضى أن تكون سيداً على عبيد، بل سيداً مع سادة. فالعبد لن يعرف المحبة، وصوتها غريب على آذانه. أنت أخليت ذاتك وصرت عبداً لكي تحرر العبيد، ولم تبقَ في العبودية، بل كنت العبدَ الحرَّ؛ لأنك ربُّ المحبةِ، والمحبة لا تعرف العبودية، ولا تتعامل معها. المحبة تسير بقدمي الحرية.

عندما تجسدتَ أظهرت في صورة العبد، أي الإنسان الحياةَ الحقة، فلم تكن عبداً لغيرك ولا سجدت إلَّا للآب. جئتَ لكي تحيا معنا، ولم يكن هذا كافياً، بل أردتَ أن تكون في كياننا، ولم يكن هذا هو آخر العطاء، بل جعلتَ مصيرك هو مصيرنا. مصيرٌ واحدٌ؛ لأن الحياة التي تسكبها فينا هي حياتك التي لا تنفذ لأنها غلبت الموت.

الإنسان هو عيدُكَ الأبدي؛ لأنك أخذته جنيناً، ووُلدتَ بشراً وعشتَ بشراً ومُتَّ كما يموت كل ذي جسدٍ، ولكن عشقَكَ للإنسان جعلك تقوم من الموت وتحيا إنساناً جديداً غير مائتٍ؛ لأن المحبةَ لا تموت. هذا هو عيدك الأبدي.

ترى كل إنسان في يديك وفي قدميك وكل كيانك، ترى رباط المحبة، ترانا جميعاً بذات العينين اللتين قبلتا نورَ شمسِ مولدكَ، ورأت أثقال البشر المنكسرين.

لم تتردد في أن تعطي جسدك حتى ليهوذا الخائن؛ لأنك لا تحاسب الخطاة حسب خطاياهم، بل حسب محبتك، ولا يوجد فرقٌ حقيقيٌّ بين بطرس ويهوذا سوى يأسُ الخائنِ الذي دفعه إلى الانتحار. فالخطية عندك ليست درجات ومقاسات، هي واحدة، هي عدم المحبة الحقيقية.

أنت في كيانك المتجسد هو عيد الله نفسه، فالله يعيِّدُ معنا وبنا انتصار المحبة في اتحاد الطبيعتين، وفي ردِّ المجد الإلهي لصورته، وبعطية حياة أبدية، هي حياته الإلهية.

الإنسانُ هو ليتورجيتُكَ أيها المتأنِّسُ لأجلنا، وعندما تحب ناسوتكَ، فأنت بذات المحبة التي لا تدخلها الكبرياء، ولا تعرف خوف الأنانية، تحبُ كل إنسانٍ؛ لأنك صرت إنساناً من أجل كل إنسان.

هذا هو قُدَّاسُكَ الأبديُّ يأتي إلينا في تقدمةٍ أنت واهبُها، وأعطيت لنا حرية التقديم لكي نأتي إليك بحرية.

تُعَيْدنا عندما تغسلنا، فهذا عيدُك الحقيقي. وعندما تهب الحياة لنا، تحتفل بانتصارك على القبر.

وعندما تؤلِّهُنا بالخلود، تنطق السمواتُ بجودكَ؛ لأنك لم تحفظ الخلود لذاتك وحدها، بل شاركت الكل فيه لأن الخلودَ صار مثل خميرةٍ "تخمِّرُ العجين".

التجسدُ أظهر العظمة الحقيقية في تواضعٍ جعل القوةَ تخدم دون أن تقف عند حَدٍّ؛ لأنك في كل يوم لا تزال تغسل كل الخطاة[١]. وفي كل يوم تفتشُ عن قطعانٍ ضالةٍ، فلم يعد لديك خروفٌ واحدٌ ضالٌّ، بل كثرةٌ؛ لكي تقودَ الكلَّ إلى ينابيع الحياة.

يا إله المحبة هل حوَّلت تجسدك إلى كلمات؟

ذلك خوفٌ يدبُ في قلبي وأنا أكتب، ولكن عذري المقبول عندك هو أن تجسدك جعل إفرام يُنشدُ، والنزينزي مثل أسدٍ يزأرُ، وجمهوراً من شهداءٍ ونساكٍ عرفوكَ متجسداً، فنطقوا بتجسدك، ولم يتحول تجسدك إلى نطقٍ، بل جَسَّدَ النطقُ حقيقةَ محبتك.

---

(١) قال القمص مينا المتوحد إن سبب وضع مزمور ٥٠ في كل صلاة من صلوات السواعي هو استعلان رحمة الله ومحبته التي تجعله يغسل أحقر خطاة الأرض.

اليومَ ستدُقُ أجراسَ كنائسٍ لم تحترق. وكنائسُ أخرى صارت رماداً سوف يحلُّ بها صمتُ الشهادةِ. ومع دقات أجراس الكنائس، وصمت جدران وبقايا أخرى وعظام وأجساد ودماء، سوف نرى حقيقة تجسدك؛ لأننا عندما نحب الآخر نحب الوطن؛ لأن الآخر هو من نراه كإنسانٍ مقهورٍ خائفٍ يفتش عن الحرية، وقبل ذلك عن رغيف عيشٍ، وشارعٍ آمنٍ، ووطنٍ لا عبيد فيه.

لم تذهب إلى أي بلدٍ آخر سوى مصر. زرعتَ فيها عشاقاً كثيرين. خطٌّ امتد من مار مرقس إلى أنطونيوس، وأثناسيوس الكبير، وكيرلس خاتم الآباء ومارينا وتاليدا وتاوضرورة، وجيشٍ من الشهداء. وها أنت عُدتَ تسير في شوارع الإسكندرية تفتش عن الذين يرغبون في إكليل الشهادة. ذهبت إلى ملوي والمنيا ودلجا والكشح وشوارع القاهرة، وارتفع صوتُكَ عالياً في ميدان التحرير، وصُلبتَ في سيناء لكي نسير في آمانٍ. تلك هي ملحمةُ تجسدكَ الجديدةُ في كل جيل. وكلامنا عنها مهما كان، هو قليلٌ؛ لأن تجسدك ليس كلاماً، بل حياةٌ تجودُ.

لحنُ تسجدِكَ أيها الملك وإله المحبة، هو نشيدُ كل قلبٍ يتوق إلى الحرية، ويجد في اسمك الاستعلان الحق لكل ما يمكن أن يكونَ حقاً؛ لأنكَ "مملوءٌ نعمةً" وأنت الحق الذي يكشف زِيفَ حياتنا التي لو اتحدت بكَ؛ لصارت حقاً متجسداً.

يا مَن تحيا كل يوم وإلى الأبد في جسدنا وحياتنا الإنسانية، ونقلت جنسنا إلى الحياة الإلهية لأنك اتحدت به، وجعلت النعمة شركة، والشركة حياة والحياة حياةً أبدية، كنيسة مصر وديعة غالية عندك، لك فيها مذابح حية، ورُكب لم تسجد إلَّا لك، احفظها دائماً كما حفظتها من عواصف الموت؛ لأنها مثل جسدك، عديمة الفساد، فقد سرت فيها قوة قيامتك، وباركتها باتحادك بها رأساً واحداً لجسدٍ واحدٍ.

لك المجد الدائم مع أبيك الصالح وروحك القدوس.

كل عام وأنتم جميعاً بخير ... أعاد الله عيد تجسد الابن الوحيد علينا، ونحن في ملء النعمة، وسلامٌ لمصر الأرض والشعب والجيش والشرطة.

"في ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة"

(غلا ٤: ٤)[١]

ملء الزمان:

تعبيرٌ غريبٌ على آذان الإنسان وعقله. حسب الأصل اليوناني، ورد عدة مرات في العهد الجديد. على فم الرب نفسه حين قال: "قد كمل الزمان" (مرقس ٢: ٥). إنه زمان قد "سبق وأنبأ به الأنبياء" (أع ٣: ١٨)، وهو زمان الوعد الذي "حضر يوم الخمسين" (أع ٢: ١)، وهو زمان تحقيق المواعيد: "لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا" (متى ١: ٢٢-٢٣). وهو زمان ما يحدث من أحداث سبق الأنبياء فأخبروا بها.

وتحقيق النبوات حسب التعليم الرسولي في إنجيل متى بالذات (٢: ١٥ و١٧ و٢٣ – ٣: ١٥ – ٤: ١٤ – ٥: ١٧ – ٨: ١٧ – ١٢: ١٧ – ١٣: ٣٥ – ٣٥ – ٢١: ٤ – ٢٧: ٩)، لا يعني حسب الفهم الشائع أن الاحداث تتم حسب النبوة، ليس هذا هو المقصود؛ لأن النبوة لم تصنع الحدث، هذا مذهب القدريين، بل جاءت كل النبوات سابقة للأحداث كلها، فصارت الأحداث هي التي تشرح النبوة وتؤكد تمامها.

النبوة رؤية سابقة للزمان وللأشخاص. والحبل البتولي جاء ببشارة وبعطاء

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٥.

الآب، سبق وأخبر عنه أشعياء، ولم يكن في النبوة عن الحبل البتولي تحديدٌ ليومٍ أو سنةٍ أو حتى اسم القديسة مريم، لكن لما جاءت البشارة، ظهر معنى النبوة.

لعل أفضل مثل على ذلك، هو طرد الباعة من الهيكل (يوحنا ٢: ١٢-١٧)، فبعدما طرد الرب الباعة "تذكر تلاميذه أنه مكتوب غيرة بيتك أكلتني" (٢: ١٧). ولم يركب الرب الجحش لكي تتم النبوة. لم تكن النبوة استعراضاً يتم، بل سبق النبي فرأى ذلك الدخول، وأخبر عنه، وظهر معنى النبوة بالحدث. ثم ليس حسب "القضاء والقدر"، بل حسب ما هو أعظم من القضاء والقدر، وهو "التدبير" الذي سبق خلق العالم (أفسس ١: ٤).

هذا التدبير سابقٌ على خلق الزمان؛ لأن خلق الزمان مرتبط بخلق الكون وخلق الشمس والأرض. ومن الخطأ أن نظن أن الأيام "حُبلى بالأحداث"، بل الأحداث هي التي تلد الزمان والأيام.

يبقى أن نتذكر أن كلمة ملء = كمال = تحقيق.

لذلك يقول الرسول: "لتدبير كمال أو ملء الأزمنة". الأزمنة تأتي إلى موعد، وهو يحين حين "يجمع (الآب) كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض" (أفسس ١: ١٠-١١). فالحركة والعمل الإلهي المستعلَن في الزمان هو الذي يحرك الزمان، ولم تكن حركة الزمان بما فيه من أحداث، هي القوة المحركة، فلم يكن الرب يسوع ضحية الأيام والظروف والمناسبات حسب فكر "القدريين"، بل هو "الكائن على الكل الإله المبارك" (رو ٩: ٥)، هو الذي يعمل، وهو الذي يحرك الأحداث. وقد رأى الأنبياء هذا، وكُتبت النبوات في سطور قليلة جداً، بل من الوقائع المدهشة في قراءة الرب يسوع لنبوة أشعياء (٦١: ١-٢)، أنه لم يقرأ عبارة النبي التي وردت بعد "لأنادي بسنة الرب المقبولة"، أي سنة اليوبيل التي يتم فيها إطلاق سراح الأسرى ونهاية كل الديون، ولكن الرب قصد أن يترك العبارة التي بعدها، والمتصلة بواو العطف: "وبيوم انتقام لإلهنا" (أش ٦٣: ٢)، ذلك لأنه لم يأت للانتقام، بل للخلاص.

أرسل الله ابنه:

"الزمان الحاضـــر" (رو ٣: ٢٦)، هو الزمان الذي اســـتُعلِن فيه الابن "ربٌّ واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١كو ٨: ٦)، في هذا الزمان الحاضر حدث ما يفوق كل تصور العقل عن المحبة.

– جاء إلينا البِكر – خالق كل الأشياء في السموات وعلى الأرض.

– الذي "الكل"، أي كل الخليقة "به"، والأهم "وله قد خلق الكل"؛ لأن الكل لأجله باقٍ.

– فهو قبل كل الأشياء كإلهٍ

– "وفيه يقوم الكل"، أي يبقى في الوجود (كولوسي ١: ١٥–١٧).

ثم توقفت حركة الزمان؛ "لأن فيه سُرَّ أن يحل كل الملء" (كولوسي ١: ١٩). لم يعد استعلان الله، حسبَ أزمنةٍ مثل الفصح أو المظال أو سائر الأعياد، ولذلك لما جاء "ملء الزمان"، واتحد اللاهوت بالناســـوت، عَجَزَ الزمانُ عن أن يكون وسيطاً فاعلاً في هذا الاستعلان كما كان في العهد القديم.

لذلك السبب، بعد البشارة، يكاد الرسول يصرخ: "أتحفظون أياماً وشهوراً وأوقاتاً وســـنين. أخاف عليكم أن أكون قد تعبت فيكم عبثاً" (غلا ٤: ١٠). تلك هي "الأركان الضعيفة الفقيرة" حسب الترجمة البيروتية، أو تلك هي (المبادئ التي قامت عليها العبادة الزمانية)؛ لأن Τα στοιχεια هي Basic Principles وهي شريعة موسى التي وُصِفَت باسم "أركان العالم"، التي كانت أساس الاستعباد (غلا ٤ : ٣) والسؤال الذي أثاره الرسول: "كيف ترجعون؟" إلى هذه الأركان، هو سؤالٌ استنكاري؛ لأن التحول الإيماني والحياتي الذي يتكلم عنه الرسول هنا (راجع مثلاً أفسس ١: ٩ – لوقا ١: ١٦ – أعمال ٣: ١٩)، أصبح هو الردة (٢بطرس ٢: ٢١–٢٢) إلى الوراء.

جاء الابن مولوداً تحت الشريعة:

لو توقف الرسول عند هذه العبارة؛ لعادت الكنيسة إلى المجمع اليهودي، ولكن هكذا يجب أن نُسمع هؤلاء المقيمون في "برية السلفية" صوت الرسول الصارخ: "ليفتدي الذين تحت الشريعة. لننال التبني" (غلا ٤: ٥)، وليكن معلوماً أن:

* فداءُ العبيد، لا يُعيد العبيد إلى مجتمع العبيد؛ لأن الكنيسة "جسد المسيح"، جسد الحر والفادي، والذي حرية يسوع تسري في كل أعضائه (١كو ١٢: ١١-١٢).

* لم يكن الفداءُ قاصراً على محو الخطايا، حسب التعليم الشائع، بل هو عطية التبني، تلك التي تجعل كل من نال هذه العطية يقول بالروح القدس: "أبَّا أيها الآب"؛ "لأنه بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً (صرخة الروح فينا ومعنا) يا أبَّا الآب"، فقد سقطت كل القيود، ولذلك يكمِّل الرسول: "إذاً لست بعد عبداً بل ابناً".

حرية البنين:

من الصعب أن نَصِفَ الحريةَ للعبيد؛ لأن العبد يظن أن الحرية انفلاتٌ، وأن الوصايا قيودٌ، رغم أن كلمة "الوصية" هي أقرب ترجمة للكلمة العبرانية **מצזאה** لأن الوصية ليست هي الأمر Commandment بل الفهم والحكمة التي تؤدي إلى الحياة. فنحن لا زلنا نقول -حتى في العامية المصرية- إن الوصية = نصيحة حكمة = طريق حياة وسلامة. هكذا ما يجده الحر في مزمور ١١٩ عن الشريعة أو الوصايا "المصباح للرجلين" ومحبة الوصية في هذا المزمور بالذات هي محبة الحياة.

* إن حرية البنين لها أساس واحد، وهو اتحاد اللاهوت بالإنسانية التي أخذها المخلِّص من أم النور القديسة مريم، ولذلك، الأناشيد التي تقال في شهر كيهك، تسبِّح نعمة الله الغنية التي تفوق الإدراك، وعلى هذا الأساس:

١- جاءت حرية الصلاة إلى أبًا abba أيها الآب.

٢- لم يعد لنا مواسم للصلاة ومواعيد لا تجوز الصلاة فيها إلَّا حسب التوقيت.

٣- فتح لنا التجسد ينبوع الحياة الإلهية، فصرنا نأخذ منه في السرائر كل ما حدث في التدبير: الولادة من الروح القدس والماء (المعمودية) — مسحة الروح القدس (الميرون) — إبادة الموت وعربون الحياة (الإفخارستيا) — شركة في ميراث الملكوت (الإفخارستيا).

الإيمان بالمتجسد ودونية الإنسان:

يظل تجسد الله الكلمة أكبر تحدٍّ لكل ما ورثته الإنسانية من أفكار ومعتقدات عن دونية الإنسان. الأمثلة كثيرة: تحول الشخص إلى شيء في آلة انتاج، وحتى في الكنيسة يمكن أن يتحول الشخص إلى شيء، إذا غابت المحبة وساد التسلط وحلَّت الشريعة محل النعمة.

ولذلك، ليعلم الذين فرضوا أحكام الشريعة القديمة على أعضاء جسد المسيح من النساء بشكل خاص، أنهم لا يدركون أنهم وضعوا المسيح نفسه تحت ذات القيود. عندما قال الرب لشاول مضطهد الكنيسة: "لماذا تضطهدني؟" كان يعني أن الاضطهاد يمسَّه هو شخصياً؛ لأنه يمس جسده: "أما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١كو ١٢: ٢٧).

نحتاج إلى ترجمة جديدة إلى لغة عربية رصينة لرسائل القديس بولس الى: رومية – غلاطية – كولوسي – عبرانيين، فقد غاب من الوعي الفصل الدقيق بين العهد الأول القديم والعهد الجديد الأبدي. العهد القديم، أو الأول لا زال يضع البرقع على وجوه كثيرين لكي لا يروا مجد المسيح. مع أن مجد موسى زائل (١كو ٣: ١٢)، ولكن يبدو أن الرسول بولس كان يكتب نبوةً عندما كتب: "أُغلظت

أذهانهم لأنه حتى اليوم — (يوم بقاء شريعة تطهيرات الجسد) — ذلك البرقع ذاته عند قراءة العهد القديم باق غير منكشف. وهنا يشدد الرسول: "الذي يبطل في المسيح" (٢كو ٣: ١٤-١٥). وعندما لا يأخذ المجمع المقدس للكنيسة القبطية قراراً يعلن فيه أن النساء أطهارٌ بسبب سكنى الروح القدس، يتم قول الرسول: "لأنه حتى اليوم حين يقرأ موسى، البرقع موضوع على قلوبهم. ولكن عندما يرجع إلى الرب يرفع البرقع" (٢كو ٣: ١٥). على أن من يرفع ذلك البرقع هو الروح "روح الرب"، فإذا كان الروح، الأقنوم الثالث قد تحول عندهم إلى مواهب وقوة و.... الخ؛ لذا يتعذَّرُ علينا أن نتغير إلى صورة مجد المسيح.

عندما تصبح الشريعة هي سقف الكنيسة، فإن دونية الإنسان تصبح هي قاعدة التعامل غير عابئين بأن السبت جُعِلَ للإنسان، ولكن عندما يصبح الإنسان مخلوقاً لأجل السبت، فإن الخدمة تصبح عبادة، والصلوات والأصوام لم تعد وسيلة، بل هدفاً.

وحتى قراءة الكتاب المقدس، لا تفلت من هذا الطوق؛ لأن

– الابن يقرأ عن المحبة والشركة والنعمة وعمل الروح القدس، أما العبد، فإنه يبحث عن الدينونة وغضب الله وجهنم النار.

– الابن يرى الدينونة ويفرح بالخلاص، أما العبد فيراها ويرتعب؛ لأنه لم ينل "روح الرب".

– الابن يعرف أن غضب الله هو رفض الله للشر، وعدم قبوله له، أما العبد فيظن أنه هو محور غضب الله.

– جهنم هي مصير الأشرار، ولكن من صار واحداً مع المسيح، لا يفكر في جهنم، بل يفكر في الميراث الأبدي.

وعندما نقول نحن نحتاج إلى ترجمة عربية جديدة تكشف لنا عن المعاني الحقيقية في الكتاب المقدس، فالأمر لا يقتصر على الكتاب المقدس وحده، بل

يمتد ليشمل الليتورجية أيضاً، فالقطعة الليتورجية الرائعة التي تجيء في نهاية القداس الباسيلي: "قُدنا إلى ملكوتك، أو اعطنا طريقاً لدخول الملكوت — **ϭⲓⲙⲱⲓⲧ ϧⲁϫⲱⲛ ⲉϧⲟⲩⲛ ⲉⲧⲉⲕⲙⲉⲧⲟⲩⲣⲟ**"، والمقصود هنا اتحادنا معه في الإفخارستيا، تُرجمت بروح الشريعة إلى: "اهدنا إلى ملكوتك"، فأطاحت "الهداية" بالمعنى الفخم من وراء كلمات التقوى الليتورجية. أما "بروح يسوع"، فنحن في مجد الملكوت، ولا نحتاج إلى هداية؛ لأننا ورثة الملكوت والنعمة التي نحن مقيمون فيها (رو ٥: ٢).

كل عام وأنتم بخير، الكنيسة كلها، والوطن كله، سائلين الخير والتقدم والسلام لمصر، ولأم الشهداء.

تجسُّد الكلمة – استعلانات الكلمة[1]

الكلمة صار جسداً وسكن بيننا (يوحنا ١: ١٤).

جعلَ الكلمةُ جسدَه مجال استعلان الأُلوهة، فقد نقل كيان الإنسان من آدم إلى كيانه الذي جاز به الحبل والولادة والنمو (لوقا ٢: ٥ – ٧، ٥٢)، ومُسح بالروح القدس لأجلنا لكي يكون لنا نصيبٌ في مسحته (القديس أثناسيوس ضد الأريوسيين ١: ٤٧)، ثم تقابَلَ مع الموت على الصليب، فسحق الموت وأباد الجحيم عندما نزل لكي يبشِّر الأموات، فوضع حداً لسلطان الجحيم، ولم يَمَسَّهُ الفسادُ، فحفظ لنا عدم الفساد والخلود بالقيامة، ثم مجَّد الإنسانيةَ بالصعود والجلوس على عرش الألوهة عن يمين الآب (رؤ ٣: ١١).

استُعلِن الكلمةُ كخالقٍ؛ لأنه وُلِدَ بدون زواج. واستُعلِن كمحبِ البشر عندما جاز كل مراحل حياتنا الإنسانية من حَبَلٍ وولادةٍ ونموٍّ، وصارت محبته للبشر أبديةً؛ لأنه أقام جسده بمجد الألوهة، لكي يعطي للإنسان مجداً أبدياً، ننال بذرته في السرائر ويكمُل في يوم القيامة.

صار الجسدُ هو أحد مجالات استعلانات أُلوهية الكلمة، فقد وحَّد كيانه بنا نحن البشر "الجالسين في الظلمة وظلال الموت"، فأشرق علينا بنور حياته الذي سطع في أعضاء جسده من قديسي وشهداءِ ونساك الكنيسة، وكل جيش التائبين الذين يحملون صليبه ويسيرون خلف الكلمة المتجسد.

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٦.

انفتحت قدرات الإنسان ووعيه على المحبة الإلهية للبشر بتجسد الكلمة بشراً إلى الأبد، فنال الجسدُ كرامة التقديس بالروح، وصار شريكاً في التحول العظيم الذي جاء مع تجسد الكلمة:

– فقد صار يسوع هو الوسيط بين الله والبشر، إنساناً في جوهر الألوهةِ، وبشراً مساوياً لنا في الإنسانية –ما خلا الخطية وحدها– ولكي يوحّد الإنسان بكيانه الإنساني الذي شطرته الخطية، وصار يعاني من الانفصال والصراع بين الزماني والأبدي – المادي والروحي – السمائي والأرضي. ولم يأتِ لكي يبيد هذا أو ذاك، بل جعل الأبدي يتجلى في الزماني في خدمته في الليتورجية.

– وأدخل المادة مجال الروح، فصارت المياه تقدِّس الجسدَ والنفسَ في المعمودية، إذ صارت مياه الولادة الجديدة.

– ولما جلس على عرش الألوهة بعد صعوده المجيد، صار "رأسَ" الخليقة المنظورة وغير المنظورة، وسكب على الخليقة والبشر الروح المعزِّي، فوحَّد السماء والأرض، ولذلك تُنشد أُم الشهداء في أحد تراتيل العنصرة: "جعل الاثنين واحداً، أي السماء والأرض".

– ورتَّب حراسة القوات الملائكية للمؤمنين، فصارت الكنيسة "بيت الملائكة"، وسبقنا لكي يعد لنا مكاناً على عرش مجده (رؤ ٣: ٢١).

عندما يغيب زخم تدبير التجسد، تحل "دونية الإنسان" مكان مجد الإنسان في يسوع المسيح، وهو اللحن السمائي الذي تغنَّى به آباء الكنيسة الجامعة، ووُضِعَ ملخَّصاً في عبارةٍ سهلةٍ: "**أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له**".

وعندما تخبو قداسة الجسد، ينمو الاستبداد والقهر بأعضاء جسد الرب المؤمنين بيسوع، الأخ البكر لنا (رو ٨: ٢٩)، ويسقط الذين نالوا الحميم الجديد في بئر الاغتسالات اليهودية، والرِّدة إلى الشريعة القديمة التي فقدت دورها في تدبير الخلاص.

وعندما تحل الشــــريعة وأحكام الخيالات والفتاوى محل محبة الله للبشـــــر، كل البشـر، كل الخطاة، فإن قسـاوة القلب تنمو مثل سـرطانٍ يأكل الحياة الداخلية في هدوء لا يلاحظه إلَّا من ذاق المحبة.

فيا كلمة الله الآب الذي تجسَّد وتأنَّس لأجلنا،

أنر بصائرنا لكي نرى عزة كل إنسان عندك

طهِّرنا من قساوة القلب، ومن العمى الروحي لكي نرى مجدنا فيك.

واجعل هذا العيد فيضَ سلامٍ لمصر وللرئيس والقوات المسلحة والشرطة،

ولشعب مصر كله.

وأحرس أُم الشهداء من المعلِّمين الكذبة،

واعطِ حكمةً أوفر لقداسة البابا والآباء المطارنة والأساقفة والقساوسة الأرثوذكسيين،

ولكل شعب أُم الشهداء،

واجعلنا خيراً ونوراً وتقدُّماً لبلدنا العظيم مصر.

"والكلمة صار جسداً وسكن بيننا"[١]

عيدٌ سعيدٌ، رغم الأحزان، وفرحٌ في وسط دموع كل أسرة مصرية فقدت عزيزاً عليها في نيران أحقاد وكراهية الإرهاب الدموي الذي -دون أي سببٍ معقول- نزع حياة مصريين ومصريات في الكنائس وسيناء والقاهرة والإسكندرية، وأماكن أخرى من بلادنا الآمنة. ليسكب ربُّ السماء والأرض تعزيةً وسلاماً من فوق في كل القلوب الجريحة.

الكلمة المتجسد:

عندما تقدِّم التوراة قصة الخلق بالكلمة، دخلت الكلمةُ في كل شيء، في الحياة الإنسانية. ولا نستطيع أن نتكلم أو نعبِّر أو نتواصل بدون كلماتنا، فقد صارت الحياة الإنسانية، الوعاء الإنساني الذي تُولد وتحيا فيه كلماتنا. من كياننا الإنساني: العقل والإرادة والخيال والعواطف وكل ما يوصف بأنه إنساني تُولد الكلمات، وتخرج من الفم إلى آذان وعقول الغير لكي تخلق التواصل. تحمل الكلمة لمسة الكلمة Logos أي القدرات المتنوعة على: الخلق بالفكر الجديد، وعلى الاستنارة بطرد الأفكار السقيمة، وتنشر المحبة والفهم وتصبح غذاء الحكمة والإدراك. ولكن الشر أصاب الكلمة، فصارت رسولَ الخصام خالقةَ العداوة؛ لأنها تستطيع -أي الكلمات- العبث المدمر لا بمشاعر الفرد الواحد فقط، بل الجماهير أيضاً. فقد امتزج الحق بالباطل، واختلط الزور والبهتان والكذب بما هو خير وصواب وعادل. وامتص الموتُ القدرةَ على النطق، حيث تولد كل كلمة، فولدت كلمات: النهاية، والعدم، والفناء. وصارت قوةُ الموت والتدمير لاصقة بالنطق، فصار للكلمة قدرة الهدم، بل والموت. عندما قالت الجارية لبطرس الرسول أثناء

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٧.

محاكمة الرب: "لهجتك تظهرك"، فقد كان ينطق الآرامية بشـــكلٍ مختلف. كانت الجارية تعبِّر عن مســيرة الكلمة الطويلة جداً في التاريخ الإنســاني، صــار النطقُ والحديث، أو كما درج القدماء على تسميته بـــ"اللســان"، هو بمثابة تحديد لهوية الانتماء، ولكل ملامح الشــخصــية الإنســانية؛ لذلك جاء الكلمة Logos لكي يفدي كلماتنا من الزيف والكذب، مِن أن تصــبح رســول الضــلال. قبل الكلمة Logos كانت المحبة الإلهية والإنســانية تســير في طرقٍ عدة، طريق الغواية، وتعظيم محاسن الجسد، واصطياد السذج بالكلام المعسول الذي لا يعبِّر عن حقيقة. فقد أمسـك فسـاد الإنسـان بأشـرف ما لديه، وهو المحبة، وأغلق عليها باب الكذب، وسلَّم مفتاح الزنزانة لمعسول الكلام، فصار للمحبة ضحايا سقطوا فريسة الإغراء؛ لأن الكذب تكلَّم باســم المحبة، وعجز الســـذج عن التمييز بين مَن يحب ومَن يســتعبِد، وبين مَن يقول الحق، ومَن يدهن كلامه بكلماتٍ عن المحبة لكي يخفي الفخ المنصوب للضحية.

وفي عالم الكلام حيث يغلب الحديث على كل شـيء، الكل يريد الكلام ولو كان كلاماً بلا غاية وبلا مضمون، بل مملوء بالكذب. دخلت الأسفار المقدسة، وصــارت تقدَّم أحياناً بواســطة أنبياء كذبة، ومرات بواســطة معلمي الحق، وتعذَّر على القراء التمييز، وامتلأت رفوف المكتبات بكتبٍ كُتِبت لنشــر فوضــى عقلية تهدف إلى محاربة كل ما هو حق وصالح.

لذلك جاء الكلمة Logos وتجسَّـــد لكي لا تكون المحبةُ خطاباً، بل حياةً، ولكي لا تصبح الكلمةُ نطقاً يمكن أن يُستَخدم بغير الحق. تجسد الكلمة Logos لكي تصبح المحبة حياةً تُوهَب للآخرين، وتغفر حتى للأعداء وتصنع السلام.

تجسَّــد لكي لا يبقى الله أسـيراً للخطاب التقوي مهما كان يخلع على الله ما شاء من ألقابٍ وصفات هي إبداعُ العقل، وقدرةُ النطق، وحسب ميول قائلها أو كاتبها، كوصف الله بالقسوة ولذة الانتقام من الإنسان، وأن يصف الله بما شاء ما عدا المحبة.

"تجسَّد الكلمة لكي يصبح جسده كلمةً"، وهذه أضعف ترجمة لعبارة أستاذنا أثناسيوس الرسولي (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣) لأن λογωθεισης της σαρκς فالفقرة كلها عن نقل أصل الإنسان من آدم الأول إلى آدم الأخير، وعن قبول الرب لكل ضعفات الجسد لكي يلاشيها الرب عندما يخلقنا من جديد، فلا نعود ترابيين "لأن الجسد لن يبقى بعد ترابياً، بل تألَّه (بقوة) اللوغوس لأن الله الكلمة صار جسداً" (٣: ٣٣).

كيف صار الجسدُ كلمةً، أو بعد أن نُقِل من الأصل الترابي إلى الأصل السمائي الجديد؛ لأن λογω من اللوغوس Logos و Θεισης من Theos وهنا القيامة ختمت الإنسانية بختم الخلود وميراث الملكوت الأبدي.

الكلمة المتجسد سكن بيننا:

حرفياً εσκηνωσεν أي نصب خيمته، وحرفياً أيضاً εν ημιν لأن الخيمة نُصبت بين البشر، فهو بيننا، وحتى إذا قلنا: "فينا"، فالتعريب لا يقف عند الكلمات؛ لأن التجسد جاء "بحضورٍ متجسد لله الكلمة"، وهو التعبير الوارد عند أثناسيوس الرسولي في (تجسد الكلمة ٨: ٢ - الرد على الأريوسيين ٢: ٥٥ — ٢: ٦٦) هو حضور متجسد أبدي جعله "رأس" الجسد الواحد الكنيسة.

فقد صار تجسد الابن هو الهيكل الأبدي الذي أقام الكنيسة لتكون هيكلاً له. وسكنى الابن بيننا أعلنت بشارة الإنجيل.

الكلمة صار جسداً:

الحضور المتجسد لله الكلمة هو حضورُ مَن "أخلى ذاته". ولم يتوقف إخلاء الذات بعد صعود الرب بالجسد، لأن يسوع بكل يقين مُجِّد، وجلس عن يمين الآب، ولكن ظل إخلاء الذات هو حركة المحبة التي لم تتبدد؛ لأن المحبة هي إخلاءٌ للذات. كان الأب بولجاكوف في ثلاثيته عن الحمل والباركليت والعروس، هو مَن أشار إلى أن إخلاء الذات هو حركة حياة ومحبة في الثالوث؛ لأن الآب أخلى ذاته

بإرسال الابن ليعلِن عنه، والابنُ أخلى ذاته وأرسل المعزِّي لكي يعلنه، والمعزِّي أخلى ذاته لكي تعلنه الكنيسة. وإخلاء الذات هو ما نراه في تقديم الرب لحياته لنا في القداسات؛ لأن مَن يقول لنا: "خذوا كلوا .. خذوا اشربوا. هذا هو جسدي .. هذا هو دمي"، هو مَن لم يجعل إرادته تحت حكم الزمان، أي زمان الاستعلان، لكي تتغير هذه الإرادة وترتد إلى الاحتفاظ بالحياة؛ لأن هذا يمكن أن يحدث لنا، ولكنه لا يمكن أن يحدث للرب بسبب ثبات محبته. وحتى تصدر دراسة عن شرح إنجيل يوحنا للقديس كيرلس الكبير، فاننا في الفقرة التي يشرح فيها (يوحنا ١٧: ٤-٥)، نجد المسيح يخاطبنا كإنسان وكمثال τυπος وبدء αρχη وأيقونة εικων والأهم هو أنه أعلن لنا "كيف نحيا"؛ لأن الرب يسوع هو الوسيط الذي فيه استُعلِن كل ما يخص الله وكل ما يخص الإنسان، إذ صار هو "الحدود المشتركة بين الله والإنسانية". وتعبير "الحدود المشتركة" ورد في شرح ليوحنا (١٠: ١٥) للقديس كيرلس: "لأنه على نحو فريد ωκειωτα على علاقة بالآب، والآب على نحو فريد على علاقة به بسبب وحدة (الطبيعة الإلهية)، وهكذا نحن على علاقة به؛ لأنه تأنس وصار إنساناً لأجلنا، وبواسطته كوسيط عُدنا إلى الآب، فصار المسيحُ كما لو كان الحدود المشتركة μεθοριον ωσπερτι (راجع لامب عمود ٨٣٩ حيث يرد التعبير عند أوريجينوس والنيسي أيضاً). وترجمة الكلمة μεθοριον إلى "الحد المشترك" أكثر دقة لأنها تشرح لنا الحضور المتجسد.

صار تجسده هو الحدُّ المشترك بيننا وبين الثالوث، وليس الابن فقط، أو الروح القدس. وصار حضوره المتجسد هو الرأس أو الأصل الذي منه كل الأعضاء تنمو "نمواً من الله" (كولوسي ٢: ١٩)؛ لأن "فيه سُرَّ أن يحل كل ملء اللاهوت جسدياً" (كولوسي ١: ١٩ مع ٢: ٩) لكي "نمتلئ نحن فيه" (كولوسي ٢: ١٠).

وكرأسٍ وبداية الخلقة الجديدة "يجمع ولا يفرق"، يجمع كل المذابح في إرادة العطاء الأزلي السابقة على خلق العالم (أفسس ١: ٣)؛ لكي "يوزِّع". والحضور المتجسد هو الذي يجعلنا نقول -كما لو كان بصيغة الغائب؛ لأن خادم السر

الكنسي ليس هو مؤسِّس السر، بل خادمه: "أخذ خبزاً .. وقال .."، إشارةً إلى حضوره الإلهي المتجسد.

تصويب الوعي:

علينا أن نعود دائماً إلى ثلاثة حقائق مُستعلَنة في تجسد الله الكلمة:

الأولى: اتحاد اللاهوت بالناسوت، فهو ينبوع كل العطايا الإلهية؛ لأن الرب لم يأت لكي يجدد النفوس فقط، بل الأجساد أيضاً. وما حدث لجسده بسبب اتحاده بلاهوت الرب، يُوهَب لنا. وأول ما يُوهَب لنا هو عودتنا إلى أصلٍ سمائيٍّ إلهيٍّ، فهو الذي جعل الرب يختار أن يُحبل به بدون زواج؛ لكي ينتهي الانتماء الآدمي الأول، وننال الانتماء إلى آدم الثاني "كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢١-٢٢)، فقد صارت الحياة حرةً من الانتماء البيولوجي الذي لا زلنا نحاول التمسك به، بل ونفرضه على الآخرين، تاركين التعليم الرسولي الذي أخذ الحبل البتولي كأساسٍ للجديد: "لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان في المسيح يسوع. ليس يهودي ولا أممي. ليس عبدٌ ولا حُرٌّ. ليس ذَكَرٌ ولا أنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلا ٣: ٢٦-٢٨).

الثانية: لقد صرنا جسد المسيح الواحد غالب الانقسام. وكل انقسام تم في التاريخ تجاهَلَ هذه الحقيقة الإلهية الواضحة. والوحدة التي نعنيها هنا سببها أن ما هو في المتجسد، أصبح فينا جميعاً، أي الحياة الجديدة التي جدَّدها يسوع، وهي حياته هو التي تُوهَب لنا في السرائر وفي الكلمة بالروح القدس. وهي ليست مجموعة أفكار تدرس في اللاهوت النظري Systematic بل حياة، حياة الأقنوم أو الشخص. وكل محاولة تمَّت في التاريخ للفصل بين المسيح وبين أعضاء جسده، كانت تعبِّر عن تحدي محبة وتواضع الله، وعجزٍ عن فهم بشارة الإنجيل: "في ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة .. ليفدي الذين تحت الشريعة" (غلا ٤: ٤-٦).

الثالثة: جاء التجسد باتحادٍ لا انفصال فيه. وعندما يمسك الكاهن بالتقدمة

في الصــينية بعد التقديس ليقول إنه يعترف إلى النفس الأخير أن "لاهوته لم يفارق ناسـوته لحظة واحدة ولا طرفة عين"؛ لأنه جعل ذلك الاتحاد "واحداً بغير انفصـال ولا اختلاف ولا تغيير"، فهو وإن كان يعترف بما هو حق في رأس الجســـد، فهو يعبِّر أيضـاً بشــكلٍ مباشـرٍ أن هذا هو ذات اتحاد الرأس بالأعضــاء؛ لأن تقديم الذبيحة "جســـد ودم عمانوئيل إلهنا هذا هو بالحقيقة آمين"، هو تقديم الحياة الغالبة كل انفصال، وكل تحوُّلٍ إلى ما هو قديم.

الأخوة والأخوات الأحباء...

لنحب بعضـــناً كما أحبنا يســـوع؛ لأن المحبة هي رباط الكمال. لنحب أجسادنا لأن الكلمة صار جسداً، ونحتفل بعيد تجديد الإنسانية، لا بميلاد طفلٍ، بل بتواضع الله الكلمة وتنازله ليكون "بيننا".

تهنئة لقداســة البابا تواضـروس الذي يقود مســيرة عودتنا إلى تراثنا، وإلى الآباء المطارنة والأساقفة الأرثوذكسيين، والآباء القساوسة وكل شعب أُم الشهداء كنيســتنا القبطية الأرثوذكســية. ســائلين الله أن يأتي هذا العيد علينا وعلى مصــر بالسلام والرخاء.

عيد تجسُّد الله الكلمة،

هو عيد تجسُّد المحبة الإلهية[1]

استعلان المحبة وقناع اللغة

كتب رسـول الرب يوحنا: "أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُـنَا بَعْضـاً، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ" (١ يوحنا ٤: ٧) ولم يكتف بذلك بل أضـــاف: "وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ" (١ يوحنا ٤: ٨). ولأن "الله محبة" صار عند البعض مجرد تعبير، فقد استوجب ذلك استعادة التعليم الرسولي؛ لأن الرسول يكتب بعد ذلك:

"بِهَذَا أُظْهِرَتْ مَحَبَّةُ اللهِ فِينَا:

أَنَّ اللهَ قَدْ أَرْسَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ إلى الْعَالَمِ لِكَيْ نَحْيَا بِهِ" (١ يوحنا ٤: ٩).

فقد درج البعض على اعتبار المحبة صـفة من صـفات الله، ومع اسـتخدام صيغة المؤنث للمحبة، تأصَّل ذلك الفهم الخاطئ الذي يعتبر:

- أن المحبة ليست لها إرادة كصفة ..
- وأن المحبة ليس لها عقل ..

في حين أن المحبة استُعلِنت حسب الرسول يوحنا: "فِي هَذَا هِيَ الْمَحَبَّةُ:

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الرب ٢٠١٨.

- لَيْسَ أَنَّنَا نَحْنُ أَحْبَبْنَا اللهَ،

- بَلْ أَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَا، وَأَرْسَلَ ابْنَهُ كَفَّارَةً لِخَطَايَانَا" (١ يوحنا ٤: ١٠).

وحسب قواعد اللغة، إذا قلنا أو كتبنا: "المحبةُ تجسَّد"، فإن قواعد اللغة تلزمنا أن نكتب: "المحبةُ تجسَّدت"، ولكن بغض النظر عن قناع اللغة عديم الشفافية، فقد استُعلِن لنا الله على أنه: "الله محبة". هذا الاستعلان لم يحدث في مجرد حادثٍ، بل في تقديم الابن -وهو شخص أو أقنوم الله الكلمة- لذاته: "لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ" (يو ٣: ١٦)، وهي أشهر كلمات إنجيل يوحنا، التي تُقال ربما في كل عظة، دون أن نقف ولو برهة، لكي نفهم وندرك أن إرسال الابن لم يكن إرسالاً لصفة، بل أقنوم وشخص الابن. وعندما كتب الرسول بولس: "أَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا"، فهو لم يكن يكتب عن صفة؛ لأن هذا الانسكاب تم "بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا" (رو ٥: ٥).

والروح القدس ليس صفةً من صفات الثالوث، بل هو الأقنوم الثالث، وعلى ذلك يصبح استعلان المحبة، ليس فقط بتجسد الابن وموته وقيامته، بل أيضاً بانسكاب الروح، فقد "بَيَّنَ اللهَ مَحَبَّتَهُ لَنَا لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا" (رو ٥: ٧).

المحبة، إذن هي حياة الثالوث، ولذلك صيغة المؤنث، تليق بوحدانية الجوهر، أو بالدقة "بالحياة الإلهية".

الفهم الخاطئ للمحبة الأقنومية (الشخصية):

في أنشودة الرسول بولس (١كو ١٣: ١-٨) يبدو لمن يقرأ كلمات الرسول قراءة سطحية، أن الرسول كتب عن فضيلة أو عن صفة، ولكن علينا أن نسأل عما وراء هذه الكلمات:

- "الْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ.
- الْمَحَبَّةُ لاَ تَحْسِدُ.
- الْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ وَلاَ تَنْتَفِخُ.
- وَلاَ تُقَبِّحُ وَلاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا وَلاَ تَحْتَدُّ وَلاَ تَظُنُّ السُّؤَ.
- وَلاَ تَفْرَحُ بِالإِثْمِ بَلْ تَفْرَحُ بِالْحَقِّ.

ثم:

- وَتَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ
- وَتُصَدِّقُ كُلَّ شَيْءٍ (مواعيد الله).
- وَتَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ وَتَصْبِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.
- اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَسْقُطُ أَبَداً (لا تفشل ولا تنتهي) (١كو ١٣: ١-٧).

لا يتكلم الرسول هنا عن مجرد صفة، بل عن حياةُ مَن يحب؛ لأن حركة المحبة في التأني والرفق وعدم الحسد وعدم ظن السوء، واحتمال كل شيء، بل والصبر على كل شيء، كل هذا ينطلق من حياة لا صفات، هي حياة الشخص الذي لا يحسد ولكنه يصدق، فخلف كل عبارة من عبارات الرسول التي تبدو كما لو كانت وصفاً، هناك **الإرادة والفهم والقرار**، وهي مكونات مَن يحب.

المحبة حسب أقانيم الثالوث:

درجنا على قراءة يوحنا ١٧ في أسبوع الصلاة من أجل الوحدة، وهذا حسن، ولكننا لم نسلك حسب ما أعلنه يسوع المسيح ربنا:

- محبة الآب للابن: "كل ما أعطيتني هو من عندك"
- "كل ما هو لي فهو لك، وكل ما هو لك فهو لي" (يو ١٧: ١٠)

- "نحن واحد

- أنت فيَّ وأنا فيك".

وكانت نهاية صلاة الرب يسوع:

- "ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم" (١٧: ٢٦).

ولذلك، فإن أساس الحياة التي فينا هو حسب الليتورجيا:

- "محبة الله الآب،

- ونعمة الابن الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح،

- وشركة وموهبة وعطية الروح القدس".

وقد وضع الرسول: "نِعْمَةُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَمَحَبَّةُ اللهِ، وَشَرِكَةُ الرُّوحِ الْقُدُسِ **مَعَ جَمِيعِكُمْ**. آمِينَ" (٢كو ١٣: ١٤)؛ لأننا قبلنا الرب يسوع، **فهو ذاته النعمة الذي (وليس التي) وُهِبَ لنا**؛ لأننا "للمسيح" (١كو ٣: ٢٣). ولذلك، يكتب الرسول: "فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ (أخذ صورة العبد) وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ" (٢كو ٨: ٩).

محبة الله، والحرب ضد الروح القدس:

ثارت عواصف الكلمات والاتهامات طوال الـ ٤٠ عاماً الماضية حول عطية الحياة الأبدية، أي عطية الروح القدس الذي انسكب فينا، فتحول الروح من أقنوم إلى مواهب!!! ولكن كما ذكرنا في السطور السابقة، المحبة تحتاج إلى إرادة، فهي ليست صفة، بل هي حياة الشخص. فالمحبة لا تتحرك بدون فهم؛ لأن العطاء هو عطاء شركة، وما الشركة إلا شركة الروح القدس، شركة حياة "الرب المحيي" واهب الحياة. وسوف نرى كيف تُنكر هذه الحرب عطية التبني.

المحبة وعطية التبني:

تجسَّــد الابن له المجد معلناً الروح القدس لنا بالحبل البتولي؛ لأن الروح القدس كوَّن الإنسانية التي أخذها من القديسة مريم. ولما اعتمد من يوحنا في الأردن حلَّ عليه الروح القدس، وبذلك وحسب التدبير:

– وُلِدَ من الروح القدس لكي يؤسِّس لنا الولادة الجديدة.

– مُسِحَ في نهر الأردن لكي يهب لنا ذات الروح الذي ناله هو؛ لكي نصير حقاً "مسيحيين"، أي ممسوحين بالروح القدس.

فأساس التدبير، هو العمل الإلهي المباشر الذي يعطيه الابن لنا من أقنومه الإلهي، وعن ذلك يقول الرسول بولس: "الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ. الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضاً، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢كو ١: ٢١-٢٢). ويشهد يوحنا الرسول أنَّ لنا "مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ" (١يوحنا ٢: ٢٠)؛ لأننا بهذه المسحة صرنا "هيكل الله لأن روح الله يسكن فينا" (راجع ١كو ٦: ١٩) مما دعا نفس الرسول أن يكتب: "أُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ (نوع المحبة) أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ!" (١يوحنا ٣: ١٠). إذن، عطية التبني هي عطية المحبة الإلهية، تلك التي جعلتنا أخوةَ الرب. فقد صار هو "البِكر بين إخوةٍ كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، وهي ليست مجردَ اسمٍ أُعطي لنا، أي اسماً شرفياً، ولكن لأنه شاركنا "اللحم والدم" حسب عبارة العبرانيين (٢: ١٤)؛ صرنا إخوةً بسبب تجسده، فصرنا شركاء له في ملكه الأبدي، وصرنا نرث معه ذات الملكوت (راجع رو ٨: ١٦).

هذه ليست مواهب، بل عطية الثالوث لنا النابعة من ذات الحياة الإلهية.

وعلى ذلك يجب علينا ألا نلتفت إلى التعليم المزيَّف الذي يهدف إلى تزيِّيف الايمان، وبالتالي تزيِّيف كياننا نحن. لأننا هنا ندافع عن وجودنا ومصيرنا الأبدي حتى لا نؤمن بما يجعلنا غرباء عن محبة الله التي انسكبت في قلوبنا بالروح القدس (رو ٥: ٥).

المحبة الثالوثية هي حياة الثالوث:

هل يمكن لعاقلٍ أن يتصـــور وجود نوعين من المحبة في حياة الثالوث: محبة الآب للابن، ثم محبة الخليقة؟ لم نجد هذا في الأسفار المقدسة، ولا في تعليم الآباء، ولا في الليتورجيات الأرثوذكســية، لكن هناك محبة واحدة وهي ذات المحبة التي طلبها الابن له المجد لنا من الآب. "لِيَكُونَ فِيهِمُ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ وَأَكُونَ أَنَا فِيهِمْ" (يوحنا ١٧: ٢٦).

لا يمكن بالمرة أن نجد نوعين من المحبة، محبة الأقانيم الخاصة بهم، ومحبة أخرى للأقانيم خاصة بالخليقة، وفي مقدمة الخليقة، الإنسان الذي خُلق "على صورة الله ومثاله" (تكوين ١: ٢٦)؛ لأن عطية الصـورة الإلهية كشـفت لنا عن محبة الخالق للإنســان (راجع تجســد الكلمة)، حيث يقول أثناسـيوس: "لأنه رأى عدم قدرة الإنسان على أن يبقى على الحالة التي خُلق فيها، أعطاه نعمةً إضافيةً، فلم يكتف بخلق البشـر مثل باقي الكائنات غير العاقلة على الأرض، بل خلقهم على صـورته وأعطاهم شركة في قوة كلمته (٣: ٣٠).

ومن هذا يتبين لنا أن:

- المحبة الواحدة التي لا تنقســم هي التي تجعلنا نؤمن حقاً بأن اســتعلان الثالوث هو اســتعلانٌ حقيقيٌّ، وليس مجرد خيالات بشـرية أو قصــص آتية من حضارة قديمة.

- والمحبة الواحدة للثالوث تؤكد لنا أننا نشـترك في الحياة الإلهية؛ لأن "الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْـهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا .... لِكَيْ يَكُونَ لَكُمْ أَيْضـاً شَـرِكَةٌ مَعَنَا. وَأَمَّا شَـرِكَتُنَا نَحْنُ فَهِيَ مَعَ الآبِ وَمَعَ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (١يوحنا ١: ٢-٣).

- لقد أخبرنا الرب بالحق الواحد الذي لا ثانٍ له، وهو "هَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُـوعَ الْمَسِـيحَ الَّذِي أَرْسَـلْتَهُ" (يوحنا ١٧: ٣).

معرفة الآب الإله الحقيقي هي معرفة الحياة الأبدية، هي استعلان محبة الله:

عندما قال الرب: "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ"، فقد أضاف "لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إلى الآبِ إِلَّا بِي (بواسطتي)"، ثم أخبر فيلبس: "أَنَا فِي الآبِ وَالآبُ فِيَّ" (يوحنا ١٤: ٦ و١٠). والتعليم عن المحبة الواحدة ثابتٌ على أساس ما علَّمنا إياه ربُّ المجد نفسه: "إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كلاَمِي وَيُحِبُّهُ أَبِي وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً (إقامة)" (يوحنا ١٤: ٢٣). قبل ذلك حدَّد الرب نفسه: "اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي" (يوحنا ١٤: ٢١).

واستعلان الذات هذا: "أُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي" في يوحنا ١٤: ٢١ هي أقوى عبارة وردت على لسان الرب يسوع تؤكد لنا أن المحبة الأقنومية أو الشخصية هي محبة ذاتية لا يمكن أن تكون مجرد صفة، فلا صفةَ بدون أقنوم؛ لأن الأقنوم هو الكيان الخاص والفرد والمتميز الذي لا يمكن أن يتحول إلى صفة، لأن الصفة مهما كانت ليست إلا الوصف اللغوي لحياة أو كيان الأقنوم.

المحبة الذاتية أو الأقنومية:

المحبة الأقنومية هي التي جعلت الأقنوم يتجسد، هي حركة إرادية شخصية، وهي نابعة من ذات الأقنوم؛ لأن الكلام السابق للرب مثل:

- "يحبه الآب،
- أنا أحبه،
- أُظهر له ذاتي"، هو بكل يقين ما يعبِّر عن حقيقة كيان قَبِلَ حياةً أخرى، وهي أن يدخل متجسداً دنيا وحياة الإنسان، وأن يحشر ذاته في كيانٍ ضيِّقٍ

ضـعيف مائتٍ، وهو الطبيعة الإنســانية. وعبارة معلمنا بولس "أخلى ذاته"، هي عبارة مُعبِّرة تماماً عن هذا القبول، وقد كُتبت عنها رســائل دكتوراه تدور حول التكوين الشعري، والمعاني اللاهوتية في (فيلبي ٢: ٥-١١)[١].

ذلك؛ لأن إخلاء الذاتي الذي عبَّر عنه معلمنا أثناسيوس الرسولي بـ "الحضور المتجسـد" (تجسـد الكلمة ١٨ – ضـد الأريوسـيين ١: ٥٩ – ٢: ٥٥ – ٢: ٦٦)، هو حضورٌ حقيقيٌّ كيانيٌّ انسكبت منه الحياة كعطيةٍ إلهيةٍ لنا.

وإخلاء الذات هو الذي جعل الربَّ رأسَ الكنيسـة التي نالت أعظم ما يُقال عنها، وهو "جسـد المسيح"؛ لأنه بذات الفعل، أي بالإخلاء، يجمع كل أعضـاء جسده الذين يحتاجون إلى الاغتسال والاستنارة لكي يتحد بهم.

المحبة الأقنومية والمواهب:

بسبب الجهل وعدم الوعي، قد نلتمس العذر ونطلب المغفرة والاستنارة للذين انساقوا وراء "الفصـل" بين أعمال الرب واستعلانات الرب، والمواهب، واعتبروا أن المواهب ليســت هي الأقنوم. لكن عندما يتحول موضــوع الأقنوم والمواهب إلى حربٍ على الروح القدس نفســه، فالأمر عندئذٍ يصـبح خطيراً؛ لأنه يزيِّف التعليم عن محبة الله، ويطوِّح بنا إلى غربةٍ أبديةٍ بعيدةٍ عن الشـركة الأقنومية للثالوث، وهي الشركة التي دُعينا إليها. ولا يوجد تعبيرٌ أبلغ عن جهل هؤلاء، إلا ما كتبوه ونشروه من أن الشركة في الحياة أو الطبيعة الإلهية هي "شِركٌ"، وجريمةٌ يحاربها الإسلام، ولم يلاحظ الذي صـاغ هذا الاتهام[٢] أن فعل "يشـترك ويُشـرك"، وأن "الشـركة" هي دعامات العهد الجديد، وبالتالي فكأنه أصــدر حكماً على العهد الجديد، وعلى الرب يسوع نفسه الذي أعطانا شركةً في جسده، أو سر الشركة، وهو سر التناول نفسه.

---

(١) راجع على سبيل المثال: R.P. Martin, Carmen Chrisi, 1967

(٢) راجع قداسة البابا شنودة الثالث، بدع حديثة، الطبعة الثالثة، القاهرة، يونيو ٢٠٠٧، ص ١٥٩.

لقد استُعلنت المحبة في تجسد ابن الله:

- فصار الرب آدم الأخير أو الثاني.
- وصار رأس الجماعة الجديدة جسده، أي الكنيسة.
- وصار بكراً بين إخوةٍ كثيرين.
- وصار الوسيط بين الآب وبين الخليقة.
- وصار هو نفسه حياتنا الجديدة.

كل هذا تحقق بما قام به في الجسد الذي حوَّله من مائتٍ إلى غير مائتٍ، فتحررت الإنسانية من حكم الموت، ومن العبودية للفساد إلى مجد القيامة. **هذا التحول لم يكن مجرد عبارات تُقال، بل هي أعمال الخلاص**، وكان الرب نفسه يقوم بها من أجل خلاص الإنسان، ولذلك لا يمكن أن تُوصَف أعمال الرب بأنها مواهب، بل هي العمل الأقنومي الذي قام به الرب في الجسد؛ لأن تحول الناسوت الذي أخذه من القديسة مريم إلى ناسوت غير قابل للموت، ليس موهبةً، بل هو تحوُّلٌ في كيانٍ متجسِّدٍ، وهو ما جعلنا نقر ونعترف في القداسات بأن الجسد هو: "الذبيحة الإلهية غير المائتة السمائية".

وإذا قال الذين يحاربون الروح القدس بأن ما قيل عن الرب لا ينطبق على أعمال الروح القدس، صار ضلالُ هؤلاء لا مثيل له في تاريخ الكنيسة؛ لأن أي مراجعة لإصحاح ١٢ من كورنثوس الأولى تؤكِّد أن أعمال الروح القدس هي أعمالٌ من أجل الكنيسة جسد المسيح.

فقد أكَّد الرسول أن الروح لا ينقسم، بل يظل الروح الواحد هو الشهادة ليسوع بأنه ربٌّ (١٢: ٣). وأن تنوع المواهب هو مثل تنوع أعضاء الجسد، وهنا، الحق الواحد هو "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ ... وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحاً وَاحِداً" (١٢: ١٣).

وبعد ما قيل عن تنوع المواهب والروح الواحد وعدم الانقسام، قدَّم الرسول التعليم الإلهي: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَجَسَدُ الْمَسِيحِ وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَاداً" (١٢: ٢٧) لأن الحقيقة الإلهية هي أن الإيمان الذي دعينا اليه هو "شَرِكَةِ ابْنِهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ رَبِّنَا" (١كو ١: ٩).

دور الروح القدس في التجسد، وفي الكنيسة

كوَّن الروح القدس جسد المسيح في الحشا البتولي، ومن كلمات الرسول في (١كو ١٢: ١٣ و١٢: ٢٧) يظهر لنا أن الذي يكوِّن الكنيسة هو الروح القدس؛ لأن الولادة الجديدة من الماء والروح في سر المعمودية تنقلنا من آدم الأول إلى المسيح. فالحياة الجديدة جداً (رو ٧: ٢٦) هي الانعتاق من الشريعة المكتوبة، تلك التي أسماها الرسول نفسه "خدمة الموت" (٢كو ٣: ٧)؛ لأن ذلك الانعتاق، تم بالموت والقيامة. والذي أقام الرب يسوع من الموت هو نفسه الروح القدس، الذي كوَّن ناسوته "وَإِنْ كَانَ رُوحُ الَّذِي أَقَامَ يَسُوعَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَاكِناً فِيكُمْ فَالَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضاً بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ" (رو ٨: ١١).

الأمرُ جدٌّ خطير؛ لأن المصير الأبدي هو القيامة، وهو ذات التحول الذي حدث في ناسوت الرب نفسه لكي تكون أجسادنا حيَّةً بذات مجد المسيح؛ لأنه هو الذي "سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ، بِحَسَبِ عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ" (فيلبي ٣: ٢١).

ذلك التحول الذي يؤهلنا لميراث الملكوت وللحياة الأبدية، هو تحوُّلٌ من الموت إلى الحياة الأبدية "وَنَحْنُ جَمِيعاً نَاظِرِينَ مَجْدَ الرَّبِّ بِوَجْهٍ مَكْشُوفٍ، كَمَا فِي مِرْآةٍ، نَتَغَيَّرُ إِلَى تِلْكَ الصُّورَةِ (ذات صورة الرب) عَيْنِهَا (صورة الأقنوم المتجسد)، مِنْ مَجْدٍ إِلَى مَجْدٍ، كَمَا مِنَ الرَّبِّ الرُّوحِ" (٢كو ٣: ١٨).

فإذا أمسكنا بخيوط التدبير، نرى أن كل ما فعله الرب من أعمال تصل إلينا بواسطة الروح القدس، هو نسيج التدبير كله، سُداه ولُحمته.

مواهب الخدمة ليست أبدية:

وصفها الرسول بأنها "تدابير" (١ كور ١٢: ٢٨) هي:

- خِدم (١٢: ٥).
- إظهار الروح للمنفعة (وليس إظهار المواهب فقط) (١٢: ٦).
- كلام حكمة وعلم، أي تعليم بالروح (١٢: ٨).
- ايمان (١٢: ٩).
- قوات متنوعة (١٢: ١٠).
- نبوة (١٢: ١٠)، والنبوات سوف ستبطل (١٣: ٨).
- الألسنة والترجمة (١٢: ١٠)، وهذه سوف تبطل (١٣: ٨).

وهنا يظهر السؤال الحاسم: هل اتحادنا بالمسيح يسوع في السرائر، وتحوُّلنا إلى ذات حياة الرب، هل هو مواهبَ زمانية، أم عطايا ونِعم أبدية رَسَمَت المصير الأبدي لكل إنسان مسيحي؟

الحياة الأبدية عطية الآب والابن والروح القدس:

كانت رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون هي أول كتاب كامل عن الروح القدس بعد الفقرات الكثيرة في مؤلفات العلامة أوريجينوس. وقد سجَّل لنا القديس أثناسيوس أن كل نعمة هي من الثالوث، وبعد تأكيد أُلوهية الروح القدس، قدَّم لنا التسليم الكنسي:

- فالروح هو الذي "يكمِّل فينا كل معرفتنا عن الله ويتمم كمالنا الخاص الذي به وحَّدنا (الروح) مع شخصه، ومن خلاله (الروح) مع الآب" (راجع الرسائل عن الروح القدس إلى سرابيون ١: ٦ ص ٣٧).

– والثبات في المسيح ليس من مواهب الخدمة، بل كما كتب يوحنا الإنجيلي: "بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا، أنه أعطانا من روحه (١يوحنا ٤: ١٣). (المرجع السابق ١: ٦ ص ٣٨).

– والبنوة أُعطيت لنا في المسيح بالروح القدس لأن الله أرسل روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبّا abba أيها الآب (غلا ٤: ٦) ومع البنوة جاء ميراث الملكوت (غلا ٤: ٧). (المرجع السابق ١: ٦، ص ٣٩).

– والتجديد؛ لنكون من جديد أيقونة المسيح، لأننا كما كتب أثناسيوس: "نتجدد بروح الله" (الرسائل إلى سرابيون ١: ٩، ص ٤٤). لأن الخلق الجديد تم تجديده بالروح القدس: "لأن الإنسان الأول الذي صوَّره أولاً، عاد وجدَّده بعد السقوط، لأنه هو ذاته الذي جاء إلى الخليقة عندما صار اللوغوس جسداً، لكي كما قال الرسول: "يخلق الاثنين (اليهود والأمم) في ذاته إنساناً واحداً جديداً، المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق (أفسس ٢: ١٥ – ٤: ٢٤)" (المرجع السابق ١: ٩ ص ٤٤ – ٤٥).

– فالروح القدس "هو الذي فيه بواسطة اللوغوس يكمِّل الآب كل الأشياء ويجددها (المرجع السابق ١: ٩ ص ٤٤)، ولذلك فقد دُهشت من سخرية واحدٍ من الأساقفة –رحل إلى الله– عندما أعدتُ نشر ما كتبه أثناسيوس نفسه:

"وحيث أن الآب هو الينبوع والابن يسمى نهراً، لذلك نقول إننا نشرب الروح. لأنه مكتوبٌ: "جميعنا سقينا روحاً واحداً (١كو ١٢: ١٣) ولكن حينما نشرب الروح، فإننا نشرب المسيح "لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح" (١كو ١٠: ٤). (راجع الرسائل عن الروح القدس إلى سرابيون ١: ١٩، ص ٦٣).

وصاغ هذا الأسقف سخريته في عبارةٍ غريبة: "اللاهوت لا يُشرب"، فصار يعرف اللاهوت أكثر من بولس الرسول، وأكثر من أثناسيوس، بل ومن الرب

يسوع نفسه الذي وقف في عيد المظال ونادى قائلاً: "إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي كَمَا قَالَ الْكِتَابُ تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». قَالَ هَذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ" (يوحنا ٧: ٣٧ - ٣٩).

أمَّا الشُّرب والسُّكنى، بل والإقامة فينا، فهي أفعالُ الرب التي وُهِبَت لنا لأنها شركته فينا، ولذلك أعطى الربُّ لنا الروح بعد قيامته (يوحنا ٢٠: ٢١-٢٢).

المحبة الإلهية هي إقامة وسُكنى الثالوث فينا:

كتب معلمنا أثناسيوس:

"يقيم الله فينا، لأنه هكذا كتب يوحنا "إن أحب بعضنا بعضاً فالله يقيم فينا، بهذا نعرف أننا نقيم فيه وهو فينا لأنه قد أعطانا من روحه" (راجع ١يوحنا ٤: ١٢-١٣) وحيث أن الله كائنٌ فينا، يكون الابن ايضاً فينا لأن الابن نفسه قال: "الآب وأنا نأتي إليه ونصنع عنده منزلاً" (يوحنا ١٤: ٢٣). (الرسائل إلى سرابيون عن الروح القدس ١: ١٩، ص ٦٤).

ومحبة الله هي التي جعلت الروح هو حياتنا، وهكذا كتب أثناسيوس:

"الابن هو الحياة لأنه يقول: "أنا هو الحياة" (يوحنا ١٤: ٦)، ونحن لذلك نحيا بالروح لأنه يقول: "الَّذِي أَقَامَ الْمَسِيحَ مِنَ الأَمْوَاتِ سَيُحْيِي أَجْسَادَكُمُ الْمَائِتَةَ أَيْضاً بِرُوحِهِ السَّاكِنِ فِيكُمْ" (رو ٨: ١١)، وحيث أننا صرنا أحياء، فالمسيح نفسه يحيا فينا (غلا ٢: ٢٠)" (المرجع السابق ١: ١٩، ص ٦٤).

عَودٌ إلى البدء:

عندما تحول عمل الروح القدس، أي العمل الأقنومي الذي فيه يرد إلينا الروحُ "الصورةَ الإلهية"، إلى مواهب الخدمة، وساد تعبير بعض الأساقفة: "الحلول المواهبي"، ضاع من الوعي:

أولاً: أن هبة الحياة الأبدية، يعطيها الروح القدس لنا لكي نحيا إلى الأبد: "ولا يقوى علينا موت الخطية" كما نقول في صلواتنا، وإلا نكون قد تركنا الرب المحيي لكي نسعى وراء مواهب الخدمة الزمانية الخاصة بتدبير الكنيسة.

هذا خطأٌ فادحٌ كُتِبَ ونُشِرَ لمجرد عناد طائش لما نشره الأب متى المسكين.

ثانياً: أن استدعاء الروح القدس في سرائر الكنيسة لتقديس مياه المعمودية، هو عملٌ إلهيٌّ، وليس موهبةً زمانيةً؛ لأنه يؤسِّس فينا ويمنحنا الميلاد الجديد "من الله"، وليس من مواهب، بل "من الله ذاته"، وأن مسحة الروح القدس التي يمسحنا بها المسيح هي عمل الأقنوم نفسه؛ ولتأكيد ذلك يكتب أثناسيوس العظيم:

"الروح يُدعى مسحة وهو الختم (١يوحنا ٢: ٢٧) ... والمخلوقات تُختم وتُمسح بواسطته وتتعلم منه كل شيء، ولكن إن كان الروح هو المسحة والختم الذي به يمسح الكلمةُ كلَّ الأشياء ويختمها، إذن، فأي شَبَهٍ أو انتماءٍ للمسحة والختم مع الأشياء التي تُمسح وتُختم ... والختم له صورة المسيح الذي يختم والذين ينالون الختم يشتركون في الصورة وهي ختم المسيح كما يقول الرسول: "يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضاً إلى أن يتكوَّن (يتصور) المسيح فيكم (غلا ٤: ١٩)، وهكذا، إذ نُختَم، فمن الطبيعي أن نصير شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ٢: ٤)، وهكذا كل الخليقة تشترك في الكلمة بالروح" (سرابيون ١: ٢٣ ص ٧٢ – ٧٣).

من هنا يتضح لنا أن فقدان الشركة هو فقدان المصير الأبدي الذي لم يفكر فيه محاربو أقنوم الروح القدس، لأن ذلك المصير هو أن نكون مثل المسيح (١يوحنا ٣: ٣)، فإذا أضاع هذا التعليم المزيَّف هذا المصير الأبدي، ولم يُدرَس التعليم المسلَّم لنا من الآباء، فماذا يبقى لنا إلا صورة آدم الأول؟

إنه ليس الحلول المواهبي، بل حلول وسُكنى، أو إقامة الابن فينا؛ لأن أثناسيوس العظيم كتب:

"مَن يمكنه أن يفصل الابن عن الآب، أو يفصل الروح عن الابن، أو عن الآب .. لأنه فيما يوجد الروح فينا، يقال إن الابن فينا". (سرابيون ١: ٢٠ ص ٦٥).

ماذا حقق تجسد الله الكلمة؟

من الصعب علينا إذا تكوَّنت لدينا أيقونة التدبير أن نقول إن تجسُّد الرب هو بدايةٌ أو هو غايةٌ؛ لأن ما فعله الابن لنا عندما تجسَّد يفوق ما يمكن أن يُوصَف بمثل هذه الأوصاف، ولكن يجب أن يكون واضحاً:

أولاً: أننا أمام الاتحاد الأبدي بين الله والإنسانية في يسوع. وقد فتح لنا هذا الاتحاد طريق الحياة الأبدية نفسه باتحادنا بالإيمان بمن جاء إلينا "وأخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

ثانياً: أننا إزاء تحولٍّ كيانيٍّ نُقِلنا فيه من عبودية الطبع البيولوجي إلى طبيعة الابن الممجَّد.

فالعيد إذن، هو عودةُ من يؤمن إلى مجد الله. ذلك المجد الأبدي الذي ردَّه الثالوث لنا.

ثالثاً: "صار الكلمة جسداً، ولم يعد "الحقُ" كلمةٌ تُقال، بل عملاً مستعلناً في اللحم والدم، وصار العمل يخلقُ الكلمات؛ لأن الكلمات لا تتحول إلى أعمال.

كل عام وأنتم بخير. أعاده الله علينا وعلى شعب مصر بخير وسلام.

تجسَّد الله الكلمة لكي يجعلنا أبناء للآب، وهيكلاً للروح القدس[1]

كل عام وكل القراء بخير وصحة وسلام. تمنيات في المسيح ربنا أن يحفظ أُم الشهداء من كل شر، وشبه الشر، وأن يعيد كل عام علينا وعلى كل مصري ومصرية بالخير، وأن تحيا مصر وتتقدم.

نحن لا نحتفل بعيدٍ يأتي مرةً واحدةً كل عام، بل نحتفل بالإنسانية التي وُلِدت ميلاداً جديداً من الماء والروح في المعمودية على مثال ميلاد الرب يسوع من أُم النور ومن الروح القدس.

فالاحتفال بتجسد الابن الكلمة، هو احتفالٌ خاصٌّ بنا نحن الذين حرَّرنا الابن من رباطات الطبيعة البيولوجية، أي ولادتنا الجسدانية من أبٍ وأُمٍّ؛ لأنه هكذا وُلِد هو، بلا أبٍ حسب الناسوت، وبلا أُمٍّ حسب اللاهوت. ولكنه وحَّد اللاهوت بالناسوت، فصارت القديسة مريم حقاً "والدة الإله"، وصار ميلاد الرب هو مثال ميلاد كل مؤمن قَبِلَ الاتحاد بالرب يسوع.

إن عيد التجسد، هو عيد اتحادنا بالثالوث القدوس في الابن وبالروح القدس، وبدون هذا الاتحاد السري الإلهي، لا يبقى لنا إلا الشكل اللفظي من كلماتٍ تُقال لا تجعلنا نرتفع إلى ذلك العطاء السماوي المدهش حقاً.

في الاحتفال بالعيد أرجو من القراء دراسة كتاب تجسد الكلمة للقديس

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد تجسد الكلمة ٢٠١٩.

أثناسيوس الرسولي حقاً، فهو أهم ثمار مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، وله طعم العسل لمن أراد أن يتذوق عسل الأُلوهة المستعلَنة في "الحضور المتجسد للرب يسوع".

الاتحاد الأقنومي لم يكن من أجل الرب وحده، بل بالحري لأجلنا نحن الذين، إذ كنا غرباء عن الله، تكوَّنت لدينا -بفعل رواسب الوثنية القديمة- قاعدة عقلية، هي الاحتكام للحس الإنساني والشعور البشري، ولكن جاءت صدمة التجسد، فانهار بناءُ الوثنية، تلك الصدمة التي كشفت عن محبة الله الثالوث للجنس البشري، أي محبته للطبيعة الساقطة التي احتاجت إلى تجديد الكيان الترابي الذي لا يصلح للحياة الأبدية؛ لأنه يحيا على ثمار الأرض. هذا ما شرحه القديس أثناسيوس في تجسد الكلمة، والرد على الأريوسيين، لا سيما في المقالة الثالثة، وفي الرسائل إلى أدلفوس وإبكتيوس ومكسيموس والرسائل الفصحية في أعياد القيامة.

وإذا كان العيد يأتي في هذا العام وقد رحل عنا -غدراً- عالمٌ جليلٌ، هو الأنبا أبيفانيوس الأسقف الذي كان يملك أن يقدم الكثير لأُم الشهداء، إلا أن رجائنا هو في أكثر من أبيفانيوس، خصوصاً وأن هناك صفوفاً من الجيل الذي لم يكن يعرفنا، قد كرسوا جهودهم لاستعادة التراث والتعليم الآبائي الذي كان مجهولاً طوال العصر الوسيط.

لذلك، لن يحجب عنا الحزنُ ووجع القلب، رؤيةَ المصير الأبدي المستعلَن لنا في يسوع رب المجد؛ وهو الجلوس معه على عرشه السماوي (رؤ ٣: ٢١)، فقد وضع لنا التجسد هذه الغلبة، وهذا الأساس الذي تقوم عليها هذه النقلة النوعية، وقد حرَّرنا الصَّلبُ من أوجاع الخطية ولعنة الموت، وحققت لنا القيامةُ الخلودَ في السماء.

أطيب التمنيات للسيد الرئيس ورئيس الوزراء وكل الوزراء، والقوات المسلحة درع مصر والشرطة وكل شعب مصر بأن يعيد الله مثل هذا العيد بالخير والعافية على الجميع.

وطلبة خاصة بالهدوء والسلامة للكنيسة أُم الشهداء، وللجالس على عرش مار مرقس الرسول الطاهر والشهيد، وللآباء الذين نالوا كرامة الكهنوت من الرب يسوع نفسه.

د. جورج حبيب بباوي

القسم الثاني

معمودية ربنا يسوع

عيد الظهور الإلهي[١]

يقول القديس كيرلس:

"إنهم يعارضون قائلين: ولكن كيف اعتمدَ ونالَ الروح أيضاً؟

فنجيبهم: إنه لم يكن محتاجاً للمعمودية المقدسة إذ هو كليُّ النقاوةِ وبلا عيبٍ، وقدوسٌ من قدوسٍ. كما أنه لم يكن محتاجاً للروح القدس؛ لأن الروح المنبثق من الآب هو معه ومساوي له في الجوهر.

ولذلك يجب أنْ نستمع الآن إلى شرح التدبير، أي خطة الله:

إنَّ الله في –محبته للإنسان– زوَّدَنا بطريق للخلاص والحياة: لأننا بالإيمان بالآب والابن والروح القدس، وباعترافنا بهذا الإقرار أمام شهود كثيرين، فإننا نغسل كل وسخ الخطية، ونغتني بالحصول على الروح القدس، ونصير شركاء الطبيعة الإلهية، وننال نعمة التبني.

وعندما وضع كلمة الآب نفسه إلى الإخلاء وتنازل ليتخذ شكلنا، كان ضرورياً أن يصير من أجلنا نموذجاً وطريقاً لكل عمل صالح. فمَن كان الأول في كل شيء ينبغي عليه أن يضع نفسه مثالاً في هذا أيضاً. لذلك، فإنه يبدأ هذا العمل (المعمودية) بنفسه، لكي نعرف قوة المعمودية المقدسة نفسها، ونعرف أيضاً النعمة العظيمة التي نحصل عليها بالإقبال إليها.

لقد جاء صوتُ الله قائلاً من نحو المسيح أثناء عماده المقدس: "هذا هو

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠٠٧.

ابني الحبيب"، وكأنما بذلك كان يتبنى فيه وبواسطته الإنسان الأرضي. فإنَّ ابن الله الوحيد الحق بحسب الطبيعة، لما صار مثلنا، اقتبل من جديد لقب ابن الله، ليس كأنه يناله لنفسه هو — إذ أنه في ذاته كان ولم يزل كما قلت إلهاً حقاً — بل لكي يوصِّل إلينا هذا المجد، ولذلك فقد صار لنا باكورةً وبكراً وآدم ثانياً. لذا فكل شيء يتجدَّد فيه. ونحن إذ قد خلعنا عتق آدم، اغتنينا بالتجديد الذي في المسيح. (لو ٣: ٢١ — ٢٣).

ويقول أيضاً:

"لقد أُعطي الروح في البدء لآدم، غير أنه لم يستقر في طبيعة الإنسان؛ لأن آدم غاص في الضلال وزلَّ في الخطية. ولكن لما افتقر الابن الوحيد وهو غنيٌ، وصار إنساناً معنا وقَبِلَ روحه الخاص (من أجلنا) وكأنه يأتيه من خارج، حينئذ استقر الروح عليه، فإنْ يوحنا الإنجيلي يقول هكذا: "إنَّ الروح استقر عليه" (يو ١: ٣٢، ٣٣) حتى يسكن فينا أيضاً الروح من حيث أنه استقر على الباكورة الثانية لجنسنا، أي المسيح الذي دعي أيضاً لهذا السبب آدم الثاني. (تفسير يوئيل ٢: ٢٧ — PG 71).

ويقول أيضاً:

"ويرتاح عليه روح الله" (أش ١١: ١ س). لقد سبق أن مُنح الروح في القديم لباكورة جنسنا آدم، ولكن هذا صار متهاوناً من جهة حفظ الوصية المعطاة له، واستهتر بما أُمر به، فسقط في الخطية، وبالتالي لم يجد الروح راحةً بين الناس. "لأن الجميع زاغوا وفسدوا معاً ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد" (رو ٣: ١٢).

ثم أن الكلمة ابن الله الوحيد صار إنساناً، ولكن دون أنْ يتحوَّل عن كونه إلهاً. فلما صار مثلنا وهو غير قابل أن ينساق نحو الخطايا، حينئذ ارتاح الروح في طبيعة الإنسان، فيه هو أولاً بصفته الباكورة الثانية لجنسنا، حتى

يرتاح فينا نحن أيضاً، ويثبت في نفوس المؤمنين، محباً للسكنى فيها. وهكذا يشهد يوحنا الإلهي في موضع آخر أنه قد رأى الروح نازلاً بألفة من السماء على المسيح. فكما صرنا شركاء في الميراث مع أول جبلتنا (آدم) في الشرور التي أصابته، هكذا سنصير شركاء أيضاً في الخيرات الحادثة تدبيرياً للباكورة الثانية لجنسنا الذي هو المسيح" (أش ١١: ١ — PG 70).

لماذا اعتمد يسوع؟

أولاً: شرح القديس أثناسيوس:

كانت الأريوسية تركِّز كل هجومها على فكرةٍ واحدةٍ، وهي أنَّ الابنَ ليس بالطبع مِن ذات جوهر الآب، وأنه تبعاً لذلك، مخلوقٌ مثل كل المخلوقات. وبالطبع كان النص المشهور "كان ينمو في الحكمة والقامة والنعمة" (لوقا ٢: ٥٢) مِن النصوص المحببة لدى الأريوسيين.

المسيح هو حكمة الآب .. فكيف ينمو في الحكمة؟ وإذا كان الروح القدس قد حلَّ عليه، فكيف يكون هو واحداً مع الآب، ويحتاج إلى حلول الروح القدس؟ ومِن المعروف أنَّ الروح القدس كائنٌ في الله .. فكيف يمكننا أنْ نقول إنه حلَّ على الله؟ كانت هذه اعتراضات الأريوسية، وهي اعتراضاتٌ لا نزال نسمعها اليوم.

كانت مشكلة الأريوسية هي عدم التمييز بين نصوص الكتاب المقدس. ففي الكتاب المقدس توجد نصوصٌ تتحدث عن الابن الكلمة، ونصوصٌ أُخرى تتحدث عنه عندما تجسد. ويُلفت نظرنا إلى هذه الحقيقة القديس أثناسيوس في عبارة مشهورةٍ:

"يغطِّي الكتاب المقدس عدة مجالات عن حياة الرب، ويسجل الإنجيل حقيقتين عن المخلِّص؛ فهو دائماً الله والابن. لأنه الكلمة وشعاع وحكمة

> الآب، ولكنه يوصف أيضاً – وهذا بسبب احتياجنا – أنه أخذ جسداً مِن العذراء مريم والدة الإله، وأنه تأنَّس. هذا الوصف الشامل لهاتين الحقيقتين، يوجد فقط في الأسفار الموحى بها" (ضد الأريوسيين ٣: ٢٩ مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٢٦: ٣٨٥).

وهكذا، لكي نتغلب على أية صعوبةٍ تعترضنا، علينا أن ندرس النص لنُدرك ما إذا كان يتحدث عن الابن قبل التجسُّد، أم أثناء وجوده في الجسد. ولعل القارئ لاحظ أن السطر الأخير يتضمن القاعدة الأساسية التي بموجبها نقبل أو نرفض أي كتاب حتى وإن كان يحمل اسم إنجيل، وهو أن الأسفار الموحى بها تتحدث عن المسيح ابن الله، وابن الإنسان. وكل مَنْ لا يتحدث عنه بهذه الصورة، فهو ضالٌ.

ويفسر القديس أثناسيوس (لوقا ٢: ٥٢) في ضوء القاعدة السابقة:

> "الحكمةُ نفسها لا تتقدم في النمو، ولا تنمو في الحكمة، أي أنها لا تنمو متجهة نحو نفسها. ولكن البشرية هي التي تنمو في الحكمة؛ لأننا نرتفع قليلاً قليلاً حتى نتشبَّه بالله .. لذلك لم يقل الإنجيل إن الكلمة تقدَّم في الحكمةِ، وإنما يسوع، وهو اسم الرب عندما تجسَّد. والطبيعة البشرية هي التي تنمو كما قلنا سابقاً" (ضد الأريوسيين ٣: ٥٣ المرجع السابق: ٤٣٦).

إن الاعتراف بإنسانية المسيح هو جزءٌ أساسيٌ مِن الإيمان الأُرثوذكسي. ذلك أن الابن جاء وأخذ كل ما لنا. وكان جسده ينمو مثل كل الأجساد.

لماذا اعتمد المسيح؟

يقول القديس أثناسيوس، وهو يفسر مزمور (٤٥: ٧-٨) "كرسيك يا الله إلي دهر الدهور مِن أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج": إن المزمور يتحدث عن الابن في الجسد، وهذا يشرح لنا كيف يوصف القدوس بأنه تقدَّس:

> "لقد قيل إنه تقدَّس؛ لأنه صار إنساناً. والذي تقدَّس هو الجسد .. وعندما

يُقال الآن إنه مُسِحَ بشرياً، فإننا نحن الذين مُسحنا فيه. وعندما اعتمد كنا نحن الذين اعتمدنا فيه" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧ المرجع السابق: ١٠٩).

وكل غموض يُحيط بهذا النص يمكن أن يزول تماماً إذا تذكرنا قاعدةً أساسيةً في التفسير، وهي أن المسيح يمثل الإنسانية كلها. ذلك أن الجسد البشري الذي أخذه هو جسدٌ بشريٌ كاملٌ مثل أجسادنا. ولذلك، فكل ما يحدث لهذا الجسد إنما يحدث للإنسانية؛ لأن الطبيعة البشرية هي وحدها التي تقبل التغيير، وهي وحدها التي تأخذ. فإذا اعتمد الرب، فإن المعمودية هي اختبارٌ خاصٌ بناسوته. وعندما اعتمد كانت الإنسانية تأخذ فيه — يسوع — شيئاً جديداً، هو هبة وعطية الروح القدس.

إن لُب التجسد، هو أن يأخذ الابن جسداً حتى يأخذ هذا الجسد مِن الابن ومِن الآب ومِن الروح القدس كل ما هو لازمٌ لخلاص البشر. ولقد كانت البشرية محتاجةً إلى الروح القدس، ولذلك قَبِلَه المسيح كانسانٍ لكي يمنحنا إياه .. يقول أثناسيوس:

"إذا كان لأجلنا قدَّس ذاته، فإنه فعل هذا فقط عندما صار إنساناً. ومِن الواضح أن الروح القدس نزل عليه في الأردن، وكان هذا نزولاً علينا نحن؛ لأنه أخذ جسداً. ولم يحل الروح لكي يرفع مِن مكانة الكلمة، وإنما — مرةً ثانيةً — أقول: حل الروح عليه مِن أجل تقديسنا لكي ما نشترك في مسحته، ولكي ما يتحقق ما قيل عنا ..."أنتم هياكل الله، وروح الله ساكنٌ فيكم" (١ كورنثوس ٣: ١٦).

لذلك عندما اغتسل الرب في الأردن، كنا نحن الذين اغتسلنا فيه وبه. وعندما قَبِلَ الروح، كنا نحن فيه الذين قَبِلْنا الروح. ولهذا السبب قِيلَ أنه مُسح بمسحةٍ أفضل مِن رفقائه، أي ليس مثل هارون أو داود والباقين، فهو لم يمُسح بزيتٍ، بل مُسح "بزيت الابتهاج"، وقد فسَّر الرب نفسه هذا على أنه الروح القدس. وقال القول النبوي: "روح الرب عليَّ لأنه مسحني" (أشعياء ٦١: ١). والرسول يقول: "مسحه الله بالروح القدس" (أعمال

١٠: ٣٨)، فكيف تم ما كُتب عنه إلَّا عندما جاء بالجسد لكي يعتمد في الأردن وحل عليه الروح؟ وحقاً يقول الرب نفسه: "إن الروح يأخذ مما لي"، وأيضاً: "وأنا سأرسله إليكم"، ويقول لتلاميذه: "أقبلوا الروح القدس" (يوحنا ١٧: ٧ — ١٤ و ٢٠: ٢٢). فهو الكلمة وشعاع الآب الذي يعطي الروح القدس للآخرين. ورغم ذلك قيل عنه الآن إنه تقدَّس، والجسد الذي تقدَّس هو جسده. ومنه هو بدأنا نحن نأخذ المسحة والختم. ويوحنا يقول: "ولكم مسحةٌ مِن القدُّوس" (١ يوحنا ٢: ٢٠). والرسول يقول: "خُتمتم بروح الموعد" (أفسس ١: ١٣) .. (ضد الأريوسيين ١: ٤٧ — راجع الترجمة الانجليزية ص ٣٣٣ — ٣٣٤ في المجلد الرابع من مجموعة آباء نيقية).

هكذا يمكننا أن نفهم معنى كلمة "لأجلنا"، أو عبارة "كنا نحن فيه الذين اعتمدنا"، ذلك أن المشترك بيننا وبين يسوع المسيح هو الناسوت وحده. وكل ما حدث لهذا الناسوت كان يحدث للطبيعة البشرية. ولذلك عندما مُسح الرب كان هذا بداية مسح البشرية بالروح القدس.

وسوف يشرح هذا، القديس كيرلس بنفس الروح وبنفس النصوص، ولا عجب في هذا الاتفاق؛ لأن الإيمان واحدٌ.

ثانياً: شرح القديس كيرلس عمود الدين:

لم تكن الأريوسية قد ماتت في زمن القديس كيرلس السكندري، ولذلك اهتم القديس كيرلس بالرد على آرائها في كُتب التفسير التي كتبها قبل ظهور البدعة النسطورية، وبعد ذلك انشغل بالنسطورية تماماً. وعلى الرغم مِن أن النسطورية مختلفة تماماً عن الأريوسية، فهي لم تُنكر صراحةً ولا ضمناً لاهوت الابن، ولكنها أنكرت الإتحاد، وأثارت هي أيضاً موضوع معمودية المسيح.

يؤكد القديس كيرلس التزامه بالقاعدة الأساسية لتفسير النصوص الخاصة بالمسيح والتي وضعها سلفه القديس أثناسيوس، ويقول:

"قبل التجسُّد كان في صورة ومساواة الآب. ولكن في التجسُّد أخذ الروح القدس مِن السماء، وقُدِّس مثل الباقين .. قبل التجسُّد لا يمكن أن يَنسب أحدٌ ما أية خبراتٍ إنسانية للابن مثل الألم والجوع .. الخ. ولكن في التجسُّد يمكن أن نقول عنه إنه أخذ الروح القدس مثل كل البشر" (تفسير إنجيل يوحنا النص اليوناني الطبعة المحققة للدكتور Pusey مجلد ١: ١٧٩ فقرة ٢٠-٣٢).

لكن ما هي علاقة الابن وهو في الجسد بالروح القدس؟

يسأل الأريوسيون هذا السؤال، ويجيب عليه كيرلس بقوله:

"الروح القدس هو في الابن، ليس مِن قبيل المشاركة مِن الخارج[١]، بل هو فيه بالجوهر" (المرجع السابق ١: ١٧٤ فقرة ١-٢).

لكن لماذا وكيف حلَّ الروح القدس على الابن المتجسد طالما أن الابن — حتى وهو في الجسد — واحدٌ مع الروح القدس والآب؟

يجيب القديس كيرلس على هذا بوضوح. وسنرى أنه يؤكد ألوهية الابن ومساواته بالآب، ولكنه يؤكد أيضاً أن الروح القدس حلَّ على المسيح.

يقول كيرلس:

"إن الهرطوقي المغرم بالجدل سوف يقفز مِن مكانه، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة ويقول لنا: "ماذا أسمع يا سادة؟ وماذا ستقولون عن هذا؟ هل لكم برهان؟ إن الإنجيل يقول إن الروح القدس نزل على الابن، بل لقد مسحه الله الآب. وهذا يعني أنه أخذ ما ليس لديه، بل إن المزمور يشهد لنا قائلاً عن المسيح: "لذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أفضل مِن رُفقائك" (٤٥: ٧)، فهل يمكن اعتبار الابن مِن ذات جوهر الآب الكامل، وهو قد مُسح؟ لأنه عندما احتاج إلى المسحة، مُسح. وهذا دليلٌ على عدم الكمال".

بالطبع لا يسكت كيرلس على هذا الاعتراض الأريوسي، ولذلك يسأل:

---

(١) المشاركة مِن الخارج Κατα Μετοχην Επακτον أي علاقة خارجية مثل علاقة الخالق بالمخلوق. هناك مشاركة في الجوهر، وهي مشاركة طبيعية بين الآب والابن والروح. كما توجد مشاركة خارجية مثل حلول الروح القدس علينا.

"نقول إلى هؤلاء الذي يقلبون تعاليم الكنيسة المقدسة، ويفسدون الحق الذي في الأسفار "أفيقوا أيها السكارى مِن خمركم" (يوئيل ١: ٥). إذا كنت تؤمن بأن الابن هو الله، فكيف تنسب إليه عدم الكمال؟ ألا يعني هذا نسبة عدم الكمال للآب أيضاً؟ وهذا في حد ذاته هو عدم تقوى، لأن ما يُنسب للابن يُنسب للآب الذي يلده. وإذا كان الابن غير كاملٍ، فالآبُ كذلك غير كاملٍ.

ولكن الهرطوقي يحتج لدينا بقول يوحنا المعمدان: "رأيت الروح نازلاً مِن السماء" على الابن، وإنه بذلك تقدَّس مِن الخارج[١] عندما مُسح، وإنه أخذ ما ليس لديه. إن مثل هذا الاعتراض، هو اعترافٌ صريحٌ بأن الابنَ مخلوقٌ، وإنه كُرِّم بمجد زائد أكثر مِن غيره ... ولكنه تقدَّس مثل الباقين، وحصل على الصلاح مِن آخرٍ، وليس مِن ذاته. وهذا يتعارض، بل يُعَرِّض الإنجيلي للاتهام بالكذب، وبالذات ما قاله: "مِن ملئِه نحن جميعاً أخذنا". وكيف يكون بطبيعته مملوءً وهو يقبل أن يأخذ مِن آخرٍ؟ لكن كيف يمكن أن نعتقد أن الله هو الآب إذا كان ابنه الوحيد مخلوقاً، وليس "الابن"؟ وإن صَحَّ كلام الهراطقة عن الابن أصبح الآب نفسه يُدعَى زوراً بالآب. والابن لا يجب أن يُسمى "الحق"، وتصبح كل ألقابه فارغة ومجرد كلمات ... لكن إذا كان الآب هو الآب حقاً، فإن ابنه الذي منه، مساوٍ له.

وإذا سأل أحدٌ: كيف تلد الطبيعة الإلهية الكاملة القداسة ذلك الذي يخلو مِن القداسة، أو أن يولد منها الابن وهو خالٍ مِن الصفات الإلهية؟ لأنه إذا احتاج إلى آخرٍ (الروح القدس)، ليمنحه القداسة كما يقولون، فعليهم أن يعترفوا علناً أنه لم يكن دائماً القدوس، وأنه صار كذلك عندما حلَّ عليه الروح القدس .. كيف هذا؟، وهو قَبْل التجسُّد كان دائماً القدُّوس؛ لأن السارافيم يسبِّحون الثالوث قائلين: قدوسٌ ثلاثُ مراتٍ للآب والابن

---

(١) راجع نفس الحاشية السابقة.

والروح القدس (أشعياء ٦: ٣). فإذا كان هو دائماً القدُّوس قبل التجسُّد، بل منذ الأزل مع الآب القدُّوس، فكيف احتاج إلى مَنْ يقدِّسه؟ لقد حدث هذا في آخر الزمان عندما صار إنساناً.

وأنا أتعجب، كيف فشلوا في إدراك هذا وهم كما يدَّعون، مُحبون للبحث عن الحقيقة؟ .. إن الرسول يقول عنه في موضعٍ معروف: "فليكن فيكم الفكر الذي كان في يسوع المسيح أيضاً .. الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب أن مساواته لله سرقةً، بل أخلى ذاته، وأخذ صورة العبد ووُجِدَ في الهيئة كإنسان" .. الخ (فيلبي ٢: ٥-٨). هو إذاً قبل التجسُّد في صورة ومساواة الآب، لكن في التجسُّد تقبَّل الروح مِن السماء وتقدَّس. هو قبل كل الدهور القدُّوس والمساوي للآب القدُّوس، ولكنه في الزمان أخلى ذاته .. وهو الغني افتقر لأجلنا لكي بفقره نصبح أغنياء" (٢ كور ٨: ٩).

أفتحوا آذانكم لتسمعوا برهاننا على صحة ما نقول، ولتدركوا معنى كلمات التعليم. إن الأسفار المقدسة تشهد أن الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله .. لأن موسى يقول "وخلق الله الإنسان على صورته" (تكوين ١: ٢٧). وخُتِمَ الإنسان بالروح القدس بعدما خُلِقَ ليكون بهذا الختم على صورة الله، وهذا ما يشهد عنه موسى قائلاً: "ونفخ في أنفه نسمة الحياة" (تكوين ٢: ٧).

وهكذا أُعطي الروح للخليقة الأولى، ومُنحت الحياة مِن الله الذي طبع "ختم" صورته في الإنسان. وعندما كوَّن الصانع العظيم، الله، الإنسان كمخلوقٍ عاقلٍ على الأرض، أعطاه الوصية المحيية، وظل الإنسان في الفردوس، كما هو مكتوبٌ محتفظاً بالعطية العظمى وهي الصورة الإلهية في الإنسان بالروح القدس الذي حلَّ فيه. لكن عندما سقط بحيلة الشيطان، وبدأ يحتقر الخالق، ثم رفض الناموس الذي وُضِعَ له، بكل حزنٍ سحب الله العطية التي أعطاها له، والذي خُلِقَ للحياة سمع الكلمات: "ترابٌ أنت والى تراب الأرض ستعود" (تكوين ٢: ١٩).

وهكذا، بسبب الخطية التي دخلت إلى الإنسان، بدأت الصورة الإلهية في الإنسان تبهت، ولم تعُد بعدُ صورة البهاء، بل أخذت تضعف وتظْلَّم[١] بسبب المعصية. وعندما وصل الجنس البشري إلى انحدارٍ أعظم، وسادت الخطية على الكل، فسدت نفوس البشر، وتعرَّت الطبيعة الإنسانية مِن النعمة القديمة، وفارق الروحُ كليةً الطبيعةَ البشرية، وانحدرت البشرية العاقلة إلى حماقاتٍ لا حد لها، حتى صاروا يجهلون خالقهم[٢].

لكن الله كان يُرتِّب خلاص الإنسان، ورتَّب الله أن يحوِّل الطبيعة البشرية مِن جديدٍ إلى مجد صورته الإلهية بالروح القدس؛ لأنه لم تكن هناك وسيلةٌ أُخرى لإعادة ختم صورة الله في الإنسان وإشراقها بالبهاء القديم ... فكيف يغرس فينا مِن جديدٍ، النعمة التي لا تُمحى، أي غرس الروح القدس مِن جديدٍ في الإنسان ... كيف وبأية وسيلةٍ يمكن إعادة خلق الإنسان إلى حالته الأولى؟

الإنسان الأول مِن الأرض، وعندما خُلق كانت له القدرة على الاختيار بين الخير والشر. كان سيداً على دوافعِه إلى الخير أو إلى الشر. لكنه بخدعةٍ دنيئةٍ، مال إلى العصيان، فسقط وعاد إلى الأرض أمه التي أُخذ منها، وساد عليه الموت والفساد ونقل العقوبة إلى كل جنسه[٣] وهكذا نما الشر وتكاثر فينا وانحط فهمنا إلى ما هو أسوأ. ملكت الخطية، وتعرَّت الطبيعة الإنسانية مِن الروح القدس الذي سكن في الإنسان الأول، وسفر الحكمة يقول: "الروح القدس روح الحكمة يهرب مِن الخداع، ولا يحل في جسدٍ تملك عليه الخطية" (١: ٤-٥).

---

(١) الظلام دائماً، نقيضٌ للنور، وهو حالة الابتعاد عن الله. والنور دائماً هو إشعاع الله في الكلمة أو في الروح القدس.

(٢) يُلاحظ القارئ أن كيرلس مثل أثناسيوس في كتاب تجسد الكلمة، يتحدث عن سقوط البشرية على مراحل بدأت بآدم ووصلت إلى حالة أبشع عند بناء برج بابل، وبالطبع يعتبر جهل الإنسان مخالفة من أسوأ نتائج السقوط ودليلاً على الانفصال الذي حدث بين الإنسان والله.

(٣) يُلاحظ القارئ أن كيرلس يتمسك بالفهم الشرقي للسقوط، وهو أننا أخذنا عن آدم الموت، وليس الذنب. وعندما يجيء الإنسان إلى العالم وهو ميت، فإن كل دوافعه وميوله تتجه إلى الشر .. هذا التعليم مختلف تماماً عن تعليم أوغسطينوس الذي لم تدخل كتاباته إلى الشرق إلَّا في بداية القرن التاسع عشر.

وعندما لم يحتفظ الإنسان الأول بالنعمة التي أُعطيت له مِن الله، كان الله الآب يُدَبِّر إرسال آدم الثاني مِن السماء، أي الابن الوحيد الذي هو بطبيعته لا تحوُّل فيه ولا تغيير، فجاء إلى عالمنا، ذاك الذي لا يعرف خطية. وكما بمعصية الأول (رومية ٥: ١٩) صرنا تحت الغضب الإلهي، هكذا بطاعة الثاني نتحرر مِن اللعنة، وتنتهي كل شرورها. ولذلك عندما صار الله الكلمة إنساناً، تقبَّل الروح القدس مِن الآب[١] ولكن ذلك الذي لم يعرف خطية إذا قَبِلَ الروح القدس —كإنسان— يحفظ تلك العطية في طبيعتنا (البشرية) ويغرسها مِن جديد فينا، أي النعمة التي فارقتنا. ولهذا السبب قال المعمدان: رأيت الروح نازلاً مِن السماء واستقر عليه. لقد فارقتنا النعمة بسبب الخطية، ولكن الذي لم يعرف خطية، صار مثلنا لكي ما يتعوَّد الروح أن يحل فينا دون أن يفارقنا، لذلك هو نفسه، قَبِلَ الروح لنا، وجدَّد طبيعتنا إلى صلاحها القديم، وهكذا قيل إنه افتقر لأجلنا (٢ كورنثوس ٨: ٩)" (المرجع السابق ١: ١٨٣-١٨٥).

والنص لا يحتاج إلى تعليقٍ. فهو يؤكد دور معمودية المسيح في الخلاص، وهو دورٌ أساسيٌ. ويمكننا أن نلاحظ كيف يمهِّد كيرلس لمعمودية الرب بشرح الخلق وسقوط الإنسانية، ثم العلاقة بين الخلق والخلاص، وإعادة الصورة الإلهية للإنسان بالروح القدس. ولقد صار هذا ممكناً فقط، عندما قَبِل آدم الثاني أن يُمسح بالروح القدس وهو القدُّوس البار الذي لم يفارقه الروح القدس بالمرة. ويؤكد كيرلس هذا في نصٍ آخرٍ:

"لقد فارق الروح القدس الإنسانيةَ؛ لأنه لم يكن قادراً على أن يحل في الفساد، ولكن الآن ظهر إنسانٌ جديدٌ بين البشر، وهو وحده الذي يجعل عودة الروح ممكنةً؛ لأن هذا الإنسان بدون خطية" (المرجع السابق ١: ١٨٤).

---

(١) تمسك الآباء بهذه النقطة الهامة في كل كتاباتهم عن العلاقة بين المسيح والروح القدس: أن المسيح أخذ الروح في المعمودية، ولكنه وهب الروح للذين يؤمنون به.

وقد اســـتخدم القديس كيرلس كلمةً شـــائعةً في كتابات الآباء منذ القديس ايريناوس، وهي كلمة "لقد تعوَّدَ الروح القدس أنْ يحلَّ في الإنســـانية منذ معمودية المســيح". وقد ترجمت القواميس الكلمة اليونانية Ποσεθισθη إلى accustomed أي تعوَّد ولكن الكلمة اليونانية تُفيد البقاء والاســـتمرار "ففي يســـوع وحده بدأ الله يُعطي مِن جديدٍ، الروح القدس لأنه باكورة ثمار الطبيعة الإنسانية الجديدة" (تفسير يوحنا ٧: ٣٩ المرجع السابق ١: ٦٩١).

وعودة الروح القدس إلى الإنســانية، بدأت بيســوع المســيح؛ لأنه البكر وبداية كل الأشــياء. وكيرلس يؤكد شــيئاً هاماً، وهو أن عودة الروح القدس إلى الإنســانية في آدم الثاني يســوع المســيح هي عودةٌ أبديةٌ، وليســت عودةً مؤقتةً، ذلك أن البر والقداسـة في يسـوع المسيح هي صفة ذاتية ثابتة لا تحوُّل فيها. وهكذا صار اتحاد اللاهوت بالناســوت في يســـوع المســيح هو "الثبات" الذي نالته الإنســانية؛ لأن اســتحالة تغيير الصـفات الإلهية في الابن جعلت قداسـته وهو في الجسـد قداسـةً دائمةً، وهذا وحده هو ضمان عطايا الحياة الجديدة. يقول كيرلس:

> "لقد وعد الله أن يُعطي الإنسانيةَ الروح مرةً ثانيةً، ولم تكن هناك طريقةٌ يمكن بها إعادة هذه النعمة إلى الإنسانية بدون مفارقةٍ، سوى في يسوع المسيح. إنها عودةٌ سببها حالة الاستقرار والثبات" στασιν ακλονητον أي unshaken state

لقد جاء المســيح بكل ما هو إلهي مِن أجل خلاص الإنســان. وفي نصٍ رائع فريد يؤكد كيرلس مِن جديد تعليم القديس أثناســيوس، وهو أن الإنســـانية كلها موجودةٌ في يسوع بسبب الجسد الذي أخذه. يقول كيرلس:

> "الروح هو روح الابن، ولم يأت إليه مِن الخارج مثل الأشياء التي تأتي مِن الله لنا نحن المخلوقات. الروحُ في الابن كما هو في الآب حسب صفات الجوهر الواحد الذي لهما ... لكن قِيل إنه أخذ الروح عندما صار إنساناً وقَبِلَه كما يقبله الإنسان، وهو ابن الله الآب المولود مِن ذات جوهر الآب

قبل التجسُّد، أي قبل كل الدهور. ولا خجل بالمرة إذا قال له الله الآب عندما تجسَّد: "أنت ابني أنا اليوم ولدتك" (مزمور ٢: ٧)؛ لأنه وإن كان مولوداً مِن الله قبل كل الدهور، إلَّا أن الآب يقول له: "اليوم ولدتك" حتى ما نأخذ نحن فيه البنوة. لأن كل الطبيعة البشرية كانت في المسيح؛ لأنه تأنَّس. ولذلك قيل عن الابن إنه سيأخذ روحه، لكي ما نأخذه نحن فيه.

ولهذا السبب عينه قيل إنه أمسك بنسل إبراهيم، وشابه إخوته في كل شيء (عبرانيين ٢: ١٦-١٧). لذلك أخذ الابن الوحيد الروح القدس، لا لأنه يحتاجه، بل لأن الطبيعة الإنسانية كلها كانت فيه. ولذلك أخذ الروح حتى ما يرفع الطبيعة البشرية مُعيداً خلقَها وتكوينها إلى حالتها الأولى ... وسوف نرى مِن الأسفار المقدسة كيف حدث هذا، وكيف أن الابن لم يتقبل الروح لأنه كان محتاجاً إليه، وإنما قبله لأجلنا؛ لأن كل الأشياء الصالحة تصل إلينا منه وحده.

عندما خُدِعَ أبونا الأول آدم وسقط وعصى، لم يحفظ نعمة الروح القدس. وهكذا، فقدت فيه الطبيعة البشرية كلها نعمة الله الصالحة[١]. ولم يكن الله الكلمة الذي لا تحوُّل فيه محتاجاً إلى أن يتجسَّد إلَّا لأن تجسُّده وحده يمكن أن يحفظ الصلاح (نعمة الروح القدس) دائماً لطبيعتنا.

ويشرح المزمور هذه الأسرار عندما يقول عن الابن: "أحببت البِّر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بزيت الابتهاج أكثر مِن رفقائك" (٤٥: ٧). وهو يحب البِّر على الدوام – لأنك أنت يا الله الابن بارٌ، ولا يمكن أن تحيد عن البِّر. كما أنك تبغض الإثم دائماً، وبُغضة الإثم هي فيك تماماً مثل محبتك للبِّر، لذلك مسحك الله إلهك. نعم مسحك يا مَنْ فيك البِّرُ الغير المتغيِّر؛ لأنه فيك مثل بهاء طبيعتك التي لا يمكن أن تميل إلى الخطية لأنك تعرفها. ولذلك عندما تجسَّدت، حَفَظَتْ في نفسك للطبيعة

---

(١) تظهر معالم المفهوم الشرقي الأرثوذكسي للسقوط في هذا النص مع النصوص الأخرى التي أشرنا إليها في الحواشي السابقة وهو أن السقوط كان فقدان نعمة الله.

الإنسانية المسحة المقدسة مِن الله الآب، أي الروح.

لقد تأنس الابن الوحيد وصار مثلنا حتى يصبح فيه بداية الصلاح كله، وتعود نعمة الروح القدس وتُغرس مِن جديدٍ هذه المرة بضمانٍ (αραροτως أي securely) للطبيعة الإنسانية كلها. وهكذا منحنا الابن الوحيد، والكلمة الذي مِن الله الآب مِن ثبات (αμεταπτωτον أي stability) طبيعته؛ لأن طبيعة الإنسان قد حُكِمَ عليها في آدم، وفقدت قوة الثبات وسقطت بسهولة في الفساد. ولكن الصلاح الأول الذي فُقِدَ، يعود كله مِن جديد إلى كل البشرية ولكن فيه. أي يسوع المسيح الذي لا يعرف التغيُّر، سوف نُمنح فيضاً مِن النِّعم الإلهية ستُحفَظ بثباتٍ لجنسنا كله. وإذا كان هناك مِن يُفكر في عكس هذا التعليم، فليتقدم إلينا ويخبرنا لماذا دُعِيَ المخلص آدم الثاني؟ أليس لأن الجنس البشري خرج إلى الوجود مِن العدم في آدم الأول، ولكنه سقط عندما داس الناموس الإلهي. لكن في آدم الثاني يقوم الجنس البشري ويعود مِن جديد إلى بداية جديدة متغيرة إلى حياة جديدة، وإلى عدم الفساد. لأن كل مَنْ في المسيح هو خليقة جديدة" (٢ كورنثوس ٥: ١٧)" (المرجع السابق).

يعود كيرلس إلى ســـؤال هام جداً لابد وقد عبر في عقل القارئ، لماذا مات المسيح على الصليب وقام؟ ويجيب على هذا السؤال في نفس النص.

الغطاس والقيامة[١]:

يقول كيرلس:

"ولكن هذه النعمة "تجديد الروح القدس" والحياة الأبدية، أُعطيت لنا بعدما تمجَّد المسيح، أي بعد قيامته؛ لأنه حطَّم قيود الموت، وهزم الفساد. ولما قام حياً، قامت فيه كل الطبيعة البشرية؛ لأنه إنسانٌ وواحدٌ منا. وإذا أردت

(١) هذا العنوان للتوضيح وليس في النص الأصلي.

أن تفحص عن السبب الذي لأجله أعطى الروح القدس بعد القيامة وليس قبلها، سوف تسمع منا الإجابة: صار المسيحُ أول ثمار الطبيعة الجديدة لأن الموت لم يكن قادراً على أن يقيِّده. وعندما قام حياً، كما قلنا، صار الرأسُ، وأصبح كل الذين يعودون إلى الحياة الجديدة بعده مثل النبات الذي لا تظهر أغصانه إلَّا بعد أن تُزرع البذرة، ويظهر الجذر الذي هو أساس كل شيء. هكذا كان مِن المستحيل بالنسبة لنا نحن الذين صار بدايتنا وجذرنا، ربنا يسوع المسيح نفسه، أن ننال الحياة الجديدة قبله. ولكنه أرانا أن فصل مجيء الروح القدس[١] قد حلَّ بعد ما قام مِن الأموات، ونفخ وقال لتلاميذه "اقبلوا الروح القدس" (يوحنا ٢٠: ٢٢). لأنه بعد القيامة كان أوان التجديد على الأبواب، بل دخل مِن الأبواب، وكما منح نسمة الحياة لآدم الأول (تكوين ٢: ٧)، هكذا منحنا نحن نسمة الحياة روح المسيح. لذلك يقول: "أنا هو القيامة والحياة"، والروح القدس وحده هو القادر على أن يجمعنا وأن يخلقنا مِن جديد حسب الصورة الإلهية، لذلك أعطانا المخلِّص مِن جديد، تلك العطية القديمة، وجددنا في صورته (المسيح) (غل ٤: ١٩).

الروح القدس في العهد القديم وفي العهد الجديد[٢]:

"دعونا نكمِّل الموضوع. لقد وَهَبَ للأنبياء القديسين إنارةً، ومصباحَ نورٍ قويٍ مِن الروح القدس كان كافياً وقادراً على أن يقودهم إلى فهم الأسرار الخفية، ولكن الذين يؤمنون بالمسيح لا يحصلون على مصباح نورٍ مِن الروح القدس، بل بكل يقين الروح نفسه، وأيضاً سُكناه.

ولهذا السبب وحده دُعِينا "هياكل الله" ولم يُدعَ ولا واحدٌ مِن الأنبياء القديسين في العهد القديم "هيكل الله". وكيف نفسر هذا القول الذي

(١) استخدم كيرلس كلمة فصل في معظم رسائله الفصحية للإشارة إلى ربيع الحياة الأبدية.
(٢) هذا العنوان ليس في النص الأصلي.

نسمعه مِن المخلِّص المسيح: "الحق الحق أقول لكم لم يَقُم مِن بين المولودين مِن النساء مَنْ هو أعظم مِن يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم مِن يوحنا (متى ١١: ١٠). وما هو ملكوت السموات سوى عطية الروح القدس الذي قيل عنه: "ملكوت السموات داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١). لأن الروح يجد سُكناه فينا بالإيمان" (المرجع السابق ١: ٦٩٢-٦٩٦).

قيمة هذه النصوص:

١- في تتابعٍ يظهر نور الخلاص مِن بيت لحم، حتى الصعود عبوراً بالأردن والجلجثة وجبل الزيتون. كل ما فعله الرب كان لأجل الإنسانية، وكل ما فعله كان في جسده، لأنه استودع ذلك الجسد كل خيرات وبركات السماء والحياة الأبدية، حتى يمكن أن تنتقل هذه الخيرات لنا عندما نتَّحد به في الأسرار وفي الكلمة المقدسة. والاتحاد بيسوع هو اتصالٌ بين ناسوته وبيننا، وعند ذلك فقط يمكن أن تصلنا نعمة الله.

٢- يمكن لمن يُدرك أبعاد الحياة الروحية الجديدة أن يرى أن عقيدة الثالوث هي أساس كل الشرح السابق لأثناسيوس وكيرلس؛ لأن الآب في ابنه وبالروح القدس أعطانا كل شيء. نحن لا نتصل بالابن وحده، أو بالروح وحده، وإنما بالثالوث. وكلما كان إيماننا بالثالوث صحيحاً، كلما كان فهمنا للخلاص سليماً وعميقاً، ذلك أن الابن الذي هو في الآب ومِن الآب، بل الآب فيه هو الذي يمنحنا البنوة. وهي ليست منحة الابن وحده، بل منحة الآب في ابنه بالروح القدس.

٣- وبعد، .. المسيحُ حاضرٌ بيننا، مسيح الأردن الذي هو بعينه رب الصليب ونور الحياة التي أشرقت بالقيامة .. هذه الحقيقة هي أساس احتفالنا كل عام، بل كل يوم — إذا شئنا — بمعمودية الرب مِن يوحنا. ولولا أن الذي بيننا شخصٌ حيٌ ساهمت أحداث الأردن والجلجثة وجبل الزيتون في تشكيل علاقته بنا، لولا هذا، لما استطعنا أن نحتفل بالغطاس. وهذا الاحتفال ليس ذكرى ماضية

نســتعيدها في عقولنا، بل حقيقة حية لأن اختبار الأردن هو شــركة المســيح فينا، وهي شركة تؤثِّر في كل ما في داخلنا.

ملاحظة هامة عن خلق الإنسان الأول:

مِن الضروري أن نشير هنا إلى أن "نسمة الحياة"، أي عطية الروح القدس التي وُهِبَتْ لآدم الأول، هي التعليم الثابت لآباء الإســـكندرية. وقد شـــرح القديس كيرلس الأول نص تكوين ٢: ٧ في جواب على ســؤال طيبريوس Tiberius مؤكداً أن نســـمة الحياة ليســـت هي النفس الإنســـانية (لأن هذا هو تعليم المانويين والغنوصــيين)، بل هي عطية الروح القدس. ويقول القديس كيرلس إن تصـــور أن نسمة الحياة هي العقل أو النفس الإنسانية، يؤدي إلى الأخطاء العقائدية:

١- لأن "نســمة الحياة" هو اســم الروح القدس نفســه، فإذا قال أحدٌ إنه النفس الإنسانية، تحوَّل الروح القدس إلى مخلوق.

٢- لو كان أصل النفس الإنسانية هو نسمة الحياة، لظل الإنسان الأول بلا خطية، وهو ما يكذِّبه التاريخ[1].

---

(١) راجع النص اليوناني مع الترجمة الانجليزية الذي نشره
L.R. Wickham, Cyril of Alexandria Select Letters, Oxford, 1983 p 190-191.

إطلالةٌ على الكلمة والروح القدس(١)

حسناً جداً أن احتفظت اللغة العربية القبطية باسم "الغطاس" كاسمٍ لعيد معمودية ربنا يسوع المسيح، ذلك الاسم الذي يعود إلى اللغة المصرية القديمة، ثم الكلمة القبطية **ωωc** والتي تعني التغطيس في الماء.

والزائر لكنائس مصر القديمة، كنيسة أبو سيفين، والأنبا شنودة، وغيرها يجد عند الدخول إلى الكنيسة، المغطس وهو المكان الذي كان يتم فيه طقس تقديس مياه عيد معمودية الرب قبل أن ينحصر هذا الطقس في "اللقان".

عيد الغطاس حسب الكتب الليتورجية هو عيد الظهور الإلهي، ولا فرق بين كلمة "ثيئوفانيا" وكلمة "أبيفانيا"، فالمعنى واحد وظاهر، وهو استعلان الثالوث وتأسيس "سر المعمودية" واستعلان "سر المسحة".

ولكي ندرك أهمية هذا العيد علينا أن نؤكد على ما يلي:

أولاً: العلاقة الوثيقة –التي سبقت معمودية الرب– بين استعلان الله، والمياه في تاريخ الخلاص.

ثانياً: معمودية الرب يسوع نفسه في الأردن. وكلمة "الأردن" هي أسم من الفعل العبراني "ي ر د"، أي ينزل أو يتواضع، وهنا المتواضِع الحقيقي هو الرب يسوع المسيح (العلامة أوريجينوس، شرح انجيل يوحنا).

ثالثاً: مسحة الرب يسوع لكي يصير "المسيح".

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠٠٩.

رابعاً: شركتنا نحن في مسحة الرب يسوع، والأهمية الخاصة لاسم "مسيحي"، أي الممسوح بالروح القدس حسب شرح الآباء.

ما سبق العيد من أحداث هامة في تاريخ الخلاص

"كان روح الرب يرف على وجه المياه" (راجع تك ١: ٢)، وقد عبَّر مار إفرآم السرياني الملقب بقيثارة الروح القدس عن هذه الحقيقة بقوله:

"كان مثل الدجاجة التي تحتضن

تدفئ المياه بنار اللاهوت،

سبق هذا خلق آدم وحواء ...

ولمَّا جاء عبور البحر الأحمر، العبور إلى الحرية، كان قد سبقه دم الحمل وقتل الأبكار، وصار عبور البحر الأحمر مثالاً لعبورنا نحن في مياه الأردن، المياه التي صارت -كما يقول مار افرام- "رَحِم الميلاد الجديد".

"لبس يسوع المياه كثوب،

سطع من المياه نور الحياة الجديدة".

ولما عبر الشعبُ الأردن، ودخل تابوت عهد الرب مياه الأردن، توقفت المياه. لكن لما جاء من هو الإله المتجسد، الذي صار جسده تابوت العهد الجديد الذي فيه "قسط المن"[١] و"عصا هارون" لم يكن يحمل لوحي شريعة العهد القديم، بل شريعة العهد الجديد (ارميا ٣١: ٣١) حيث يحل روح الرب، الروح القدس لكي يعطي شريعة الحياة (رو ٨: ١ - ٣). وهذا هو السبب الذي جعل العلامة أوريجينوس يقول إن أليشع نال نصيبين من روح إيليا؛ لأنه عبر الأردن مرتين (شرح إنجيل يوحنا).

---

(١) راجع التسبحة السنوية: "قسط المن" هو الإشارة الإلهية إلى المن السماوي، الإفخارستيا – ثيئوطوكية الأحد.

هنا يبدو المســيح يســوع وكأنه يلخّص التاريخ القديم، تاريخ الخلاص، لكي يقدم "عصارته" إلينا.

جاء يسوع لكي يعتمد من يوحنا. وقد سبق يوحنا الرب في أمرين:

أولاً: حُبل به بقوة الروح القدس مثل اســحق؛ لأن أليصــابات كانت عاقراً. ولذلك، مثل اسحق الذي هو بداية عهد الله مع إبراهيم بالبركة، صار يوحنا بداية العهد الجديد بمجيء يسـوع؛ لكي ننال بركة إبراهيم الحقيقية وميراث السـماء، أي الروح القدس.

ثانياً: جاء يوحنا بمعمودية التوبة. ولكن التوبة حســـب الإنجيل هي التحول الفكري μετανοια الداخلي، أي "رد قلوب الأبناء والآباء أيضـــاً" (لوقا ١: ١٧). فهو بداية "التحول"، وتغيير الاتجاه من الحرف إلى الروح، ومن الاغتســـال بالماءِ إلى الاغتسـال بالروح القدس نفسـه، ولذلك يقول معلمنا القديس أثناسيوس عن معمودية الرب يسوع:

> "إذن فإن كان يُقدِّس ذاته من أجلنا. وهو يفعل هذا لأنه قد صار إنساناً، فمن الواضح جداً أن نزول الروح عليه في الأردن، إنما كان نزولاً علينا نحن، بسبب لبسه جسدنا. وهذا لم يصر من أجل ترقية اللوغوس، بل من أجل تقديسنا من جديد، ولكي نشترك في مسحته، ولكي يقال عنَّا "ألستم تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم" (١كو ٣: ١٦) فحينما أغتسل الرب في الأردن كإنسان، كنا نحن الذين نغتسل فيه وبواسطته.
>
> وحينما اقتبل الروح، كنا نحن الذين صرنا مقتبلين للروح بواسطته. ولهذا السبب، فهو ليس كهارون. أو داود أو الباقين — قد مُسِح بالزيت هكذا — بل بطريقة مغايرة لجميع الذين هم شركاؤه — أي "بزيت الابتهاج" — الذي فُسِّر أنه يعنى الروح — قائلاً بالنبي "روح الرب على لأنه مسحني" (أش ٦١: ١). كما قال الرسول أيضاً "كيف مسحه الله بالروح القدس"

(أع ١٠: ٣٨). متى قيلت عنه هذه الأشياء — إلَّا عندما صار في الجسد واعتمد في الأردن. "ونزل عليه الروح"؟ (مت ٣: ١٦). وحقاً يقول الرب لتلاميذه إن "الروح سيأخذ مما لي" (ي ١٤: ١٦). و"أنا أرسله" (يو ١٦: ٧). و "أقبلوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢). إلَّا أنه في الواقع هذا الذي يعطي للآخرين ككلمة وبهاء الآب، يقال الآن أنه يتقدس، وهذا من حيث أنه قد صار إنساناً، والذي يتقدس هو جسده ذاته.

إذن فمن ذلك قد بدأنا نحن الحصول على المسحة والختم، مثلما يقول يوحنا "أنتم لكم مسحة من القدوس" (١يو ٢: ٢٠). والرسول يقول "أنتم ختمتم بروح الموعد القدوس" (أف ١: ١٣). ومن ثم، فإن هذه الأقوال هي بسببنا ومن أجلنا. فأي تقدم في الارتقاء، وأي فضيلة أو عموماً أي أجر عمل للرب، يتضح من هذا؟

فلو أنه لم يكن إلهاً، ثم صار إلهاً، ولو كان قد رقِّيَ إلى ملك وهو لم يكن ملكاً، فإنه يكون لقولكم بعض الظل من الاحتمال.

أما إن كان هو الله، ويكون "عرش ملكه أبدي" فإلى أي مدى يمكن أن يرتقى الله؟. أو ماذا ينقص هذا الذي هو جالس على عرش الآب؟ وكما قال الرب نفسه، إن كان الروح هو روحه، والروح أخذ منه، وهو نفسه أرسل الروح (أنظر يو ١٦: ١٤، يو ١٦: ٧)، إذن، فلا يكون اللوغوس باعتباره اللوغوس والحكمة هو الذي يُمسح من الروح، الذي يعطيه هو ذاته، بل الجسد الذي قد أتخذه، هو الذي يُمسح فيه ومنه، وذلك لكي يصير التقديس الصائر إلى الرب كإنسان، يصير (هذا التقديس) إلى جميع البشر به. لأنه يقول: "إن الروح لا يتكلم من نفسه" (أنظر يو ١٦: ١٣). بل اللوغوس هو الذي يعطي هذا (الروح) للمستحقين. فإن هذا يشبه ما سبق من قول، لأنه كما كتب الرسول "الذي إذ كان في صورة الله، ولم يحسب خلسة أن يكون مساوياً لله، ولكنه أخلى نفسه أخذاً صورة عبد"

(فيلبي ٢: ٦ - ٧). وبالمثل يرنم داود للرب. إنه إله وملك أبدي، مرسل إلينا ومتخذاً جسدنا الذي هو مائت. لأن هذا هو المقصود في المزمور بالقول "مر وعود وقرفة تفوح من ثيابك" (مز ٤٥: ٨) ويتضح نفس الشيء مما فعله نيقوديموس والنسوة اللائي مع مريم حينما جاء نيقوديموس حاملاً "مزيج مر وعود نحو مئة رطل" (يو ١٩: ٣٩). وكانت النسوة قد أعددن الحنوط لجسد الرب (لو ٢٤: ١). (ضد الأريوسيين — الطبعة الثالثة — المقالة الأولى: ٤٧، ص ١١٥ - ١١٧).

هكذا بدأ التحول، تغيير الاتجاه. الميلاد بقوة غير بيولوجية تبدأ بيوحنا، ولكنها تقف عند يوحنا؛ لأن يسوع وحده هو القادر على أن يجعل ميلاده من والدة الإله ميلاداً لنا؛ إذ قد حول أصل الجنس البشري إلى أُقنومه الإلهي، فأسس بذلك في أُقنومه البداية الجديدة الحقيقية للميلاد الجديد.

لا يجب أن ننسى أن ميلاد الرب يسوع كان له ثلاثة حقائق لا يمكن فصلها بالمرة إلَّا عند الذين ينكرون ألوهية الرب.

١- ولادة أزلية من جوهر الآب تحمل إلينا نحن الترابيين هبة التبني.

٢- ولادة زمانية من العذراء تؤسِّس ولأول مرة الإنسان الجديد الذي من الأرض — من العذراء" الحقل الذي لم يزرعه أو يفلحه أحد"، ولكنه من السماء؛ لأن المولود مولودٌ بدون زرع بشري، بل بالروح القدس، فجمع في نفسه، أي في كيانه "السماء، أي اللاهوت، والأرض، أي البشر"، ووحدهما في كيانه الإلهي المتجسد بولادة زمانية حقيقية، يحمل فيها اللحم والدم والعظام "ملء اللاهوت" (كولوسي ٢: ٩) لكي يصبح يسوع هو آدم الجديد.

٣- ميلاداً يلد الآخرين من بني آدم، ليس ميلاداً بيولوجياً — ولم يقل أحد بالمرة أننا نولد من العذراء في بيت لحم، وإنما الذي وُلِدَ هو الإنسانية الجديدة التي بدأت بيسوع، فهو الرأس ونحن الأعضاء أي أعضاء جسده.

وهكذا دخل الملكوت دنيا الإنســـان الترابي الأســـير للزمان والمكان والموت، للبداية والنهاية؛ لكي يحرر الإنسان من أصله الترابي الأول أي آدم، وفي هذا يقول القديس أثناسيوس:

"وإن كان الله قد أرسل ابنه مولوداً من امرأة، فإن هذا الأمر لا يسبب لنا عاراً، بل على العكس مجداً ونعمةً عظمى؛ لأنه قد صار إنساناً لكي يؤلهنا في ذاته. وقد صار جسداً من امرأة وولد من عذراء كي ينقل إلى نفسه جنسنا (نحن البشر) الذين ضللنا ولكي نصبح بذلك جنساً مقدساً، ونصير شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤) ... إذن، فالكلمة أخذ جسداً لأجل تحرير كل البشر، ولإقامة الجميع من بين الأموات، ولكي يصنع فداءً من الخطايا" (الرسالة إلى أدلفيوس - سلسلة نصوص آبائية رقم ٤٧ — يناير ٢٠٠٠ — المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، ص ٢٧).

كما يقول معلمنا القديس أثناسيوس:

"فمن الذي لا يعجب بهذا الكلام؟ أو من هو الذي لا يوافق أن هذا الأمر هو إلهي بالحقيقة؟ لأنه لو كانت أعمال ألوهية الكلمة لم تحدث بالجسد، لما كان الإنسان قد تألَّه، وأيضاً لو أن الضعفات الخاصة بالجسد لم تُنسب للكلمة، لما كان الإنسان قد تحرر منها تماماً، وحتى لو أنها كانت قد توقفت لفترة قليلة كما قلت سابقاً لظلت الخطية، وظلّ الفساد باقيان في الإنسان، كما كان الحال مع الجنس البشرى قبل التجسد. ولهذا، فهناك أمثلة لكثيرين قد تقدسوا وتطهروا من كل خطية مثل أرميا الذي تقدس من الرحم (أنظر أر ١: ٥ ويوحنا الذي وهو لا يزال جنيناً في البطن ارتكض بابتهاج عند سماع صوت مريم والدة الإله (أنظر لو ١: ٤٤). ومع ذلك فقد "ملك الموت من آدم إلى موسى، وذلك على الذين لم يخطئوا على شبه تعدى آدم" (رو ٥: ١٤)، وهكذا ظل البشر مائتين وقابلين للفساد كما كانوا، ومعرضين للأوجاع الخاصة بطبيعتهم. أما الآن فإذ قد

صار الكلمة إنساناً وجعل الأمور الخاصة بالجسد خاصة به، فلم تعد تلك الأمور تمسك بالجسد بسبب الكلمة الذي قد جاء في الجسد، فقد انهزمت الأوجاع بواسطته. ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يبق الناس بعد خطاةً وأمواتاً بحسب أوجاعهم، بل قد قاموا بقوة الكلمة، وصاروا غير مائتين وغير فاسدين وأقوياء دائماً. ومن هنا أيضاً فبينما وُلِدَ الجسد من مريم والدة الإله، فإن الكلمة نفسه يقال إنه قد ولد، وهو الذي يعطى بداية الوجود للكائنات الأخرى لكي ينقل بداية تكويننا إلى نفسه، ولكي لا نرجع فيما بعد كمجرد تراب إلى تراب، ولكن بارتباطنا بالكلمة الذي من السماء، فإننا نُحمل إلى السموات بواسطته. لذلك فإنه بطريقة مماثلة قد نقل إلى نفسه أوجاع الجسد الأخرى لكي يكون لنا شركة في الحياة الأبدية — ليس كبشر فيما بعد – بل أيضاً لأننا قد صرنا خاصين بالكلمة.

لأننا لم نعد نموت بحسب بدايتنا الأولى في آدم، بل بسبب أن بدايتنا وكل ضعفات الجسد قد انتقلت إلى الكلمة، فنحن نقوم من الأرض، إذ أن لعنة الخطية قد أُبطلت بسبب ذاك الذي هو كائن فينا، والذي قد صار لعنة لأجلنا. وكما أننا نحن جميعاً من الأرض وفى آدم نموت هكذا نحن إذ نولد من فوق من الماء والروح فإننا في المسيح نحيا جميعاً. فلا يعود الجسد فيما بعد أرضياً بل يصير إلهياً كالكلمة، وذلك بسبب كلمة الله الذي لأجلنا صار جسداً" (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣ — نصوص آبائية رقم ١١٣ الطبعة الثانية — المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة — ٢٠٠٧، ص ٦٤: ٦٦).

وهكذا ينـــزع التجســد عن الزمان قوة "الرتابة" أي "التتابع" حيث يختفي الحاضر في جوف الماضي ويظل المستقبل مجهولاً. فقد جاء التجسد بملء الزمان (غلا ٤: ٤) إذ وصل الزمان إلى غايته، وبعد أن كان الزمان عاملاً هاماً في ترتيب الأعياد والأزمنة والسبوت ومواسم قد صارت كلها ظلالاً (كولوسي ٢: ١٦ وما بعدها) لم يعد الزمان يرتِّب شيئاً، فقد امتلأت الإنسانية في الابن المتجسد من

"ملء اللاهوت"، دون أن يكون الزمان وسيطاً، إذ لم يرتب الزمان هذا الاتحاد الفريد الذي لا مثيل له، وتوقفت بداية الزمان ونهايته عن وضع خط سير الموت، فالمسيح يسوع هو البداية وهو النهاية، ولذلك لم يختفِ الحاضر في جوف الماضي، بل توقف الماضي أمام تجسد ملء اللاهوت عن أن يكون "الماضي"؛ لأن يسوع "هو هو أمس واليوم والى الأبد" (عب ١٣: ٨)، ليس فقط لأنه فوق الزمان، بل لأنه جاء إلينا دون أن يكون هذا المجيء زمانياً، بل كحدثٍ يبدأ ولا ينتهي، إذ صار يوم الرب هو يوم الملكوت، وحسب العبارة الليتورجية القديمة جداً "اليوم الذي لا غروب له"؛ لأن "شمس البر" يسوع المسيح قد "أشرق جسدياً من العذراء" وأنار على الجالسين في كورة الموت وظلاله.

المستقبل أيضاً يطل علينا في يسوع رغم ما نعانيه من فوضى وقلاقل وسفك دم وحروب ومخاوف، فقد رفع مصير الإنسان من الزمان إلى الأبدية، فصارت الأبدية متجسدة ليس كفكرة بل في "الله العظيم الأبدي" الذي "هدم الموت" وصالح أبعاد الزمان في استعلانه الإلهي.

مسحة يسوع وشركتنا في مسحة الرب

يسوع هو الاسم الشخصي للرب، لكن "المسيح" هو الاسم لوظيفة عرفها العهد القديم، لأن الملك هو "مسيح الرب"، ولذلك يقول المزمور "لا تمسوا مسحائي" (مز ١٠٥: ١٥).

عندما جاء الرب ليعتمد في الأردن حقق الرب أربعة مميزات لا يمكن فصلها، ولا يمكن أن يقوم بها نبي أو ملك أو إنسان مهما كان، بل الابن المتجسد ربنا يسوع المسيح:

١- رغم أنه وُلِدَ من الروح القدس، وأسس الروح القدس بداية دخول البكر إلى العالم (عب ١: ٦)، إلَّا أن هذه البداية رغم أهميتها القصوى عائدة بالدرجة الأولى على حقيقة التجسد، أي أنها تعطي لنا الأساس الجديد في آدم الجديد أو

الأخير (١كو ١٥: ٤٥). لكن المسحة تفتح لنا مجالات الشركة في الروح القدس، ولذلك فإن استعلان الإنجيل ليس مجرد تحية رسولية، فهذا ما تردده الشيع الإنجيلية في لغة الوعظ المعاصر الفقير، ولكن استعلان الإنجيل أي بشارة الحياة هو:

"محبة الله الآب ونعمة الرب يسوع المسيح وشركة الروح القدس تكون مع جميعكم" (راجع ٢كو ١٣: ١٤).

هكذا تبدأ الأنافورا، أي تقديم الجسد والدم في سر الإفخارستيا. وهي هنا متوقفة على "شركة الروح القدس" الذي أشركنا في مسحة يسوع، فقد "كنا نحن الذين مُسحنا فيه (القديس أثناسيوس). هذه الشِركة هي التي تجعلنا نصف جسد الرب ودمه بأنهما "نعمة الروح القدس"[١] وأن نَصِفَ التناولَ بأنه "امتلاء من الروح القدس".

٢- لقد مُسح يسوع وصار بذلك المسيح، وصرنا نحن نحمل اسم المسيح. وأي مراجعة للأصل اليوناني لكتابات الآباء توضح ذلك على أكمل وجه، وهنا نكتفي بعبارة القديس كيرلس الأورشليمي في شرح الأسرار للموعوظين التي يقول فيها بكل وضوح: "صرتم مسحاء"

> "لقد اعتمدتم في المسيح، وقد لبستم المسيح (غلا ٣: ٢٧) وصرتم مماثلين لابن الله، لأن الله سبق فعيننا للتبني كأبناء (أفسس ١: ٥) وصرتم شركاء في صورة جسد مجده (فيلبي ٣: ٢١) ودعيتم مسحاء χριστοι لأن الله قال عنكم لا تمسوا مسحائي (مزمور ١٠٥: ١٥) والآن قد صرتم "مسحاء" بنوالكم مسحة الروح القدس.

هذا الاسم "مسيحي" اختاره الله الآب لنا بسبب قبولنا الرب يسوع. وهو الاسم الوحيد الذي يجب أن نحمله، فأنا أولاً مسيحي، ويجيء بعد ذلك الانتماء الكنسي الذي يؤهل لحقيقة هذا الاسم والذي يعطي "المسحة"، "أمَّا أنتم فلكم

---

(١) من أجل خطاياي ... لا تمنع عن شعبك نعمة روحك القدوس.

مسحة من القدوس" (١يوحنا ٢: ٢٠). هذه المسحة تجعلنا مسحاء وتجعل كل مسيحي ينطق باسم "المسيح" إنما يعترف صراحةً وعلناً بأنه انضم إلى المسيح الرب وأنه "مُسِحَ" في يسوع كما يقول الرسول بولس: "ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطانا عربون الروح في قلوبنا" (٢كو ١: ٢١).

٣- من المسحة نأخذ أيضاً شركتنا في يسوع المسيح نفسه؛ لأننا لا نقدر أن نعترف بيسوع رباً إلَّا بالروح القدس (١كو ١٢: ٣) ولا نعرف الأسرار إلَّا باستعلان الروح القدس "لكي يظهرها قدساً لقديسيك" (صلاة استدعاء الروح القدس)، ولذلك يحل علينا روح يسوع أي الروح القدس، لكي نعرف يسوع ونشترك في ميلاده ومعموديته وموته وقيامته؛ لأن هذه الشركة هي أساسات الخليقة الجديدة.

لا يشركنا في المسيح يسوع إلَّا الروح القدس، وهو موضوع يحتاج إلى دراسة مطولة بسبب الهجوم الدائم على الروح القدس في التراث الشعبي الفولكلوري المعاصر. لكن حسب "التدبير" ولد يسوع بالروح القدس من العذراء "، ومُسح بالروح القدس لكي يعلن البشارة" (لوقا ٤: ١٨)، وصُلب بالروح القدس (عب ٩: ١٣)، وقام بالروح القدس (رو ٨: ١١)، وحملته سحابة المجد الإلهي "الشاكيناه" (أع ١: ٩)، وسيأتي على نفس السحابة في ظهوره الثاني. فهل يمكن فصل الروح القدس عن الابن؟ بكل يقين لا. لكن جوهر التعليم ليس هو في وحدة عمل الروح القدس والابن، بل في أساسات الخلاص نفسها:

+ الولادة في بيت لحم هي بداية ولادة الخليقة الجديدة من الماء والروح.

+ المسحة هي شركة هذه الخليقة في قوة وعمل واستعلانات الروح القدس، بل خدمة الإنجيل التي تجعل الخدام "شركاء الروح القدس" (عب ٦: ٤).

+ الموت مع يسوع في المعمودية، والصلب معه لكي يُصلب العالم لنا في

المسيح (غلا ٢: ٢٠)، وهكذا الروح الذي أقام يسوع، هو نفسه الساكن فينا والذي يعطي لنا عربون القيامة ويؤهلنا لكي نرى هذه القيامة هنا رغم رباطات الجسد (رو ٨: ١١).

٤- لقد مُسِحَ يسوع لكي يكون المسيح، ونحن نُمسح فيه وبواسطته لكي ننال ذات المسحة (القديس أثناسيوس - رسائل إلى سرابيون ١: ٦، ١٤، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥ — ٤: ٧).

ولذلك يعجز القلم والفكر عن تحديد حجم هذه المأساة الحقيقية التي حدثت عندنا وصارت لها منابر تدافع عنها في داخل الكنيسة، فقد تحولت مسحتنا الأبدية بالروح القدس إلى "مواهب"، وتم فصل الأقنوم الثالث عن الحياة المسيحية، في حين أن المواهب كلها خاصة بالزمان الحاضر، فلا وجود أبدي لها أي الشفاء — الألسنة — النبوات ... الخ. ولكنها هي قوة الروح القدس تعمل فينا حسب مسرة الله من أجل الزمان الحاضر، ولذلك قال الرسول بولس: أمَّا النبوات فستبطُل والألسنة فستنتهي والعلم فسيبطُل (١كو ١٣: ٨). أمَّا انسكاب محبة الله بالروح القدس (رو ٥: ٥) فهو انسكابٌ أبديٌ دائم لا ينتهي.

خطورة فصل الرب يسوع عن عمل الروح القدس

حسب التسليم الرسولي — الآبائي، الله الآب يعمل كل شيء فينا بواسطة ابنه يسوع المسيح وبالروح القدس (القديس بولس ٢كو ١: ٢١ — القديس أثناسيوس إلى سرابيون ١: ١٤، ٢٠، ٢٩)، وبالتالي لا يمكن فهم أو عيش حياتنا في المسيح إذا فصلنا الرب يسوع عن عمل الروح القدس، لذلك:

١- يجب أن نلتفت بشدة إلى أننا إذا حصرنا كل ما لدينا من ألفاظ تعبِّر عن الخلاص أو الفداء أو الكفارة .. الخ في الكتاب المقدس بعهديه، في علاقة الآب بالابن مع استبعاد الروح القدس - ربما عن جهل أو عناد أو تحت ضغوط الخوف والعداوة - فإننا نفقد عقيدة الثالوث التي باتت من العقائد الغامضة عند

جيل الأقباط المعاصـــر، وفقدان عقيدة الواحد في الثالوث يفقدنا رؤية الوحدة والتعدد، أي وحدة الجوهر وتثليث الأقانيم على المســتوى الإلهي، وهو ما ينعكس على رؤيتنا لوحدة الجسد الواحد وتعدد أفراد هذا الجسد على المستوى الكنسي.

٢- إذا فصـلنا الرب يسـوع عن عمل الروح القدس، نفقد الوسـيط والشـفيع الحقيقي الذي يقودنا للمسـيح، وهو الأقنوم الثالث، وتصـبح علاقتنا بالرب علاقة عقلية نفسانية بلا أساس إلهي، وعند ذلك يصبح الأساس الذي نستند عليه قابل للاهتزاز، وهذا هو ما يفسـر موجات الارتداد المعاصـرة تحت ضـغط الاحتياجات المادية.

٣- كذلك فإننا نفقد الحضور الإلهي في الليتورجية، وهو الحضور الذي يؤهِّلنا فيه الروح القدس للصلاة وقبول كل السرائر ابتداءً من المعمودية حتى صلاة الجناز التي تُختتم بصـــلاة التحليل الذي نطلب فيه حَل الميت من كل خطاياه العقلية والإرادية وغيرها.

أيها الثالوث القدوس،

يا من أعلنت ذاتك في معمودية الابن الوحيد،

أظهر ذاتك لنا بقوة وثبتنا بعمل روحك القدوس،

لكي نكون أمناء لك حتى النفس الأخير.

+

أضواءٌ من أشعار قيثارة الروح القدس

افرآم السرياني

-١-

انظروا، النار والروح في رحم التي ولدتك

انظروا، النار والروح عند نهر الأردن حيث اعتمدتَ

النار والروح في جرن معموديتنا

وفي الخبز والكأس النار والروح[١].

-٢-

لقد لُفَّ في أقماط حقيرة،

ولكنهم قدموا له هدايا.

لقد لبس ثياب الشباب؛

لكي يعطي لهم معونة.

لبس مياه المعمودية؛

سطع منها نورٌ.

(١) نشيد عن الإيمان ١٠: ١.

لبس الكتان في ثياب الموت
والانتصار أُعلن منهما
بتواضعه جاء مجدنا
مبارك الذي وحَّد مجده بآلامه[1].

-٣-

النهر الذي اعتمد فيه
حبل به مرة ثانية بشكل رمزي
رطوبة مياه رحم الأردن
حبلت به في نقاء
ولدته في البتولية
فصعد من المياه للمجد
في رحم المياه النقي
يمكننا أن نرى بنت آدم
تلك التي حبلت به في النقاء
وولدته بالبتولية
لأنها لم تعرف رجلاً[2].

---

(١) نشيد على تجسد الرب ٢٣: ١.
(٢) أناشيد عن الكنيسة ٣٦: ١ – ٥.

مُسحنا في يسوع؛

لنكون مسيحيين، أي مُسحاء[1]

الترتيب (الطقسي) الكنسي يُعلن سر الثالوث:

لعل أكبر خلل يصيب الحياة المسيحية الأرثوذكسية، هو أن تتحول رموز وترتيب الصلوات (الطقوس) إلى مؤثرات خارجية تُثير الذاكرة. هكذا كنا نسمع في جيلٍ لم يدرس الآباء: أن كل ما نراه ونشاهده في صلواتنا هو "لكي نتذكر".

لقد غاب من الوعي، ربما وعي بعض المعاصرين، أننا إزاء "سر الحضور الإلهي"، وأن هذا هو ما تشير إليه الطقوس؛ لأن الطقوس هي علامات تشير إلى ما هو كائن، وإن لم تكن في نفس الوقت هي ما يحرِّك "الذاكرة"، رغم أهمية هذا، لكنها هي تلك الشركة التي أُعطيت في أسرار الانضمام إلى الكنسية: المعمودية — المسحة — الإفخارستيا، أي الشركة في حياة الرب يسوع: تجسُّده، وموته وقيامته، وهي تلك الشركة التي ينقلها إلينا الروح القدس.

إن كل طقوسنا الكنسية مؤسَّسةٌ على أسرار الانضمام إلى الكنيسة، ولا يوجد طقس (ترتيب) إلَّا وجذره الواضح هو: المعمودية — الميرون — الإفخارستيا. بالطبع، هذه دعوة تحتاج إلى إيضاح، ولكن في الوقت الحالي يكفي أن ندرك أن في المعمودية — الميرون قد سُلِّم إلينا رشم علامة الصليب — الاتجاه للشرق — الاعتراف بالإيمان بعد جحد الشيطان.

---

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠١١.

وسُلِّم إلينا أيضاً أن رشم علامة الصليب قبل الصلاة، وفي أي مناسبة هي فاعلية سر المسحة، أي الميرون الذي به رُشمنا ٣٦ مرة على كل أعضاء جسدنا.

الترتيب (الطقسي) يُعلن سر الثالوث، ليس فقط بسبب الاعتراف بالإيمان، ولكن لأننا يجب أن ندرك ونستوعب حركة المحبة الإلهية:

أولاً: نزول الابن من السماء إلينا، وهي حركة التواضع الإلهي، تنازله عن المجد الإلهي: "أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (في ٢: ٦).

ثانياً: تأسيس عودة الإنسان إلى الآب فيه؛ لأنه "تجسَّد لأجل خلاصنا"، وذلك لكي يفتح باب الحياة الإلهية، أي باب الشركة لكي ندخل نحن منه؛ لأنه هو "الباب" (يوحنا ١٠: ٧)، وهو الطريق وهو القيامة، وهو مجد الإنسان الأبدي الذي لو تنازل عنه أي إنسان، لضاع منه المجد، وفقد كل شيء.

ثالثاً: حركة المحبة الإلهية في تنازل الابن إلينا لكي يبقى معنا دائماً متجسداً (متى ٢٨: ٢٠). ولم يأتِ يسوع لكي يُعلم بالكلمة فقط، بل جاء بعطية الحياة الأبدية. فهو يتحرك دائماً نحونا مثل الراعي الصالح، هو دائماً يعطي ذاته في نداء محبته: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، هو يحل فينا لكي يحل الاب الحال فيه دائماً بلا انقطاع؛ لأن حياة الله لا تعرف الموت، ولا تقدر قوة أن تفصل الآب عن الابن.

هذا كله "لأجلنا"، وهو يُعطىَ لنا في محبة غير مشروطة، ولا تحددها الخطية الإنسانية التي جاء الابن لكي يشفيها ويحرر الإنسان منها ويجدد طبعنا.

رابعاً: عطاء المحبة هو من "الآب بالابن في الروح القدس"، وهي عبارة كررها القديس أثناسيوس في رسائله إلى سرابيون عن الروح القدس (راجع على سبيل المثال ١: ١٤). طبعاً الاحتفاظ بالثالوث هو حفظ لأساس المسيحية الإلهي، أي الثالوث الإله الحي الواحد المثلَّث المتحرِّك دائماً نحونا، الذي يأتي إلينا ويصنع عندنا مكان إقامته فينا حسب وعد الرب (يوحنا ١٤: ٢٣). فعندما يأتي إلينا الابن متجسداً، فهو وقد تجسّد بالروح القدس، يُدخِل الروح القدس في شركة خلاصنا.

لا يجب أن نفكر بعقلية الإنسان الغارق في ظنون "النرجسية"، وهي "الذات محور كل الأشياء وما عداها فراغ"، بل يجب أن يكون لدينا وعيٌ جديد، وهو أن الثالوث يعمل معاً، ليس بسبب نقصٍ أو بسبب ضعفٍ، وإنما لأن الثالوث هو "شركة المحبة" التي لا يعرفها الإنسان في الواقع. يعمل الآب بالابن لكي يعلن بنوة الابن، وبالتالي يعلن الابن أبوة الآب لنا. يعمل الابن في الروح القدس لكي يعطي لنا هبة المحبة الإلهية؛ لأن الروح هو روح المحبة (رو ٥: ٥)، وهو العطية المتبادلة بين الآب والابن، والعطية هنا هي الاسم الأبدي للروح القدس (القديس أغسطينوس: الثالوث).

لكن العطية هنا هي شخصٌ، هي أقنوم الروح القدس. والعطية هي دواء للإنسانية التي لا تفهم أن "شر الخطية" هي تحوُّل الشخص إلى شيء، على مستوى الإنسان الخاطئ، وعلى مستوى علاقته بالآخرين. عندما قال الرب يسوع المسيح: "من نظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه" (مت ٥: ٢٨)، فهو يعلن كيف ينحط السلوك الإنسان بنظرة تشتهي ولا تعطي، تأخذ الآخر كشيء وتلعب به لأنه مجرد شيء. الذي رفع الإنسان من الفرد إلى الشخص هو عمل الثالوث واستعلان الآب فينا، ذلك الاستعلان الذي لا يُعطىَ بواسطة الآب بدون الابن، أو الابن بدون الروح القدس.

لقد جاء الابن بالشركة، وأسَّس هذه الشركة بتجسده، أي في إنسانيته، ولذلك مُسِحَ بالروح القدس؛ لكي – كما يقول أثناسيوس العظيم: "كنا نحن الذين مُسحنا فيه" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

الخطأ اللغوي الذي دخل في ثقافتنا بسبب تعدد اللغات:

كانت اليونانية هي لغة العهد الجديد الذي تُرجم في عصرٍ مبكر، ربما في بداية القرن الثاني إلى القبطية. وتزامن استعمال اللغتين في مصر اليونانية ثم القبطية، ثم جاءت اللغة العربية وحدث خلطٌ مصدره اللغات الثلاث:

يمسحُ — مِسحةً — مُسحاء

الفعل χρίω — المسحة χρίσμα — المسيح χριστός

والفعل العبراني "م ش خ" يمسح، وقد استُخدم بوفرة في العهد القديم في مِسحة ملوك بني إسرائيل ورئيس الكهنة (أخبار ٢٩: ٢٢ — لاويين ٤: ٢، ٥، ١٦ — ٦: ١٥).

الاسم (م ش ي خ) استُعمل الاسم للملوك (٣٠ مرة) ووُصِفَ شاول بأنه "مسيح الرب" (١ صم ٢٤: ٧ — ٢٦: ٩ وغيره)، وانتقل الاسم من العبرانية إلى الترجمة السبعينية. وعندما مُسح يسوع بعد خروجه من الماء، صار "المسيح"، وهو ليس "اسمُ شخصٍ"، بل هو اسم الوظيفة التي أخذها الرب يسوع. ولذلك، وعن المسيح بالنسبة لنا نحن يقول الرسول: "وَلكِنَّ الَّذِي يُثَبِّتُنَا مَعَكُمْ فِي الْمَسِيحِ، وَقَدْ مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضًا، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢ كو ١: ٢١ - ٢٢). فنحن نُمسح من الآب في الابن بالروح القدس (سرابيون ١: ٢٣، ٢٤) "النعمة التي من الآب هي واحدة، وهي تتم بالابن في الروح القدس" (سرابيون ١: ١٤ — ١: ٣٠).

كان الاسم القديم الذي عرفه الآباء هو مسحاء χριστοί وهي جمع χριστός أي كل منا صار "مسيح" لأنه إذا كان ملوك بني اسرائيل كل منهم صار "مسيحاً"، بل حتى كورش ملك فارس دعي "المسيح" و"الراعي" لأنه جاء لكي يهدم مملكة بابل، ولدينا شهادات كثيرة، لعل أقدمها هي شهادة العلامة أوريجينوس[1] (في شرح إنجيل يوحنا كتاب ٦١ - مجلد ١٤ عامود ٢١٢)، لكن الذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو شرح الممارسة الليتورجية للقديس كيرلس الأورشليمي:

(١) في شرح انجيل يوحنا كتاب ٦ فقرة ٤٠-٤١ "اسم المسيح يقال بصيغة المفرد، ولكنه أيضاً يقال بصيغة الجمع؛ لأن "المسيح حياتنا" (لم ترد في العهد الجديد، وإنما في أوشية الإنجيل) .. ولأن المسيح في كل قديس، ولأن المسيح واحد، يوجد مسحاء Christs وهم الذين يتشبهون به وقد كُوِّنوا من جديد حسب صورته أي صورة الله، ولذلك يقول الله بواسطة النبي لا تمسوا مسحائي Christs (مزمور ١٠٤: ١٥) (راجع سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٨٠ شرح انجيل يوحنا ص ١٧٩-١٨٠).

"لقد صرتم شركاء المسيح وتدعون مسحاء Christs وعنكم قال الله لا تمسوا مسحائي Μετοχοί ούν τού χριστού γενομενοί, χριστοί εικότως " (مز ١٠٤: ١٥). (عظة ٣: ٢ على السرائر).

ويكرر نفس الاسم عندما يقول:

"لقد دعيتم مسحاء Christs بقبولكم علامة الروح القدس

Χριστοί δε γεγόνατε, τού αγιου πνευματος τό αντιτιυπον""[١]

عيد الاسم الذي دُعينا به هو عيد معمودية الرب:

نحن نعيِّد عيداً له دلالة خاصة، فقد ظهر الثالوث القدوس: الآب ينادي الابن صاعداً من مياه الأردن، والروح نازلاً مثل حمامة. هو العيد الذي مُسحت فيه الإنسانية في يسوع، وأخذنا عطية مسحة الروح القدس "أمَّا أنتم فلكم مسحة من القدوس (١ يوحنا ٢: ٢٠)، المسحة التي تجعلنا نعترف بالمسيح يسوع الذي شاركنا إنسانيتنا لكي نشترك في مسحته، وهي حسب عبارة الرسول يوحنا "أمَّا أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ..." (١ يوحنا ٢: ٢٧).

اللقَّان واستعلان سر الثالوث:

تقديس المياه حسب التسليم الكنسي يعلن عمل الابن الكلمة خالق كل الأشياء في الخليقة التي خلقها هو، والتي صار الآن هو جزءٌ منها بسبب تجسُّده. فقد جاء إلى الخليقة لكي يجمعها معاً في وحدة واحدة تحت رأس واحد (أفسس ١: ٣ – ٦). هذا يجعلنا نرى البنية اللاهوتية Theological Structure للصلوات، فهي تبدأ بالخلق، ثم تدبير الخلاص بمجيء الرب يسوع، وحلول الروح القدس. هذا الترتيب نراه في قدَّاسات الإفخارستيا، وهو أمر له دلالة خاصة؛ لأن الليتورجية هي

---

(١) راجع أيضاً (مثوديوس في Symp 8: 8). ومن المسحة أيضاً جاء اسم χριστοφόρος خريستوفوروس عند اغناطيوس الأنطاكي، أفسس ٩ – القديس أثناسيوس، ضد الأريوسيين ٣: ٤٥ — كيرلس الأورشليمي، تعليم عن الأسرار ٢٢: ٣).

خدمة استعلان التدبير الالهي الذي لا يمكن فصله إلى خلق وخلاص، بل كلاهما معاً: الخلق والخلاص هما عمل واحد، بل لو تذكرنا أن الفعل العبراني كما ورد في سفر التكوين ١: ١ "في البدء خلق" هو "ب ر أ"، وهو يعني أيضاً خلَّص وفدى. وهذا هو معنى اسم الله "البارئ"، أي المخلِّص.

ولكي نترك العصر الوسيط تماماً علينا أن نطهِّر أفكارنا من ثلاثة أخطاء تراكمت:

أولاً: أننا إزاء قصة الخلاص.

ثانياً: أننا نتذكر عقلياً.

ثالثاً: أننا نحن الذي نستدعي الثالوث.

الأخطاء الثلاثة هي ثمرة الشرح العقلي غير الملتزم بالسر Mystery والسر هو استعلان الله الآب في ابنه يسوع المسيح، ومُعلَن ومُعطى بالروح القدس.

عندما تركنا البنية اللاهوتية المعلَنَة في يسوع المسيح، أصبحت ضرورة شرح الصلوات والطقوس تسوق العقل إلى الخيال وإلى استنباط واختراع شرحٍ ليس له علاقة بالإيمان أي بالعقيدة، بل هو أحياناً ضد الأرثوذكسية.

هذا موضوع يحتاج إلى دراسة كاملة، ولكن المجال الآن هو أن ندرك أولاً أن البنية اللاهوتية أساسها في الاتحاد الأقنومي. والاتحاد الأقنومي غطَّاه تعليم العصر الوسيط بضباب كثيف، إذ دار الحوار كله بشكل دفاعي للابتعاد عن الأريوسية، والأوطاخية، والنسطورية. وترك المدافعون فاعليات الاتحاد الأقنومي، لأن أحد هذه الفاعليات هو الحضور المتجسد للابن، الذي بسبب تجسده، أصبح للماء، وتراب الأرض، ثمر الأرض مثل الحنطة والزيوت، والكون المادي نفسه دورٌ في فداء الإنسان؛ لأن المسيح جاء لفداء الكون، ولكي يعتق الخليقة كلها من عبودية الفساد، ويؤهِّل الكون إلى حياة جديدة تنسجم مع الحياة الجديدة التي تأتي مع قيامة الأجساد (راجع رو ٨: ١٩ - ٢٢).

في حوالي سنة ١١٠م، وربما بعد ذلك بقليل قال اغناطيوس الأنطاكي إن الرب اعتمد لكي بآلامه يطهِّر الماء. وكان الوعي الكنسي منفتحاً على انسكاب النعمة في الخلق الجديد. هذا الانسكاب الذي جمع كل عناصر الكون معاً، وهو ما نراه في المعجزات التي هي حسب اللغة اللاهوتية للعهد الجديد، وبالذات إنجيل القديس يوحنا هي علامات Signs تُعلن حياة الدهر الآتي التي سوف نراها بشكل كامل بعد القيامة. فالسير على الماء هو ردٌّ لسلطان الإنسان الذي فُقِدَ في آدم الأول (مزمور ٨). وإكثار الخبزات هو الشبع من الحضور الإلهي، وصيد السمك مثل السير على المياه، وكذلك إسكات الريح العاصفة. لكن انفرد آدم الثاني بما لا تملكه الطبيعة الإنسانية، تلك التي تُفتدى في اليوم الأخير، وهو أنه هو وحده الذي يرد الحياة، ويقيم الموتى، ويخلق من جديد، هذا هو عمل الله الكلمة الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح.

وخطر **الخطأ الثاني** هو الذكرى العقلية التي يجب إثارتها وإعادة "تشغيل" الذاكرة وشحنها من جديد بالطقوس والرموز.

السِّرُ ليس ذكرى عقلية، والطقوس ليست لجذب الانتباه، بل هي اكتشاف ما هو كائن وثابت في الحياة الالهية ومُعلن ومُعطي لنا في الابن بالروح القدس. **عندما نسمع القراءات أو الصلوات، فإننا لا ندخل مجال الحياة العقلية عن طريق السمع، والفهم، والذاكرة فقط، هذا فعلاً يحدث، ولكننا ندخل مجال الحياة الالهية التي تنسكب في يسوع المسيح، رأس الكنيسة، الذي يجمع ويوحِّد ويغذِّي ويُحيي أعضاء جسده.** وانشغال العقل الدائم بالحياة اليومية هو السبب الأول والأخير في استخدام الرموز، وترتيب الصلوات لكي ترتفع الروح وتدخل من جديد فيما تركته أثناء الانشغال بالأمور اليومية، ناهيك عن الآثار الضارة الجسيمة التي تتركها الخطية في الإدراك والتي تحتاج إلى شفاء وتطهير كي يعود الوعي والإدراك Perception إلى حقيقة الاتحاد بالله في يسوع المسيح.

وإذا دققنا النظر في **الخطأ الثالث** الذي يجعلنا نظن أن الرب يسوع ليس

حاضراً معنا جسدياً، حتى يتحول الخبز والخمر باستدعاء الروح القدس، فإن هذا التعليم الفاسد يلغي الاتحاد الأقنومي تماماً؛ لأن الرب بعد تجسده وحتى صعوده لا يمكن مطلقاً فصل اللاهوت عن الناسوت. هنا يجب أن نذكر القارئ بالآتي:

١- إن الاستدعاء ليس هو طلب الغائب، بل هو جواب الكنيسة على نداء الله لنا.

٢- والطلب هو عودة الوعي إلى ما أُعطي لنا، وهو ما لا يقبل التغيير أو الاستبدال.

٣- ولعل القارئ الذي يواظب على حضور الصلوات قد أدرك أن عبارات مثل: "أرسل علينا نعمة روحك القدوس" أو "ليحل روحك القدوس"، وغيرها، إنما هي عبارات تقال لا من أجل انفتاح الوعي على صدق وأمانة مواعيد الله فقط، بل أيضاً هي عبارات تقولها الكنيسة كلها، وهذا ظاهر من صيغة الجمع التي لا يمكن أن تصبح نداء الفرد. فالجماعة كلها تطلب وتسجد؛ لأن وليمة الملكوت قد أقامها الرب يسوع، وهو يدعونا إليها، وهي وليمة لا يمكن أن نفهمها من خلال الشرح العقلي، بل من خلال مكونات السر الكنسي نفسه:

- الذي أسسه الرب نفسه،
- وثبَّته بالاتحاد الأقنومي،
- ويعلنه ويعطيه لنا بالروح القدس.

المناسبات الثلاثة الخاصة باللقَّان:

عيد معمودية الرب — خميس العهد وغسل الأرجل — عيد الآباء الرسل. وتلك الأعياد هي استعلانات الله لنا في يسوع المسيح. ونشير هنا إلى أن الأب متى المسكين كان قد نبش الآبار التي ردمها العصر الوسيط في مجموعة مقالات فاخرة نُشرت بعنوان: "أعياد الظهور الإلهي".

نحن نقدس الماء ليس لأن الماء نجسٌ، ولا لأنه شرٌ، بل لأن التقديس كما نفهمه من شرح القديس كيرلس لإنجيل يوحنا وسائر المؤلفات الأخرى هو:

* "تخصيصٌ" مثل البكر فاتح الرحم الذي يدعى "قدوس"، أي مقدَّس لخدمة الرب في العهد القديم (خر ١٣: ٢ – عدد ٨: ١٦).

* "هو ما لا يمكن استخدامه خارج الصلاة وخدمة الله لنا" مثل ذبيحة الخطية التي تُدعى قدس أقداس (راجع لاويين ١٠: ١٧ – ١٤: ١٣).

* لكن جاء التجسد بتقديسٍ أعظم من التخصيص أو التكريس، وهو "أن يعطي الروح القدس نفسه من قداسته الإلهية للبشر"، وكل ما يخص الخلاص تقديساً ينقل الطبيعة المخلوقة إلى الحياة الإلهية لكي تُفتدى وتشترك في حياة الله، وهو ما تعبِّر عنه الصلوات: "انقلهما – قدِّسهما" عن الخبز والخمر؛ لأن دخول الحياة الالهية هو غاية تجسد الابن الذي باتحاد ألوهيته بالجسد الإنساني، فتح مجال تجلي Transfiguration أي تحول الهيئة والطبيعة إلى هيئة وطبيعة المسيح الانسانية التي نالت مجد الحياة الخالدة بالانتصار على الموت، وبسبب الاتحاد بأقنوم الله الكلمة.

هنا، وعند تقديس المياه في لقان عيد الغطاس بالذات نسمع عبارة: "القُدسات للقديسين"؛ لأن قوة الكلمة Logos قد انتشلت الخليقة القديمة، وقدَّستها وهيأت هذه الخليقة التي خضعت للفساد (رو ٨: ١٩)، والتي هي الآن مدعوةً لأن تذوق حرية مجد أولاد الله (رو ٨: ٢١) إلى أن يكمل هذا في الدهر الآتي.

الآن تصبح المياه: "قُدسات" تعطي للإنسان أن يدخل مجال السر، أي سر حضور وحياة المسيح لكي يستنير ويتطهَّر. وهنا يجب أن استعير كلمة الأب متى المسكين المشهورة: "يتلامس" مع الحلول الإلهي الذي لا يمكن إخضاعه لمقاييس المنطق؛ لأن العلامات المنظورة مثل المياه لا يمكن فصلها أو حتى دراستها بمعزل عن:

– الملكوت السماوي الذي دخلناه بالمعمودية.

– الملكوت السماوي الذي نحيا فيه بمسحة الروح القدس في الميرون.

- الملكوت السماوي الذي نأكل فيه الخبز النازل من فوق من عند الآب السماوي (يوحنا ٦: ٥)، والذي يُرفع "مجداً وإكراماً للثالوث القدوس" في دورة الحمل.

المناسبات الثلاث هي: مسحة الروح في المعمودية في نهر الأردن، وبذل الرب ذاته كخادم، أو حسب لغة العهد الجديد "العبد" الذي يخدم ويغسل أرجل الضيوف، وهم السادة (في خميس العهد)، ثم في عيد الآباء الرسل، وهو عيد الحياة الرسولية التي تتشبه بالمسيح.

ولذلك، فالإشارة إلى غفران الخطايا ضرورية جداً، ويجب علينا أن نترك العصر الوسيط؛ لأن الغفران في العهد الجديد نفسه، وفي الليتورجية هو: الشفاء، والاستنارة، والتحرر من رباطات الخطية، وتجديد الحياة الداخلية، ورفع حكم الموت.

استرداد الوعي الأرثوذكسي بالطقوس:

ينقلنا الطقس عامةً دون الدخول في تفاصيل محددة (وهو ما سوف نفعله في مناسبة أخرى) إلى الوعي بالحضور الإلهي. نحن نأتي إلى الثالوث، نحن نقبل الدعوة، ولذلك الصلاة تقودنا من: الاستعداد إلى الاستنارة إلى التطهير، ثم إلى الاتحاد. هكذا سلَّم لنا الأريوباغي في كتابين: "رئاسة الكهنوت" و"الرئاسة السماوية" مراحل انتقال الوعي وانفتاح القلب على السر الإلهي على أنه يسير من الاستنارة إلى التطهير إلى الاتحاد. يدعِّم ذلك حلول الروح القدس -تقريباً- في نهاية الخدمات، حيث ينقلنا التدبير إلى الشركة. وما يأتي بعد حلول الروح القدس هو صلوات وأواشي تدعونا إلى أنْ نرى أنَّ السر الإلهي ليس قاصراً علينا، بل هو من أجل سلامة الكل: الخدام — الجند — الكون بكل ما فيه من أشجار ونباتات ... الخ. هذه كلها مشتركة معنا في الخدمة، في انتظار الانعتاق من الفساد والعودة إلى مجد الحياة الجديدة في يسوع المسيح.

كل عام وأنتم بخير.

الظهور الإلهي للثالوث
في معمودية الرب يسوع في نهر الأردن[1]

استُعلِن الثالوث في العهد الجديد في بشارة الملاك للقديسة مريم عندما جاءت البشارة من الله (لو ١: ٢٦):

– الروح القدس يحل عليك

– القدوس المولود منك يدعى ابن الله" (لو ١: ٣٤ – ٣٥).

وهكذا أعلن تجسد الابن:

١– تمايز الأقانيم.

٢– قدَّم لنا اسم الأقنوم الثاني "ابن الله".

وجاء تمايز الأقانيم واضحاً في معمودية الرب في نهر الأردن:

– الآب ينادي من السماء.

– الابن في مياه الأردن.

– الروح القدس يحل على الابن المتجسد بهيئة حمامة.

وكما بدأ العهد الجديد بالحبل البتولي؛ وبدأ العهد القديم بالحَبَل المعجزي بإسحق (تك ١٨)، هكذا بدأت خدمة المتجسد بالمعمودية التي نالها هو:

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠١٣.

أولاً: لكي يمنحها هو نفسه لنا، فما أخذه يعطينا هو إياه، ولذلك قال رسوله: "أنتم الذين قد اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧)، وأكمل رسول الرب يسوع رسم أيقونة الخلاص بتأكيد أن ما استُعلِن في الأردن، وهو بنوة الابن هو ما يعطى لنا نحن بنفس الروح الذي حلَّ على يسوع "بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبّا أيها الآب" (غلا ٤: ٦).

ثانياً: وخدمة المتجسد هي استعلان الثالوث، ولذلك جاءت شهادة يوحنا المعمدان عن الآتي الذي سوف "يعمدكم بالروح القدس" (مر ١: ٨)، وهو تعبير لم يكن له وجود بالمرة في العهد القديم برمته، ولذلك جاء "البِكر" يسوع لكي تنشق السموات (مر ١: ١٠)، فلم تعد السموات مغلقة، وتأكيد انفتاح السموات على الأرض هو نزول الروح مثل حمامةٍ، لا لكي يطير مثلما يظهر في أحد الأفلام، بل لكي يستقر عليه، على يسوع. وتسمع الإنسانية صوت الآب:

"أنت ابني الحبيب الذي به سررت" (مر ١: ١١). استعلان ابن محبة الآب الذي جاء لكي ينقذنا من سلطان الظلمة وينقلنا إلى ملكوت ابن محبته (كولوسي ١: ١٣).

خدمة الثالوث بدأت بمعمودية الرب يسوع

هل سيأتي جيلٌ يفهم أن الأكبر هو الخادم، وهو تعليم الرب يسوع الذي نطق به هو؛ لأنه يحياه "وأكبركم يكون خادماً لكم" (مت ٢٣: ١١)؟ وفي مناسبة أخرى أعاد ذات التعليم عندما كان الحوار، بل الجدل حول من هو الأعظم، فقال: "إذا أراد أحد أن يكون أولاً فليكن آخر الكل وخادماً للكل" (مر ٩: ٣٥). ألم يكن هو الذي "أخلى ذاته وأخذ صورة عبدٍ"؛ لأنه جاء لكي يخدِم (مت ٢٠: ٢٨) خدمة بذل الحياة؟ والخدمة هي دياكونية، هي خدمة الملائكة لنا (عب ١: ١١)، وخدمة الرب نفسه، وهي خدمة الروح القدس لنا، وهنا كلمات الرسول واضحة:

"وأعمال خِدَم"، ثم أضاف أن الذي يخدم هو "الله الواحد الذي يعمل الكل في الكل" (١ كور ١٢: ٥)؛ لأن وحدانية الله وتعدد عمل الله لا يسمح لنا بتقسيم الله نفسه؛ لأن الله بالروح القدس يعمل كل هذه بالروح الواحد (١ كور ١٢: ١١).

وقد دخل هذا المبدأ اللاهوتي الهام في صلواتنا: "أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك" (القداس الغريغوري). والحديث عن "مبدأ لاهوتي" هنا لا ينصرف إلى معنى مجرد؛ لأننا نقصد الكلام عن أحد أساسات العهد الجديد، العهد الذي قرر الله فيه أن يخدم الإنسان لأنه، أي الله، هو الأعظم والأكبر، وبذلك يكون قد قَلَبَ موازين العظمة بحسب قول الرب: "إن المستعلي عند الناس هو رجسٌ قدام الله" (لو ١٦: ١٥). ولا يوجد تعبير أفظع من رجس = نجاسة، فتواضع المتجسد جعل كل شيء آخر عظيماً عند الناس بلا قيمة، بل نجاسة أمام طُهر ونقاء تواضع المحبة.

لقد دخلت ثقافة الاستعلاء والاستكبار في كل مجتمعات البشر، فهي ليست قاصرة على شعبٍ دون باقي الشعوب. وجاء التركيب الطبقي لكل مجتمع يرفع البعض حسب الثروة أو القوة .... إلخ ويؤسس بذلك الصراعات التي عرفها التاريخ، والتي لن تنتهي حتى يصبح "كل البشر ملوكاً"!!!

وطبعاً، مع شدة الإصرار على التركيب الطبقي، يجيء الله – وربما لا زال – على رأس الهرم الاجتماعي والسياسي[1] ... لكننا هنا أمام استعلان خدمة الأعظم والأكبر لكي تكون قيمة العمل محسوبة بما يحققه هذا الأعظم والأكبر، لا بما يبذل فيه فقط من جهد. ولكي ينال كل عمل مكافأة بل مكانة فيما حققه من شركة وتقدُّم في العلاقات بين الله والبشر.

ما يُستعلَن ليس للتباهي أو إظهار القوة، وأمام مَن؟ هل أمام البشر الضعفاء

(١) الذين يريدون أن يزيلوا الأهرامات، لديهم أهرامات أفظع في عقولهم، ولكل واحد من هؤلاء "أبو الهول" الخاص به، الذي يعبده، وهو الكراهية والحقد وإبادة الآخر.

الذين يحاولون أن يدخلوا في سباقٍ مع الله، ببناء برج بابل من جديد؟ لكن اللغة الإنسانية، لغة أصحاب المشروع، لم تكن لغة الكبار الذين يخدمون الأصاغر، بل ربما كانت هناك خدمة "سخرة"، خدمة الأصغر للأكبر الذي لا يريد إلَّا الراحة على حساب الضعيف. لقد كانت النازية الألمانية هي آخر صور الاستبداد العرقي وسيادة قوة البطش والقتل التي أبادها صراع العقل والذكاء، وقتال الجماعة ضد القوة الغاشمة. فقد جاءت النظرية الألمانية بالتفوق العرقي وحشدت كل القوى الممكنة، ولكنها فشلت لأنها كانت بلا سلام وبلا توافق، وزرعت العداوة، فحصدت الموت، أي نهايتها.

لم نجد في التاريخ الإنساني كله أيقونة الأكبر الذي يخدم بحياته سوى أيقونة الثالوث المستعلَنة في لحم ودم يسوع وحياته وخدمته وموته وصلبه وقيامته.

استعلان وظهور الأقانيم ليس بالكلام، بل بالعمل والعطاء

هل صحيح أن عقيدة الثالوث عقيدة غامضة؟ أم أننا نحن الذين حوَّلنا هذا الاستعلان الإلهي إلى خطاب فلسفي عقلي أجوف مثل "طبل أو صنج يرن"، كما قال الرسول عن هؤلاء الذين جعلوا من المحبة خطاباً بلا عمل؟

الأقنوم هو استعلانٌ خاص من أجل عطاءٍ خاص. هو وعيٌ بما استُعلِن وظهر بشكل خاص لكي يكون لهذا الظهور خصوصية تعطي ما لا وجود له، أي عطاء لأول مرة، عطاءٌ خاص.

محور الاستعلان هو الابن، وهو استعلانٌ خاصٌ بالبنوة. فقد انتهى عهد العبودية باستعلان من الآب: "هذا هو ابني الحبيب"، بنوة محبة تعطي. وهي محبة مستعلَنة لمن هو إنسانٌ منظور قائم بين البشر، أي يسوع؛ لكي يُمسح بالروح القدس وينال خدمة "المسيح"، وبذلك تتم النبوات القديمة لا سيما نبوة أشعياء (راجع لو ٤: ١٦ — ١٨).

وعندما قال الآب: "هذا هو ابني الحبيب"، فقد كان في ناسوت البشر، وهكذا شملت هذه المحبة الأبوية إنسانية كل إنسان. استعلان عام للمحبة لكي يصل القبول الخاص بهذه المحبة في المعمودية.

وعندما نعمِّد باسم الآب والابن والروح القدس، ونَصِفُ جرن المعمودية باسم "الأردن"، فإن الوعي القبطي منذ بداية المسيحية — حسب شهادة العلاَّمة أوريجينوس، وكما هو مدوَّن في كتاب خدمة المعمودية الخاص بأم الشهداء، الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، يحتفظ بكل ما يعنيه ذلك ويعبِّر عنه في الصلوات كالآتي:

"لأن ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي نزل إلى الأردن وطهَّره، شَهِدَ قائلاً: إن لم يولد أحد من الماء والروح فلا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات. وأيضاً أمر تلاميذه القديسين ... اذهبوا ... وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس".

هذا الوعي الكنسي يدرك أن ما قيل لنيقوديموس معلم إسرائيل هو ما حدث للرب نفسه في الأردن لأن الميلاد الجديد هو تحول ناسوت الرب، ولأن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو اتحادٌ فائق لا بُد من إعلانه، لكن الإعلان ليس لفظاً ولا خطاباً، لكنه إعلان دخول هذا الناسوت "علانيةً" في شركة علنية مع الآب والروح القدس؛ لأن التعليم يجب أن يكون علانيةً ومعلَناً ليس بلفظ، بل بإظهار العلاقة الجديدة الخاصة.

التحول بالاتحاد الأقنومي فقط لا يؤسس الخلاص، ليس لأنه بلا قيمة، بل لأنه سرٌّ لا يُفهم ولا يُدرَك، ولا يمكن لأي بشرٍ مهما كان، أن يدخل "أقداس" الاتحاد الأقنومي، لكن مسح يسوع بالروح القدس هو عملٌ ظاهرٌ في المسحة نفسها وفي الخدمة التي استُعلِنَت فيها هذه الخدمة: التعليم — المعجزات — الصلب — الموت — القيامة — الصعود. تلك أعمالٌ ظاهرة لا تقبل التخمين، وليست هي —كما يقولون — رجمٌ بالغيب — بل هي ضرب من الاستعلانات تؤسِّس لنا:

١- الشركة في الاستعلان.

٢- نوال النعمة الخاصة المستعلَنة.

٣- تغيير جوهر وغاية الصلاة (وهو الموضوع الغائب الذي يحتاج إلى مجلد ثان ينضم إلى كتاب حياة الصلاة الأرثوذكسية للأب متى المسكين)؛ لأن استعلان أقانيم الثالوث غيَّر جوهر وغاية الصلاة.

أقنوم الابن وعطية التبني

رغم أن بنوة الابن أُعلِنت في العهد القديم، وفي بشارة الملاك للقديسة مريم، ولكنها الآن تأتي بشهادة الآب نفسه: "هذا هو ابني الحبيب". وشهادة المحبة هي شهادة خاصة، لا يمكن أن تقال إلَّا من الذي يحب، ولا يمكن أن تقال في غيبة المحبوب. هذه الشهادة مكونة من كلمتين: ابن — المحبوب، وكلتا الكلمتين تحملان معاً ما هو خاصٌ بالمحبة، وهو ما هو خاص بجوهر الحياة الإلهية. لم يسبق أن شهد الآب عن أي آخر في كل أحداث الحياة، ولا شهدت الأسفار عن آخر قيل إنه ابني، مع إضافة "الحبيب". لقد قيل: "من مصر دعوت ابني"، ولكن الآن تجيء كلمة "الحبيب". وهي تعبير عن خصوصية المحبة في العلاقة الحميمة التي لا يمكن أن تكون علاقة عامة: هذا هو ابني ... وفي المزمور: "أنت ابني أنا اليوم ولدتك"، وهي الولادة التي ينبغي أن تحدث مستعلَنة في الاغتسال بالماء، وفي فصل المولود عن الافتخار العرقي لجنس إسرائيل، رغم أن الأم والأنساب يجيئون من إسرائيل، ولكن هذا هو العصر الجديد، عصر إعلان البنوة التي تُعلن في الابن، والتي تعطى بالروح القدس في المسحة، ليس لأن الابن لم يكن ابناً، وهي سقطة الهراطقة، ولكنه كان الابن الأزلي الذي أُعلِنت بنوته في الزمان من أجل الزمانيين. والإعلان من أجل الزمانيين هو إعلانٌ بلا قيمة إن لم يكن الابن أزلياً، فمن أجل الزمانيين أخذ الابن المولود من الآب قبل كل الدهور جسداً زمانياً لم يكن له قبل أن يولد في الزمان.

الحساب بالزمن يفسد كل استعلان، ويجعل علاقة الله بالإنسان مسرحية هزلية بلا قيمة؛ لأن ما هو زماني هو في النهاية زائل، وذاهب مع زمان البشرية الذي ينكسر دائماً عند القبر، وعندها يصبح كلمة تغوص في دياجير الماضي.

"اليوم ولدتك"، هو اليوم الباقي، وقد سجَّل سفر الخليقة تلك الملاحظة الرائعة، فقد خُلِقت السماء والأرض في ستة أيام، ولكن هذه الأيام الستة هي "مبادئ السموات والأرض، حيث خُلِقَت يوم عمل الرب الإله الأرض والسموات" (تك ٢: ٤ — ٥).

فاليوم هو زمان الخلق، لا يُحسب بالأيام "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب" (مز ١١٨: ٢٤). وماذا عن الأمس؟ وماذا عن الغد؟

"اليوم إن سمعتم صوته لا تقسُّوا قلوبكم" (عب ٣: ٧)، فهل يجوز لنا أن ندخل القساوة بعد نهاية اليوم؟ هذا تشويش العقل الخاضع لأحكام الزمان، وهو عقل يفقد رؤية ما هو أبدي لأنه مقيَّدٌ برؤية ما هو زماني، أي الحس والإدراك الواقع تحت الحواس الخمس بدون حتى "الحدس" الذي يفتح البصيرة على ما هو أعلى من الحواس الخمس.

معمودية الرب بالصليب وبالقيامة

بعد أن سبق الرب وأخبر تلاميذه "عما سيحدث له ... ابن الإنسان يُسلَّم إلى أيدي رؤساء الكهنة ... ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم" (مر ١٠: ٣٢ — ٣٤)، عند ذلك سأل ابنا زبدي "أن نجلس واحد عن يمينك والآخر عن يسارك في مجدك" (مر ١٠: ٣٧)، وهو طلبُ مُلكٍ، ولذلك قال لهما يسوع: "لستما تعلمان ماذا تطلبان"، وهنا يجيء السؤال الحاسم: "أتستطيعان أن تشربا من الكأس التي أشربها أنا؟ وأن تعتمد (تصطبغا) بالمعمودية (بالصبغة) التي أعتمد بها أنا؟".

ويجيء الرد: "فقالا له: نستطيع" (مر ١٠: ٣٩ – لو ١٠: ٥٠).

الصبغة أو المعمودية آتية، ولكن السؤال: ما هي علاقة هذا بمعمودية الرب في الأردن؟ والجواب هو أن تتم هذه المعمودية بإرادة الرب نفسه؛ لأن الأولى هي استعلان الثالوث، والثانية هي الموت، وهي الصلب، ثم القيامة، هي الصبغة التي سوف تصبغ حياة الرب، هي صبغة الثالوث في الصلب لأن المصلوب هو "ابني الحبيب الذي به سررت"، وهي صبغة يقدَّم فيها يسوع الذي مُسِحَ بالروح القدس، وبه يقدِّم جسده قربان للآب حسب شهادة العبرانيين (عب ٩: ١٤).

لقد مُسِحَ يسوع بمحبة الله الآب، وسكب الآب عليه الروح القدس، وجاءت المسحة في شكل حمامة، وهو ما تستوحيه التسبحة السنوية فتقول:

"الحمامة النقية التي نادت في أرضنا

وأينعت لنا ثمرة الروح

الروح المعزِّي الذي حلَّ على ابنك في مياه الأردن

كمثال نوح

لأن تلك الحمامة هي التي بشرتنا بالسلام

الله الذي صار للبشر".

الحمامة الحسنة (الجميلة جداً حسب الأصل القبطي) هي بشارة السلام، وهي تعبير متواتر عند الآباء، لكن أي سلام هذا الذي يندمج فيه استعلان الثالوث بصبغة الجلجلة؟ إن استعلان بنوة الابن هو تأكيد على شركة الأقانيم في وضع أساسات الخلاص، ولكن هذه الأساسات لا تعمل فينا إلَّا إذا أزال الرب بنفسه الموت والدينونة وأباد سلطان الخطية.

الثالوث هو استعلان العمل الإلهي الواحد المتعدد المراحل حسب التدبير

من الأردن إلى الجلجثة والقبر والقيامة هناك خطٌ واحد يجمع كل الأحداث، وهو شركة الثالوث في خلاصنا. وعلينا أن ننتبه إلى ما هو عام يشترك فيه الآب والابن والروح القدس، وما هو خاص بكل أقنوم على حدة.

* ما هو عام، هو الظهور الواحد في البشارة – المعمودية – التجلي على جبل طابور.

* ما هو خاص، هو استعلان بنوة الابن في البشارة – استعلان المسحة في الأردن في المعمودية، أي عطية الروح القدس لنا – ثم هو استعلان قوة الدهر الآتي في سحابة المجد "الشاكيناه" في تجلي الرب معلنا "جسد مجده" الذي سوف يظهر به بعد القيامة والذي سبق وأعلَن السر الكامن فيه قبل الصليب لأنه جسد حياة من قال: "أنا هو القيامة والحياة".

* ما هو عام يعطي التعليم بوحدانية عمل الثالوث.

* ما هو خاص يؤكد العطية والهبة المستعلَنة في كل أقنوم، ويؤكد بنوتنا للآب في البشارة والمعمودية، ومسحتنا بالروح القدس بسبب مسحة يسوع[1] المجد الآتي الذي سوف نناله في القيامة في استعلان التجلي لأننا سوف نقوم بذات المجد الذي قام به يسوع.

لكن يجب أن ننتبه إلى أن تعدد مراحل التدبير من البشارة إلى القيامة، لا يعني أنها مراحل تغطيها فواصل زمنية، بل هي مراحل يتم فيها بناء الناسوت نفسه في تحول داخلي؛ لأن الخلاص هو من داخل حياة الرب المتجسد الذي يحول في كيانه الطبع الإنساني مؤهِّلاً إياه للحياة السمائية، تحولاً تدريجياً قال عنه القديس

(1) راجع مقال: لماذا اعتمد يسوع؟ منشورة على موقع www.coptology.com

أثناسيوس، وهو يشرح كلمات الإنجيلي لوقا: "وأمَّا يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة عند الله والناس" (لو ٢: ٥١):

"لقد أنقص نفسه لأجلنا؛ لكي بتواضعه نستطيع نحن أن نتقدم وننمو ... فالتقدم هو للجسد، لهذا ففي تقدمه، كان يزداد أيضاً ظهور اللاهوت فيه لأولئك الذين رأوه. وكلما كان اللاهوت يُستعلَن أكثر فأكثر كلما ازدادت نعمته كإنسان أمام كل الناس ... وهكذا بازدياد الجسد في القامة، كان يزداد فيه ظهور اللاهوت أيضاً، ويظهر للكل أن الجسد هو هيكل الله" (فقرات مختارة من المقالة الثالثة ضد الأريوسيين، فقرة ٥١ – ٥٢ – راجع ترجمة مركز دراسات الآباء ص ٩٢: ٩٥).

هكذا علينا أن ننتقل من سكون الفكر ومبيت العقل في ثالوثٍ لا يتحرك ولا يعطي، إلى الثالوث الحقيقي الذي استُعلِن في حياة يسوع، الذي جاء معلِنا لنا الآب، وأظهر في ذاته ألوهيته، ثم أرسل لنا عطية الآب الروح القدس.

ليكن هذا العيد، عيد الثالوث، عيد العطاء،

عيد استعلان محبة الآب في الابن الحبيب،

ولنأخذ هذا في قلوبنا بكل حرص وانتباه؛ لكي ننمو إلى ذات المحبة

كل عام وأنتم بخير

معمودية الرب يسوع في الأردن، لأجلنا اعتمد، ولأجلنا مُسح بالروح القدس لأنه صار إنساناً لأجلنا[١]

عندما نشرتُ مقال "لماذا اعتمد يسوع" في مجلة مرقس[٢]، مُنعتُ من التدريس لمدة عام، وكان قرار المنع مبنياً على أن عيد الغطاس (كما درجنا على استخدام الاسم في تراثنا الشعبي) هو استعلان الثالوث فقط.

كان ما ضايقني هو التغاضي عن نزول الرب نفسه إلى مياه الأردن وصعوده ثم حلول الروح القدس عليه وما يعنيه ذلك بالنسب للبشرية. وكان ما ضايق الذين كانوا وراء قرار منعي من التدريس في الكلية الإكليريكية هو الاقتباسات الكثيرة من دكاترة العقيدة أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير عن قبول الرب يسوع الروح القدس لأجلنا، ذلك القبول الذي لم يكن قبولاً "مواهبياً" حسب الادعاء، بل كان حلول أقنوم الروح على ناسوت الرب لكي يمسحه ويعلنه "المسيح"، وكان هذا بمثابة دليل آبائي على حلول الروح القدس نفسه علينا.

لكن لا غضاضة لدينا من أن نُعيد بحث الموضوع من أجل السؤال الذي لا زال يتردد ويصلنا على موقع الدراسات القبطية:

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠١٤ .
(٢) هذا المقال كان أصلاً جزء من رسالة الدكتوراه المقدمة منا إلى جامعة كمبريدج ١٩٧٠ بعنوان الخليقة الجديدة في المسيح يسوع حسب لاهوت وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، والجزء الأول من هذه الرسالة منشور على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية www.coptology.com راجع ص ١١٤ وما بعدها.

– ما هي علاقة سر المعمودية بسر المسحة أو الميرون.

ولنعد إلى القديس أثناسيوس الذي يشرح الإيمان على هذا النحو:

"لأجلنا قدَّس ذاته وفعل ذلك عندما تأنَّس، ومن الواضح أن نزول الروح عليه في الأردن كان نزولاً علينا نحن؛ لأنه لبس جسدنا. ولم يحدث هذا لكي يتقدم الكلمة وإنما مرةً ثانيةً لتقديسنا لكي نشترك في مسحته، ولكي يقال عنا نحن "أنتم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم" (١كو ٣: ١٦)" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

* الروح حلَّ عليه "ونزل علينا نحن لأنه لَبِسَ أو حمل جسدنا".

* ونحن نشترك في مسحته لأننا صرنا هياكل الله.

كنا فيه، أي كانت إنسانيتنا فيه، أي في أقنوم الكلمة:

يكمِّل القديس أثناسيوس الشرح:

"لأن الرب عندما اغتسل في الأردن كإنسان، كنا نحن الذين اغتسلنا فيه وبواسطته (به) وعندما قبل الروح كنا نحن الذين بواسطته قبلناه (الروح)" (ضد الأريوسيين ١: ٤٧).

معمودية الرب يسوع وعدم انفصال المعمودية عن سر المسحة:

كان عملاً واحداً نزل الرب إلى مياه الأردن، وعندما صعد حلَّ عليه الروح القدس، ومُسح فصار "المسيح"، هذا لأجلنا، ولذلك السؤال الذي وصلنا أكثر من مرة عن علاقة المعمودية بسر المسحة أو سر الميرون يجب أن نجيب عليه من واقع التسليم الكنسي نفسه، ذلك التسليم الذي لا يعرف انشطار السرائر لا سيما عندما تُحسب بالأرقام، لا حسب التدبير. ولعل تنوع الأسماء هو الذي أدخل في الوعي ازدواجية الانضمام إلى جسد المسيح الكنيسة في سرين منفصلين، لذلك

السبب بعد أن نطهِّر قلوبنا من تعليم العصر الوسيط عن سر المعمودية وسر التثبيت، وهو الاسم الشائع في لاهوت العصر الوسيط الذي كان يُعطي سر حلول الروح القدس بعد المعمودية ربما بسنوات أو بشهور، ولذلك سُمي "التثبيت" Confirmation ولكن الاسم الكنسي الأصيل حسب الآباء والليتورجية هو "سر المسحة"، والشرح هو من رسائل القديس أثناسيوس الرسولي إلى سرابيون عن الروح القدس (الترجمة العربية مايو ١٩٩٤)، وإن كنا قد أوردنا بعض اقتباساتٍ أخرى للقديس كيرلس الأورشليمي، وردت في نهاية المقال.

نعمة واحدة من الثالوث الواحد:

"كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس"، هو التسليم الكنسي. الآب هو المصدر، والابن هو الوسيط والرأس والنهر، والروح هو الواهب والمانح، ولكن الكل هو من الله، الثالوث.

> "النعمة التي من الآب هي واحدة وهي تتم بالابن في الروح؛ إذ الإلوهة واحدة وإلهٌ واحد على الكل ربّاً للكل وفي الكل (أف ٤: ١٦)" (الرسائل إلى سرابيون عن الروح القدس ١: ١٤ ص ٥٧).

وأيضاً:

> "ثالوث واحد قدوس كامل يُعترف بلاهوته في الآب والابن والروح القدس .. فالآب بالكلمة في الروح القدس يعمل كل الأشياء" (المرجع السابق ١: ٢٨ ص ٨٢-٨٣).

النعمة من الثالوث وتُعطى في الثالوث:

ولأن منهج العصر الوسيط غير معروف عند الآباء، لذلك يكتب المعلم السكندري:

> "المواهب التي يوزِّعها الروح لكل واحد تُمنح من الآب؛

لأن كل ما هو من الآب هو من الابن أيضاً.

إذن كل الأشياء التي تُعطى من الابن في الروح هي مواهب الآب،

وحينما يكون الروح فينا، **فالكلمة الذي يُعطي الروح يكون أيضاً فينا**. الآب (كائن) في الابن، وهذا لأنه قال سنأتي أنا والآب ونصنع عنده منزلاً" (المرجع السابق ١: ٣٠ ص ٨٦-٨٧).

مؤكداً بعد ذلك:

"النعمة والهبة تُعطى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس. وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فإنه لا يكون لنا شركة في العطية إلَّا في الروح القدس، لأننا حينما نشترك فيه، تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه" (المرجع السابق، ص ٨٧).

سر المسحة أو الميرون:

أولاً يقول القديس أثناسيوس:

"الروح لا يُعطي الابن،

بل

الابن هو الذي يُعطي الروح" (المرجع السابق ٤: ١٧).

ذلك هو التدبير الإلهي؛ لأن الرب جاء وردَّ إلينا عطية الروح القدس، ولذلك سلَّم الربُّ لنا عطية الروح القدس.

ويؤكد أثناسيوس –العظيم حقاً– أن ألوهة الثالوث هي ألوهة واحدة "في الآب وفي الابن وفي الروح القدس نفسه" (المرجع السابق ٤: ٣ ص ١٢٤).

ووحدة جوهر الثالوث هي السبب الأول والأخير في كتابة هذه السطور في الرسالة الرابعة إلى سرابيون:

"في الثالوث نفسه معمودية وإيمان واحد، **وعندما يرسل الآب الروح، فالابن –بواسطة النفخ في التلاميذ– يعطيهم الروح، لأن كل ما للآب هو للابن**" (يو ١٦: ١٥). نحن ننال التبني من الابن في المعمودية، والفاعل والواهب هو الثالوث، وليس الابن وحده. لأننا عندما نشترك في الروح تكون لنا نعمة الكلمة، وفي الكلمة تكون لنا محبة الآب، وكما أن نعمة الثالوث واحدة، لذلك فالثالوث غير منقسم". (المرجع السابق ص ١١٦).

"لأن الثالوث هو أساس الكنيسة" (المرجع السابق، ص ١١٦-١١٧).

"وهو سبب التعميد باسم الثالوث" (المرجع السابق، ٣: ٦ ص ١١٦).

ما هو طقس أو ترتيب الاكتمال؟

الكمال هو كمال الوجود المسيحي؛ لأن الوجود الإنساني الذي لا شركة له في الثالوث، هو وجودٌ ناقص، هو ذات الوجود الآدمي الذي لأجله تجسَّد الرب لكي يحرره ويفديه من الأسر، ويرده إلى الشركة. ولذلك، طقس الانضمام إلى الكنيسة، هو طقس تكميل الكيان الإنساني الذي استنار في الانضمام إلى الموعوظين، والآن يدخل، ليس إلى مجال شرح الإيمان، بل إلى قبوله في القلب وفي الجسد والروح معاً.

التكميل هو طقس الانضمام إلى اللاهوت، أي إلى الثالوث. ولذلك، الذي ينكر وحدة جوهر الثالوث، تكون معموديته غير صحيحة، وهو ما جعل القديس أثناسيوس يرفض معمودية الأريوسيين ويقول:

"إن التكميل الذي تحسبون أنكم تمارسونه، ليس انضماماً تاماً إلى اللاهوت لأنكم تمزجون المخلوق باللاهوت .." (ص ٢٨٤).

ويشرح معنى هذا الكلام:

"الايمان بالثالوث –المسَلَّم إلينا– يجعلنا متحدين بالله، وكما أن ذلك الذي

يستبعد (يرفض) أي واحد من الثالوث، ويعمِّد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس، لا ينال شيئاً، بل يظل غير حيٍّ وغير مكتمل (الوجود) (١: ٣٠ راجع ترجمة د. موريس).

"بل يظل غير فعَّال (والأفضل غير حي)، وغير مكتمل الوجود؛

لأنه لم ينل شركة في الثالوث" (راجع ٨٥).

وبعد ذلك يظهر أن فصل أي أقنوم، يجعل مَن يفصل "بدون إله" (ص ٨٦)؛ لأنه أضاف خالق مع مخلوق، وبذلك هدم وحدة جوهر الثالوث.

قوة الوجود أو الثبات:

يقول أثناسيوس إن الخلق هو عمل الثالوث.

"لأن الآب يخلق كل الأشياء بالكلمة في الروح؛

لأنه حيث يكون الكلمة، فهناك أيضاً الروح".

ثم:

"المخلوقات تنال قوة البقاء (الوجود) من الكلمة بالروح" (٣: ٥ ص ١١٤).

ويكرر ما سبق وذكره:

"توجد معمودية واحدة تعطى فيه (الثالوث)،

وواحدٌ هو التكميل في يسوع المسيح ربنا (٣: ٧ ص ١٣٠).

وهنا يمكن الإجابة على السؤال عن المعمودية والمسحة ..

– فالابن يعطي الروح القدس لنا،

– والروح يعطي الابن لنا.

وفي الفقرة ٣ من الرسالة ٣ ابتداء من ص ١١١ يؤكد المعلم الكنسي:

* "الروح مسحة وختم" (١يوحنا ٢: ٢٧). والمسحة لأن الرب مُسح بعد صعوده من مياه الأردن.

* "المسحة هي مسحة الابن، حتى أن الذي عنده الروح يقول نحن رائحة المسيح الذكية" (٣: ٣ ص ١١)، ورائحة المسيح الذكية هي اشارة إلى العطور التي توضع في زيت المسحة أو الميرون.

* "والختم يُعطى بصحبة الابن، **حتى أن الذي يُختم يكون صورة الابن**". **فالروح الخالق يعيد مع الابن تكوين الصورة الجديدة، أي صورة الرب نفسه، وهي الصورة الإلهية التي وُهِبَت في الخلق الأول. والآن تصبح صورة المسيح، وليس صورة آدم لا قبل السقوط (ولا بعد السقوط).**

* "من له الروح القدس له الابن، وإذ يكون له، فهو هيكل الله" (ص ١١١).

وفي الفقرة ٤ من نفس الرسالة يؤكد وحدة عمل الروح القدس الذي يجمع الكل إلى جسد واحد الكنيسة (١كو ١١: ١٣)، ص ١١٢ – ١١٣).

وفي الفقرة ٥ من نفس الرسالة يقول:

"الروح ليس خارج الكلمة، بل إذ هو في الكلمة، فهو في الله بالكلمة". وبقية العبارة تدحض كل تعليم عن المواهب لأن المعلم يكتب بوضوح –كما لو كان قد رأى محنة التعليم عندنا–: " وهكذا تعطى المواهب الروحية في الثالوث"، فلا موهبة خارج الثالوث. ثم يؤكد بعد ذلك: "الروح نفسه والرب نفسه والله نفسه، هو الذي يعمل الكل في الكل" (١كو ١٢: ٤-٦)؛ لأن

الآب نفسه بالكلمة، في الروح يعمل كل الأشياء ويعطيها" (ص ١٦٥).

درسٌ من التاريخ الكنسي والليتورجية:

جاء اسم "المسيحي" من "المسيح"، واسم "المسيح" من المسحة. وأقدم شهادة وصلتنا من التاريخ هي شرح العلامة أوريجينوس لإنجيل يوحنا: ".. نُدعى مسحاء لأننا نُمسح في المعمودية" (٦ مجلد ١٤: ٢١٢).

لكن ما يهمنا بالأكثر هو ما شرحه القديس كيرلس الأورشليمي (العظات – سلسلة النصوص الليتورجية – تعريب الأب جورج نصور ١٩٧٦)، وهذا الأسقف عاش في الفترة ما بين (٣١٤–٣٨٧) (وقد راجعنا بعض الكلمات على الأصل اليوناني) في العظة ٢١ وهي العظة الثالثة على شرح السرائر، وهي خاصة بمسحة الميرون يقول القديس كيرلس الأورشليمي، وقد قسَّمنا النص لسهولة قراءته:

> "ها أنكم، اعتمدتم في المسيح ولبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧) فأصبحتم على مثال صورة المسيح ابن الله (رو ٨: ٢٩) لأن الله اختارنا لأن نكون أبناء بالتبني (أفسس ١: ٥) وجعلنا على صورة جسد المسيح المجيد (فيلبي ٣: ٢١).

شركاء المسيح ومسحاء:

> "وبما أنكم أصبحتم شركاء المسيح" (عب ٣: ١٤) فأنتم مدعوون بحق "مسحاء"، وعنكم قال الله "لا تمسوا مسحائي" (مز ١٠٤: ١٥) إنكم أصبحتم مسحاء بتقبلكم ختم الروح القدس كل شيء فيكم تم بالمثال(١) بما أنكم صورة المسيح".

معمودية الرب في الأردن:

> "عندما تعمَّد المسيح في نهر الأردن. ومنح المياه ملامسة ألوهيته، صعد

(١) الأفضل المثال من الامتثال لأن الكلمة اليونانية هي αντιτυπον.

منها، فَحَلَّ الروح القدس بذاته عليه. واستقر المشابه على المشابه له. وأنتم كذلك، عندما خرجتم من جرن المياه المقدسة، قبلتم الميرون. وهو الصورة الحقيقية لمسحة المسيح وأعني بها الروح القدس الذي تحدث عنه الطوباوي أشعياء؛ إذ تنبأ عنه وتكلم على لسان الرب قائلاً: "إن روح السيد الرب عليَّ؛ لأن الرب مسحني وأرسلني لأبشر المساكين (الفقراء)" (أش ٦١: ١ – لو ٤: ١٨)".

مسحة المسيح من الله الآب نفسه:

"لأن المسيح لم يُمسح بزيت، أو بمسحة مادية على يد إنسان، لكن الآب الذي سبق واختاره ليكون مخلص العالم كله، مَسَحَه بالروح القدس على حسب قول بطرس "يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس" (أع ١٠: ٣٨)" وبعد أن يقتبس كلمات مزمور (٤٥: ٧-٨ – عب ١: ٨-٩)، يذكر صلب الرب وقبره وقيامته.

على مثال المسيح:

"أنتم في المعمودية اعتُبِرتم جديرين بأن تُصلبوا وتُدفنوا وتُقدَّموا معه على مثاله، وكذلك هي الحال بما يخص المسحة، لقد مُسح المسيح بزيت البهجة الروحي، أما أنتم فمُسِحتم بالدهن وصرتم رفاق وشركاء المسيح".

المسحة ليست مسحة زيت عادي:

"كما أن خبز الإفخارستيا بعد استدعاء الروح القدس لم يعد خبزاً عادياً، وإنما صار جسد المسيح، كذلك المسحة المقدسة لم تعد بعد استدعاء (الروح القدس) مسحة بسيطة عادية".

مسحة الميرون تعطي ألوهية الروح القدس:

"إنه عطاء المسيح، وقد أصبح بحلول الروح القدس، مانحاً لاهوته .. وفي الوقت الذي يُمسح فيه جسدك بالمسحة المنظورة، تقدَّس نفسك بالروح القدس المحيي" (العظة ٣: ١-٤).

استرداد الهوية الأبدية:

لحياةٍ أبديةٍ دعانا الرب يسوع، ولذلك نحن نشترك في حياته بعد أن رفع الدينونة والموت وأعطانا الحرية والفداء من العبودية، ووهبنا فيه هو، التبني وميراث الملكوت ثم أعطانا الروح القدس.

أولاً: نحن مسيحيون بسبب مسحة الميرون؛ لأننا نُمسح لكي نكون "رفاق وشركاء المسيح" كما قال كيرلس الأورشليمي.

ثانياً: نحن ننال عطيةً واحدةً في سر المعمودية وسر الميرون معاً بلا انفصال؛ لأن -حسب شرح القديس أثناسيوس- يظهر لنا تدبير الخلاص:

* الابن له المجد يعطي لنا الروح.

* الروح القدس الرب المحيي يعطي لنا الابن.

ولا توجد فواصل بالمرة ولا ازدواجية؛ لأن "النعمة واحدة" وما يجب أن يستقر في الوعي هو أن السرائر هي:

* شركة عمل الثالوث؛ لأن كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس.

* ما يمنحه الآب، فهو بالابن. وما يعطيه الابن، فهو بالروح. ولعل أفضل ما يُقال هو إننا في الإفخارستيا وحسب التدبير، ندخل شركة عمل الثالوث الواحد في الأنافورا لكي يعطي لنا الابن جسده ودمه ولكن بالروح القدس الذي يُستدعى على الخبز والخمر.

ما هو المقصود بكلمة "مثال"؟

تعاني كل الكلمات اللاهوتية من نقصٍ شديد في الاستعمال الدقيق، ولذلك الكلمة تعني ثلاثة أشياء ضرورية للخلاص:

أولاً: إن ما حدث في تدبير الخلاص، هو ما حدث في التاريخ نفسه في الواقع، فهو الحقيقة التي لا تعاد ولا تتكرر.

ثانياً: إذا رسخت هذه الفكرة، أصبح من الواضح أن ما يحدث في السرائر: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا، هو شركتنا نحن فيما هو حادث؛ لأن أفعال الخلاص ليست هي ما حدث في الماضي، بل ما هو حادثٌ فعلاً. وشركتنا لا تعني أن الرب سوف يُصلب أو يموت؛ لأن الموت والخطية معاً قد أُبيد كلاهما، ولكننا نحن البشر الذين نتغير في كل جيل، ندخل في مثالِ ما حدث بأن نقدِّم ما لدينا من مياه وزيت وخبز وخمر؛ **لكي –بالتقديم– نشترك فيما أُكمِلَ، وفيما حدث لكي يتم فينا نحن.**

ثالثاً: من أجمل ما سمعت من القمص مينا المتوحد أن تدبير الخلاص حدث ويحدث دائماً لكي يتم ما حدث فينا نحن بواسطة ما حدث في يسوع رب المجد، وبواسطة يسوع لأننا نشترك فيه.

وعلى سبيل المثال يقول رسول المسيح بولس عن الرب: "إنه أخلى ذاته وأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦)، ولكن "إخلاء الذات" حدث بالتجسد، ويحدث عندما يأتي إلينا الرب نفسه لكي يغسل أدناس خطايانا، فهو في مجده الإلهي يخلي ذاته لكي يسكن فينا. وحسب النص القبطي واليوناني نفسه: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يكون فيَّ وأنا أكون فيه"؛ لأن الكينونة هي العمل الإلهي الذي قال عنه أثناسيوس العظيم: إن الثالوث يمنح الكائنات "قوة الوجود أو البقاء"، وأن هذه القوة هي قوة "الاكتمال" لأن نبقى في شركة الثالوث الذي استُعلِن عند الأردن؛ لكي يُعلِن ثالوثاً واحداً في مناسبة تبني الإنسانية في رب المجد المتجسد.

عيد معمودية الرب[1]

إذا دققنا النظر في ذكصـــولوجية عيد الغطاس المجيد، وجدنا معظم ما ذكره آباء الكنيسة:

"حينئذٍ امتلأ فمنا فرحاً ولساننا تهليلاً

لأن ربنا يسوع المسيح اعتمد من يوحنا"

***

بالحقيقة السماء والأرض مملوءتان من كرامتك

أيها الرب ذو اليد القادرة والذراع الممدودة

***

لأن الرب أتى واعتمد من أجل خطايانا نحن

وأنقذنا وخلصنا برأفةٍ عظيمة".

بعد تمجيد ربنا، يدخل التمجيد في الجانب الكوني Cosmic وذلك باســتدعاء الصـوت النبوي من الأسـفار المقدسـة، وهو صـوت حضـور الأنبياء في اجتماع الكنيسة:

"تعال يا داود في وسطنا اليوم لتنطق بكرامة هذا العيد

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠١٦.

صوت الرب على المياه إله المجد أرعد".

أشعياء دعاه صوت الصارخ بفرح في البراري للسعي الكامل (استعلان التدبير) البحر رأى فهرب. الأردن رجع إلى الخلف:

مالك أيها البحر هَرِبتَ. اثبت ⲙⲁⲧⲁϫⲣⲟⲕ لكي تتبارك

هوذا المياه قد رأت الخالق الجابل، فخافت وأدركها الاضطراب والحيرة

افرحي أيتها الجبال والآكام الغياض والأرز من قدام وجه الملك

الذي خلق كل من له نفس ⲛⲛⲓⲛⲓϥⲓ (الكائن الحي).

ثم يعود الإيقاع اللاهوتي إلى الثالوث:

"قدوس أنت أيها الرب

قدوس قدوس أيها الرب يسوع

يليق به مع أبيه والروح القدس".

ولا تنتهي الذكصولوجية عند ذلك؛ لأن هذا لا يصدر من القلب إلى فراغ، أي من مجرد القول والتسبيح الصادر من القلب فقط، ويقف عند التمجيد، بل

"من أجل هذا نحن أغنياء بالخيرات الكاملة (عطية الروح القدس وميراث الملكوت) وبإيمانٍ نرتل قائلين هلليلويا ... يسوع المسيح ابن الله اعتمد في نهر الأردن. هذا الذي ينبغي له المجد مع أبيه الصالح والروح القدس من الآن وإلى الأبد".

وحسب التسليم تنتهي الذكصولوجية بالسجود لمن هو حاضر، وهو أساس اجتماع الكنيسة، بل أساسها الأبدي غير المتزعزع.

في الذكصولوجية الثانية يأتي صوت كنيسة الإسكندرية القديم جداً؛ لأننا من

شهادة أكليمنضس السكندري[١] نعرف أن عيد معمودية الرب كان عيداً عظيماً في القرن الثاني، وتبعه في ذلك العلامة العظيم أوريجينوس الذي يبدو أنه اقتبس لحن الكنيسة عندما كان يشرح معمودية الرب[٢]، كما حفظ أيضاً لنا التسليم العبراني – الآرامي القديم عندما نقرأ بدقة هذه الكلمات:

"الإله الوحيد جاء إلى الأردن،

الصورة التي فسدت وماتت بالخطية،

جددها مرةً أخرى بمعمودية الماء،

ورضَّ رأس التنين (الشيطان) على مياه الأردن".

وهزيمة التنين على مياه الأردن، وتهليل برية الأردن مثل حملان الغنم وهي تفرح برؤية الراعي، نراه في صلوات تقديس المياه في سر المعمودية:

"تهلل مثل حملان أيها الأردن وبريته، فقد أتى إليك الحمل حامل خطية العالم".

حامل خطية العالم

من الأخطاء الشائعة ظنٌّ غير معروف لنا في تراثنا الأرثوذكسي، وهو أن كلمة حامل تعني "يحمل"، أي يأخذ ويحمل ويضع على كتفه، أو يقبله له ليكون الحمل الثقيل الذي يحمله، ولكن الترجمة الأصح هي "يرفع"، ولاحظ صيغة المفرد "خطية العالم"، وليس خطايا العالم؛ **لأن خطية العالم هي ترك الشركة، وهو "الصورة التي فسدت وماتت بالخطية**. ولذلك -بكل يقين- فإن فصل الخطية عن الموت، وقد أشرنا إلى ذلك مراراً، هو إحدى سقطات العصر الوسيط الذي أتى بالخطية كمحورٍ وحيدٍ يشرح حتى الخلاص نفسه، وترك صلاح وغنى محبة الله،

(١) أكليمنضس السكندري Paed.1.b في PG,8 عمود ٢٨٠.
(٢) "تهلل مثل الحملان أيها الأردن"، وردت في عظات العلامة أوريجينوس على سفر يشوع، عظة ٤: ٢.

الأساس الأبدي لخلاص الإنسان. فما أعظم الفرق بين مخلصٍ "**مِن طبعه**" المحبة، وقد جاء بمحبته، ومخلصٍ جاء لأن الإنسان وقع في أسر الشيطان والموت، هذا جاء ليفك الأسر ويحرر، بينما المخلص الذي هو المحبة الإلهية الكاملة، فقد جاء بصلاحٍ فائقٍ: رد الحياة – فك الأسر – أعطى ميراث الملكوت – منح البنوة – سكب الروح القدس – جعل الإنسان هيكل حضوره الأبدي، بينما حصار الخلاص في الخطية، جعل الكثيرون يهملون ما أشرنا إليه الآن.

والحَمَل هو حمل الفصح الذي ردَّ ملاك الموت عن الشعب، وهو هنا يرفع قوة الموت؛ لأنه "رضَّ رأس التنين على المياه" (مز ٧٤: ١٣)، وهو ما نراه عادةً في أيقونات معمودية الرب، إما في شكل تنين أو شخصٍ في سلاسل أسفل المياه. ونشيد مزمور ٧٤: ١٣ عن هزيمة التنين هو الخروج من أرض مصر وغرق قوة الموت التي تطارد الشعب في البحر الأحمر. وقد جُمِعَت هذه الأحداث الخلاصية في صلوات المعمودية في كنيستنا القبطية، وتجدها في عظات العلامة أوريجينوس على إنجيل يوحنا (٦: ٤٢، وشذرة ٧٦، والعظة ٢١ على إنجيل لوقا)[١].

الرب يسوع قَبِلَ الروح القدس لأجلنا

الأردن اسم عبراني قديم من الفعل "يارد"، أي النازل من فوق إلى أسفل، وعن ذلك يقول العلامة أوريجينوس:

> "أردن تعني (النازل)، ولكن النازل هو (نهر الله)، ذلك النهر الذي يفيض وتجري فيه المياه بقوة هو الرب مخلصنا الذي فيه قد نلنا المعمودية بمياه حقيقية، مياه الخلاص" (عظة ٢١: ٤ على إنجيل لوقا).

لقد "استقر" الروح على يسوع، أي استراح فيه، فهو القدوس الذي بلا خطية وحده. وفي المسيح الذي مُسِحَ، فصار "المسيح"، اعتمدنا نحن ومُسِحنا نحن فيه (أثناسيوس العظيم في الرد على الأريوسيين ١: ٤٧). ولغة وهدف الآباء،

---

(١) راجع كتابنا: المعمودية في الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية، القاهرة ٢٠١٢، ص ١٤٢ – ١٦٦.

وبالذات أثناسيوس وكيرلس السكندري[1] تعني الكثير بالنسبة لنا:

أولاً: الروح ثابت الحلول في يسوع؛ لأنه الوسيط الذي جاء لكي يعطي الروح القدس للخطاه، وبسبب ثبات وقداسة بر يسوع، لا يترك الروح الطاه، ولا يفارق الخطاه كما حدث بعد السقوط (تك ٦: ٣)، بل كما تسلَّمنا من الرب نفسه "يمكث معكم إلى الأبد" (يو ١٤: ١٦).

كان من الضروري أن يُستعلَن قبول يسوع للروح القدس علانيةً في التاريخ وأمام شهودٍ لكي ترسخ هذه الحقيقة في قلوبنا.

ثانياً: تقديس المياه وفرح الخليقة، ليس الأردن والبرية فقط، بل لقد تمت الأقوال النبوية، فقد جاء يسوع رب المجد لكي "يجمع الكل تحت رأسٍ واحدٍ" (أف ١: ١٠)، وعندما يجمع كل شيء ويمتد التدبير لكل الأزمنة، يكون قد صالح الكل "لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات" (كولوسي ١: ٢٠)، ولذلك يجب استعلان تقديس المياه بالمصالحة ورد القداسة للعالم المادي الذي سقط بسوء استعمال وفساد الإنسان وأُخضِعَ "لبُطل" وفساد تصورات قلب الإنسان "ليس طوعاً بل من أجل الذي أخضعها" (رو ٨: ٢٠).

تحت ثقل الشعور بالذنب، نرى كل ما حولنا نجساً ودنساً وشريراً، ولكن الحق المعلَن في المسيح هو عكس ذلك؛ لأن الخطية استطاعت أن تلوث حياتنا وفكرنا، لكن إعادة تقديس المياه وإعادة استدعاء الروح القدس هو ترياق لكل النفوس المعذبة الرازحة تحت ثقل الشعور بالخطية.

عندما نأخذ المياه المقدسة لمنازلنا، فإننا بالرشِّ، نضع هذه المنازل في تدبير خدمة الرب. ونحن مثل المياه، نلنا تقديساً لا تمحوه الخطية لأن "نعمة الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت لكثيرين" (رو ٥: ١٥)،

(١) راجع: لماذا اعتمد يسوع؟ مقال سبق أن نُشر في مجلة مرقس، ومنشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

ولذلك يحذِّرنا رســـول رب المجد من أن نقارن الخطية بالنعمة "ليس كالخطية هكذا أيضاً الهبة" (رو ٥: ١٥).

ســوف يبقى اســم "عيد الغطاس" علامةً لغويةً تذكِّرنا بأن المعمودية هي بالتغطيس؛ لأننا نعتمد مثل سيدنا وملكنا كلنا ربنا يسوع المسيح.

كل عام وأنت بخير

عيد الثيئوفانيا – الظهور الإلهي
المسمَّى شعبياً عيد الغطاس[1]

كل عام وأنتم بخير.

الرب يسوع جاء واعتمد في الأردن ولما اعتمد وخرج من الماء انشقت السماء ونزل روح الرب على شكل حمامة. استقر عليه. سبق ذلك المشهد الجليل شهادة يوحنا المعمدان: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يوحنا ١: ١٩) رفع الخطية ليس حملها بل إزالتها من العلاقة الإلهية الإنسانية مثلما أزال حمل الفصح الموت في أرض العبودية في ليلة العبور. كان يوحنا يعمد في "بيت عبرة" العبور الكبير الذي نقل العلاقة الإلهية الإنسانية من الشريعة الى الروح القدس، فقد جاء الروح القدس و"استقر على يسوع" (يوحنا ١: ٣١) ولم يتركه بل مسحه "يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة" (أع ١٠: ٣٨) فقد جاء الروح القدس لكي يعطي بذاته القوة عندما يسكن ولذلك يقول الرب نفسه "ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم" (أع ١: ٨) فلا قوة بلا حلول للروح علينا.

الظهور الإلهي هو ظهور مباشرة للثالوث واستعلان الله في عهده الجديد، ذلك العهد الذي يبدأ بالمسيح يسوع وينتهي بالمسيح يسوع فهو بدء وهو النهاية أي غاية العهد.

ظهر الثالوث القدوس بنداء الآب الذي لم يُعلن عن نفسه بل شهد للابن

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠١٧.

لأن الابن فيه (يوحنا ١٠: ٣٠) وهو جاء لكي يعلن الآب (يوحنا ١٧: ١-٣) لكي يظهر اسم الآب أي أبوة الله لأن اسم يهوه قد استعلن بموسى في العهد الأول أو العهد القديم أما الآن فهو يقول لنا أي ربنا "أنا أظهرت اسمك للناس" (يوحنا ١٧: ٦) ولذلك علمنا ان ننادي الله "أبانا الذي في السموات" وظل الآب خفياً لا يدرك مُعلن بشهادة الابن لأنها هي "الإنجيل" بشارة الحياة ولأنها هي "بشارة" التبني ونعمة الولادة من الله (يوحنا ١: ١٢-١٣) ولذلك أعلن الابن لا بكلام بل بالروح القدس. وكان مجيء الروح في هيئة حمامة كما تقول التسبحة "مثل حمامة نوح" فقد جاء الروح القدس بالوداعة والسلام وانتهى عهد القضاة، عهد شمشون وعهد الملوك الذين مسحوا بالروح لقيادات عسكرية مؤقتة أما الآن فقد استقر الروح على يسوع ومن يسوع أخذنا نحن "من ملئه نحن جميعاً أخذنا" (يوحنا ١: ١٦) ولما قهر الشيطان ورجع يسوع من برية الأردن ممتلئاً من الروح القدس (لوقا ٤: ١) أخذنا نحن ذلك الامتلاء الذي ظهر واضحاً في يوم الخمسين "وامتلأ الجميع من الروح القدس" (أع ٢: ٤) وبعد سنوات من يوم العنصرة يكتب بولس الى كنيسة الأمم "لكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وأعطى عربون الروح في قلوبنا" (٢كو ١: ٢٢).

ظهر الثالوث في بداية التدبير أي خطة الله للخلاص لأن أساس كل شيء عندنا هو الثالوث. الآب هو المصدر والابن هو الاستعلان والروح هو الهبة أو العطية من المصدر من الآب نأخذ استعلان البنوة وهي شركتنا في بنوة الابن وتوهب بالروح القدس ولذلك يقول رسول الأمم "بما أنكم ابناء أرسل الله روح ابنه الى قلوبكم صارخاً أبا أيها الآب. إذاً لست بعد عبد بل أبناً وان كنت ابناً فوارث لله بالمسيح" (غلا ٤: ٦-٧).

لقد انتهى عهد العبودية للطبيعة فلست أمام الله طبائع بل أشخاص جاء تحرير الإنسان من سلطان الطبيعة بالتبني لأن الإنسان عبد الطبيعة هو آدم الأول الذي "ملكت الخطية بالموت" (رو ٥: ٢١) وهو مُلك الطبيعة التي وقعت تحت

سطوة الحكم "موتاً تموت" وتحت سيطرة الطبيعة " لم أعرف الخطية إلا بالشريعة" (رو ٧: ٧) ولذلك لما جاءت الشريعة عاشت الخطية بالشهوة ومات الإنسان (رو ٧: ٩) ويجب أن ننتبه الى قوة تعبير رسول الأمم.

- بدون الشريعة الخطية ميتة (رو ٧: ٨).
- لأنني مت بالشريعة للشريعة لأحيا لله (غلا ٢: ١٩).

فالرسول يدق باب تحرير الإنسان بقوة النعمة وبقوة تحرير الإنسان من سلطان الشريعة لأن المسيح رفع هذه الشريعة من الوسط (كول ٢: ١٤) فقد مزق هذا الحكم وانهى فاعليته تماماً وهو ما عبَّر عنه بولس بالتبرير المجاني (رو ١: ٢٤) ومجانية التبرير تعني انه عطية ولا يجب أن نظن ان العطية قد سبق الرب وفدع ثمناً لها لأنها بذلك تفقد صفة المجانية "متبررين مجاناً بنعمة (الآب والابن والروح القدس) بالفداء الذي أعلنه اليه كفارة بالإيمان بدمه لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السابقة (لا دفع ثمنها) بإمهال الله" (رو ١: ٢٤-٢٥) وإذا كان رسول الأمم يقول هل نبطل الشريعة بالإيمان؟ (رو ٣: ٣١) ابداً الشريعة تؤكد النعمة لأن الكل أمام الشريعة حكم عليه بالموت والكل أمام النعمة والايمان نال الحرية من حكم الموت.

الأردن في كل كنيسة:

حسب التسليم الكنسي "مغطس المعمودية" هو أردن كل كنيسة ليس لأن ما حدث يوزع أو يتكرر بل لأن ما حدث في معمودية الرب صار أساس المعمودية التي تتم باسم الثالوث حسب وصية الرب نفسه (متى ٢٨: ١٩) ولأن ما يضعه الرب كأساس هو أساس حياة تمتد وتجمع لأنه جاء لكي "يجذب اليه الجميع" (يوحنا ١٢: ٣٢) ولكي "يجمع الى واحد" ابناء الله الذين احياناً حسب عقل وحس آدم القديم نحسبهم بالعدد ولكن الآن الكل واحد في وحدانية المحبة وفي وحدانية الله نفسه فهو ثالوث حسب حس آدم الأول الأعداد ولكن حسب

حس واستعلان نعمة العهد الجديد الواحد ثلاثة والثلاثة واحد لأنه عهد الاجتماع بالرب الذي يوحدنا به في الآب (يوحنا ١٧: ٢١-٢٢).

جاء الرب لكي يوزع علينا نحن "المتفرقين" هذه الوحدة لنكون حقاً فيه ولكي نعرف ان عهد الحياة المستعلن فيه هو عهد الاتحاد وهو العهد الذي قدس الإنسانية لا بالصلاة لطقوس الشريعة بل بالاتحاد الأقنومي اتحاد الكلي القداسة بالإنسانية لكي نصير مقدسين فيه ولكي لا نمسح مثل هيكل سليمان بل نمسح مثل هيكل يسوع أي إنسانيته ونشترك في مسحته لأننا كما يقول الانجيلي "المسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم" (١ يوحنا ٢: ٢٧).

وعندما نحمل الماء المقدس الى منازلنا فنحن نحمل ذات الماء الذي غطس فيه يسوع والذي به اعتمدنا. كان أبي الروحي يشرب الماء ثلاث دفعات باسم الآب والابن والروح القدس — لأنه بالثالوث نال التبني وبمياه الخلق الجديد صار له الحضور الأبدي في الثالوث الذي كان يدخل الى خدمته كل يوم.

يا من أظهرت عند الأردن تدبير التبني وتجلت الطبيعة الإنسانية بمسحة الروح القدس وغرستنا في بحر المحبة الإلهية يثبتنا في الايمان المستعلن فيك وبكل لكي نصير مسيحيين ارثوذكسيين حتى النفس الأخير.

ملحــق

معمودية المسيح (١)

للقديس غريغوريوس النزينزي:

مع المسيح في المعمودية وفي التجربة

■○✝○■

[إن كان المجرِّب عدو النور يعتدي عليك بعد المعمودية،

– وهو يعتدي فعلاً كما اعتدى أيضاً على إلهي الكلمة المستتر في الجسد –

فلك ما تغلبه به. لا تخف المعركة.

أَشهر ضده الماء. أشهر ضده الروح

الذي به تستطيع أيضاً أن تطفئ

جميع سهام الشرير الملتهبة (أف ٦:١٦).....

وإن كان يحاربك بالطمع ويريك جميع الممالك

في لحظة وفي طرفة عين كأنها له، ويطالبك بالسجود له؛

احتقره كمثل فقير لا يملك شيئاً،

وقُلْ له وأنت واثق بالختم (الروح القدس) الذي فيك:

"أنا أيضاً صورة الله. فقد لبست المسيح (غل ٣:٢٧)،

وتحوَّلتُ إلى شكل المسيح بالمعمودية،

فاسجد أنتَ لي (أي للمسيح الذي فيَّ)".

وأنا أعلم يقيناً أنه سيفرُّ منهزماً ومخزياً من أقوالك.

فكما فرَّ أمام المسيح النور الأول،

هكذا يفرُّ أمام الذين استناروا (اعتمدوا) بالمسيح...

فلنعتمد، إذن، لكي نغلب!]

عظة ٤٠:١٠و١١ على المعمودية

St Gregory Nazianzen

With Christ in Baptism and Temptation

If after baptism the persecutor and tempter of the light assail you (for he assailed even the Word my God through the veil), you have the means to conquer him. Fear not the conflict; defend yourself with the Water; defend yourself with the Spirit, by Which all the fiery darts of the wicked shall be quenched. ...

If he wrestle against you to a fall through avarice, showing you all the Kingdoms at one instant and in the twinkling of an eye, as belonging to himself, and demand your worship, despise him as a beggar. Say to him relying on the Seal, "I am myself the Image of God; ... I have put on Christ; I have been transformed into Christ by Baptism; worship you me." Well do I know that he will depart, defeated and put to shame by this; as he did from Christ the first Light, so he will from those who are illumined by Christ. ... Let us then be baptized that we may win the victory.

Oration 40, 10-11; NPNF 2nd Ser, Vol VII, p 362-363.

****

ἐκ τοῦ Ἁγίου Γρηγορίου τοῦ Θεολόγου

Ἐάν σοι προσβάλῃ μετὰ τὸ βάπτισμα ὁ τοῦ φωτὸς διώκτης καὶ πειραστὴς (προσβαλεῖ δέ· καὶ γὰρ, καὶ τῷ Λόγῳ, καὶ Θεῷ μου προσέβαλε διὰ τὸ κάλυμμα), ... ἔχεις ᾧ νικήσεις· μὴ φοβηθῇς τὸν ἀγῶνα. Προβαλοῦ τὸ ὕδωρ, προβαλοῦ τὸ Πνεῦμα, ἐν ᾧ πάντα τὰ βέλη τοῦ Πονηροῦ τὰ πεπυρωμένα σβεσθήσεται. ... Ἐὰν ἐξ ἀπληστίας καταπαλαίῃ σε, πάσας ὑποδεικνύων τὰς βασιλείας, ὡς αὐτῷ διαφερούσας, ἐν μιᾷ καιροῦ τε ῥοπῇ καὶ ὄψεως, ἀπαιτῶν τὴν προσκύνησιν· ὡς πένητος καταφρόνησον. Εἰπὲ, τῇ σφραγῖδι θαῤῥήσας· Εἰκών εἰμι καὶ αὐτὸς Θεοῦ· Χριστὸν ἐνδέδυμαι· Χριστὸν μετα-πεποίημαι τῷ βαπτίσματι· σύ με προσκύνησον. Ἀπελεύσεται, σαφῶς οἶδα, τούτοις ἡττημένος καὶ ᾐσχυμμένος, ὥσπερ ἀπὸ Χριστοῦ τοῦ πρώτου φωτὸς, οὕτω τῶν ἀπ᾽ ἐκείνου πεφωτισμένων. ... Βαπτισθῶμεν οὖν, ἵνα νικήσωμεν.

PG 36, 369-372.

للقديس كيرلس الأورشليمي:

معمودية المسيح ومعموديتنا

■○✞○■

[لما اعتمدتم للمسيح ولبستم المسيح،

صرتم "مشابهين صورة ابن الله" (رو٨: ٢٩)،

لأن الله إذ سبق وعيَّننا للتبنِّي،

جعلنا "مشابهين صورة جسد مجد المسيح" (في٣: ٢١).

وأنتم صرتم "شركاء المسيح" (عب ١٤:٣)،

ولذلك دُعيتُم بحق "مسحاء χριστοί "...،

فإن الله يقول عنكم: «لا تمسوا مسحائي.» (مز ١٥:١٠٤)

لقد صرتم مسحاء لأنكم قبلتم رسم الروح القدس،

وكل شيء قد تم فيكم على صورة ما حدث للمسيح،

لأنكم صرتم صوراً للمسيح...

أما هو فلما اغتسل في نهر الأردن، ووهب المياه رائحةَ لاهوته،

صعد منها وظهر الروح القدس حالاً عليه بجوهره،

إذ أن المثيل يستريح على المثيل.

وأنتم أيضاً بشبه ذلك لما صعدتم من جرن الماء المقدس

قد نلتم مسحة هي صورة لتلك التي مُسِح بها المسيح،

وهذا هو الروح القدس...]

العظة الثالثة عن الأسرار

St Cyril of Jerusalem

The Baptism of Christ and Ours

Having been baptized into Christ, and put on Christ, ye have been made comformable to the Son of God; for God having foreordained us unto adoption as sons, made us to be conformed to the body of Christ's glory. Having therefore become partakers of Christ, ye are properly called Christs, and of you God said, Touch not My Christs, or anointed. Now ye have been made Christs, by receiving the antitype of the Holy Ghost; and all things have been wrought in you by imitation, because ye are images of Christ. ... He washed in the river Jordan, and having imparted of the fragrance of His Godhead to the waters, He came up from them; and the Holy Ghost in the fullness of His being lighted on Him, like resting upon like. And to you in like manner, after you had come up from the pool of the sacred streams, there was given an Unction, the anti-type of that wherewith Christ was anointed; and this is the Holy Ghost.

Lecture XXI, (On the Mysteries III).

NPNF, 2nd Ser., Vol. VII, p. 149.

****

ἐκ τοῦ ἁγίου Κυρίλλου Ἱεροσολύμων

Εἰς Χριστὸν βεβαπτισμένοι καὶ Χριστὸν ἐνδυσάμενοι σύμμορφοι γεγόνατε τοῦ Υἱοῦ τοῦ Θεοῦ. Προορίσας γὰρ ἡμᾶς ὁ Θεὸς εἰς υἱοθεσίαν, συμμόρφους ἐποίησε τοῦ σώματος τῆς δόξης τοῦ Χριστοῦ. Μέτοχοι οὖν τοῦ Χριστοῦ γενόμενοι, χριστοὶ εἰκότως καλεῖσθε, καὶ περὶ ὑμῶν ἔλεγεν ὁ Θεός· "*Μὴ ἅπτεσθε τῶν χριστῶν μου*". Χριστοὶ δὲ γεγόνατε, τοῦ ἁγίου Πνεύματος τὸ ἀντίτυπον δεξάμενοι, καὶ πάντα εἰκονικῶς ἐφ᾽ ὑμῶν γεγένηται, ἐπειδὴ εἰκόνες ἐστὲ Χριστοῦ. Κἀκεῖνος μὲν ἐν Ἰορδάνῃ λουσάμενος ποταμῷ καὶ τῶν χρωτῶν τῆς θεότητος μεταδοὺς τοῖς ὕδασιν, ἀνέβαινεν ἐκ τούτων, καὶ Πνεύματος ἁγίου οὐσιώδης ἐπιφοίτησις αὐτῷ ἐγίνετο, τῷ ὁμοίῳ ἐπαναπαυομένου τοῦ ὁμοίου. Καὶ ὑμῖν ὁμοίως ἀναβεβηκόσιν ἀπὸ τῆς κολυμβήθρας τῶν ἱερῶν ναμάτων χρῖσμα, τὸ ἀντίτυπον ὃ ἐχρίσθη Χριστός. Τοῦτο δέ ἐστι τὸ ἅγιον Πνεῦμα.

SC 126, 120-122.

للقديس أثناسيوس الرسولي:

حلول الروح القدس على الرب في الأردن

كان حلولاً للروح علينا

■○✞○■

[الرب نفسه يقول بفمه في إنجيل يوحنا:

«من أجلهم أقدِّس أنا ذاتي،

ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق» (يو ١٧: ١٩).

كيف تمّ ذلك؟ وكيف يقول ذلك إلا بما معناه:

"أنا كلمتك أيها الآب، أُعطي الروح القدس لذاتي الصائر إنساناً،

وأُقدِّس به ذاتي الصائر إنساناً،

حتى يكونوا جميعاً مقدَّسين فيَّ أنا الحق (لأني أنا كلمتك هو الحق)"

فإن كان من أجلنا يقدِّس ذاته، ويفعل ذلك بعد أن صار إنساناً،

فمن الواضح تماماً أن حلول الروح القدس عليه في الأردن،

كان حلولاً للروح علينا نحن، بسبب أنه كان لابساً جسدنا نحن،

فلم يكن ذلك من أجل ارتقاء الكلمة ذاته،

بل بالحري من أجل تقديسنا نحن،

حتى نشترك في مسحته ويُقال عنا:

«أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم؟» (١كو٣:١٦)؟

فلما اغتسل الرب في الأردن بصفته إنساناً،

كنا نحن المغتسلين فيه وبواسطته،

ولما قَبِلَ الروح القدس، كنا نحن الذين نقبله بواسطته].

ضد الأريوسيين ١: ٤٦ و٤٧

The Spirit's Descent on Him Was a Descent upon Us

The Lord Himself has said by His own mouth in the Gospel according to John, ... "For their sakes do I sanctify Myself, that they may be sanctified in the truth" (John 17:19). ... How then does this take place? What does He mean but this? `I, being the Father's Word, I give to Myself, when becoming man, the Spirit; and Myself, become man, do I sanctify in Him, that henceforth in Me, who am Truth (for "Thy Word is Truth"), all may be sanctified.'

If then for our sake He sanctifies Himself, and does this when He is become man, it is very plain that the Spirit's descent on Him in Jordan was a descent upon us, because of His bearing our body. And it did not take place for promotion to the Word, but again for our sanctification, that we might share His anointing, and of us it might be said, "*Know ye not that ye are God's Temple, and the Spirit of God dwells in you?*" (1Co 3:16) For when the Lord, as man, was washed in Jordan, it was we who were washed in Him and by Him. And when He received the Spirit, we it was who by Him were made recipients of It

Against the Arians I, 46-47; NPNF, 2nd Ser., Vol. IV, p. 333.

****

ἐκ τοῦ ἁγίου Ἀθανασίου

Αὐτὸς δι᾽ ἑαυτοῦ ὁ Κύριος ἔλεγεν ἐν τῷ κατὰ Ἰωάννην Εὐαγγελίῳ· ... "*Ὑπὲρ αὐτῶν ἐγὼ ἁγιάζω ἐμαυτὸν, ἵνα ὦσι καὶ αὐτοὶ ἡγιασμένοι ἐν ἀληθείᾳ.*" ... Πῶς οὖν τοῦτο γίνεται; πῶς δὲ τοῦτο λέγει ἢ ὅτι, Ἐγὼ Λόγος ὢν τοῦ Πατρὸς, αὐτὸς ἐμαυτῷ ἀνθρώπῳ γενομένῳ δίδωμι τὸ Πνεῦμα· καὶ ἐμαυτὸν ἄνθρωπον γενόμενον ἐν τούτῳ ἁγιάζω, ἵνα λοιπὸν ἐν ἐμοὶ ἀληθείᾳ ὄντι (Ὁ δὲ Λόγος ὁ σὸς ἀλήθειά ἐστιν·) οἱ *πάντες ἁγιασθῶσιν;* Εἰ δὲ ἡμῶν χάριν ἑαυτὸν ἁγιάζει, καὶ τοῦτο ποιεῖ, ὅτε γέγονεν ἄνθρωπος, εὔδηλον, ὅτι καὶ ἡ εἰς αὐτὸν ἐν τῷ Ἰορδάνῃ τοῦ Πνεύματος γενομένη κάθοδος, εἰς ἡμᾶς ἦν γινομένη, διὰ τὸ φορεῖν αὐτὸν τὸ ἡμέτερον σῶμα. Καὶ οὐκ ἐπὶ βελτιώσει τοῦ Λόγου γέγονεν, *ἀλλ᾽ εἰς ἡμῶν πάλιν ἁγιασμὸν*, ἵνα τοῦ χρίσματος αὐτοῦ μεταλάβωμεν, καὶ περὶ ἡμῶν λεχθείη· "*Οὐκ οἴδατε, ὅτι ναὸς Θεοῦ ἐστε, καὶ τὸ Πνεῦμα τοῦ Θεοῦ οἰκεῖ ἐν ὑμῖν;*" Τοῦ γὰρ Κυρίου, ὡς ἀνθρώπου, λουομένου εἰς τὸν Ἰορδάνην, ἡμεῖς ἦμεν οἱ ἐν αὐτῷ καὶ παρ᾽ αὐτοῦ λουόμενοι. Καὶ δεχομένου δὲ αὐτοῦ τὸ Πνεῦμα, ἡμεῖς ἦμεν οἱ παρ᾽ αὐτοῦ γινόμενοι τούτου δεκτικοί.

PG 26, 108-109.

للقديس كيرلس الكبير:

قبول المسيح الروح القدس من أجلنا

■❍✞❍■

[لما صار كلمة الله إنساناً،

اقتبل الروح القدس من الآب كواحدٍ منَّا،

ليس كمَن يقبل شيئاً لذاته،

إذ أنه هو نفسه الذي يُوزِّع الروح؛

بل لكي بقبوله الروح كإنسان يحفظه لطبيعتنا،

ويجعل النعمة التي فارقتنا تتأصَّل من جديد فينا...

إذن، فهو قَبِلَ الروح لحسابنا نحن بواسطة نفسه

لكي يستعيد لطبيعتنا ذلك الخير الأصلي

ولذلك أيضاً قيل عنه إنه افتقر لأجلنا.

فمع كونه غنياً كإله ولا يعوزه شيء من الخيرات،

جعل نفسه إنساناً مفتقراً لكل شيء...

فكما أنه مع كونه الحياة بطبعه قد مات بالجسد لأجلنا

لكي يغلب الموت عنا ويُقيم طبيعتنا كلها معه

– لأننا جميعاً كنا فيه لكونه قد صار إنساناً –

هكذا أيضاً هو يقبل الروح لأجلنا لكي يُقدِّس به طبيعتنا كلها.

لأنه لم يأتِ لكونه محتاجاً شيئاً لنفسه،

بل قد جاء ليصير لنا جميعاً باباً وبدايةً وطريقاً للخيرات السمائية!]

شرح إنجيل يوحنا ١: ٣٢

Christ received the Spirit for our sakes

When the Word of God became Man, He received the Spirit from the Father as one of us, not receiving ought for Himself individually, for He was the Giver of the Spirit; but that He might, by receiving It as Man, preserve It to our nature, and might again inroot in us the grace which had left us. (...)

Therefore through Himself He receives the Spirit for us, and renews to our nature the ancient good. For thus is He also said *for our sakes* to *become poor.* For being rich, as God and lacking no good thing, He became Man lacking all things (...) As then, being by nature Life, He died in the flesh for our sakes, that He might overcome death for us, and raise up our whole nature together with Himself (for all we were in Him, in that He was made Man): so does He also receive the Spirit for our sakes, that He may sanctify our whole nature. For He came not to profit Himself, but to be to all of us the Door and Beginning and Way of the Heavenly Goods.

On John 1:32; LFC 1, 142-143.

****

ἐκ τοῦ ἁγίου Κυρίλλου

Ἐπειδὴ δὲ ἄνθρωπος γέγονεν ὁ τοῦ Θεοῦ Λόγος, δέχεται τὸ Πνεῦμα παρὰ τοῦ Πατρὸς, ὡς εἷς ἐξ ἡμῶν, οὐχ ἑαυτῷ τι λαμβάνων ἰδικῶς· αὐτὸς γὰρ ἦν ὁ τοῦ Πνεύματος χορηγός· ἀλλ᾽ ἵνα τῇ φύσει διασώσῃ λαβὼν, ὡς ἄνθρωπος, καὶ ῥιζώσῃ πάλιν ἐν ἡμῖν τὴν ἀποφοιτήσασαν χάριν· (...)

Οὐκοῦν ἡμῖν δι᾽ ἑαυτοῦ λαμβάνει τὸ Πνεῦμα, καὶ ἀνανεοῖ τῇ φύσει τὸ ἀρχαῖον ἀγαθόν· οὕτω γὰρ καὶ πτωχεῦσαι λέγεται δι᾽ ἡμᾶς. πλούσιος γὰρ ὢν, ὡς Θεὸς, καὶ οὐδενὸς τῶν ἀγαθῶν ἐπιδεὴς, ἄνθρωπος γέγονε πάντων ἐπιδεὴς, (...) ὥσπερ οὖν ζωὴ κατὰ φύσιν ὑπάρχων ἀπέθανε κατὰ σάρκα δι᾽ ἡμᾶς, ἵνα νικήσῃ τὸν θάνατον ὑπὲρ ἡμῶν, καὶ ὅλην ἑαυτῷ συναναστήσῃ τὴν φύσιν· πάντες γὰρ ἦμεν ἐν αὐτῷ, καθὸ γέγονεν ἄνθρωπος· οὕτω καὶ τὸ Πνεῦμα δέχεται δι᾽ ἡμᾶς, ἵνα πᾶσαν ἁγιάσῃ τὴν φύσιν. οὐ γὰρ ἑαυτὸν ὠφελήσων ἐλήλυθεν, ἀλλ᾽ ἵνα πᾶσιν ἡμῖν καὶ θύρα καὶ ἀρχὴ καὶ ὁδὸς γένηται τῶν οὐρανίων ἀγαθῶν.

PG 73, 205-208; Pusey 1.184-185.

للقديس كيرلس الكبير:

ارتياح الروح القدس في الإنسان الجديد

■❍✞❍■

[«**ويرتاح** Ἀναπαύσεται **عليه روح الله.**» (إش ١١:١)

لقد سبق أن مُنح الروح في القديم لباكورة جنسنا آدم،

ولكن هذا صار متهاوناً من جهة حفظ الوصية المعطاة له،

واستهتر بما أُمر به، فسقط في الخطية،

وبالتالي لم يجد الروح راحة ἀνάπαυσιν بين الناس.

«لأن الجميع زاغوا وفسدوا معاً،

ليس مَنْ يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد.» (رو ٣:١٢)

ثم إن الكلمة ابن الله الوحيد صار إنساناً،

ولكن دون أن يتحوَّل عن كونه إلهاً.

فلما صار مثلنا وهو غير قابل لأن ينساق نحو الخطايا،

حينئذ ارتاح الروح القدس في طبيعة الإنسان،

فيه هو أولاً بصفته الباكورة الثانية لجنسنا، حتى يرتاح فينا أيضاً،

ويثبت في نفوس المؤمنين، محباً للسكنى فيها.

وهكذا يشهد يوحنا الإلهي في موضع ما

أنه قد رأى الروح نازلاً بألفة من السماء على المسيح.

فكما صرنا شركاء في الميراث مع أول جبلتنا في الشرور التي أصابته،

هكذا سنصير شركاء أيضاً في الخيرات الحادثة تدبيرياً

للباكورة الثانية لجنسنا الذي هو المسيح].

شرح إشعياء ١١:١

St. Cyril the Great

The Holy Spirit rests in the New Man

"And the Spirit of God shall rest upon him" (Is 11:2 LXX). The Holy Spirit had been previously dispensed to Adam, the firstfruits of our race. But he was lax in keeping the commandment which was given him, and made light of what he was ordered [not to do] and so fell into sin. The Spirit then did not find rest among humankind. "All have turned aside, together they have gone wrong; no one does good, not even one" (Rom 3:12). The Word, the only Son of God, became man, but without ceasing to be God. When he became like us, while being infallible against drifting into sins, the Holy Spirit found rest in the nature of humankind: first in him as the second Firstfruits of our race, and then in us, dwelling in the souls of believers, pleased to remain in them. So does John the Divine witness, in some place, that he saw the Spirit alighting pleasantly from heaven upon Christ. Therefore, just as we had become partakers with the firstfruits of our race (Adam) in the evils that befell him, so shall we become partakers with Christ, the second Firstfruits of our race, in the goods that befell him through [divine] economy.

On Isaiah 11:2

****

ἐκ τοῦ ἁγίου Κυρίλλου

"*Ἀναπαύσεται γὰρ ἐπ᾽ αὐτὸν*, φησὶ, *Πνεῦμα τοῦ Θεοῦ*."

Δέδοται γὰρ ἐν ἀρχαῖς τῇ τοῦ γένους ἡμῶν ἀπαρχῇ, τουτέστι, τῷ Ἀδὰμ, ἀλλὰ γέγονε ῥᾴθυμος περὶ τὴν τήρησιν τῆς δοθείσης αὐτῷ ἐντολῆς, κατημέλησε τῶν προστεταγμένων, κατεβιβάσθη πρὸς ἁμαρτίαν, οὐχ εὗρεν ἀνάπαυσιν ἐν ἀνθρώποις τὸ πνεῦμα. "*Πάντες γὰρ ἐξέκλιναν, ἅμα ἠχρειώθησαν, οὐκ ἦν ὁ ποιῶν χρηστότητα, οὐκ ἦν ἕως ἑνός*". Εἶτα γέγονεν ἄνθρωπος ὁ μονογενὴς τοῦ Θεοῦ Λόγος, καίτοι τὸ εἶναι Θεὸς οὐ μεθείς. Ἐπειδὴ δὲ καίτοι γεγονὼς καθ᾽ ἡμᾶς, ἀνάλωτος ἦν ἁμαρτίαις, ἐπανεπαύσατο τῇ ἀνθρώπου φύσει τὸ Πνεῦμα τὸ ἅγιον, ὡς ἐν αὐτῷ καὶ πρώτῳ, καὶ ὡς ἐν ἀπαρχῇ τοῦ γένους δευτέρᾳ, ἵνα καὶ ἡμῖν ἐπαναπαύηται, καὶ μένῃ λοιπὸν ταῖς τῶν πιστευόντων διανοίαις ἐμφιλοχωροῦν. Οὕτω γάρ που καὶ ὁ θεσπέσιος Ἰωάννης τεθεᾶσθαί φησιν ἐξ οὐρανοῦ καταφοιτῆσαν τὸ Πνεῦμα ἐπὶ Χριστόν. Ὥσπερ συγκληρονόμοι γεγόναμεν τῶν συμβεβηκότων τῷ πρωτοπλάστῳ κακῶν, οὕτως ἐσόμεθα μέτοχοι τῶν ὑπαρχθέντων οἰκονομικῶς τῇ δευτέρᾳ τοῦ γένους ἡμῶν ἀπαρχῇ, τουτέστι Χριστῷ.

PG 70, 313-316.

للقديس كيرلس الكبير:

المسيح أعطانا الثبات في اقتناء الروح القدس

■❍✞❍■

[إن المسيح لم يقبل الروح لنفسهِ هو بل بالحري لنا نحن فيه،

لأن جميع الخيرات إنما بواسطته تتدفَّق فينا نحن أيضاً.

فنظراً لأن آدم أبانا الأول لما تحوَّل بالغواية إلى المعصية والخطية

لم يحفظ نعمة الروح،

وبذلك فقدت أيضاً الطبيعة كلها فيه عطية الله الصالحة.

فكان لابد أن الله الكلمة الذي لا يعرف التغيير يصير إنساناً

لكي إذ يقبل العطية بصفته إنساناً يحتفظ بها بدوام لطبيعتنا...

فقد صار الابن الوحيد إذن إنساناً مثلنا

لكي إذ يستعيد من جديد في نفسهِ أولاً الخيرات الصالحة

ويجعل نعمة الروح متأصلة من جديد ومنغرسة فيه،

يتمكن بذلك أن يحفظها بثبات وبعدم تغيير لكل طبيعتنا.

وكأن اللوغس الوحيد المولود من الله الآب

قد أعارنا عدم تغيير طبيعته الخاصة.

فإن طبيعة الإنسان قد عُرفت في آدم

أنها عاجزة عن الثبات ومتحوِّلة بكل سهولة إلى السوء.

فكما أنه بتحوُّل الإنسان الأول

قد اجتاز فقدان الخيرات الصالحة إلى سائر طبيعتنا،

هكذا أيضاً أعتقد أنه بواسطة ذاك الذي لا يعرف التغيير

سيعود الثبات في اقتناء العطايا الإلهية إلى سائر جنسنا]

تفسير إنجيل يوحنا ٧: ٣٩

The Word of God Lent Us the Stability of His Own Nature

Not for Himself did Christ receive the Spirit, but rather for us in Himself, for all good things flow through Him into us too. For since our forefather Adam being turned aside by deceit into disobedience and sin, did not preserve the grace of the Spirit, and thus in him the whole nature lost the God-given Good, needs did God the Word Who knows not turning, become Man, in order that by receiving as Man He might preserve the Good permanently to our nature. ...

The Only-Begotten was made therefore Man as we, that in Him first the good things returning and the grace of the Spirit rooted might be preserved securely to our whole nature, the Only-Begotten and Word of God the Father lending us the stability of His own Nature, because the nature of man had been condemned in Adam as powerless for stability and falling – and that most easily – into perversion. As then in turning of the first man the loss of good things passes through unto the whole nature, in the same way I deem in Him too who knows no turning will the gain of the abidance of the Divine Gifts be preserved to our whole race.

On John 7:39; LFC 1, 548-549.

****

ἐκ τοῦ ἁγίου Κυρίλλου

Οὐχ ἑαυτῷ ἔλαβε τὸ Πνεῦμα Χριστὸς, ἡμῖν δὲ μᾶλλον ἐν ἑαυτῷ· πάντα γὰρ δι᾽ αὐτοῦ καὶ εἰς ἡμᾶς τρέχει τὰ ἀγαθά. ἐπειδὴ γὰρ ὁ προπάτωρ Ἀδὰμ οὐ διέσωσε τὴν τοῦ Πνεύματος χάριν παρατραπεὶς ἐξ ἀπάτης εἰς παρακοὴν καὶ ἁμαρτίαν, ὅλη τε οὕτως ἐν αὐτῷ ἐζημιοῦτο λοιπὸν ἡ φύσις τὸ θεόσδοτον ἀγαθὸν, ἀναγκαίως ὁ τροπὴν οὐκ εἰδὼς Θεὸς Λόγος γέγονεν ἄνθρωπος, ἵνα λαβὼν ὡς ἄνθρωπος διασώσῃ παγίως τῇ φύσει τὸ ἀγαθόν...

Γέγονε τοίνυν καθ᾽ ἡμᾶς ἄνθρωπος ὁ Μονογενὴς, ἵν᾽ ἐν αὐτῷ καὶ πρώτῳ παλινδρομοῦντα τὰ ἀγαθὰ, καὶ ἡ τοῦ Πνεύματος ῥιζωθεῖσα χάρις ὅλῃ λοιπὸν ἀραρότως τῇ φύσει φυλάττοιτο, οἱονεὶ κιχρῶντος ἡμῖν τὸ τῆς ἰδίας φύσεως ἀμετάπτωτον τοῦ Μονογενοῦς, καὶ ἐκ Θεοῦ Πατρὸς ὄντος Λόγου, διὰ τὸ κατεγνῶσθαι τὴν ἀνθρώπου φύσιν ἐν Ἀδὰμ, ὡς ἀδιαπτώτως ἔχειν οὐ δυναμένην, κατολισθαίνουσαν δὲ καὶ σφόδρα ῥᾳδίως εἰς παρατροπήν. ὥσπερ οὖν ἐν ταῖς τοῦ πρώτου τροπαῖς εἰς ὅλην διήκει τὴν φύσιν ἡ τῶν ἀγαθῶν ζημία· κατὰ τὸν αὐτὸν οἶμαι λόγον καὶ ἐν τῷ μὴ εἰδότι τροπὴν

τῆς τῶν θείων χαρισμάτων διαμονῆς ὅλῳ σωθήσεται τῷ γένει τὸ κέρδος.

PG 73, 753-756; Pusey 1.693-694.

للقديس كيرلس الكبير:

هذا هو ابني الحبيب

■○✞○■

[لقد جاء صوت الله الآب قائلاً من نحو المسيح

أثناء عماده المقدَّس:

«هذا هو ابني الحبيب»،

وكأنما بذلك كان يقبل فيه وبواسطته الإنسان الأرضي.

فإن ابن الله الوحيد الحق بحسب الطبيعة

لما صار مثلنا،

قد تعيَّن ابن الله (رو١: ٤)،

ليس كأنه ينال ذلك لنفسه هو

— إذ أنه في ذاته كان ولم يزل كما قلتُ إلهاً حقاً —

بل لكي يوصِّل إلينا هذا المجد.

فإنه قد صار لنا باكورةً وبكراً وآدماً ثانياً.

لأجل ذلك قيل إن كل شيء فيه يصير جديداً (٢كو٥: ١٧).

ونحن إذ قد خلعنا عتق آدم،

اغتنينا بالجدَّة التي في المسيح].

تفسير لو٣: ٢١-٢٣

"This is My beloved Son"

For the voice of God the Father spoke unto Christ at the time of holy baptism, as though having by Him and in Him accepted man upon earth to the sonship: "This is my beloved Son" *(Mat 3:17). For He Who is the Son by nature and in truth, and the Only-begotten, when He became like unto us, is specially declared to be the Son of God, not as receiving this for Himself – for He was and is, as I said, very God – but that He might ratify the glory unto us. For He has been made our first fruits, and firstborn, and second Adam: for which reason it is said, that* in Him all things have become new *(2Cor 5:17). For having put off the oldness that was in Adam, we have gained the newness that is in Christ.*

On Luke iii, 21-23; Payne Smith, I, 47-48.

****

ἐκ τοῦ ἁγίου Κυρίλλου

Ἔφη δὲ ἡ τοῦ Θεοῦ καὶ Πατρὸς φωνὴ ἐπὶ Χριστῷ κατὰ τὸν καιρὸν τοῦ ἁγίου βαπτίσματος, ὡς δι᾽ αὐτοῦ τε καὶ ἐν αὐτῷ τὸν ἐπὶ γῆς ἄνθρωπον λαβών· "*Οὗτός ἐστιν ὁ Υἱός μου ὁ ἀγαπητός*". Ὁ γὰρ φύσει καὶ ἀληθῶς καὶ μονογενὴς Υἱὸς, ὅτε γέγονε καθ᾽ ἡμᾶς, εἰς Υἱὸν ὁρίζεται Θεοῦ, οὐχ ἑαυτῷ τοῦτο δεχόμενος (ἦν γὰρ καὶ ἔστιν, ὡς ἔφην, Θεὸς ἀληθινὸς), ἀλλ᾽ ἵνα εἰς ἡμᾶς παραπέμψῃ τὴν δόξαν. Γέγονε γὰρ ἡμῶν ἀπαρχὴ, καὶ πρωτότοκος, καὶ δεύτερος Ἀδάμ· διὰ τοῦτο ἐν αὐτῷ πάντα καινὰ γεγενῆσθαι λέγεται. Ἀποδυσάμενοι δὲ τὴν ἐν Ἀδὰμ παλαίωσιν, τὴν ἐν Χριστῷ καινότητα πεπλουτήκαμεν.

PG 72, 524

الظهور الإلهي وذكرى معمودية الرب[1]

كل عام وأنتم بخير،

عيدُ الغطاس اسمٌ قديم وصلنا من العصر الوسيط، وذكَرَه المؤرخون كاحتفالٍ عام كان يتم عند نهر النيل، وهو الإله "حابي" في الديانة المصرية القديمة، ولكنه سقط كإله أمام مجد المسيح الذي جاء لكي يبارك المياه، ويعطي لها نعمة خاصة لكي تساهم في ميلاد الحياة الجديدة في سر المعمودية.

لابد أن القراء الأعزاء لاحظوا وجود أيقونة "معمودية الرب" في شرقية المعمودية، إذ تشهد الأيقونة أن ما يُعطى في سر المعمودية هو ما ناله الرب نفسه عندما تجسد وعاش بيننا بالجسد.

في مناسبات الأعياد السيدية مثل الميلاد والغطاس والقيامة، يتأرجح الوعي بين ما سُلِّم في العصر الوسيط، وما سُلِّم في الليتورجيات والقراءات والشرح الآبائي. نقول إننا نحتفل بذكرى معمودية الرب، هذا هو أحد أسباب تسمية هذا العيد بـ"عيد الغطاس"، ولكن الاسم الليتورجي هو "عيد الظهور الإلهي"، هو عيد "ظهور الثالوث القدوس"، وهي المناسبة الثانية بعد استعلان الثالوث في بشارة الملاك لوالدة الإله.

على استحياء، وربما عن خوفٍ من هجوم على الإيمان دام ما يقرب من ١٤٠٠ سنة، نقول: "ذكرى معمودية الرب يسوع". هذا جزء من الحقيقة الأكبر، وهي "ظهور الثالوث"؛ لأن الأرثوذكسية شُيِّدت على استعلان الله كثالوث.

الآب ينادي الابن: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، نداءٌ يمتد إلينا

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد الغطاس ٢٠١٨.

نحن أيضاً الذين صرنا أخوةً للبكر يسوع، وهو نداءٌ أجاب عليه الرب نفسه: "ها نذا والأولاد الذين أعطاني إياهم الله" (راجع عب ٢: ١٣)، وصـــار نداء الآب يدوِّي بقوةٍ في (غلاطية ٤: ٦): "بما أنكم أبناء أرســـل الله روح ابنه إلى قلوبكم صـارخاً أبا abba أيها الآب"، بل صـارت مسـرة الآب بنا في دعوتنا للتبني (يوحنا ١: ١٣)؛ لأننا نولد منه، ولأن "مسرة الله" قد أصبحت مثار بُشرى يوم وُلِدَ الرب نفسـه في نشـيد الملائكة: "وبالناس المسـرة". وغرس العيد في الوعي المسـيحي تمايز أقانيم الثالوث بشـكل واضـح، الآب ينادي، والابن يغطس في المياه، والروح يحل عليه بشـــكل حمامة. ونداء الاب هو نداءُ مَن هو غير منظور، وصـــارت محبته منظورة في مجيء الابن وتجسـده، وفي نزول يسـوع إلى المياه، فتقدَّسـت المياه ودخل الكون القديم تقديس الخليقة الجديدة، وجاء الحدث الأكبر، وهو مســحة يســوع بالروح من الآب مباشرةً وليست بوسيلة بشرية، أو من خلال المؤسسة الكهنوتية لسـبط لاوي، ولا حتى باختيار الشـعب ليسـوع لكي يكون "مسـيح الرب" مثل ملوك بني اســرائيل. ترك الآب كل هذه التدابير لكي يصــبح تدبير الحياة منه وله وليس بوسيلة بشرية.

وجاء الروح بشـكل حمامة، ومهما قيل من تفسـير، فهو مقبولٌ وجيدٌ، ولكن ليس للروح شـكلٌ، بل "في شـكل حمامة". أخذ الشـكل الذي لا يتوقعه البشـر، فهو "الرب المحيي" واهب الحياة لكل ما هو حي، واسـتقر على يسـوع ومسـحه؛ لكي نأخذ نحن من يســوع ذات المســحة: "أما أنتم فلكم مســحة من القدوس وتعرفون كل شيء" (١يوحنا ٢: ٢٠). وظهور الروح بشكل حمامة، يُلجِم ألسـنة الذين يحاصـــرون الروح في شـــكلٍ معيَّن مثل "ألســـنة نار"، كما حدث في يوم العنصـرة، فالروحُ حُرٌّ: "وحيث روح الرب فهناك حرية"، ولكن الاسـتعلان الإلهي الذي ينادي فيه الثالوث الإنسانية، جديرٌ بالاهتمام.

أولاً: هو أســاس المعمودية في الكنيســة الجامعة. ولم يضــع الآباء الاعتراف "بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا" في قانون الإيمان لمجرد إضـــافة بند، بل هي، أي المعمودية، باب دخولنا تدبير الخلاص وشـركتنا في بنوة الابن. ما أعظم أن يشـترك

المخلوق في عطية إلهية ترفع عنه أسمال وقيود الوجود البيولوجي الطبيعي، أي الولادة من أب وأم ومن إرادة إنسان إلى الولادة من الله. وحينما نُولد من الله، نعطى البنوة. وما يضاف إلى المخلوق من العدم، لا يحوِّل المخلوق إلى خالق؛ لأن إثارة الخوف من عطية الله هي زوابع الشيطان لكي نُصاب "بالعمى الروحي"، ولا نرى أنفسنا إلا ثمرة الولادة الجسدانية.

ثانياً: سر المسحة، وهو سر الميرون ومسحة الروح القدس، تعطى حسب التسليم الكنسي، بالرشومات وبنفخة الروح القدس التي وُهِبَت للتلاميذ بعد قيامة الرب (يوحنا ٢٠: ٢٢). والبحث في: متى يعطى الروح القدس؟ له ردٌّ صارم: "ليس بكيل يعطي الله الروح" (يوحنا ٣: ٣٤)؛ لأن الروح في حركة دائمة وعطاء دائم، هو ليس مثل وجبة طعام نأكلها وتنتهي، وإلا كيف نفهم صلاة الساعة الثالثة ونداء الكنيسة للروح القدس: "أيها الملك السمائي الذي .. هلم تفضَّل وحِل فينا وطهرنا من كل دنس أيها الصالح وخلص نفوسنا". العطاء الدائم والعمل الإلهي الدائم صعبٌ على من يجعل الأمور المادية مقياساً للأمور السمائية: "قارنين الروحيات بالروحيات"، هذه هي قضية وإفراز الرسول بولس. والمسحة التي أُضيف إليها حنوطٌ، هي إضافة موت الرب يسوع وقبره ثلاثة أيام إلى الروح القدس، ليس للذكرى، بل لأن موت الرب يسوع وقيامته فتح لنا باب شركة الروح القدس.

تقديس المياه:

هذه ليست "ذكرى" بالمعنى البروتستانتي الشائع، أي تذكُّر حدث تم في الماضي، فليس في الله ماضٍ، ولا يوجد زمان في الله، بل الله في الزمان، وما قام به الثالوث لا يصبح قديماً، بل هو دائمٌ لأن حضور الله دائمٌ لا انقطاع فيه. وما أعظم أن يأخذ كل إنسان نصيبه في مياه "لقان الغطاس"؛ لأنه يدخل بذلك تدبير التجديد، ويلمس تقديس الروح القدس، ذلك التقديس الذي لا يصبح قديماً، بل هو دائماً جديدٌ.

ليُقدسنا الثالوث القدوس، ويمنحنا يقظةً روحيةً لكي نفهم عظم النعمة التي تُوهَب لنا دائماً.

عيد الغطاس،
هو العيد الذي أخذنا فيه اسمنا "مسيحيين"(١)

جيدٌ أن نحتفل بعيد الظهور الإلهي بتقديس المياه، تلك التي قدَّسها يوع عندما اعتمد، ليمتد التقديس إلينا في خدمة "قداس اللقان"، ونأكل أكلةً معينة احتفالاً بالعيد.

ولكن الحقيقة التاريخية هي أن يسوع مُسِح فاستُعلِن "المسيح". ومن مسحة يسوع أخذنا نحن مسحة الروح القدس. وقد سلمنا رسول الرب، يوحنا هذه الحقيقة: "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ" (١ يو ٢: ٢٧). والمسحة هي عطية الله "وَلَكِنَّ الَّذِي ... مَسَحَنَا، هُوَ اللهُ. الَّذِي خَتَمَنَا أَيْضاً، وَأَعْطَى عَرْبُونَ الرُّوحِ فِي قُلُوبِنَا" (٢ كور ١: ٢٠ – ٢١). وقد دُعينا مسيحيين بسبب هذه المسحة، حسب شهادة العلامة أوريجينوس، وعظات القديس كيرلس الأورشليمي للمعمدين: "لقد مُسحتم بالميرون وصرتم مسيحيين" (العظة ٢١: ٥).

وإذا كانت مسحة الميرون قد دُوِّنت بشكلٍ كامل بعد القرن الثالث، إلا أن هذا لا يعني أنها من اختراع تلك الحقبة، بل حسب التدوين التاريخي، فإنها تعود إلى التسليم غير المدوَّن الذي أشار إليه القديس باسيليوس الكبير في كتابه "الروح القدس". وكان إخفاء الممارسات المسيحية عن عيون "تهريج" مسارح الوثنية، متعمداً، حسب شهادة ترتليان.

يأتي هذا العيد كل عام لكي يؤكد شركتنا الأبدية في عطية الروح القدس،

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٧ يناير ٢٠١٩.

الذي به نُمسَـح بعد المعمودية؛ لنكون "هيكل الله"، وما الهيكل المنظور إلا شـهادةً لهذه الحقيقة التي بدونها نصبح غرباء عن حياة الثالوث القدوس.

يجدِّد الروح القدس مسحتنا في الصلاة، وفي الاشتراك في جسد الرب يسوع ودمه، جسد الذي مُسِح لأجلنا لكي نُمسح نحن فيه وبه (القديس أثناسيوس الرسولي، ضد الأريوسيين ٢: ٣٧).

كل عام وأنتم جميعاً بخير؟

القسم الثالث

الختان والتجلي

سكين الشريعة في جسد يسوع[١]

في دقة الطبيب الحكيم يشـهد لوقا الإنجيلي أنه "لما تمَّت ثمانية أيام ليختتنوا الصبي سُمي يسوع كما تَسمَّى من الملاك قبل أن حبل به في البطن" (لوقا ٢: ٢١).

اليوم الثامن يوم الدهر الجديد:

اليوم الثامن له مكانٌ خاصٌ في التدبير، هو يوم تجلي الرب على جبل طابور (لوقا ٩: ٢٨)، وهو اليوم الثاني بعد السبت؛ لأن السبت هو السابع، وفي أول الأسبوع، أي في اليوم الثامن قام الرب من القبر. هو علامة زمانية على الدهر الجديد، وهو ذلك اليوم الذي ينتهي فيه عهد ابراهيم، كما يلاحظ القارئ الفطن أنه هو اليوم الذي يدخل فيه سكين الشريعة جسد يسوع لكي يُسمى في نفس اليوم مع الختانة: "المخلص" من أحكام الشريعة.

في العظة الثالثة على إنجيل لوقا (٢: ٢١ – ٢٤) يشرح القديس كيرلس السكندري أن القوات السماوية نالت عطفاً خاصاً من الآب، وأُعطيت "حظوة في أن تكون أول مَن يبشر به"، ثم يقول:

> "اليوم نراه مُطيعاً لشرائع موسى أو بالحري نرى من هو الله والمشرع لكل الشرائع، يخضع لشريعته، ويشرح بولس الحكم حقاً هذا السبب لكي نعرف أننا نحن أنفسنا عندما كنا أطفالاً كنا تحت عبودية أركان العالم، ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الشريعة لكي يفتدي الذين هم تحت الشريعة" (غلا ٤: ٤ – ٦). إذن المسيح افتدى

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد ختان الرب بالجسد ١٣ يناير ٢٠١٣

من لعنة الشريعة الذين كانوا خاضعين لها لأنهم كانوا غير قادرين على القيام بكل فرائضها. وكيف افتدانا؟ بإكمالها أو بتعبير آخر لكي يحرر من خطية آدم، خضع هو عنا لله الآب لمطالب الشريعة لأنه مكتوب (رو ٥: ١٩) "لأنه بعصيان الإنسان الواحد صار الكثيرين خطاة، هكذا أيضاً بطاعة الواحد سيصبح الكثيرين أبراراً"؛ لذلك أحنى عنقه للشريعة في شركة معنا جميعاً حسب تدبير الخلاص؛ لكي يكمّل كل بر، لأنه أخذ صورة العبد، وحُسِبَ بشراً من البشر بسبب تجسده كخاضع للشريعة، بل أنه في مناسبةٍ دفع نصف شاقل لجامعي الضرائب، رغم أنه حرٌّ، وكابنٍ ليس مطالباً بدفع الضريبة. لذلك أيضاً إذا رأيته يخضع للشريعة ويحفظ الشريعة لا تغضب ولا تحسب الابن الحر ضمن العبيد، بل تأمل في دقة وجمال التدبير".

الخضوع للشريعة:

دقة القديس كيرلس لا تختلف عن دقة الإنجيلي لوقا، لأن الخضوع هو:

١- خضوع الواحد الذي يمارس الطاعة من أجل العصاة (رو ٥: ١٩).

٢- هو في شركة معنا حسب تدبير الخلاص، وهو لذلك يكمّل ما عجز عنه البشر.

هذا لا يعني خضـــوع العهد الجديد برمته للشـــريعة؛ لأن إكمال الناموس بواســـطة الرب معناه وصـــول الناموس الى نهايته أو غايته؛ لأن غاية الناموس هي المسيح، فهو (أي الناموس) مؤدِّب الى أن يجيء الوقت الذي تتحرر فيه الإنسانية من وســـاطة الفرائض. ولذلك يقول القديس كيرلس في نفس العظة: "يقول بولس المبارك الختان لا ينفع وعدم الختان (الغرلة) لا تنفع (١ كو ٧: ١٩)، فهل كان الله العلي الحكيم عندما أمر موســـى بأن يعاقِب كل من لا يختتن لا يهدف إلى لا شـــيء لأن الختان لا ينفع –كما قال بولس؟ ولكن هذه الممارســـة الى رمزٍ مملوءٍ بسرٍّ سوف يستعلن في اليوم الثامن عندما تظهر حقيقة اليوم الثامن؛ لأن المسيح

قام في اليوم الثامن وأعطانا الختان الروحي عندما أمر الرسل القديسين بأن يذهبوا ويتلمذوا جميع الأمم ويعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨: ١٩)، ولذلك نحن نؤكد أن الختان الروحي يتم بشكل تام في زمان المعمودية المقدسة عندما يجعلنا المسيح شركاء الروح القدس ... لأن المسيح يختنّا جميعاً بقوة الروح القدس، ليس بتطهير الجسد، وإنما بقطع النجاسة التي في نفوسنا" (راجع عظات القديس كيرلس على انجيل لوقا ص ٥٦ – ٥٧)[١].

الختان في اليوم الثامن:

في اليوم الثامن تم ختان المسيح، وكما قلت أخذ اسمه لأننا ننال الخلاص به وفيه ونحن "فيه خُتنَّا ختاناً غير مصنوع باليد بقطع الجسد الخاضع للشهوات، أي بختان المسيح، لأننا دُفنَّا معه في المعمودية التي فيها قد قمنا معه" (كول ٢: ١١)، وكما أنه مات لأجلنا وقام لأجلنا، هكذا أيضاً خُتِّن لأجلنا، لأنه مات، ونحن نموت معه وفيه، نموت عن الخطية ليس لأنه (المسيح) قد أخطأ، لأنه لم يخطئ ولم يوجد في فمه غش (١ بط ٢: ٢٢)، ولكن بسبب خطايانا، وكما أننا نموت معه عندما مات هكذا نقوم معه".

وبعد ذلك يؤكد القديس كيرلس أنه بعد "ختانه، هذه الممارسة قد انتهت؛ لأنها أدت السبب الذي لأجله أعطيت وهي أن تكون رمزاً للمعمودية ولذلك نحن لا نمارس الختان" (راجع ص ٥٧).

غاية الختان حسب شرح القديس كيرلس السكندري:

أولاً: فصلت ما بين أولاد ابراهيم، وخصَّتهم بهذه العلامة دون غيرهم، فصارت ختماً Seal يميِّزهم عن سائر الشعوب.

ثانياً: كانت رمزاً للمعمودية الإلهية؛ لأنه في العهد القديم كان كل من يختتن

(١) راجع تفسير إنجيل لوقا للقديس كيرلس الكبير – سلسلة نصوص آبائية ١١٦ – المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة – ٢٠٠٧ – ص ٤٢ – ٤٦.

يُحسب ضمن شعب الله عندما ينال هذا الختم Seal وهكذا كل من ينال المعمودية يتكون المسيح فيه ختماً يجعله ضمن شعب الله الذي نال التبني.

ثالثاً: الختان هو رمز للإيمان؛ لأن النعمة التي ننالها بالإيمان تقطع وتُميت كل القوى الشهوانية التي تقاتلنا والتي تصدر عن شهوات جسدانية بسكين الايمان الحاد وبأعمال النسك التي لا تدمر الجسد، بل تطهِّر القلب لأننا نختتن بالروح لا بالحرف كما شهد بولس الالهي (رو ٢: ٢٩)" (المرجع السابق).

التسليم الذي نقله القديس كيرلس السكندري عن العلامة أوريجينوس:

اهتم القديس جيروم بنقل عظات العلامة أوريجينوس على انجيل لوقا (٣٩ عظة) الى اللغة اللاتينية. ما يجب أن نلاحظه أن التسليم الكنسي ظاهر لمن يدرس بعناية، فهو سُلِّم بذات الكلمات وبذات الأساس اللاهوتي. وعندما جمع أستاذ الآباء السابق في جامعة كامبريدج G. Lamp المصطلحات اليونانية في كتابات الآباء، ظهر بشكل أوضح من قبل، أن كل الكلمات اللاهوتية الخاصة بالصلاة – السرائر – الثالوث – الحياة النسكية – الرب يسوع، تظهر عند أوريجينوس – أثناسيوس – ديديموس – كيرلس الكبير، وأن نفس الشرح اللاهوتي يؤكد أن التسليم الكنسي هو مرجعية الآباء.

في العظة ١٤ على انجيل القديس لوقا وحسب ترجمة جيروم يقول العلامة أوريجينوس:

> "عندما مات المسيح "مات للخطية" لأنه هو نفسه لم يكن خاطئاً لأنه لم يخطئ ولا وجد في فمه غش" (٢ بط ٢: ٢٢). لقد مات لكي بموته عن الخطايا نحن الموتى لا نعيش بعد للخطية والرذيلة، لذلك يقول الكتاب: "إن كنا قد متنا معه، فنحن سنحيا معه" (رو ٦: ٨). "ونحن قد ختنا معه

وبعد الختان نلنا تطهيراً كاملاً، ولذلك ليس لنا حاجة إلى ختان الجسد. وانتم تعرفون لماذا خُتِّن لأجلنا. اسمعوا التعليم الواضح من بولس لأنه يقول: "كل ملء اللاهوت يحل فيه جسدياً، وأنتم مملؤون فيه .. وفيه قد ختنتم بختان غير مصنوع باليد عندما خُلع جسم البشرية[١] في ختان المسيح؛ لأننا دُفنًّا معه في المعمودية ومعه قد قمنا بالإيمان بعمل الله الذي أقامه من الأموات" (كو ٢: ٩ – ١٢) لذلك موته وقيامته وختانه قد تم لأجلنا" (عظة ١٤: ص ٥٦).

القارئ المدقق سوف يرى أن شرح القديس كيرلس هو نفسه شرح العلامة أوريجينوس لأنه تسليم كنسي واحد.

ملاحظتان ذاتا دلالة عقائدية لكل من أوريجينوس والقديس كيرلس:

الأولى: هي أن المسيح له المجد مات للخطية، وهذا جزء جوهري من عمله كمخلص، فقد جاء لكي يميت الموت والخطية، فهو لم يمت كخاطئ حسب زعم بعض الشيع الإنجيلية.

الثانية: إننا كما متنا معه وقمنا معه، كذلك أيضاً خُتنَّا معه، بل وحسب عبارة الرسول "فيه". وهنا لا يجب الإقلال من عمل المعمودية التي تجمع كل مؤمن وتوحِّده بشعب الكنيسة وتعطي له كل امتيازات العضوية كما كان الختان يفعل في العهد الأول أي العهد القديم، وكما كان غير المختتن يُمنع من الاشتراك في الفصح اليهودي، كذلك سارت الكنيسة على نفس القاعدة، وهي منع غير المعمدين من التناول.

---

(١) "جسم خطايا البشرية" لم ترد في الأصل اليوناني وأضيفت في الترجمة البيروتية للإيضاح، ولكن كل القراءات "جسم البشرية" وحرفياً σώμα της σαρκός وهو تعبير دقيق يعني:
١– الجسد البيولوجي الطبيعي الذي سوف ينحل بالموت (راجع كو ١: ٢٢).
٢– الجسد الذي في شكله الإنساني العادي حسب الطبيعة لم يعد صالحاً للحياة الجديدة.
٣– وأخيراً لا يجب التمييز بين σώμα جسد و σαρκας لحم flesh هذا غير معروف عند بولس والآباء.

أخيراً:

إذا كان الرب قد أكمل الشـريعة بحياته وموته، فإن بعث الشـريعة من جديد لوضـع الشـريعة فوق رقاب الناس هو عودة الى العهد القديم وهي عودة تخلع كل جذور المسيحية الأرثوذكسية.

ختان الرب بالجسد – ماذا حدث للغرلة؟[1]

يبدو أننا فعلاً أحفاد الفراعين عندما نفكر في الموت. ليتنا نكون أحفاد الرسل والشهداء عندما نفكر في الحياة الجديدة التي جاء بها الكلمة المتجسد. ليست الغرلة فقط –قارئي العزيز– بل أيضاً الدم الذي سال على الجلجثة، ولذلك ترى الفنان الأرثوذكسي وقد رسم جمجمة آدم أسفل الصليب .. لماذا نفكر بفرعونية ولا نفكر بأرثوذكسية؟ لقد جاء الكلمة وتجسد لكي يجدد كل "ذي جسد"، وصار كل ذي جسد يسمع دعوة الكلمة المتجسد: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"، ولكننا لا نزال نسأل – بفرعونية – عن مصير الجسد الذي نأكله في السر المجيد، كأننا نأكل لحم بشر مثلنا –حسب تعبير نسطور– ولكن إذا كنا نفكر بحسب قلب الرسل والشهداء والآباء، فإننا ندرك أن اتحاد الرب الكلمة بالجسد الإنساني قد أدخل عنصرَ حياة لا تموت في المائت أي الإنسان.

بهذا الاتحاد دخل الناسوت مجال حياة جديدة، وهذه حياة تحول المائت إلى غير مائت والترابي إلى سمائي. حسب تسليم الآباء، الإنسان الجديد الحي القائم من بين الأموات ليس له ذات التركيب البيولوجي السابق على القيامة؛ لأن الأعضاء التناسلية لن يكون لها وجود أو استعمال حسب قول الرب يسوع نفسه: "لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السموات"، وبالطبع لا يوجد حبل وولادة. لقد سبق الرب يسوع لأنه البِكر المتقدم علينا في كل شيء في أن يصبح الرب المحيي والإنسان الجديد أو آدم الجديد، آخر مراحل تطور الإنسان. ولذلك، فما قُطع من جسده وما سال من دمه، دخل دورة الكون الجديد لكي

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية رداً على سؤال أحد القراء في ١٦ يناير ٢٠١٣.

يتحول إلى ما هو جديد في مجد القيامة أو حسب تعبير الرسول: "جسد مجده" (فيلبي ٣: ١٢). وهنا، الجسد ليس محسوباً باللحم واللون والعظام والشعر .. لقد أبقى الرب حقاً على هيئة جسده الإنساني، وقال للرسل "الروح ليس له عظم ولحم"؛ لكي يؤمن التلاميذ بالقيامة. ولكن هذه الهيئة تغيَّرت تماماً لأنها ذات الهيئة التي دخل بها الرب قدس الأقداس "الذي لم يدخل اليه ذو طبيعة جسدية" (قسمة سبت الفرح). وإذا انتقل الوعي القبطي من الفرعونية إلى الأرثوذكسية وهو ما سجَّله الأب صفرونيوس (قبطي أرثوذكسي قح) في رسالة قصيرة عن الإفخارستيا، حيث يكتب للأب صفنيا مؤكداً أن

["جسد الله الكلمة هو جسد حق ومأكل حق" لأن الجسد الإنساني قبل التجديد الذي جاء به الله الكلمة ليس "جسد حق"، بل جسدٌ قابل للموت، فَقَدَ "حق الحياة"، ولكن جسد الكلمة الحي هو جسدٌ حق؛ لأنه غلب الموت. فلا يجب أن نأتي بكلمات وأوهام جسد البشر الخاضعة للموت وننسبها للرب؛ لأن الرب استوعب الطبيعة الإنسانية وجدَّدها في أقنومه الإلهي المتجسد؛ لأن التجديد تم في آدم الأخير (١كو ١٥: ٤٥) فهو جسدٌ حق؛ لأنه لا يعرف الزور والكذب وتحوُّل الخطية الآتي مع الموت، وهو جسدٌ حق لأن الكائن الحق حوَّله في كيانه إلى جسد حق.

أمَّا عن سؤال الأخوة: ماذا يحدث للجسد والدم بعد التناول؟ فهؤلاء يجب أن يفكروا بطريقة سمائية؛ لأننا لا نأكل طعاماً مادياً قابلاً للفساد، بل الجسد المحيي جسد الله الكلمة الذي يطرد كل فساد فينا. وعندما نوزِّع جسد الرب، فإن الرب لا ينقسم لأن الانقسام هو من خصائص الموت، أما قوة القيامة، فهي توحِّد. لقد بكى الرب ونزل عرقه مثل دمٍ، وسال دمه على الجلجثة، وهذه هي صفات الجسد المتحول حسب التدبير الى عدم الموت، وإذا فَقَدَ شيئاً قبل القيامة، فهو يُفقد حسب التدبير مثل الأظافر والشعر والعرق والدم ... الخ. لأن هذه لا تأخذ من اللاهوت إلَّا ما يشاء

اللاهوت أن يعطي، وهو عندما يحول جسده الى عدم فساد، فهو يحوّله حسب التدبير معطياً إياه أن ينمو "تدبيرياً" نحو مجد القيامة.

الاتحاد الأقنومي ليس اتحاداً مفروضاً على اللاهوت ولا على الناسوت، بل هو اتحاد محبة واتحاد طبيعتين حسب إرادة الرب وحسب قصد تدبيره.

ونحن السائرون نحو قيامة الجسد نتناول لكي نتحول حسب التدبير إلى عدم فساد حسب إرادة وعمل الرب يسوع فينا متحدين به كله؛ لأننا لا نأخذ جزءاً من المسيح بل المسيح كله حسب تعليم الكنيسة (المودع) في (الليتورجية) الخدمة الإلهية". صفرونيوس يطلب صلواتكم عني] (القاهرة ١٩٨٨).

وهكذا أرجو من القارئ أن يدقق في قراءة رسالة الأب صفرونيوس، وأن يقرأ بعناية العظات الروحية للقديس مكاريوس الكبير حيث وردت إشارات كثيرة في جسد القيامة.

في العصر الحديث، وعند أساتذة اللاهوت الأرثوذكسي تحوُّل الكون كله السماء والأرض يتم في المسيح، ولكن لا يزال ينقصنا أن نكتب عن المسيح الكوني Cosmic Christ لأن تحوُّلنا نحن هو مثل الخميرة التي تخمر العجين كله، وفينا نحن تشرق الحياة الجديدة لأننا الباكورة في يسوع رب المجد. ولذلك، كل مرة نتناول فيها جسد ودم الرب، يدخل عنصر الحياة الجديدة إلى الكون كله؛ لأننا نتحول ومعنا الخليقة على النحو الذي نراه أحياناً في حياة بعض القديسين والشهداء الذين اشتعلت اجسادهم بنار مرئية مثل أبا نوفر وغيره ....

الرب يعطينا ميراث آبائنا والعقل والقلب الذي يشبع من صلوات الكنيسة لكي نتوهج بنار المحبة مثل مكسيموس ودوماديوس ومينا المتوحد وغيرهم.

جبل طابور، والجلجثة والقبر[١]

ثلاثةُ أحداثٍ ... تبدو –حسب الفهم ومسيرة التاريخ– تسير في تسلسل ..

– تجلي الرب على الجبل أمام تلاميذه الثلاثة.

– صُلِبَ ودُفِنَ، ... ثم قام.

نحن فقط بشر، لكن يسوع هو إلهٌ بشر. نحن تُحرِّكنا أحداثُ الحياة، ولكن يسوع هو الذي يحرِّك الوجود كله. ففيما كان في الجسد، كان يحفظ ويسوس ويرعى الخليقة وهو متجسد (القديس أثناسيوس – تجسد الكلمة).

جاد علينا الآباء بكلمةٍ تُعد مفتاحاً لفهمٍ أفضل، وهي: "**التدبير**". وقد وردت هذه الكلمة في العهد الجديد نفسه (أفسس ١: ١٠)، وهي تعني خطة تسير نحو هدفٍ معين. وما يجب أن ندركه فوراً، هو أن خطة الله لتجديد الإنسانية في يسوع لا يحركها الزمان، فليست أية حقبة أو فترة زمانية هي التي تصنع الحدث أو حتى تُسهم فيه. لذلك، فإن عبارة أوغسطينوس التي يقول فيها إن الزمان هو فقط "المسرح" الذي يحرك الله عليه الأحداث، هي عبارة شديدة الوطأة على آذان فاقدي حرية الاختيار الذين يظنون أن الزمان هو مصدر التغيير مع أن الزمان *Time* بلا عقل وبلا إرادة، هو مجرد مقياسٌ فقط.

عندما رتَّب الهراطقة حياة الرب ترتيباً زمانياً (كرونولوجياً)، وجعلوا الزمان هو أول أساس لهذا الترتيب؛ سقطوا في إنكار الأزلية، وحتى العبارات الربانية التي تؤكد الأزلية: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، أرجعوها إلى وحدة الإرادة فقط لا إلى وحدانية الحياة الواحدة مع الآب قبل الزمان.

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في منشور في ٢٢ مارس ٢٠١٣.

"ما قبل، وما بعد" في يسوع:

لا يوجد في أقنوم الكلمة ابن الله ما هو قبل وما هو بعد، أي ما قبل الزمان وما بعد زمان معين. أزلية الابن دخلت زمان الإنسان لكي تحوِّل زمان الإنسان إلى أداة استعلان ما هو كائن. يسوع يُولد في بيت لحم، ويجمع بذلك ميلاده الإلهي بدون أُم إلى ميلاده الإنساني بدون أب؛ لكي يكوِّن الإنسان الجديد، لكي يعيد خلق آدم أي الإنسانية، ولكي يصبح الخلاص والتجديد حقيقة كيانية إنسانية، فهو يأخذ ناسوتاً واحداً لأنه لو أخذ اثنين واحد قديم (عتيق) وآخر جديد لَضاع القديم والجديد معاً.

ولو كان الابن قد أخذ آدم العتيق، وتوقف عند هذا العتيق؛ لَضاع الخلاص.

ولو كان الابن قد أخذ آدم جديداً من لحظة ميلاده حتى قيامته، رغم أن القيامة هي بالضرورة قيامة المائت، وقيامة المائت تعني قيامة العتيق، أقول لو بدأ يسوع بإنسان جديد له كيان جديد يختلف عن كياننا الإنساني؛ لأصبح تجديد الإنسان هو في **يسوع وحده**، وليس للجنس البشري. عندئذٍ يصبح لدينا إنسانٌ جديدٌ لا ينتمي إلى البشر، ويصبح لقبُ "ابن الإنسان" خدعةً، بل تصبح حياة يسوع مسرحية هزلية أمام البشر المائتين الذين لا رجاء لهم في أن ينالوا حياةً جديدةً.

لو كان يسوع قد أخذ ناسوتين معاً في نفس الوقت، أحدهما كيان قديم، والآخر جديد لَكان الاتحاد الأقنومي مآله إلى انقسام؛ لأن القديم هو نحن، هو "اللحم والدم"، ومن أين يأتي الجديد إن لم يكن بتجديد القديم؛ إذ لا يمكن لأي كائن حي له وجود إنساني حقيقي أن يعيش بنوعين من الوجود. تصوَّر أن يكون لشخصٍ واحد نوعين من الوجود، وجود قديم ووجود جديد، فهل يكون كلاهما معاً في صراع، أم في اتحاد، أم ... الخ. فما الذي يمكن لهذا الشخص أن ينجزه من تقدم؟ وما هو مصير القديم؟ ومن أين يجيء القديم والجديد معاً في ذات كيان هذا الشخص؟

الحقيقة هي أن القديم جُدِّد في يسوع لأنه صار الإنسان الجديد.

كراهية الجسد – كراهية القديم في مدرسة الغنوسية:

القديم ليس مشكلة لاهوتية فقط، بل هو مشكلة عقلية – نفسية – ثقافية أيضاً. قد يكون القديم مصدرُ إلهام، وقد يصبح قيداً وسلاسل. فالدعوة إلى السلف الصالح هي دعوة إفلاسٍ إنساني بكل معنى الإفلاس وجوانبه. لم نعد نستطيع أن نعيش حياتنا بقدراتنا، وبما نجده في الواقع، وبما نريد أن نكون، بل علينا أن نقدم استقالة جماعية من الحاضر لأن الماضي أعظم وأفضل. وعندما نستقيل من الحاضر نفقد المستقبل؛ لأن العودة إلى القديم = الماضي هو وضع الحياة في "قبر" لكي تتعفن.

والماضي له علاقة وثيقة بجسد كل إنسان. الجسد هو ملف الماضي، هو الشاهد على أننا كُنا هذا أو ذاك، وهو يحمل بصمات الفشل والنجاح والخوف والرجاء. وكل إنسان يتمنى أن يكون له جسد آخر غير ذلك الذي له؛ طمعاً في جمال أو قامة أو قوة جسدانية.

ويأتي الكلمة ابن الله متجسداً لكي يدخل دنيا الأجساد حيث الوجع، البكاء، والموت، والحروب وكل أنواع الصراعات .. بل والأهم، حيث الشر نفسه مُستعلناً في حياة البشر وبصورة مرئية متعددة.

الحل الغنوسي هو حذف الجسد، واعتباره شبحاً وخيالاً لا قيمة له ولا وزن. احذف الجسد من الوعي بكل آليات العقل القادرة على إنكار *Negation* ما هو كائن لكي يمكن أن يحيا الإنسان صراعه بالأفكار، وهكذا كتب إريك فروم *Fromm* كتابه "النفي – *Negation* " محذراً من أن إنكار شيء هو مجرد تأجيل الحل أو الحلول.

يسوع في الغنوسية كما وصلنا في المصادر القبطية واليونانية، هو روح. والمدهش أن أوراق الكتب الغنوسية وصلتنا بالقبطية، أمَّا ما نعرفه عن تاريخ هذه الشيع، فقد نقله إلينا الآباء أكليمنضس – أوريجينوس وترتليان، وقبل كل هؤلاء القديس ايريناوس في مجلد كبير عن الغنوسية. إلى أي درجة تأصلت الغنوسية في

الشرق؟ لا نعرف، فليس لدينا إحصاءات. كانت مدرسة مارقيون حية حتى آخر القرن الثالث، والجدير بالتأمل أنها حاربت الزواج، فوضعت بذلك حداً لوجودها.

يسوع الحقيقي ابن الإنسان:

صعبٌ علينا أن نتصور أن يسوع عاش حياةً إنسانيةً حقيقيةً مثل حياتنا، وأنه كان يأكل مع الزناة وشاربي الخمر، بل ويسير بين الذين تسلطت عليهم الأرواح النجسة. وصعب علينا أن نتصور ذلك للأسباب التالية:

١- نحن نشعر بأن الشر آتٍ إلينا من الداخل، من صور عقلية، وخبرة قديمة، وأحياناً تندفع من الذاكرة والمخيلة، وتحرك إرادتنا ويبدو لنا أننا أسرى .. فهل كان يسوع في نفس هذا الوضع المهين .. فقدان الإرادة الحرة؟ أم أنه كان يختلف عنا في أن الأفكار كانت تأتي لكي تطرد فوراً ولا تجد لها جذراً أو ركناً؟

تعلمنا من الأدب النسكي المسيحي أن بعض رواد الحياة النسكية تطهروا مثل أوغريس (ايفاجريوس) وغيره، حيث كان **يرى** الأفكار قبل أن تنبت، مجرد بذرة في هواء الحياة العقلية، ولعل هذا يكون أقرب إلى حياة المتجسد رب المجد الذي له رؤية أعظم لأنه عرف المحبة غير المنقسمة بين الله والذات والقريب، فمن الانقسام، أي انقسام المحبة يدخل الشر بكل أنواعه.

٢- وقيل عن الرب يسوع إنه: "مجرب مثلنا في كل شيء" (عب ٤: ١٥)، والتجربة هي صراعٌ داخلي يُحسم، والحسم هو الحرية، ولكن يسوع الذي يحسم تجاربه، يحمل العطف والحنان؛ لأنه "يقدر أن يعين كل المجربين" (عب ٢: ١٨).

فإذا جاء يسوع بكيانٍ واحدٍ إنساني حقيقي من القديسة مريم، هو ذات كيان كل إنسان، فهل يقع يسوع في تجريد إنسانيته من الوجع والألم والموت، و"ينزل عن الصليب"، أم يأخذ هذه الإنسانية في مسيرة التجديد نحو حياة حرة جديدة في تجديد الفكر والإرادة والشعور بل وفي تجديد محبة البشر، محبة الإنسان لله وهي المحبة الغائبة؟

وكيف يجدد يســوع هذا الكيان؟ إن عاش حياة تجديد فكرية فقط كان التجديد خيالياً وعقلياً فقط حُوصِرَ فيه وحده. إذن لابُد من تغيير في الإرادة، في خلايا الجسد، في العظام واللحم، وكل الكيان. والتمسك بهذا هو تمسُّكٍ بأصل خلاصنا نحن؛ لأننا ننال تجديد كياننا الجسد والنفس معاً، لأننا نتأمل أو نفكر، أو حتى نصلي؛ لأن الحياة الإنسانية يجب أن تدخل مجال حياة جديدة أعطاها العهد الجديد "الخلقة الجديدة".

الحل الغنوســي هو "بتر" و"قطع – *amputation*" ولكن قطع وبتر القديم يعني حتماً أن القديم لم يتجدد. ولكن هل الجديد ينمو موازياً للقديم؟ بكل تأكيد لا، بل ينمو من داخل القديم بالشكل والمضمون الذي نراه في خلع الإنسان القديم أو العتيق، هو عملٌ مستمر، ولبس الجديد الذي دائماً في الحاضر يتجدد "حسب صورة خالقه"، والذي "ينمو نمواً من الله". وفي عبارة بليغة تحمل زخم وكثافة التجديد يقول الرسول إن حياتنا هنا هي مثل خيمة أرضية (٢كو ٥: ١)[١] ولكن لنا رؤية "بناء من الله" غير الخيمة، ثم "فَإِنَّنَا فِي هذِهِ أَيْضاً نَئِنُّ مُشْتَاقِينَ إِلَى أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا (فوق الخيمة) مَسْكَنَنَا الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ"، ولكن ذلك الأنين هو ثقيل علينا – ولاحظ السبب "لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلَعَهَا بَلْ أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا، لِكَيْ يُبْتَلَعَ الْمَائِتُ (الخيمة) مِنَ الْحَيَاةِ" (٢كو ١ – ٤)، وهنا ليس لدينا برنامج يومي، بل لكل إنسان برنامج حياته للتجديد في المسيح.

الاتحاد الأقنومي وتحول ناسوت الرب:

في الصراع ضد تقسيم المسيح الذي جاءت به المدرسة النسطورية، قدم القديس كيرلس الكبير عدة أمثلة لشرح الاتحاد الأقنومي:

المثال الأول: تابوت العهد المصنوع من الخشب والمغطى بالذهب من الداخل والخارج، هو خشبٌ وذهبٌ معاً، ولكنه **تابوت واحد** (شرح تجسد الابن

(١)"لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الأَرْضِيُّ، فَلَنَا فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءٌ مِنَ اللهِ، بَيْتٌ غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ".

الوحيد فقرة ١١) وعلى نفس المثال الرب يسوع إلهٌ متجسِّدٌ، ربٌ واحدٌ.

المثال الثاني: الحجر الثمين له لمعان وجمال يشع نوراً، ولكن الحجر واحد لا يمكن فصل الحجر عن لمعان وبهاء الحجر (العظة ١٧ مجلد ٧٧: ٧٧٦).

المثال الثالث: ورد في شرح تجسد الابن الوحيد عن رائحة الزنبقة التي لا يمكن فصلها عن الزنبقة (راجع فقرة ٩).

المثال الرابع: اتحاد النار بالخشب، مع ملاحظة أن النار تقضي على الخشب، ولكن هذا المثال قيل لهدف واحد، وهو اشتعال الخشب (شرح تجسد الابن الوحيد ٩).

المثال الخامس: جمرة النار التي مست شفتي اشعياء (أش ٦: ٦) هي مثال الاتحاد الذي لا انفصال فيه.

المثال السادس: العليقة، وهي مثالٌ قديم عُرِفَ عند هيبوليتوس ومار افرام، وهو خاص بسكنى اللاهوت في أحشاء القديسة مريم، ويظل الناسوت ناسوتاً، ولكنه مشتعل بنار اللاهوت (جلافيرا على سفر الخروج ١٣: مجلد ٦٩: ٢٠٤).

ولكن **المثال الجدير بالاهتمام** حقاً هو اتحاد النفس بالجسد في الإنسان الواحد، وهو المثال الوارد بوفرة في كل النقاط الدفاعية عن الرب الواحد غير المنقسم إلى اثنين، فالنفس هي قوام الجسد والوحدة العضوية بين الاثنين النفس والجسد، هي أقرب مثال على اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن الجسد بلا نفس ميتٌ، والنفس بلا جسد ليست إنساناً كاملاً؛ لأن كمال الوجود الإنساني هو الإنسان الواحد نفساً وجسداً.

يقول القديس كيرلس الكبير عن تجسُّد الابن له المجد:

"وُلِدَ من امرأة كإنسان، وهذا لا يعني أبداً أنه فَقَدَ ما له، وعندما جاء إلى اللحم والدم ظلَّ الإله بالطبيعة والحق" (الخطاب الثالث لنسطور فقرة ٣٥).

وفي الخطاب ليوحنا الأنطاكي فقرة ٩ يقول:

"الله لا يتغير ولا يتبدل، ونحن جميعاً نعترف بأن الكلمة الله لا يتغيَّر، وحتى في سر التدبير الفائق الحكمة، هو (المسيح) ينسب إلى نفسه الآلام التي حلَّت بجسده (١ بط ٤: ١)، هو يحمل هذه الآلام في جسده حسب التدبير الذي ارتضاه لذاته".

الطبيعة الواحدة المتجسدة Mia Physis

الطبيعة هي الكيان. هي الوجود. الطبيعة هي الحياة الواحدة غير المنقسمة إلى كائنين في صلة أو مصاحبة أو علاقة، بل في اتحاد: "طبيعة واحدة للكلمة أو أقنوم واحد إذا أردت هو الكلمة ذاته"، وهو ما يؤكده كيرلس في الرسالة الثالثة لنسطور:

"كل ما كُتب في الأناجيل هو خاص بأقنوم واحد *Prosopon* الذي اتخذ جسداً وهو أقنوم الكلمة" (فقرة ٣).

وفي الرسالة إلى رهبان مصر يقول:

"هم مثل مَن يريد يُقسِّم شعرة الرأس عندما يتحدثون عن آلام طبيعة الناسوت، لأن هذا يخدم الهدف الذي يسعون إليه، وهو فصل الناسوت عن الكلمة؛ لكي يتصور مَن يسمع، أن الخطاب هو عن اثنين وليس الواحد الكلمة من الله الآب الذي تجسد وصار إنساناً" (فقرة ١١).

ويجيء التحذير من هدم تجسد الرب في عقول المؤمنين:

"لأن الكلمة أقنومياً وحَّد كينونة الإنسان بكيانه"؛ لأنه لأجلنا ولأجل خلاصنا وُلِدَ من امرأةٍ، ولذلك قيل عنه إنه وُلِدَ حسب الجسد .. أمَّا إذا أنكرنا الاتحاد الأقنومي واعتبرناه مستحيلاً أو لا يليق، فإننا نسقط في قول بأنه يوجد ابنين" (فقرة ٦ الرسالة الثانية لنسطور).

هل منع الاتحادُ الأقنومي الموتَ؟

هل حجب الوجع والجلد والتعب والجوع، بل والحزن الشديد، وهو ما تسجّله رسالة العبرانيين: "الَّذِي، فِي أَيَّامِ جَسَدِهِ، إِذْ قَدَّمَ بِصُرَاخٍ شَدِيدٍ وَدُمُوعٍ طَلِبَاتٍ وَتَضَرُّعَاتٍ لِلْقَادِرِ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَسُمِعَ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ، مَعَ كَوْنِهِ ابْناً تَعَلَّمَ الطَّاعَةَ مِمَّا تَأَلَّمَ بِهِ. **وَإِذْ كُمِّلَ صَارَ** لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُطِيعُونَهُ، سَبَبَ خَلاَصٍ أَبَدِيٍّ" (عب ٤: ٧ – ٩). وعن ما سجَّلته الرسالة للعبرانيين يقول كيرلس في ايجاز:

"الكلمة ... اشترك في كل ما يخصنا وأخلى ذاته فصار في أيام جسده" (عب ٥: ٧) مثالاً لنا. وما هو وجه الخطأ إذا تصرف حسب المقاييس الإنسانية مثل إطالة الصلاة وسكب الدموع .." (المسيح واحد ص ٧٥).

لقد تقدم الناسوت بلا شك في المعرفة، ولهذا يقول كيرلس:

"ونحن بكل يقين نعتقد أنه في العلو الإلهي، ولكنه ظهر كإنسان، وهي حالة تستدعي الأخذ والحصول على كل الأشياء، ولذلك هو الملء الذي يعطي الكل من ملئه، ولكن عندما تجسد وصار إنساناً، صار فقر الإنسانية فقره. والمسيح حقاً هو سرٌّ عجيب مدهش، ففي صورة العبد نجد الربوبية، وفي الكيان الإنساني نجد مجد اللاهوت، والذي تحت نير مقاييس الناسوت هو في نفس الوقت يلبس إكليل اللاهوت الملوكي، والفائق الذي يعلو على الأشياء، هو في عمق الاتضاع .. ولكنه لم يبق دائماً في حالة الإخلاء، بل لكي يأخذ الذي لنا فنعرفه الإله المتجسد .." (المسيح واحد – ص ٧٢ – ٧٣)

التجسد هو اتحادٌ حقيقيٌّ بين لاهوت الله الكلمة، وناسوتٍ واحدٍ ينتمي إلينا:

يكتب القديس كيرلس الكبير قائلاً:

"من الواجب علينا أن لا ندعي وجود ابن آخر أو رب آخر غير الكلمة. والإنجيلي الحكيم قال أولاً إن الكلمة صار جسداً مؤكِّداً أن جسده سوف ينمو وفق قوانين الجسد؛ لأنه ينتمي إلى الإنسانية، ولذلك يتقدم في القامة والحكمة وأيضاً النعمة، كل هذه تسير معاً عندما ينمو الجسد في القامة حسب مقاييس الطبيعة الإنسانية. فجسد الأطفال شيء وجسد البالغين شيء آخر، والفرق هو النمو الذي يحدث للكل. ولم يكن مستحيلاً ولا غريباً أن يأتي الكلمة ... ويتنازل لكي يُقمَّط بالخِرَق التي يُقمَّط بها الرضعان. فهو قد اتحد بالجسد وجعل جسده ينمو لكي يصل إلى حد كمال القامة... وسمح تدبيراً أن تنطبق عليه مقاييس الطبيعة الإنسانية، وكل هذا تمَّ بترتيبٍ لائقٍ ليكون فعلاً مثلنا في كل شيء. وان يتقدم قليلاً إلى ما هو أعظم، حسبما تستدعي مراحل العمر، وأن تنمو القامة مع الإدراك في انسجام. والكلمة كاملٌ في كل شيء ولا يحتاج إلى النمو ولا إلى الزيادة. بل تعد وُصِفَ بهذه الكلمات لأنه جعل ما يخصنا يخصه هو، لأنه صار مثلنا ..". ثم يعود ويكرر: "الناسوت يخصُّه تدبيراً، ومع الناسوت كل ما يخص الناسوت من صفات، وهذا يمنعنا من أن نعتقد بابنٍ آخر ..." (المسيح واحد ص ٨٢ - ٨٣).

التسليم الكنسي السابق على القديس كيرلس السكندري:

إن ما يحدث للجسد هو ما حدث لله المتجسد وقبول الابن له المجد، وهكذا يشرح أثناسيوس العظيم آلام الرب:

"الإنسان لا يموت بسلطانه الخاص، بل باضطرار الطبيعة ورغم إرادته. أمَّا الرب، فلأنه هو نفسه غير مائت، ولكن لأنه أخذ جسداً مائتاً، فله السلطان كإله أن يفصل النفس عن الجسد وأن يعيدها أيضاً حينما يريد.." (ضد الأريوسيين ٣: ٥٨ ص ١٠٨).

"تألم في الجسد لكي يجعل الجسد من الآن فصاعداً غير متألم وغير مائت" (المرجع السابق ص ١٠٣).

"الأوجاع وكل الأمور الأخرى التي أتت عليه هو .. قد أبيدت تماماً" (المرجع السابق ص ١٠٣).

"حينما صار إنساناً، فقد أخذ جسداً يخاف، ولأجل هذا الجسد وحَّد إرادته الذاتية بالضعف البشري؛ لكي يبيد هذا الضعف ويعطي للإنسان أن يكون شجاعاً أمام الموت .." (ضد الأريوسيين ٣: ٥٧ ص ١٠٠ – ١٠١).

أباد الموت بالموت (ضد الأريوسيين ٣: ٥٧):

الموت حقيقةٌ لا يمكن أن تغيب، وواقعٌ مؤلم، والموت لا يُباد من الطبيعة الإنسانية بفكرة؛ لأنه -كمرضٍ- لا يُعالَج بالكلام ولا بالوعظ ولا بالفكر، بل مثل كل مرضٍ يعالَج بدواء يقضي عليه.

قَبِلَ الربُ الموتَ في جسده القابل للموت لكي يفرز من ألوهيته عدم الموت. يقبل الموت من أيدي البشر لكي يعطي الحياة.

يقول القديس كيرلس السكندري أيضاً:

"الابن الوحيد الكلمة خلصنا وأخذ شبهن؛ لكي إذا تألم في الجسد وقام من الموت يعيد طبيعتنا إلى الحياة، ويجعلها أقوى من الموت والفساد. وما حققه كان قوة وتجديداً للخليقة" (المسيح واحد ص ١٠٣).

لقد بذل الرب حياته، ولذلك يشرح القديس كيرلس الإيمان:

"من ذا الذي يستطيع أن يبذل ذاته ويعيدها مرةً ثانيةً إلى الحياة سوى الابن الوحيد بالحق، فهو الذي بذل ذاته وأعادها مرةً ثانيةً إلى الحياة وجعلها فوق سلطان الموت" (المسيح واحد ص ١٠١).

الطبيعة الإنسانية تحولت فيه:

"هو يُدعى آدم الثاني لأنه جاء من نسل آدم الأول حسب الجسد، وصار البداية الثانية (الجديدة) للذين على الأرض؛ لأن الطبيعة الإنسانية تحوَّلت فيه إلى الحياة الجديدة، حياة القداسة وعدم الفساد بالقيامة من الأموات" (المسيح واحد ص ١٠٠).

ولكن ذلك يجب أن نراه باستقامة، أي بأرثوذكسية؛ لأن:

"كيف أمكننا أن نقول إن سر تدبير تجسد الابن الوحيد قد أعان الإنسانية ... ما لم يصر جسده هو جسد الحياة الذي خضع للفساد؛ لكي نصبح نحن فيه أقوى من الموت والفساد" (المسيح واحد ص ٨٨).

فقد كانت حالتنا نحن هي التي استدعت هذا التنازل، وأن يأتي آدم الثاني الذي من السماء (١كو ١٥: ٤٧) .. لكي يحررنا من الدينونة. يقول كيرلس:

" .. لأنه لم يفعل خطية؛ فكسبت الطبيعة الإنسانية غنى عدم الفساد، وصارت بلا لوم، وهو ما يجعلها قادرة على أن تصرخ بكل جرأة "إلهي إلهي لماذا تركتني" (متى ٢٧: ٤٦) ... لماذا صدرت عنه هذه الكلمات؟ لأنه صار كواحدٍ منّا، ونائباً عن الإنسانية، فقال هذه الكلمات؛ لأن الإنسان الأول تعدَّى وسقط في عدم الطاعة ولم يسمع الوصية التي أُعطيت له .. فصار أسيراً للتعدي ولذلك بكل حق أُخضع للفساد والموت، ولكن الإبن صار البداية الجديدة على الأرض ودعي آدم الثاني" (المسيح واحد ص ٧٨).

جبل طابور – جبل التجلي

سبق تجلي الرب موته وقيامته. وحسب التدبير لا يمكن للزمان فرض شرحٍ أو تأويلٍ على شخص المخلص:

أولاً: لأن الرب يسوع ليس بشراً ساقطاً تحركه وتسود عليه طبيعة تتحكم في إرادته وتحركه وتسوقه كما يحدث لنا نحن البشر. حقاً أخذ الرب الطبيعة الإنسانية الساقطة لكي تتحول فيه أي في أقنومه من الموت إلى الحياة، ومن الفساد إلى عدم الفساد، ولكن هذا التحول يتم **حسب التدبير**، أي يأخذ قوته من إرادة وحرية اختيار وحياة الأقنوم الإلهي. خضوع الرب لحياتنا نحن ليس خضوع الأسير، بل هو خضوع طاعة حر. حتى الطبيعة المائتة التي أخذها وماتت، لا تحكم إرادته حسب كلمات الرب نفسه: "لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها"، بل أضاف الرب ما يُسكِت غباوة العقل المستعبد: "ليس أحدٌ يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي" (راجع بدقة يوحنا ١٠: ١٧–١٨). لم يكن أحد قادراً على أن ينزع حياته، أي حياة يسوع لا اليهود ولا الرومان، ولكنه هو الذي "من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب مستهيناً بالخزي فجلس في يمين عرش الله" (عب ١٢: ٢).

ثانياً: وسلطان الموت نافذ علينا، بل كما تقول كلمات الحق في القداس الإلهي: "هذا الذي كُنّا ممسكين به مبيعين من قِبَل خطايانا"، وهو ما لا ينطبق على يسوع بالمرة لأن حريته من الموت ليست فقط بسبب حريته من الخطية، فهو "بلا خطية" وبلا عبودية للموت، ولكن لأنه الحياة حسب قوله الإلهي، وهو الذي يقول: "أنا هو القيامة والحياة"، ولذلك عندما أذاع رسوله بشارة الخلاص يوم العنصرة قال: "الذي أقامه الله ناقضاً أوجاع الموت إذ لم يكن ممكناً (للموت) أن يُمسك به" (أع ٢: ٢٤).

وعندما ينقض أوجاع الموت فهي ليست الآلام وحدها، بل الفساد وتحلل الجسد، وافتراق الحياة تماماً عن الجسد، وهو ما لا يحدث لنا لأننا نعود إلى التراب في انتظار القيامة، ولكن الرب لم يرَ جسده فساداً (أع ٢: ٢٦). فكيف يجمع الرب في إنسانيةٍ واحدةٍ وحيدة المجد والهوان، الجسد القابل للموت والجسد الذي - بسببه - حتى الثياب التي كانت عليه صارت أكثر لمعاناً من نور الشمس؟

ما يجب أن نراعيه هو مناسبات استعلانات الخلاص:

لم يكن التجلي حادثاً عرضياً تم بشكل فجائي استعراضي، فهذا لم يكن بالمرة من سمات يسوع. كيف قدمت الأناجيل التجلي؟

حسب لوقا، بدأ الرب بسؤال: مَن تقول الجموع؟ ثم جاء اعتراف بطرس وقال: "مسيح الله"، ولكن الرب "انتهرهم، بل أوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد"، وشرح الرب نفسه السبب قائلاً: "أنه ينبغي أن ابن الإنسان يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ .. ويُقتل وفي اليوم الثالث يقوم" (لوقا ٩: ١٩-٢٢). المسيح الملك محرر اليهود من الرومان هو سبب انتهار الرب كما هو واضح؛ لأن المناسبة هي: ماذا تقول الجموع التي تبعت يسوع ورأت فيه المخلص السياسي والملك مثل شمشون وداود وغيره من أبطال العهد القديم. هنا صدمة وعثرة الصليب: أن يسوع المسيح سوف: يتألم — يُقتل — يقوم في اليوم الثالث.

هذا هو الحوار القصير الذي دار بشأن الاعتراف. ولكن الأمر لم يقف عند هذه النقطة الحاسمة إذ يقول الإنجيل: "وقال للجميع"، وهذا يعني الشعب والتلاميذ: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه **كل يوم** ويتبعني" (لو ٩: ٢٣)، فكيف انتقل الخطاب من الاعتراف إلى حمل الصليب كشرطٍ للتلمذة؟ لأن المسيح كان يضع التعليم والحياة معاً في وحدة واحدة لا تقبل التقسيم. وشمشون يحارِب، لكن يسوع يقول: "من أراد أن يخلص نفسه يبذلها أو يقدمها أو يهلكها. ومن يبذل نفسه من أجلي فهذا يخلصها"، ثم يأتي

الإنذار: "ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك (خسر) نفسه". وبقوة تجرف كل طياشة الفكر: "لأن مَن استحى بي وبكلامي فبهذا يستحي ابن الإنسان متى جاء بمجده ومجد الآب والملائكة القديسين". وجاءت مناسبة استعلان المجد: "حقاً أقول لكم إن من القيام ههنا قوم لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله. وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب .." (لوقا ٩: ٢٥-٢٨).

المناسبة هي:

- الاعتراف.

- الصلب الذي يلوح في الأفق.

- الموت، ثم القيامة.

ولذلك يشرح ذهبي الفم في العظة ٥٦: ٣ على إنجيل متى هذه المناسبة بالذات قائلاً:

> "لقد تجلى لكي يُعلن مجد الصليب، ولكي يعزي بطرس والآخرين الذين خافوا من خطابه عن الآلام لكي يرفع إلى فوق إدراكهم لأنهم ساروا معه خائفين وكانوا عاجزين عن الكلام عن مجده الذي سوف يكمله في أورشليم، أي آلامه ومجد الصليب".

لقد قال الرب إن الذين معه سوف يرون مجده الآتي، وهذا المجد يُستعلن لمن اختارهم. لأن التجلي كان كما ذكر لوقا عن "خروجه"، أي "خروج يسوع نفسه، الذي كان عتيداً أن يكمله في اورشليم" (لوقا ٩: ٣١)؛ لأن الصلب هو الخروج الحقيقي من عبودية الموت.

وشرح ذهبي الفم ليس قطعةً فريدةً، بل هو الشرح العام عند كل الآباء الذين شرحوا حادثة التجلي. يشرح القديس كيرلس الكبير في العظة ٥١ على إنجيل لوقا عبارات ربنا يسوع على هذا النحو:

"أقول لكم إن مِن القيام (الوقوف هنا أمامي) مَن لا يذوقون الموت .. حتى يرون ملكوت الله .. وملكوت الله هو استعلان المجد الذي سوف يُستعلن لكل أهل الأرض. هو سيأتي بمجد الله الآب وليس في تواضع حقارتنا نحن .. لقد صعد إلى الجبل وتجلى ببهاءٍ إلهيٍ فائقٍ حتى أن ثيابه أضاءت بنور ونار .. وظهر معه موسى وإيليا وتكلما معه عن خروجه الذي سوف يكمِّله في أورشليم. هذا يعني سر التدبير في الجسد والآمه المجيدة على الصليب".

ومع هذا البهاء كما يلاحظ جيروم في شرح إنجيل متى لم يفقد يسوع إنسانيته، ولا شكله رغم البهاء الذي سطع منه (شرح إنجيل متى ٣: ١٧)، فقد قُبض عليه في البستان وجُلد وصُلب ومات، ويبقى سر التدبير كما يقول العلامة أوريجينوس مخفياً عن الذين يطلبون يسوع الإنسان فقط، أمَّا الذين يصعدون مع يسوع على الجبل، هؤلاء يرفع يسوع إدراكهم لكي يعاينوا مجده (شرح انجيل متى ١٢: ٣٧).

حتى لا نعثر في سر التدبير:

١- يجب أن لا نضع الرب تحت أحكام الزمان، وما تأتي به أحداث معينة هو صانعها ولم تُفرض عليه. يسوع ليس ضحية شغب جموع، بل كاهن وذبيحة. يسوع ليس مجرد بشر تسوقه أحداث التاريخ، بل هو رب التاريخ وسيده. هو ليس **محصلة** اتحاد طبيعتين تعملان حسب مقاييس، بل هو الأقنوم الذي وحَّد في كيانه الطبيعة الإنسانية معلِناً فيها على مراحل ما سوف تؤول إليه حسب تدبيره الأزلي.

٢- يحفظ الرب ناسوته بشراً كاملاً بكل ما في هذه الكلمة من حقائق: الوجع – العذاب – الدموع – الصراخ – الخوف – الحزن – ثم الموت. هذه هي السمات التي يجب أن **تتحول فيه** هو أولاً كباكورة أو آدم الجديد إلى سمات المجد والقوة والعزة والبهاء؛ لأن هذا هو حال الإنسانية الجديدة التي وصفها رسوله

بولس باسم: "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١) والتحول حقيقي خاضع لحرية اختيار الرب وحسب مناسبة الاستعلان.

"ما قبل وما بعد"، لا مكان له في التدبير:

١- ما قبل الولادة في بيت لحم، هي الولادة الأزلية، ومع ذلك هي قاعدة وأساس الخلاص. وما بعد الولادة في بيت لحم هو مسيرة الحياة التي تجمع بيت لحم – الأردن – البرية – الكرازة – الصلب – الموت – القيامة ... هذه كلها خاصة بالاتحاد الأقنومي بالرب الواحد الذي لا ينقسم؛ لأن الانقسام هو مأساة الخطية والموت، وكلاهما الداء الذي جاء من أجله المخلص لكي يقدم الشفاء منه والتجديد.

٢- سبق الرب وأعلن مجده قبل الصلب لكي يؤكد للتلاميذ أنهم سوف يشاهدون مجد قيامته ولن يذوقوا الموت حتى يروا ملكوت الله آتياً بقوة .. جاء الملكوت في التجلي وفي الصلب وفي القيامة وفي الصعود .. فهو آتٍ دائماً حسب قدرتنا اللغوية على التعبير، مستعلنٌ مسبقاً لكي نراه كاملاً في يوم بهاء مجد الابن الوحيد.

جاء متجسداً في تواضع لأجلنا ..

سيجيئ متجسداً في مجد لكي يعطي لنا مجده (يوحنا ١٧: ٢٢).

مُسِح في الأردن لأجلنا لكي ننال مسحته (١يوحنا ٢: ٢٠، ٢٧).

صُلِب لكي يبيد موتنا نحن، ولكي نُصلب معه ونقوم لحياة عدم موت.

قام من الأموات لكي يعطي لنا قيامة.

المحور هو نحن، لا الزمان.

المركز هو احتياجات الإنسانية، لا ترتيب الأحداث.

الهدف هو الخلاص الأبدي.

†††

على جبل طابور سطع مجدك

قبل موتك وصلبك

الصليب خزي وعار عند الهالكين

هو موت القوي في أشد حالات الضعف

بالضعف غلبت ما لا يُغلب بالقوة

سحقت الموت

كان مجدك في كيانك

يشرق حينما تريد

أشرق حتى على الجلجثة

عندما فاض نهر غفران

جرف كل خطايا البشر

أشرقت المحبة من القبر

لأنك لم تترك جسدك للانحلال

أحببتنا وأعطيت كل شيء حتى جسدك ودمك

وعند الكأس، وفي صينية القربان، تتجلى

عطية الحياة التي لا تموت

نشيد تدبير الخلاص[1]

فلنسبح الرب؛ لأنه بالمجد تمجَّد

أخذ منكِ الناسوتية

ووهبنا مجد الألوهية

وحَّدنا بذاته عمانوئيل

بميلاده الجديد من البتول

وضع سر الميلاد الجديد

وختمنا بختم العهد الجديد

بنوة سماوية روحانية

عطية إلهية أبدية

وحَّدنا الوحيدُ بأقنومه

وغلب موتنا بخلوده

أعطانا شركةً في ميراثه

وأجلسنا معه نحن أحبائه

يسوع ملك الملوك

---

(١) نشرت في أغسطس ٢٠١٥ بمناسبة عيد التجلي.

سكن في حقارتنا

رفعنا إلى مجده الإلهي

وطهَّرنا من نجاستنا

بحبه وصلاحه العجيب

أعلن لنا الفادي الحبيب

أبوة الآب أصل الكل

كمالنا بالروح القدس

أكمل لنا التدبير

ثبَّت لنا التغيير

حوَّلنا من آدم الأول

إلى كيانه الإلهي المجيد

تألَّهنا بنعمةٍ سماوية

وتمَّ فينا عهده الجديد

من تراب الأرض خلقنا

بتجسده فدانا

بأقنومه الإلهي وحَّدنا

مسحنا كما مُسح

رتَّب المائدة الإلهية

طعام القيامة

مذاق الحب الأزلي

خلاصنا وثباتنا

يا يسوع الساكن في قلوبنا

خلي القلوب تصحى بنورك

وتنور بنعمة حلولك

يتجلى جسدنا كما تجليت

على طابور وأعلنت

مجد قيامتنا فيك يا حبيب

تجلِّي ربِّنا يسوعِ على جبل طابور(١)

الخلفية الكتابية:

ليس هذا حدثاً عابراً، فقد ذكر الإنجيلي مرقس (٩: ٢) أن الرب تجلى "بعد ستة أيام". وفي سفر الخروج (٢٤: ١٦) حلَّت سحابة المجد الإلهي "شاكيناه" لمدة ستة أيام، وهو انقضاء الخلق الأول الذي تمَّ في ستة أيام لكي يستعلن المجد الإلهي. جبل طابور هو الاسم الذي ورد للحضور الإلهي في (مزمور ٨٩: ١٢). حيث سوف يسبح الجبل نفسه اسم الرب "تابور وحرمون باسمك يهتفان"، وهنا يتجلى الرب بحضور المجد الإلهي بشكلٍ جديد، فهو ليس على جبل سيناء، ولا حول خيمة الاجتماع، بل على آدم الجديد الإنسان الثاني.

التجلي حسب نص الإنجيل هو metamorphosis من الكلمة اليونانية μεταμορφωθη وقد وردت في العهد الجديد في (رو ١٢: ٢ – ٢كو ٣: ١٨ – في ١٧: ١٢)، وهو يعني تغيير الشكل والصورة المرئية، وهو المقصود بالتعليم الرسولي: "لا تشاكلوا هذا الدهر. بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم" (رو ٢: ١٢)، فهو تجلٍّ وتغيير سوف نشترك فيه برؤية الرب نفسه: "ونحن جميعاً بوجه مكشوف ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح" (٢كو ٣: ١٨)، فهو المجد الإلهي الذي سوف يُستعلَن لنا في المسيح ويُوهب لنا لأننا سنراه كما هو (١ يوحنا ٣: ٢).

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في عيد التجلي ٢٠١٦.

"المجد" هو أحد علامات الحضور الإلهي الذي صار يدعى "الشاكيناه" في التسليم الأرامي، الترجوم، حيث تُرجِم النص العبراني (لاو ٢٦: ١٢) "أسير بينكم" إلى: "سوف أجعل الشاكيناه تحل عليكم"[١].

وشركة المجد الإلهي التي طلبها الرب في (يوحنا ١٧: ٥ و١٧: ٢٢) هي شركة الحضور في الآب؛ لأن المجد الإلهي هو الله نفسه مُستعلَناً بجمالٍ وصلاحٍ فائقين.

على الجبل كان يسوع وحده، بعد أن ظهر موسى وايليا (لوقا ٩: ٣٠-٣٢). وقيامة المسيح أعلنت ذلك المجد؛ لأن الله "أقامه من الأموات وأعطاه مجداً حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما في الله" (١بطرس ١: ٢١).

"ثيابُه تلمع"، والنور الإلهي:

كان وجه موسى يشعُّ بالنور الإلهي بعد استعلان الله، ولكن الآن "مجد الله يُستعلن في وجه προσωπω (شخص) يسوع المسيح" (٢كو ٤: ٦)، فقد انتهى عهد موسى، ولكن لمعان الثياب يؤكد لنا أن مجد المسيح ليس مجداً خفياً، بل هو مجدٌ مستعلَنٌ يجعلنا نفكر أيضاً في الجسد السمائي الذي أشار إليه الرسول في (١كو ١٥). كل من يقترب من المجد الإلهي، يلمع بالنور الإلهي، حتى الملائكة (متى ٢٨: ٣) كان منظر ملاك الرب (ميخائيل حسب التسليم الكنسي) "كالبرق ولُباسه أبيض كالثلج".

يقول القديس ايريناوس في تجلي الرب:

> "لكي يكون متقدماً[٢] في كل شيء وله السيادة على الكل ما على الأرض،
> صار "البكر من بين الأموات" ... لكي ترى كل الكائنات ملكها (يسوع)،
> ولذلك أُعطى نور الآب واستقر على جسد ربنا ومنه وصلنا من جسد

([1]) A. M. Ramsey. The Glory of God and the Transfiguration of Christ, 1949, p18-20.

(٢) أعطاه مجداً جعل المتجسد يدخل الحضور الإلهي كوسيط حي إلى الأبد بقوة حياة لا تزول (عب ٧: ١٦)، وهو ما يجعل الاعتراف بالرب هو لمجد الله الآب (فيلبي ٢: ٦-٨)، بل صار صعود الرب، حيث يقول الرسول: "رُفِعَ في المجد" (١تيمو ٣: ١٦)، هو تأكيد ليس على نوال الابن الاله للرفعة، بل نوال الابن الإله المتجسد.

مجده؛ حتى بهذا ينال الإنسان الخلود لأنه لبس نور الآب" (ضد الهرطقات ٤: ٢٠ - ٢).

وبعد ذلك يذكر القديس ايريناوس عدم قدرة الإنســـان على أن يرى الله بالقدرات الجسدانية المخلوقة، فيقول:

"ولكن الروح سوف يؤهِّل الإنسان في ابن الله، وابن الله سوف يقوده إلى الآب، والآب سوف يمنح عدم الفساد لحياة أبدية تُوهب لكل مَن يرى الله؛ لأن كل مَن يرى النور هم في النور يشتركون في بهاء النور؛ لأن الذين يرون الله، هم في الله، وينالون بهاء الله، وهذا البهاء يعطي لهم الحياة" (ضد الهرطقات ٤: ٢٠: ٥ - ٦).

لمحات من آباء الكنيسة الجامعة

العلامة أوريجينوس: "المسيح هو النور":

"كما أن الشمس والقمر ينيران حياتنا الجسدانية، هكذا أيضاً ينير المسيح والكنيسة الحياة العقلية. ولكننا نستنير إذا لم يكن لدينا عقل البشر العميان، لأنه رغم أن الشمس والقمر يشرقان بالنور، إلا أن العميان الذين فقدوا البصر الجسداني لا يقدرون أن يبصروا النور. أما المسيح، فهو يشرق بنوره، إذا لم نسمح للعمى العقلي أن يكون مانعاً ... لأننا نقبل النور منه، وعند ذلك نستطيع أن نلمع ببهاءِ النور" (عظة ١: ٧ على سفر التكوين).

كيف تجلى على الجبل:

"ربما سوف تسألون: عندما تجلى يسوع على الجبل، هل ظهر أمام التلاميذ في صورة الله (فيلبي ٢: ٦) التي كانت له قبل تجسده؟ ... لقد "تجلى أمام تلاميذه"، وهكذا يمكن أن نقول إن المسيح قد يتجلى أمام بعض البشر ولا يتجلى بالنسبة لآخرين، فإن أردت أن تعرف من هم، وكيف تجلى يسوع أمام الذين أخذهم هو معه إلى الجبل، عليك أن ترى يسوع معي في الأناجيل؛ لأننا نستطيع من الأناجيل أن نعرفه، ونقول" "عرفناه حسب الجسد" (٢كو ٥: ١٦). أما الذين لا يذهبون معه إلى الجبل، وأنا أعني أن يرتفعوا فوق الكلمات والأحداث، فهؤلاء لا يعرفون المسيح حسب الجسد (مجرد بشر) من الأناجيل؛ لأنهم سوف يعاينون أُلوهيته في صورة الله حسب معرفتهم. أمام هؤلاء، سوف يتجلى يسوع، وليس أمام الجالسين

أسفل الجبل. وعلى الجبل سوف يشرق وجهه، ويتجلى بنورٍ مثل نور الشمس لأنه هكذا يُستعلَن لأبناء النور الذين خلعوا أعمال الظلمة ولبسوا أسلحة النور ولم يعودوا بعد أبناء الظلمة، بل أبناء النور، وصاروا أبناء النهار" (رو ١٣: ١١-١٣).

أمَّا ثياب المسيح، فهي أقوال يسوع المنتشرة في الأناجيل، والتي لبسها هو نفسه (مقتطفات من شرح انجيل متى ١٢: ٣٦-٤٣).

باسيليوس الكبير:

"مَن هو صالح ويفوق كل حدود المعرفة وذكاء الإنسان وقدراته، لا يمكن تأمله إلا بالعقل وحده. عَرِفَ التلاميذ جماله الإلهي عندما شرح لهم الأمثال، أما الذين دُعُوا دعوةً خاصةً وهم بطرس وابني الرعد، فقد عاينوا جماله على الجبل عندما أشرق بشكل يفوق لمعان الشمس" (عظة على مزمور ٤٤: ٥).

غريغوريوس الثيئولوغوس:

"بعد أن قدَّم أمثلةَ ظهور النور الإلهي في العهد القديم من اليوم الثالث عندما قال الله: "ليكن نور"، إلى النور المشرق في الوصايا الإلهية (مزمور ١١٩: ١٠٥)، حتى ظهور نور مجد الرب في العهد الجديد عند بشارة الرعاة يقول: كان هناك نورٌ في عمود النار. والنور رفع إيليا في المركبة النارية ولم يحترق. والنور أشرق حول الرعاة لأن النور الأبدي اختلط بما هو زماني، وكان نور النجم الذي أشرق في بيت لحم وقاد المجوس. النور هو نور الأُلوهة الذي أشرق على الجبل للتلاميذ .. ونورٌ أشرق لبولس وشفى نفسه من العمى بعد أن عميت عيناه ... والاستنارة في المعمودية هي نورٌ خاص، وهو الذي نتكلم عنه الآن؛ لأنه النور العظيم الفائق لسر خلاصنا" (مقالة ٤٠: ٥-٦).

ذهبي الفم في رسالة إلى المرتد ثيئودور:

"لكي يظهر لك أن كلماتي ليست صرخات فارغة وبلا معنى، لنحول عقولنا إلى الجبل حيث تجلى المسيح، ولكي ننظره مُشعًّاً بالنور. هو هنا في الزمان الحاضر لم يعلن لنا بهاء الحياة الآتية. كان البهاء الذي استُعلِن هناك على الجبل تنازلاً، ولم يكن التجلي الكامل لما سيكون (في المستقبل). هذا واضح من كلمات الإنجيلي. ماذا يقول؟ كان يضيء بلمعانٍ مثل الشمس، ولكن مجد الأجساد عديمة الفساد لا يشع بنور مثل نور الأجساد الفاسدة؛ لأن هذا المجد يفوق قدرة العيون الخاضعة للموت. أما العيون غير الفاسدة والخالدة، فهي ضرورية لرؤية (هذا المجد).

على الجبل استُعلِن ما يمكن رؤيته، حتى لا يصابون بعمى العيون إذا شاهدوه ... أما عن الملك فلا يوجد أحد يمكنه أن يصفه؛ لأن جماله، ومكانته، وبهاء مجده العظيم يفوق كل حديثٍ وفكر. لذلك خبِّرني: هل سوف نخسر هذا لكي نتفادى في هذا الزمان القصير العناء والألم؟ لو كان لنا ان نحتمل ألفَ موتٍ كل يوم، ولا نار جهنم؛ لكي نرى المسيح آتياً في مجده، وأن نُحسَب ضمن جماعة قديسيه" (مجلد ٤٧: ٩١).

القديس كيرلس الكبير:

"علينا أن ننظر بدقةٍ إلى التدبير الفائق الجمال الذي رتَّبه ربُّنا يسوع المسيح من أجل منفعة ونمو تلاميذه القديسين. قال لهم: "إذا أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني، لأن من يرغب في أن يخلِّص نفسه يفقدها ولكن من يضحي بحياته لأجلي يجدها" (لوقا ٩: ٣٣). وهذا التعليم عن خلاصنا هو التعليم الذي يناسب القديسين؛ لأنه يُعدُّهم للمجد السمائي، ويجعل نصيب القلب هو الفرح .. ولكي يهيئ الرب فهمهم وكلامهم ويعيد تكوينهم كرجالٍ شجعان، ألهم تلاميذه بالرغبة في

المجد وقال لهم: "أقول لكم إنه منكم الواقفين هنا لن يذوقوا الموت حتى يروا ملكوت الله". وبالتأكيد، لم يكن يقصد أن أعمار هؤلاء ستطول حتى يدركوا نهاية الأزمنة، عندما ينزل من السماء ويعيد الملكوت للقديسين لأنه أعدهم لذلك ... لكن الملكوت الذي كان يقصده هو رؤية المجد الذي سوف يعاينون فيه (الرب) عندما يُشرق على بني البشر الذين على الأرض. سوف يأتي في مجد أبيه ولن يكون في فقر الإنسانية، فهل يمكننا أن نرى كيف أعلن هذا (المجد) الفائق للذين قبلوا موعده؟ عندما صعد إلى الجبل، أخذ معه ثلاثة رجال اختارهم من ضمن (تلاميذه)، وهناك على الجبل تجلَّى بشكلٍ فائقٍ ونورٍ إلهيٍّ حتى أن ثيابه كانت تضيء عندما لمست النور. عند ذلك ظهر موسى وايليا يتكلمون كلٌّ مع الآخر عن خروجه الذي سوف يكمِّله في أورشليم" (لوقا ٩: ١١). هذا هو سر تدبير الجسد والآلام المخلِّصة التي تمَّت على الصليب المكرم". (عظات متنوعة العظة ٩ مجلد ٧٧: ١٠٠٩-١٠١٠).

لماذا ظهر موسى وايليا؟

يجيب القديس كيرلس على هذا السؤال مؤكِّداً أن الشريعة كانت ظلال الحقيقة (عب ١٠: ١)، فيقول:

"ولكن لكي يستعلِن أن الشريعة والأنبياء كانوا يخدمون ربنا يسوع المسيح، وهم سبقوا وكانوا ظلالاً. وهارمونية الشريعة والأنبياء كانت قد سبقت استعلان الرب؛ لأن كلمات الأنبياء لم تكن ضد الشريعة، ولذلك السبب -كما أعتقد- أن موسى المقدَّس جداً، وأن إيليا أعظم الأنبياء، كانوا يتحدثون كلٌّ مع الآخر. وسببٌ آخر، وهو أن بعض اليهود كانوا يقولون إن إيليا أو واحداً من الأنبياء مثل أرميا قد عادوا للحياة؛ لذلك جاء الرب بموسى وإيليا معاً لكي يعلن الفرق بين السيد والعبد. ويوجد أمرٌ آخر، وهو أن اليهود كانوا يشتكون على الرب بأنه يتعدَّى الشريعة، بل اعتبروه

مجدِّفاً، إذا أعلن عن مجده الذاتي الذي يليق به، وهو ذاته مجد الآب، ولذلك قالوا: "هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت" (يوحنا ٩: ١٦). وقالوا أيضاً: "لا نرجمك لأجل عملٍ صالحٍ، بل للتجديف؛ "لأنك وأنت إنسان جعلت نفسك إلهاً" (يوحنا ١٠: ٣٣). ولكي يعلن أن هذه الاتهامات جاءت من البغضة، وأنه كان بريئاً من كل هذه الاتهامات؛ لأنه لم يتعدَّى الشريعةَ، ولا نسبَ المجدَ لنفسهِ، المجد الذي يليق به عندما قال: إنه مساوٍ للآب، فقد أحضر معه (على الجبل) الاثنين الذين تفوَّقاً على الكل في حفظ الشريعة وتعليم الأنبياء. كان موسى هو الذي أعطاهم الشريعة، وكان اليهود يفهمون أن يسوع لم يرذل الشريعة ولا سخر منها حسبما ظنوا، ولا هو كسر الشريعة[١] ولا هو اتبعها ... أما إيليا، فقد امتلأ من الغيرة على مجد الله، فلو كان المسيح يعلم تعليماً مضاداً لله عندما قال إنه الله، ومساوي للآب، بينما هو لم يكن إلهاً، بل كان بالفعل الإله الذي فعل كل شيء حسب الألوهة، ولذلك جاء إيليا ووقف معه؛ لأنه كان خاضعاً ليسوع. وبالإضافة إلى ما ذُكِرَ يوجد أمرٌ آخر، ما هو؟ لقد جاء موسى وإيليا لكي يعلِّم التلاميذ أن المسيح له قوة الحياة والموت ويملك على الذين هم فوق وعلى الذين هم أسفل[٢]، لأنه يستعلَن أمام الأحياء ويُحضِر الذين ماتوا. وعندما ظهر موسى وإيليا لم يكونا صامتين، بل تكلما عن مجده الذي سوف يكمل في أورشليم في آلام الصليب، وهو يعني أيضاً القيامة" (المرجع السابق).

حالة التلاميذ وهدف التدبير:

"لقد دخل التلاميذ حالة نعاس هنا لأنهم استرخوا عندما كان يسوع نفسه يصلي. والتدبير يكمل احتياجات البشر؛ لأنهم عندما انتهوا من النوم،

---

(١) كسر الشريعة معناه أن يُعلم بما هو ضد الشريعة مثل إباحة الزنى أو القتل أو الشهادة الزور أو احتقار الوالدين.
(٢) السماء والأرض.

فقد استطاعوا أن يعاينوا هذا الحدث المجيد والتجلي الفائق. وربما ظنوا أن زمان ملكوت الله قد جاء. وبطرس العظيم كان فرحاً، ولذلك تحدث عن ثلاث مظال سوف يعملها على الجبل. لم يكن يفهم ماذا يقول؛ لأن ما حدث على الجبل، لم يكن هو نهاية الدهور، ولا في هذا الزمان الحاضر سوف ينال القديسين نصيبهم ورجاء حياتهم الذي وُعدوا به كما قال بولس: "الذي سوف يغيِّر جسد تواضعنا (ويجعله معادلاً لجسد مجده)" (فيلبي ٣: ٢١)، أي مجد المسيح وليس أقل. هنا على الجبل، كان التدبير في بدايته، ولم يكن قد كَمُل بعد؛ لأنه كَمُل عندما استطاع المسيح الذي جاء إلى العالم بسبب محبته، وأن يجدد حسب رغبته في أن يتألم من أجل العالم، وأن يعاني الموت حسب الجسد ويحرره بالقيامة من الأموات[١]. ولذلك لم يكن بطرس يفهم ماذا يقول. وبالإضافة إلى هذا الاستعلان الفائق والعجيب، وهو رؤية مجد المسيح، فقد حدث أمرٌ ضروري نافع لكي يثبِّت إيمان، ليس فقط التلاميذ، بل نحن أيضاً، فقد جاء من السحاب صوتُ الله الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا". وعندما سُمع هذا الصوت يتكلم عن يسوع، كان يسوع قد وُجِدَ وحده.

فماذا يقول اليهود صَلِبو الرقبة عن هذه الأمور؟ ومَن الذي لا يجد فيها هدايةً .. لأن العصاة لن ينالوا تعليماً سليماً" (المرجع السابق).

معنى نداء الآب:

"في حضور موسى وإيليا يقول الآب: "له اسمعوا"؛ لكي لا يسيء أحدٌ فهم النداء، وأن الآب أمرهم بطاعة موسى وليس المسيح مخلصنا. لكن، لذلك كان من الضروري للإنجيلي أن يسجِّل هذا النداء، وأن يؤكِّد أنه عندما جاء الصوت، كان يسوع وحده. وعندما أمر الله الآب من السحابة

(١) هذه عبارة تمنع كل ما يُقال عن دفع الفدية، فقد كان جسد يسوع هو أول جسد تم تحريره من فساد الموت (راجع اثناسيوس ضد الأريوسيين ٢: ٦١).

التلاميذ القديسين قائلاً لهم: "له اسمعوا"، كان موسى قد اختفى، ولم يكن إيليا حاضراً، وكان يسوعُ على الجبل وحده. وهكذا أمرهم الله أن "يسمعوا له"؛ لأن المسيح هو غاية الشريعة والأنبياء. ولذلك السبب تكلم مع الشعب اليهودي بهذه الكلمات: "إن كنتم تؤمنون بموسى فآمنوا بي لأن موسى كتب عني" (يوحنا ٥: ٤٦)" (عظات متفرقة ٩: مجلد ٧٧: ١٠٠٩ – ١٠١٦).

التجلي وقيامة الجسد:

في العظة ٩ على إنجيل لوقا (مجلد ٧٢: ٦٥٣–٦٥٦) يذكر القديس كيرلس الكبير:

"عندما سمع التلاميذ أن الجسد سوف يقوم من الموت، لم يعرفوا، ما هو الشكل الذي سوف يؤول إليه الجسد، لذلك غيَّر (الربُّ) جسدَه الخاص لكي يعطي مثالاً على التحول الذي سوف يحدث للجسد، ويثبِّت رجاؤنا، ولذلك تجلى أمامهم. إن إيماني أن هذا التجلي لم يحدث لأن الرب نزع جسده، بل بالحري ألبسه المجد الذي غيَّر ما هو دنيء في الجسد إلى ما هو أبعد في الكمال عن الشكل (الطبيعي)، كما قال بولس الإلهي في صياغة جميلة: "يُزرع في هوان ويُقام في مجد" (١كو ١٥: ٤٣). والآن الجسدُ عارٍ ولم يلبَس بعدُ أيَّ مجدٍ أو بهاء في شكله الطبيعي. الجسد ليس له أكثر من الغموض الذي يحيط بضعف طبيعته، ولكن في زمان القيامة، سوف يتم تحوُّلٌ إلهيٌّ إلى مجدٍ، وليس فقط تغيير في الشكل. وعندما يلبَس الجسدُ المجدَ الإلهي ويشعُّ بالنور، عند ذلك، "يضيء الأبرار مثل الشمس في ملكوت الآب" (متى ١٣: ٤٣)، كما قال المخلص. وهكذا نرى التجلي كمثالٍ لذلك المجد الذي سيأتي الذي استُعلِن للتلاميذ، وهم بعد في حياتهم الجسدانية، وخاضعين لمجال رؤية العيون الخاضعة للموت. ولذلك، لم يحتملوا رؤية البهاء الفائق".

القسم الرابع

لأجلنا ولأجل خلاصنا

التجسُّد،

العقيدة، والاستعلان الكامل والأخير[1]

جذور التجسُّد

يقول الرسول بولس: "الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين" (عب ١: ١ – ٢). قديماً تحدث الله عن نفسه ومع الإنسان وكشف للإنسان خباياه وأعلنه بما يحقق له منفعة حياته ويقوده إلى الحياة الإنسانية الحقيقية. فالوحي وظهورات الله في العهد القديم، ليست إعلانات عن الله وحده، وإنما هي إعلانات عن الإنسان أيضاً، لأن الإنسان الذي يرى ويسمع كلمة الله، إنما يتغيَّر إلى العلاقة الجديدة التي يطلبها الله. الإعلان والظهورات تنقل الإنسان من العصيان والخطية إلى الطاعة والقداسة وإلى معرفة الله.

لقد دخل الله دنيا الإنسان بقدرته الفائقة على تغيير الحياة، هذا الدخول يتم في إطار سيادة الله على الخليقة كصانعٍ لها، فالله لا يتدخل في حياة الكائنات كمتطفلٍ، بل كصاحبٍ ومالكٍ وواهبِ عطية الوجود؛ لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد (أع ١٧: ٢٨). وعندما دخل الله الحياة الإنسانية، احتفظ بأُلوهيته كخالق، وعندما تجسَّد في العهد الجديد، وُصِفَ الخلاص بالخلق الجديد في يسوع المسيح،

---

[1] مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٠ يناير ٢٠٠٨.

فالله يتحدث عن نفسه كخالق أو جابل أو بارئ، وهي الأسماء التي أُطلِقت على الله في العربية والعبرية. فالله خالق وجابل؛ لأنه أتى بكل شيء من العدم، وبارئ؛ لأنه كوَّنَ وصَنَعَ، وهذه صورة واضحة يراها الإنسان في أعماق حياته عندما يشعر بحضور الله، وبقدرته المبدِعَة التي لا يمكن أن يدركها الإنسان.

الله الخالق والمخلِّص

لقد وصَفَ الله نفسه عدة مرات بأنه خالق الإنسان وصانع السموات والأرض، لكن قلما ننتبه إلى أن هذه الأحاديث الإلهية تأتي في مجالٍ واحدٍ، وهو عمل الخلاص وتدخُّل الله في التاريخ من أجل الضعفاء والخطاة. تلك هي الصورة الواضحة في الأنبياء، وبشكلٍ خاصٍّ عند أشعياء، حيث يصل القلق بالإنسان إلى ذروته، فالإنسان معرَّضٌ للفناء بواسطة إنسانٍ مثله، والصراع الحاد العنيف يجعل وجود الإنسان في خطر؛ لأن الصراع هو صراعُ شعوبٍ وممالك ... عند ذلك يتحدث الله ... يقف كديانٍ عادلٍ يُدين كلَّ الأطراف، ونادراً في العهد القديم، ما ترى الله يتدخل لمصلحة شعب ضد باقي الشعوب. هذه نظرة جزئية غير كاملة، وإلَّا كيف نفهم نبوة لأرميا حيث يصف الموت والدمار والهلاك؟ فقد دُعِيَ أرميا نبياً لكل الشعوب (١: ٤)، بل "ومد الرب يده ولمس فمي وقال لي الرب ها قد جعلت كلامي في فمك. انظر قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك" (١: ٩)، وتأتي النبوة ضد العاصية إسرائيل (٣: ٦)، ثم يتنبأ بحصار وسقوط أورشليم (إصحاح ٤ كله).

الله الدَّيان العادل يحكم، وكما يقول المزمور: "نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوبٌ تحتك يسقطون. كرسيك يا الله إلى دهر الدهور، قضيب الاستقامة قضيب ملكك" (مز ٤٥: ٥-٦)، والحديث هنا ليس عن شعبٍ معيَّنٍ، وإنما عن الإنسانية المتصارعة التي قد يغلب فيها شعب، ولكن الله لا يسمح في النهاية بأن يكون إنسانٌ ما، أو شعبٌ ما عبداً لشعب آخر ... هذا هو العهد القديم كله.

لكن لماذا يتدخل الله كدَّيان؟ أليس لأنه الخالق ... وهذا ما يجعل لدى الله التزامٌ من نحو الخليقة، فهو لا يكتفي بما أعطى من شريعة، وإنما هو يمسك بمسار الحياة كله.. والكتاب المقدس بعهديه لا يعرف صورة الله الذي يحكم بالشريعة والناموس فقط، فهذه صورة القاضي من البشر الذي يطبِّق القانون بالعدل، دون أن يشعر بأيٍّ من المتهمين ينتمي إليه، هذه ليست صورة الله الحقيقية. حقيقةً إن واضع الشريعة هو أول من يحترم الشريعة، ولكنه في نفس الوقت، هو الخالق الذي يرى كل حياة الإنسان، ويعرف مقدَّماً أن الشريعة لا يمكنها أن تُصحح الحياة وتقدمها، وإنما، كما قال الرسول: إن الشريعة قد أُضيفت بسبب التعديات.

وهكذا، فإن الذين يرون الله عادلاً فقط في العهد القديم، وأنه غيَّرَ منهجه وأدخل الرحمة في العهد الجديد، إنما يقدِّمون حكماً جائراً فيه خللٌ كثير. فالرحمة الإلهية تأخذ مكاناً بارزاً في العهد القديم، وهي رحمةُ الخالق التي تأخذ شكلها الروحي الواضح في كلمة متواترة على صفحات أغلب أسفار العهد القديم، وهي كلمة "الخلاص". فكيف يمكن أن يكون الله هو المخلص وهو عادلٌ فقط، وقد أجَّل الرحمة إلى مجيء العهد الأفضل؟ هذا سؤالٌ يندرُ أن نفكر فيه؛ لأننا تصوَّرنا الفصل بين العهدين على نحو غير سليم، لكن عندما يتمسك الله بالناموس، فإنه يتمسك به كله، فقد كان يمارس دوره كملك يملك مصائر كل الخليقة، وكان يفعل ذلك كمخلصٍ وديانٍ في نفس الوقت. وهنا، فإن الدينونة ليست هي الفصل في قضية في المحكمة، وإنما الدينونة تأخذ أحياناً شكل الخلاص عندما يتدخل الله لكي يعطي معونةً للمسحوقين، وهو يفعل ذلك بالرحمة الإلهية التي تنبع منه كخالق. لقد أعطى الله الشريعةَ للإنسان، ولأنه يعرف حقيقة الخليقة، كان يرتِّب إلى تجاوز الشريعة، بمعنى أن لا تصبح الشريعة هي قاعدة العلاقة الأبدية مع الله، فالله الذي يرى كل دهور الإنسان، إنما غرس الأبدية في الحياة الأرضية المائتة وكَشَفَ عنها، والأبدية لا تقوم على شريعةٍ مهما كان نوعها وتفوقها، وإنما على عطية الحياة النابعة من الخالق، ولذلك كان دور الناموس دوراً مؤقتاً، وَصَفَه الرسول

بأنه دور المؤدِّب أو المربي حتى يأتي الكمال، وهو شريعة الحياة الجديدة في المسيح.

الله الحاضر دائماً

العهد القديم بشـــكلٍ خاصٍّ، هو كتاب "الأنا الإلهية". فالله يقول: "أنا الرب"، وهو يفعل ذلك؛ لأنه يؤكد حضوره الدائم بواسطة الكلام مع البشر. وقد نَقَلَتْ الكلمةُ الإلهية، وهي صـورة بشـرية مكوَّنة من حروف وكلمات، الحضـور الإلهي إلى حياة البشـــر. إلَّا أن العهد القديم لم يبحث في كيفية كلام الله مع الإنســان، ولا في مشــكلة اســتخدام الله للغة الإنســانية. فهذا البحثُ نابعٌ من مشــكلات فلســفية وفكرية لا وجود لها في علاقة الله بالإنســـان، وإنما اخترعها الإنســان غير المتدين الذي يرى في الخبرة الدينية مجموعة من المشـاكل الإنســانية النابعة من احتياجات الإنســـان والمعبِّرة عن آلام الإنســـان وآماله، وهذا عندما صـارت العقيدة الدينية في مدارس الفلسفة المعاصرة، مجرد أحلام وأشواق إنسانية بلا أســاس إلهي، فالله غير كائن، والكائن وحده هو الإنســان، وخبرة الإلحاد هي التي اختلقت مشـكلة اللغة الإنسـانية. وعلاقة اللغة الإنسـانية بالإيمان، لم تُبحث إلَّا في إطار غياب الله عن الحياة الإنسـانية، أو عجزه عن أن يتكلم لغة الإنسـان، ولذلك لا تظهر هذه المشـــكلة إلَّا في فترات الضـعف الروحي، وقبل العصـــور الوسطى.

إنســانُ العهد القديم كان يعلم بأن الله قادرٌ على الحديث معه كخالق، ولم يرَ في ذلك مشــكلةً، فالخالق الذي كوَّنَ الإنســان من التراب، ولم يتردد في أن يمنحه النطق والإدراك، كان يرتِّب ذلك لكي يسمعَ الإنسانَ، ولكي يتكلم هو ويسـمعه الإنســان. وفي العهد القديم، فإن فعل "سَمِعَ، ويَســمَعُ" لا ينصـب بشـكلٍ خاصٍّ على الأُذن، وعلى حركات اللسـان بالكلام، وإنما على الإدراك والوصول إلى المعنى واكتشاف القصد. والذين يسمعون كلمة الله هم الذين أدركوا ما يريده الله، ولعلنا تكون هنا أقرب إلى الصـواب إذا قلنا إن "يســمع" = "يريد"، ولذلك، فالسـمع والإرادة هما شيءٌ واحد.

لقد تهرَّأت حياة الإنسان المعاصر، وأصبح يسمع كثيراً ويدرك قليلاً، وهذا هو الذي جعل من فصل الإرادة عن السمع أو الادراك، مشكلةً معاصرة. وحديثُ الله الحاضر دائماً والذي يقول في كل مناسبة: "أنا الرب"، هو حديثٌ ذو دلالة؛ لأنه عندما يقول: "أنا الرب"، فهو يعود إلى:-

١- المواعيد التي سبق وأعطاها برحمته.

٢- الأحداث الخلاصية التي تدخَّل فيها الله، وصَنَعَها كمثالٍ يُخبِرُ بما سيتم مستقبلاً.

لقد قال الله في بداية الشريعة الموسوية: "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية" (خر ٢٠: ٢). هنا، الحضورُ الإلهي يعلِن للإنسان قدرة الله الفائقة، فقد ضَرَبَ آلهة مصر الوثنية وقضى عليها، وهذا يعني أنه حاضرٌ في التاريخ ويعلن عن ذاته في مواجهة الآلهة الكاذبة، هذا الإعلان يأخذ عدة أشكال أهمها:

١- الحَدَث

٢- الكلمة النبوية

٣- المواعيد

ومن خلال الحَدَث يعلن الله عن نفسه، فالأحداثُ أقوى كثيراً من الكلمات. فالله ليس أيسر الكلمات ... الله يصمت تماماً ويترك قدرته تعمل ما لا يمكن للكلمات أن تصنعه بدقة، وصمتُ الله هو دعوة للإنسان أن يتأمل كيف يعمل الله الكثير دون أن يعلن حتى عن ذاته، بشكلٍ مباشر.

هنا يمكن أن ندرك أن الحَدَثَ الذي يفوق الكلمات، كثيراً ما يصبح بعد ذلك حديثاً مثل الحديث الذي نراه في بداية الوصايا العشر. لقد أخرج الربُّ الشعبَ بقوةٍ وذراعٍ ممدودة: "لذلك قل لبني إسرائيل أنا الرب وأنا أخرجتكم من تحت أثقال المصريين وأنقذتكم من عبوديتهم وأخلِّصكم بذراع ممدودة وبأحكام

عظيمة" (خر ٦: ٦). ولم يكتفِ الله بذلك، بل تحدث عنه كثيراً بعد ذلك كمثالٍ للخلاص الذي يستطيع أن يحققه، وعن الخلاص الآتي في المستقبل.

فالحَدَثُ والكلمة عند الله، هما أداةٌ واحدة. قد يميِّزُ الإنسان –عقلياً– بينهما، ولكن الأمر مختلفٌ لدى الله؛ لأنه حاضرٌ في الأحداث، إذ هو "ضابط الكل". وحضور الله لا يفصل بين الكلمة والحَدَث، فكلُّ شيءٍ مكشوف وعريان عنده.

بدايات التجسُّد

لقد سبق الله وأخبرنا عن مجيئه في الجسد بأكثر من شكلٍ في العهد القديم، ولعلنا نرى –بسهولة– في هذه الأشكال الواضحة، بدايةَ الإعلان عن التجسد:

١- ظهورات الله لإبراهيم وموسى وأشعياء وغيرهم.

٢- الوحي، وهو رغبة الله في الحديث مع الإنسان، وبلغته.

٣- حضور الله في الحدث التاريخي، وتحريك هذه الاحداث لإتمام غاية الله وقصده.

غير أننا يمكن أن نرى ذلك الموضوع بشكلٍ آخر أوضح، إذا تذكَّرنا دائماً أن الظهورات الإلهية، والوحي، وأحداث الخلاص في التاريخ، ليست سوى علامات للحقيقة الروحية الواضحة وهي:

١- إن الله خالقٌ، وعليه التزامٌ من نحو الخليقة.

٢- إن الخليقةَ بدون الله تموت، وهذا هو **مضمون النعمة الإلهية**، فهي وحدها التي تجعل الكائنات حيةً. ولا فرق بين النعمة والرحمة، وإن كان الإنسان يتمتع بالنعمة الإلهية بشكلٍ آخر أعمق بكثير، فهو الذي يتقبَّلُ كلمات الله، ويدخل في العهد الذي يقدِّمه الله؛ لأنه مخلوقٌ على صورة الله، وهي العطية الإلهية التي أتاحت للإنسان أن يتمتع بالعلاقة العقلية مع الله.

٣- إن العهدَ قائمٌ، ليس بحضور الله فقط، بل بالقَسَم. وعندما يُقسِم اللهُ

بذاته، فهو يربط نفسه بوضعٍ ثابتٍ لا يمكن أن يتغيَّر في مواجهة التغيير التاريخي.

التجسد والقَسَم الإلهي

لقد أقسم الربُّ بذاته عندما وَعَدَ إبراهيم بالبركة، وقد يبدو أن استخدام كلمة "قَسَم" هو أمرٌ لا يليق بالله، وأنه لا يجوز أن نتصور الله مثل البشر الذين يُقسمون، ولكن العلاقة الكيانية بين القَسَمِ والحضور الإلهي، ظاهرةٌ بوضوحٍ، فالله الحاضر يؤكد أنه غير المتغيِّر، والذي لا تختفي رحمته بسبب خطايا الإنسان، ولذلك يُقسِم الربُّ دون أن يندم ودون أن يتراجع، وهو يعلم مسبقاً، ما سيصل إليه الإنسان من انحطاطٍ روحيٍّ. ومن هنا يظهر أن الله قد اتخذ من القَسَمِ مدخلاً لحضوره الفائق في التاريخ، ولتأكيد تحقيق المواعيد في مواجهة الإنسان الخائر العزم، الضيق الأفق، والكثير التردد بين الخير والشر. فالقَسَمُ هو بداية علاقة قائمة على العهد يعطيها القَسَمُ القدرةَ على البقاء ومنازعة الإنسان في تردده، وهنا يلجأ الله إلى هذا الأسلوب الإنساني؛ لكي يؤكد التزامه بما أعلنه من مواعيد. فالقَسَمُ في صورته البسيطة، مثل الظهورات والوحي، هو حضورُ الله الأساسي في حياة الإنسان.

لماذا التجسد؟

المرحلة الأولى: السؤال عن أسباب التجسد جاء أولاً عبر الهرطقات القديمة التي طرحت موقفين متناقضين تماماً:-

١- رفضُ التجسد الإنساني كله، وهو موقف هرطقات القرون الثلاثة الأولى التي آمنت بأُلوهية الابن، وأنكرت تماماً أنه تجسد؛ لأن التجسُّدَ عملٌ لا يليق بالله، فالجسد البشري شرير، ولا يمكن أن يختار إله الخير، الجسدَ الشريرَ كأداةٍ يعلِنُ فيها عن ذاته.

٢- رفضُ أُلوهية الابن، أي التمسُّك بإنسانيته، وإنكار لاهوته بشكلٍ

مطلق، وهو موقف الأريوسية الذي أُدين بشكلٍ عالمي في مجمع نيقية ٣٢٥ م.

المرحلة الثانية: جاءت بعد القرن الرابع الميلادي، وهي في الحقيقة امتدادٌ فكريٌّ للمرحلة الأولى، وتمثل الأوطاخية والنسطورية طرفاها المتباعدان تماماً. وبينما أنكرت النسطورية اتحاد اللاهوت بالناسوت، أنكرت الاوطاخية الاتحاد، ونادت بذوبان الناسوت في اللاهوت. وبسبب هذه الهرطقات كان من المستحيل ألَّا يبحث آباءُ الكنيسة في أسباب التجسد، وقد تم البحث منذ زمن أكليمنضس السكندري، ولا زالت الدراسات متواصلة. لكن يلزمنا أن نقف عند النقاط الأساسية التي وضعها الآباء في القرون الخمسة الأولى، دون أن ندخل في التفاصيل:

- التجسد ضروري كإعلان الله عن نفسه بسبب ما أصاب الإنسان

إذا كان لعقيدة التجسد جذورٌ في العهد القديم، فمن الواضح أن هذه الجذور لا يمكن أن تنمو وتثمر إلَّا في العهد الجديد، وثمرة هذه الجذور النامية هو التجسد كإعلانٍ أخيرٍ عن الله. هذا الاعلان لا يلغي ما قبله من إعلانات، وإنما يفسره ويشرحه، ولذلك وردت افتتاحية العبرانيين مؤكدةً أن الكمال جاء بمجيء الابن.

- التجسد كان ضرورياً كحدثٍ إلهيٍّ فائقٍ يفوق قدرة الكلمات للأسباب الآتية:

١- أكَّد التجسُّدُ أن الله يحب الإنسان فعلاً، وأنه لكثرة محبته، اتَّحد بالطبيعة الإنسانية. والاتحاد هنا، يعني أن الله قَبِلَ الإنسان إلى الأبد؛ لان اتحاد لاهوته بناسوتٍ مماثلٍ لنا، معناه أنه لم يعد في الإمكان الفصل بين الله والإنسان. هذه الحقيقة نعبِّر عنها بالاتحاد، وهو فعلاً غايةُ التجسد نفسه. فالاتحاد صورة ومستوى لعلاقة قوية لا تقبل ما تزرعه الخطية من خوفٍ، وعدم قبول نعمة الله؛ لأن اتضاعَ الله يصطدم بكبرياء الإنسان التي بدورها تجعل الإنسان غيرَ قادرٍ على قبول نعمة الله.

لقد سـجَّل آباء القرنين الرابع والخامس الميلاديين الكثيرَ من الملاحظات عن الهرطقة الأريوسية والهرطقة النسطورية كمحاولتين للخطية والموت الذي فينا، لرفض نعمة الله. واتفق الآباءُ على أن الكبرياء الإنسـاني هو الذي يجعل الأريوسـية في موقف الدفاع عن كرامة الله التي لا تسـمح بالتجسـد. كما أن خوف النسـطورية من الاتحاد ليس ألّا خوفاً من التوعية والعمق الذي يطرحه التجسـد على ضـمير الإنسـان، خاصـةً وأن التجسـد يطلب التخلي التام عن الكبرياء والاحتفاظ بالذات.

٢- أعلن التجسُّدُ زوال كلِّ الوسائل الإنسانية للاقتراب من الله، لا سيما في الطقوس المعقَّدة والذبـائح الحيوانيـة. ولقـد علَّق العلامـة أوريجينوس، ومن بعـده أغسـطينوس على أن ما جاء بالشـريعة القديمة من الذبائح والاغتسـالات وما إليه من وسـائل، كان يسـتند على قاعدةٍ هامةٍ، وهي أن الإنسـان بذاته غيرُ كفءٍ للمثول بين يدي الله، ولذلك يسـتعين بغيره من العناصـر المخلوقة مثل الذبائح الحيوانية، وهي خلقت أصلاً لخدمة الإنسان، ووُضِعَت تحت سيادته قبل السقوط.

هذه المخلوقات صـارت الآن على نحوٍ ما، وسـيطاً بين الإنسـان والله، وهو تعبيرٌ عن فقدان الإنسـان لسـيادته على الخليقة. ولكن، بشـكلٍ آخر أعمق، تعبِّر الذبائح عن حاجة الإنسـان للنعمة؛ لأن الإنسـان الذي لا يملك أن يقترب من الله، دون الشـروط التي وضـعها الله، إنما هو مخلوقٌ لم يعد يملك علاقةً حسـنةً بالخالق.

وهكذا عبَّر التجسُّـدُ عن زوال كل وسـاطة يسـتطيع أن يقدِّمها الإنسـان أو يقوم بها. فقد جاء الله وتجسَّد، وهذا جعل الإنسان في وضع التسبيح والشكر لمن تنازَل وجاء. هنا، يجب أن نرى بوضـوح أن الوسـائل القديمة التي كانت تعبِّر عن احتياج الإنسـان للنعمة، قد فقدت قوتها؛ لان الناموس بموسـى أُعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا، وتعبير إنجيل يوحنا: "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة"، إنما يعني بشـكلٍ مباشـرٍ، **أن النعمةَ هي حضـور الابن الكلمة في**

الجسد.

وقد انتبه المفســـرون أخيراً إلى نقطةٍ هامةٍ في افتتاحية إنجيل يوحنا، كان أول من أشـــار إليها هو العلامة أوريجينوس، وهي علاقة اللوغوس بالخليقة. فكل ما في الكون، جاء بإرادة اللوغوس، وكل الكائنات العاقلة تســـتنير به، فهو النور الذي بدونه لا توجد الحياة، لكن بشـــارة الإنجيل، ليســـت في تأكيد أن اللوغوس هو الذي خَلَقَ كل الكائنات، وإنما في التأكيد على أن الذي كان في البدء، جاء بنفســه وتجسَّــد، لا لكي يُشــرقَ، كخالقٍ يأتي بالحياة من ظلمة العدم، وإنما لكي يأتي بالحياة إلى نور الشركة مع الآب (مقدمة تفسير إنجيل يوحنا للعلامة أوريجينوس ك ١ فقرة ١٤). فالنعمةُ لا تعطى لمن يملك ويحيا، وإنما لمن لا يملك، وفي قبضـــة الموت. وهنا ندرك أهمية التجســد كحدثٍ ضـخمٍ غَيَّرَ علاقة الإنســان بالله، لأنه يلجأ إلى حضن الآب حيث الوسيط، وهو وسيط عهدٍ أفضل، أي يسوع المسيح (المرجع الســـابق). ويمكننا أن ندرك معنى النعمة، إذا تذكرنا أن وجود الإنســـان وحياته، إنما يعتمد على الله، وعلى الله وحده. فليس لدى الطبيعة الإنســـانية أية قدرة على البقاء في الحياة والاســـتمرار في الوجود بقدرتها الذاتية، فالله وحده هو واجب الوجود، أمَّا الكائنات، فهي قابلة للزوال والانحلال، والذي يحفظها من الزوال، هو الله.

٣– باتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح، ظهرت لنا مقاصد الله الواضحة جداً

(أ) إن الإنسان لن يزول؛ لأن نائبه المسيح، سيظل إلى الابد إلهاً متجسداً.

(**ب**) إن الفواصـــل بين الله والإنســـان قد رُفِعَت تماماً، وصـــارت خيرات اللاهوت تعبُرُ إلى الإنسـان في سـهولةٍ؛ لان رأس الإنسـانية الجديد يحملها في ذاته ومنه إلى إخوته، فهو المركز والرأس الذي منه تنحدر كل النعم الإلهية إلى الأعضاء.

(**ج**) لقـد ظـلَّ اللاهوت كمـا هو عليـه دون أن ينقُص، والـذي زاد هو

الناسوت. زاد بمعنى تحوَّلَ من العزلة والابتعاد عن الله إلى الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. والاتحادُ هنا -بكل كلماته السابقة- خاصٌّ بالمسيح، ولكن يخصنا نحن أيضاً في أي كلام عن النعمة؛ لأن تشبُّهنا بالمسيح لا يجعلنا على قدم المساواة مع المسيح. فالفرق بين التجسُّد والخلق عظيمٌ جداً، فالتجسُّد هو مجيء الابن الاقنوم الثاني للاتحاد بالناسوت، أمَّا الخلق، فهو نشوءُ الإنسان من العدم، وهو نشوءٌ يعتمد أصلاً على أن الإنسان ليس كائناً بذاته، فهو صنعةُ الخالق وحده الذي لا يستمد وجوده من آخر، وبالتالي يظل الإنسان غير قادر على أن يصبح مثل الابن، فالإنسانُ ليس أقنوماً من أقانيم الثالوث، ولذلك نحن نتَّحد باللاهوت دون أن نصبح لاهوتاً، ولا يتحول جوهرنا المخلوق إلى جوهر الخالق، فهذا هو المقصود بالاختلاط والامتزاج، وإذا كنا سنظل على ما نحن عليه من طبيعة مخلوقة، إلَّا أننا شركاءُ الطبيعة الإلهية: "الذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة" (٢ بط ١ — ٤)، وهذا يؤكد بكل وضوح أننا سنظل كما نحن مخلوقين؛ لان شركة الطبيعة الإلهية لا تعني بالمرة أننا سنفقد كياننا المخلوق، فضد هذا الانحراف، يقف تعليم الآباء ضد الأوطاخية التي نادت بذوبان الناسوت في اللاهوت.

التجسُّد وحقيقة النعمة الإلهية

إذا كنا نأخذ من ملئه "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمة فوق نعمة" (يو ١ — ١٦)، وهو الابن الوحيد الذي لا يجب أن نميِّز فيه بين اللاهوت والناسوت إلَّا تمييزاً فكرياً فقط لفهم التجسد، كما شرح القديس كيرلس الكبير، فمن الواضح أننا لا نستطيع أن نقسِّم المسيح الواحد إلى طبيعتين، كما تقول صلاة القسمة المعروفة عندنا بالسريانية، والتي تعكس بوضوح تعبيرات الأبوين كيرلس وساويرس الأنطاكي، وهذا يجعلنا نقف عند معنى العطية الإلهية. فقد وُهبنا حياة المسيح، وهذه الهبة الفائقة ليست هبةً تنتمي إلى الطبيعة المخلوقة، فهذا هو تفسير الأريوسية، ولا هي عطية إنسانية، فهذا هو تفسير النسطورية التي جعلت جسد

المسـيح مجرد جسـدٍ بشـريٍّ لا يَهَب شـيئاً لمن يأخذه في العشـاء السِّـري. فإن كنا نأخذ المسـيح حقاً وفعلاً، فإننا بكل يقينٍ، لا يمكننا أن نرى النعمةَ سـوى حضـورُ الله المباشر، وعمله الإلهي فينا الذي لا يمكن فصله عن أقنومه.

يقول القديس كيرلس في رسالته الثانية إلى نسطور مؤكِّداً حقيقة التجسد:

> "نحن لا نعلِّم بأن كلمة الله حلَّ في رجلٍ عاديٍ مولود من العذراء مريم، ولا نعتبر المسيحَ كأنه إلهٌ لَبَسَ الناسوت، وإنما حلَّ الكلمةُ في وسطنا، ولذلك قيل عن المسيح: "حلَّ فيه كمال اللاهوت جسدياً"، ولا نعلِّم بأنه صار جسداً مثلما يسكن في القديسين، بل حلَّ اللاهوت في الناسوت وجعله واحداً دون أن يتحول إلى جسد، وجعل سكناه في الناسوت على مثال قولنا إن نفسَ الإنسان تسكن جسده".

وهنـا نرى أن أيَّ انحرافٍ في فهم التجسُّـــد معنـاه انحرافٌ في فهم النعمـة، فالمسيح ليس مثل القديسين كما هو ظاهرٌ من النص، وإنما المسيح هو الإله الذي سـكن في الناسـوت مثل اتحاد النفس بالجسـد في الإنسـان. ويؤكد القديس كيرلس في نفس الرسالة:

> "المسيحُ إذن هو نفسه الابن والرب، وليس مجرد إنسان استطاع أن يصل إلى الاتحاد بالله".

هذا فرقٌ أساسيٌّ بين الإنسان والمسيح.

ثم يقول القديس كيرلس بعد ذلك:

> "ولسنا نفهم أن الاتحاد كان مجرد اتحادٍ في الاسم؛ لان ذلك لا يؤكد وحدة الطبيعة، مثلما قيل إننا نتحد بالرب "إننا معه روحٌ واحد"، ومع ذلك فاتحادنا به هو اتحادٌ نسبيٌّ".

وهنا طبعاً، وحسـب اللغة المعاصـرة، فإن مركز الشـخصـية في المتجسِّـد هو

اللوغوس، وهو ما يجعل القديس كيرلس يرفض أي صـــورة للكلام عن الاتحاد إلّا الاتحاد الحقيقي. وهنا يصل القديس كيرلس إلى غاية الكلام عن الاتحاد:

"وعندما نعلِن موت الابن الوحيد ابن الله، أي يسوع المسيح حسب الجسد، معترفين بقيامته من الأموات، وصعوده إلى السموات، نقدِّم الذبيحة الغير الدموية في الكنائس، ونكمِّل سر الشكر، ونتغذى بتناولنا من جسده المقدس ودمه الكريم، جسد المسيح مخلصنا جميعاً ودمه، لا نتناوله كجسدٍ عاديٍّ، حاشا لله، ولا كجسدِ إنسانٍ تقدَّس واتحد مع الكلمة في الكرامة الإلهية، أو بسبب سكنى اللاهوت صار مكرماً، بل نتناوله بأنه المعطي الحياة حقاً، وجسد الكلمة نفسه؛ لأنه هو الحياة حسب طبيعته كإلهٍ. ولما اتحد بجسده، جعله مانحاً للحياة، كما قال هو نفسه: "الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة"، فلا يجوز أن نفكر أنه جسدُ إنسانٍ مثلنا؛ لأنه كيف يمكن أن يكون جسدُ إنسانٍ مانحاً الحياة بحسب طبيعته الخاصة".

لذلك استخدم الآباء إحدى الكلمات اليونانية الهامة للتعبير عن طبيعة عمل النعمة الإلهية وهي كلمة Theandric Acts وقد وَصَـــفَ الآباءُ نفسَ المســـيح الإنسـانية بأنها نفسٌ إلهيةٌ إنسـانيةٌ (غريغوريوس النيصـي عظة ٣-٨ على إنجيل يوحنا). وكل أعمال المســيح ليســت إلهية، ولا إنســانية، بل إلهية إنســانية (ديوناسيوس الأريوباغي رسالة ٤). فالنعمة هي عطاءٌ إلهيٌّ، أي حياة المسيح غير المنقســمة إلى إلهٍ وإنســان، وهذا ما يجب أن نفهمه من كلمة Theandric حيث أن الكلمة من مقطعين الأول The أي إلهي، andric أي إنســاني. وقد ذاعت هذه الكلمة في الكنيسة الشرقية غير الخلقدونية، سيما في زمن فلكسينوس المنبجي وساويروس الأنطاكي، وذلك لوصف المسيح وصفاً أرثوذكسياً ينفي عنه التقسيم إلى اثنين، واحد ابن الله، وآخر ابن الإنسان.

ومن هنا نرى أن كل محاولات تحليل النعمة الإلهية التي جاء بها علينا الآباء في

ابنه يسوع المسيح، تتلخص في إما أن نتمسك بالتسليم الرسولي، أو نقع في تطرف الأريوسية أو إنكار النسطورية، فالفرق بين الإيمان الرسولي وبين الأريوسية والنسطورية هو:

١- النعمة هي عمل الأقنوم الإلهي المتجسد المباشر.

٢- إنها عطيةٌ غير مخلوقة، ولا يجب أن تُنسَب إلى الطبائع المخلوقة؛ لأن هذا معناه أن الابن، الاقنوم الثاني، لم يتجسد.

٣- إنها شركة في الطبيعة الإلهية؛ لأن انعدام هذه الشركة معناه أن لا تحصل الطبيعة الإنسانية على خيرات اللاهوت، وهذا يؤدي في النهاية، ليس فقط إلى إنكار تجسد ابن الله، وإنما اعتبار أن الإنسان غير محتاج إلى نعمة الحياة الأبدية الآتية من الله.

التجسُّد ومضمون النعمة

يقول القديس يوحنا: "والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا". وهذه العبارة وغيرها، وبشكلٍ خاص، عبارات القديس بولس الرسول المشهورة، حيث يرتبط اسم المسيح بحرف الجر "في"، أو "بـ"، أو "من" وغيرها، تدل بشكلٍ خاص على **أن النعمة الإلهية هي "حضورٌ مباشرٌ للثالوث الآب والابن والروح القدس"**. هذا الحضور يصل إلى شكله الواضح في بداية الحياة المسيحية حيث أننا نعتمد بالمسيح: "لأن كلكم الذين قد اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غلا ٣: ٢٧). وهو ما يجعل الذين اعتمدوا بالمسيح "هم" "واحد في المسيح". "ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلا ٣: ٢٨). وهكذا نرى أن المعمودية هي دخولٌ إلى شركة في الله في يسوع المسيح وبالروح القدس. هذا الدخول لا يمكن أن يتحقق بدون التجسد، ذلك أن قوة المعمودية الأساسية هي في وساطة المسيح التي يعبِّر عنها الرسول بقوة في رو ٦: ٣-١١.

دُفِنّا معه بالمعمودية للموت (رو ٦: ٤)	متحدين معه بشبه موته (رو ٦: ٥)
نصير أيضاً أحياء بقيامته (رو ٦: ٥)	إنساننا العتيق قد صُلب معه (رو ٦: ٦)
متنا مع المسيح (رو ٦: ٨)	سنحيا أيضاً معه (رو ٦: ٨)
أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا (رو ٦: ١١)	

هذه الصورة الواضحة لا يمكن أن تعطي للنعمة سوى مضمون الاشتراك المباشر في الحياة الإلهية التي جاد علينا بها في ابنه يسوع المسيح، وهذه هي الحقيقة الواضحة خلف كلمات الرسول يوحنا مع ملاحظة اختلاف الكلمات فقط:

الكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده	يو ١: ١٤
وحيدٌ من الآب مملوء نعمة وحقاً	يو ١: ١٤
من ملئه نحن جميعاً أخذنا	يو ١: ١٦
ونعمةً فوق نعمة	يو ١: ١٦

نحن نولد من الله مباشرةً، وهذه الولادة مستحيلة بدون التجسد، ذلك لأن التجسد هو العنصر الوحيد المشترك بيننا وبين الابن الوحيد، وهو ما جعله بكراً بين أخوة كثيرين (رو ٨: ٢٩). ولذلك يمكننا أن نشترك في نعمة المسيح، أي في حياته التي سكبها فينا بالروح القدس: "اذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله" (رو ٨: ١٥-١٦). هذه النعمة هي شركة في الله، وهي لا تعني إطلاقاً أننا نستطيع أن ننال شيئاً آخر غير المسيح نفسه، وهذا هو معنى الكلمات: "فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح إن كنا

نتألم معه لكي نتمجد أيضـاً معه" (رو ٨: ١٧). هنا يجب أن نفهم أننا نتغير إلى صـورة الإله المتجسـد، وليس إلى صـورة الإله بشـكلٍ مطلق، ذلك أن العنصـر المشـترك هو الناسـوت وليس اللاهوت، ولذلك، صـورة حياتنا الممجدة هي صـورة الناسوت. نحن شركاء في الجسد، كما يقول الرسول بولس: ،"وأن الأمم شركاء في الميراث والجسد ونوال موعده في المسيح بالإنجيل" (أف ٣: ٦). لكن هذه الشركة ليسـت دون اللاهوت، وهنا يجب أن نتذكر الدرس الرهيب الذي تعلمناه من النسطورية، وهو أننا لا يمكن أن نفصل بين اللاهوت والناسوت في المسيح الواحد، ولذلك، فإن شركتنا ليست مع ناسوت المسيح دون اللاهوت؛ لان هذا يقول عنه الرب يسوع نفسه: "الروح هو الذي يحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة".

من هذه الزاوية بالذات، يلزمنا أن نرى أن الدعوة المعاصـرة لفصـل اللاهوت عن الناسـوت هي دعوة صريحة تنكر أولاً: تجسـد ابن الله. وثانياً: هي دعوة تقول بشكل مباشر إن ما فعله المسيح، إنما كان لأجله هو لا لأجلنا نحن. لقد تجسد لا لكي يحل مشـكلةً إلهيةً، بل لكي يخلص الإنسـان ويرده إلى الشـركة. وتجسـد لكي يحفظ لنا في أُقنومه الإلهي المتجسد الاتحاد به وبالروح القدس، وبالآب.

ولكننا يجب أن نعود إلى ما ذكرناه سـابقاً، وهو أننا نتغير إلى صـورة المسـيح الممجد، لكن هذه الصورة ليست صورته قبل التجسد، بل بعد التجسد؛ لان الذي يحملنا داخل الشركة مع اللاهوت هو الناسوت، وهنا يبدو بكل وضوح أن ما أعلنه المسـيح لنا هو حياتنا التي صـارت ممجدةً فيه. هذه الحياة هي حياته كما رأيناها، تجسـده وموته وقيامته وصـعوده وجلوسـه عن يمين الآب: "متى أُظهر المسـيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه" (كو ٣: ٤). وهنا، الكلام عن الحياة الإنسانية التي مُجِّدت بسبب الآتي وباللاهوت، وصارت واحداً مع لاهوته بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. هذا بدوره يشـرح لنا أننا: "ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشـوف كما في مرآه نتغير إلى تلك الصـورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح"

(٢كو ٣: ١٨). هذه "الصورة عينها" ليست صورة اللاهوت بدون الناسوت، ولا الناسوت بدون اللاهوت، وإنما صورة المسيح الواحد.

التجسُّد والشركة في صفة البنوة، الصفة الأقنومية للرب:

عقيدة الكنيسة الجامعة هي أن الثالوث جوهرٌ واحد وثلاثة أقانيم، يتمايز كل أقنوم عن الآخر بصفة أقنومية هي الأبوة والبنوة والانبثاق. وأبوة الآب خاصةٌ بالآب وحده، وهي لذلك التي تجعل الأقنوم الأول آباً، وكذلك البنوة، وكذلك الانبثاق الذي يسمى أحياناً "عطية".

لقد حقق لنا التجسد الاشتراك في صفة الابن الأقنومية، أي البنوة، وهذه الصفة الأقنومية ليست خاصة بالجسد أو الناسوت على الاطلاق، فالجسد أو الناسوت المأخوذ من العذراء هو شريكٌ لنا في طبيعتنا التي لا تنتمي على الاطلاق إلى اللاهوت، إنه جسدٌ بشريٌّ مثل أجسادنا، لكن عندما حلَّ ابنُ الله في الجسد، فقد جعل الناسوت أو الجسد جسده الخاص به، وبسبب الاتحاد، صار الجسد غير منفصلٍ عنه كابنٍ لله، وهذا هو معنى قول الرسول بولس: "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني" (غلا ٤: ٤-٥).

كيف وصل إلينا التبني؟

ليس من الناسوت، وهذا هو الخطر الذي جعل النسطورية خطراً شديداً على الخلاص، إنما من اللاهوت. لكن، نحن أصلاً ليس بيننا وبين اللاهوت شركة. وبنوة الابن للآب هي شركة الآب والابن الروح القدس، وهي لا تنتمي على الاطلاق إلى الطبائع المخلوقة. لكن كيف أمكننا الاشتراك في هذه البنوة الفائقة ونحن أبناء الجسد المولودين حسب ناموس الطبيعة المحدود الذي لا يمكن أن يعطي الإنسان القدرة على أن ينال شيئاً خاصاً بالله وحده الذي يعلو فوق كل الخليقة؟ يقول القديس يوحنا: إن هذه هي هبة الله أن كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن

يصـيروا أولاد الله الذين ولدوا ليس من دم "طبيعة مخلوقة"، ولا من مشـيئة جسـد "قدرة إنســانية"، ولا من مشــيئة رجل "ثمرة زواج أو قانون طبيعي". هنا يظهر لنا معنى اتحاد اللاهوت بالناســوت في المســيح الواحد، ومعنى نضــال الآباء ضــد النسـطورية، فالبنوة التي نأخذها هي سـلطان الله الذي نناله بالإيمان، وهو سـلطان يعلو فوق إدراك البشــر جميعاً، وفوق كل إمكانيات وقدرات وإرادة كل الطبائع المخلوقة.

لا يمكن أن نسـمي بنوتنا لله سـوى شـركة في الصـفة الأقنومية للابن، وهو ما يجعلنا أبناء لله. وكما أن الروح القدس ينبثق من الآب ويســتقر في الابن، فهو كذلك يسـتقر فينا نحن أيضـاً أبناء الله بالمسـيح، ويجعلنا نقول مثل المسـيح: "أبَّا أيها الآب".

إن المجال لا يتسع لشرح الشركة في الثالوث، لا سيما صفة التقديس، وهي الصفة الأقنومية للروح القدس التي أفاض القديس باسيليوس الكبير في شرحها[1]. والتقديس، وهو اســم العطية الفائقة التي تجعلنا هياكل لله بالروح القدس، ولكن يبقى سـؤالٌ هام. هل اشـتراكنا في بنوة الابن، تجعلنا أبناء للآب مثل الابن تماماً؟ وفي الاجابة نقول إن هذا السؤال سؤالٌ خاطئ؛ لأن:

١- هذا الســؤال يتجاهل أن الابن هو الابن الوحيد الذي لا يوجد آخر معه، ويتجاهل أن التجسد هو تنازُل الابن الوحيد ليكون إنساناً، فمركز الشخصية هو اللوغوس أو الابن المتجسـد الذي منه وبه وفيه صـارت إلينا نعمة التبني بالروح القدس. ولذلك، شـركتنا ليسـت قاصـرة على شـركة في الابن وحده، بل هي ثابتة وكاملة بالروح القدس، فهي ليسـت من الإرادة الإنسـانية، ولا من الفهم أو المعرفة الإنســانية؛ لأننا نعرف لكي نشــترك، ونشــترك لكي نعرف، وتظل الشــركة هي مصدر النعمة.

---

[1] راجع على سبيل المثال لا الحصر الفصل ١٩ من كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس – الطبعة الثانية، القاهرة، ص ١٣٠ – ١٣٣.

٢- الإنســان ليس متجســداً، وإنما هو مخلوقٌ، والجســدُ هو طبيعة ذاتية لا يمكن أن يرقى مطلقاً إلى الطبيعة غير المخلوقة، أي اللاهوت، فهذا مستحيل.

٣- الاشــتراك في بنوة الابن هو نعمة آتية من الخارج كما قال القديس أثناسيوس بشكلٍ خاص. ومعنى هذا أن النعمة ليست طبيعة فينا، بل هي منحة لا تنتمي مطلقاً إلى الطبيعة المخلوقة، وهذا يعني بشــكلٍ واضـح أن النعمة مرتبطة دائماً بإرادة الواهب، لـذلـك لم يهبنا الله أن نتحول إلى جوهر اللاهوت. لقد أُعلنت لنا إرادة الآب في نعمة التبني مع بقائنا أخوةً بالنعمة للبكر الابن الوحيد، وبالتالي تعمل فينا النعمة على حسـب القصـد الالهي، أي نظل بشـراً كما نحن، وهذا بشكلٍ خاص ظاهرٌ من قيامة المسيح ودخول ناسوته إلى المجد الأبدي وبقاؤه دون زوال أو امتصاص أو ذوبان، فنحن بسبب الاتحاد لا نذوب، بل ننال المجد.

٤- إن الســؤال عن نوعية المجد وجوهر النعمة، لا محل له إطلاقاً طالما أننا نؤمن بالاتحاد في المسـيح الواحد، ذلك أن المجد الإلهي شَـعَّ من المسـيح بشـكلٍ منظور على جبل التجلي، وهو مجدٌ كامنٌ فيه لم ينلْه المســيحُ من آخر، بل هو مجده الذاتي. وهنا يجب أن نفهم غاية الظهور المجيد على الجبل؛ ذلك لأننا لا نصير مثل المسيح يشعُّ فينا مجداً ذاتياً من داخلنا، وإنما المجد الإلهي الذي يشعُّ من الخارج وينعكس علينا؛ لأنه أحد ثمار اتحادنا بالمسـيح. ولذلك، إذا فقدنا الاتحاد، فقدنا كل شـيء. إن المسـيح هو الذي يشـعُّ فينا، وهذا يعني أننا تحولنا إلى مجده بالنعمة الآتية إلينا دون أن نصبح نحن مصـدر المجد، بل صـرنا ممجَّدين معه لأننا اشـتركنا فيه. أما أن يصبح الإنسـان مثل الله تماماً وفي كل شـيء، فإن ذلك معناه توقُّف الشـركة بين الإنســان والله. إن عطايا الله ذاتية لأنه واجب الوجود، أمَّا ما يناله الإنسان، فهو هبةً وعطيةً، ذلك أن وجود الإنسان يعتمد أساساً على النعمة الإلهية. إن اتحاد اللاهوت بالناســوت هو غاية مجيء ابن الله في الجســد وموته وقيامته وصـعوده، وبدون الاتحاد يفقد التجسـد معناه، ويصـبح الصـليب والقيامة بلا قيمة على وجه الإطلاق.

التجسُّد، تحوُّلٌ جِذريٌّ في علاقتنا بالله

أولاً: صار يسوع المسيح هو الوسيلة والغاية

هناك أعمال نصَّت عليها الشريعة باعتبارها وسيلة الاقتراب لله، كما هو مدون في سفر اللاويين والتثنية. وقد دخل –مع حركة التهود في العصر الرسولي نفسه– حفظ شريعة موسى (أع ١٥: ٥)، لا سيما مع الذين آمنوا من جماعة الفريسيين. وقام الرسول بطرس في أول مجمع كنسي، ليصف الشريعة بأنها "نيرٌ على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله" (أع ١٥: ٩)، وجاء القرار الصارم، والذي صدم دعوة التهود بأنه "قد رأى الروح القدس ونحن ألَّا نضع عليكم (الراجعين إلى الله من الأمم) ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة: أن تمتنعوا عما ذُبِحَ للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا ... " (أع ١٥: ٢٨).

وكان بولس نفسه قد وصف حياته السابقة كيهودي بأنها "عبادتنا الأضيق" (أع ٢٦: ٥)؛ لأنه مع تجسد الله الكلمة، وهو الوسيط لا الشريعة، صارت أعمال الشريعة لا تعطي للإنسان أيَّ مكانةٍ عند الله (لأنه بأعمال الشريعة لا يتبرر كل ذي جسد، أي كل إنسان)، ذلك لأنه إذا كانت بالشريعة معرفة الخطية، فكيف تحدد الشريعةُ الخطية، ثم تحرر الإنسان منها (رو ٣: ٢٠)؟ ولكن الآن ظهر برُّ الله بدون الشريعة، رغم أن الشريعة والأنبياء يشهد كلاهما لصدق أو لبر الله، ذلك الصدق الذي استُعلِن في يسوع ويعطى بالإيمان لا بأعمال الشريعة، هو هبة الله المجانية التي لا يملك الإنسان أن يعطي مقابلاً لها؛ لأن المسيح افتدانا من كل أحكام الشريعة، وصفح عن كل الخطايا لكي يظهر صدق الآب[١] بشريعة الإيمان التي تقبل الخطاة بدون أية أعمال (رو ٣: ٢١ – ٣١).

وعندما يختم رسول المسيح التعليم بأن "الله واحد هو الذي سيبرر اليهودي

(١) وهنا بالذات، مَن يمكنه أن يفتخر بأنه حفظ أحكام الشريعة وكل الأعمال المطلوبة؟

بالإيمان والأمم بالإيمان" (رو ٣: ٣٠)، فهو يؤكد أن قبول الله لا يحدد شرطاً معيناً، وهو ما أوضحه الرسول بولس في عبارة صارمة جمع فيها كل ما تطلبه الشريعة من أعمال مثل التطهيرات والذبائح وحفظ باقي الفرائض، فقال: "لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت، التي هي ظلٌّ لما سوف يعطى في المستقبل؛ لأن الجسد قد صار للمسيح" (كولوسي ٢: ١٦ ترجمة موسعة للإيضاح). هل هذا يجعل الشريعة باطلة؟ أبداً وحاشا، بل يؤكد وجودها؛ لأنها هي التي كشفت خطية الإنسان (رو ٣: ٢٠ مع رو ٣: ٣١).

والوسيلة والغاية كلمتان لم تردا في الأسفار، ولكن كانت الشريعة مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر ويقبلنا الله بالإيمان. ولكن بعد استعلان بشارة الحياة، لم نعد بعدُ تحت المؤدِّب، أي الشريعة (غلا ٣: ٢٤). **فالمسيح مخلصنا هو وسيلة قبولنا، وهو ذاته الغاية؛ لأنه "حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا وخلاصنا كلنا". المسيح هو الوسيلة إلى المسيح، وليس هناك من وسيلة أخرى. هو الوسيط الوحيد الحي "بحسب قوة حياة لا تزول" (عب ٧: ٢٢). هو ضامن العهد الأفضل** (عب ٧: ٢٢)، **العهد الجديد** (عب ٨: ١٣).

ثانياً: صار يسوع المسيح هو البداية والنهاية

فقد صار **يسوع هو البداية؛ لأننا فيه نبدأ، وفيه يتم الخلق الجديد** الذي نقل فيه أصل الإنسانية من آدم الأول إلى الرب نفسه (ق أثناسيوس الرسولي: ضد أريوس ٣: ٣٣، والرسالة إلى أدلفوس ٤).

وهو النهاية؛ لأننا صرنا فيه بلا نهاية، فالنهاية لها حدٌّ هو الموت، **ولكن النهاية هي أننا متى جاء الرب في مجده، فإنه سوف يغيِّر جسد تواضعنا إلى ذات جسد مجده** (فيلبي ٣: ٢١)، لأننا عندما يظهر المسيح، سنكون مثله لأننا سنراه كما هو (١ يو ٣: ٢)؛ لأننا "جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف ... نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح" (٢ كور ٣: ١٨).

ثالثاً: صار لنا اتحاد أبدي بالرب يسوع

لقد صار لنا بالتجسد اتحاد أبدي على مثال اتحاد ألوهية الرب بالناسوت. هذا الاتحاد هو ينبوع السرائر، لا سيما أسرار الانضمام إلى جسد الرب: المعمودية والميرون والإفخارستيا. هذا الاتحاد الفائق هو فيضُ محبة البشر التي تنسكب فينا من الآب بالابن في الروح القدس. لأن المحبة الثالوثية ليست ثلاثة فروع، بل هي قوة وعمل واحد للثالوث القدوس، فمحبة الآب لابنه المتجسد هي ذات محبته لأعضاء جسد الابن "المؤمنين به"، الذين أعطاهم الآب سلطاناً أن يصيروا أبناء الله (يو ١: ١٢). وهي ذات محبة الابن للآب، وفي التجسد شملت تلك المحبة، جسده الذي أخذه من البتول، والذي ضم إليه كل الذين يؤمنون به؛ لأنه جعلهم أعضاء جسده، يحبهم بذات المحبة التي يحب بها جسده، وهي ذات المحبة التي بها مسح الروح القدس جسد الابن عندما صعد من مياه الأردن؛ لأنه، أي الروح القدس، سبق وكوّن ذلك الجسد في "الحشا البتولي" (قسمة صوم الميلاد).

رابعاً: الإنسان الجديد أو آدم الأخير

أمام سر محبة البشر، توزَّعت اجتهادات العلماء من الذين خصصوا أنفسهم لدراسة العقيدة والأسفار والتاريخ، وأمام "لُجة محبة البشر" (القداس الغريغوري) التي لا يملك النطق أن يحددها بلفظٍ، قال البعض إن الرب هو الواحد الذي يجمع الكل فيه كما كان آدم الأول، الإنسان الذي فيه الكل. وعاد بعضٌ من هؤلاء[١] إلى الواحد والكل في إسرائيل القديم حيث كان الواحد هو شخصٌ جمعي، بل عن أرسطو أخذوا فكرة الـــ Universal واستقرت الفكرة لبعض الوقت حتى عند الأستاذ مايندروف[٢]. وعلى الرغم من أن هذه المقاربات تساعد على الفهم، إلَّا أن لدينا ثلاثة حقائق هامة لا علاقة لها بالفلسفة، بل تجدها متأصِّلةً ومتجذِّرةً في

(1) Aubrrey R. Johnson, The Vitality of the Individual in the Thought of Ancient Israel.
- De Fraine, Adam and the Family of Man.

(٢) اللاهوت البيزنطي، النص الإنجليزي، ص ١٥٢ – ١٦٤.

عقيدة الخلق من العدم:

١- عندما خلق اللهُ الإنسانَ، فقد خلق الجنس البشري في وحدة بيولوجية هي التناسل، وهي ليست نظاماً تملكه طبيعة، بل هو هبة وعطية محبة الخالق التي عبَّر عنها سفر التكوين: "اثمروا واكثروا واملأوا الأرض" (تك ١: ٢٨). ورغم مأساة السقوط، فقد استمر الإنسان في البقاء؛ لأن رحمة الرب كانت تدبر خلاص الجنس البشري، وهو أحد أسباب تسمية الرب بلقب "محب البشر".

٢- الله يخلق كل فردٍ ينتمي إلى الإنسانية، والجنس البشري حلقة واحدة متصلة، قد تبدو لنا كما لو كانت وليدة نظام System هو النظام البيولوجي، ولكن بركة الخالق تعمل رغم سقوط الإنسان؛ لأن الخالق نفسه حفظ تماسك وتضامن الجنس البشري، ليس في الوحدة البيولوجية، أي فيما يشترك فيه البشر من ولادة ونمو وغذاء وبيئة تجمع الكل، بل فيما هو مشترَك بينهم في الحياة العقلية، أي طلب الحرية والسعي للكمال والخير والتقدم ومحبة الجمال، وهي كلها القوى العاقلة التي نأخذها من الصورة الإلهية، وهي الهبة التي رغم ما أصابها، إلا أنها لم تباد، بل ظلت بقاياها في صراعٍ مع الفساد العقلي، أي الصراعات بين الخير والشر؛ لذلك لم يكن أكليمنضس السكندري مخطئاً حينما ذكر أن الشر ينتقل بالتعليم وبالتواجد في المجتمع.

في إطار هذا التضامن وتلك الوحدة البيولوجية التي دخل عليها الموت "بحسد إبليس" (صلاة الصلح الباسيلي)، جاء الكلمة وتجسد؛ لكي يفتح هذا التضامن وهذه الوحدة على ما هو أشمل وأعظم، ألا وهو وحدة الجسد الكنيسة، أي الجسد الواحد الذي رأسٌ واحد هو يسوع المسيح. هذا الذي منه تولد كل الأعضاء (كولو ٢: ١٩). فالخالق هو الذي يحفظ ويقوّي هذه الوحدة الإنسانية، رغم ما فيها من تباين عرقي وثقافي ولغوي ... إلخ لكنها تعود في النهاية إلى خالقٍ واحدٍ هو الكلمة الذي تجسَّد لكي يضع أساساً جديداً في كيانه هو ينقل إليه الإنسانية التي بعثرت حياتها، وخلقت انقساماتٍ مريعة لا يمكن إصلاحها بالأنظمة ولا

بالشـــرائع، ولا بالتقدم العلمي، ولكن ببذرة المحبة الغير القابلة للانقســـام، وبالحياة التي أخضـعت الموت تحت قدميها، والتي تنسـكب من اللوغوس في أحبائه ليكونوا مثالاً للوحدة والقدرة على التناغم وهزيمة الانقسامات.

٣- على أن الانضـــمام إلى الكيان الجديد، فليس بنظام، ولا بقدرات، بل هو عمل النعمة الذي تأسس في المسيح يسوع، والذي يمكن أن نضعه تحت اسمٍ معروفٍ، هو "الخلقة الجديدة" (٢ كور ٥: ١٨).

فالخلق من جديد هو العمل الإلهي الذي يقوم به اللوغوس بذاته لكي يجدد ما أفسده آدم، ولكي يحول نزوع الإنسان إلى الاتحاد بالآخر متضاماً معه في الخير أو الشر، إلى تضامن في الحياة تحت رأسٍ واحدٍ هو يسوع المسيح نفسه.

فكيف يجمع الكلمة المتجســـد هذه الملايين من المؤمنين به؟ وجوابُ ذلك: بالقدرة الخالقة التي جعلته يخلق لكي يجدد، ويجدد لكي يؤلِّه، ويؤلِّه لكي يعطي وجوداً أبدياً خالداً غالباً للفساد والموت.

ممارساتٌ تكشف عن الجهل بالتجسد

قد يبدو مع حلول عيد تجسد ابن الله، أن العادات الشعبية قد استطاعت أن تنقل الوعي الإنسـاني من تجسـد ابن الله إلى ميلاد طفلٍ اسمه يسـوع في بيت لحم، رغم أن الليتورجية لا تســمح بذلك بالمرة؛ لأننا عندما نصـــلي القداس الإلهي في الأعياد السيدية، فإننا نجوز أعماق التدبير الإلهي. ويمكننا أن نرصد بعض تحولات الوعي الإنساني هذا فيما يأتي:

أولاً: لازلنا نحيط الجسـد بالعادات اليهودية التي ذكرتها أسـفار الشـريعة، وقد سبق لنا أن أشرنا في مقال سابق[١] إلى أن طهارة الجسد، إنما هي تقديسٌ أبدي، وأن الفصل بين النظافة والتقديس بات ضرورياً؛ لأن منع النساء من التناول أو من

(١) "المجمع المقدس يبحث عن وصية!!!" مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

لمس أجساد الشهداء والقديسين في الكنائس، هو جهلٌ تام بما حققه التجسد[١].

ثانياً: لم يظهر بعد في حياتنا الكنسـية، الاحترام المتبادَل النابع من الإيمان بأننا أعضاء جسد المسيح؛ لأن "الكنيسة جسد المسيح" موضوعٌ غائبٌ بسبب انعدام الوعي بما جاء به تجسـد الله الكلمة، الذي جاء لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يو ١١: ٥٢). فلازلنا متفرقين إلى شِـيَعٍ وأحزاب وصـل بها التناحر العلني على مواقع الانترنت مبلغه، بل دخلت إلى لغة الكتابة كلمات بذيئة تؤكد انحطاط الوعي وانعدام الرؤيا بأن الاختلاف حقٌّ إلهي لأن الآخر هو عضـوٌ مختلفٌ تماماً عن أيِّ عضوٍ في الجسد الواحد (١ كور ١٢ كله).

ثالثاً: لازلنا نؤكد السـلطان الكهنوتي، وتركنا أهم ما قيل عن تجسـد ابن الله الذي أخلى ذاته وأخذ صورة العبد ووضع ذاته للموت (فيلبي ٢: ٦). وتحول حتى اللُباس الخارجي إلى ملابسَ مزركشـةٍ فقدت البسـاطة التي رأيناها في آخر عمالقة الجيل، البابا كيرلس السـادس بابا الإسـكندرية الذي عاش راهباً، ولم يكن يؤمن بالمظاهر الخارجية التي لا تستر عورة النفس.

ولكن، وعلى الرغم مما تسـببه تحولات الوعي بتجسـد الابن الوحيد، والتي رصدنا بعضها، من وجعٍ وألم، إلا أننا نجد أنفسنا مدفوعين من واقع محبة الثالوث لنا أن نقول في كل عام يهل علينا العيد، عيد تجسـد كلمة الله، ليكن هذا العيد تجديداً للذهن وللحياة ليسـوع رب الحياة، الذي "تجسـد وتأنَّس وعلَّمنا طُرُقَ الخلاص" (القداس الباسيلي).

كل عام وجميع القراء بخير وعافية

(١) قد يكون هناك بعضُ عذرٍ، وكان كتاب "تجسد الكلمة" للقديس أثناسيوس الرسولي لا زال مجهولاً عند الذين يسمحون لهذه العادات أن تغرِّب الإيمان، ولكن ما عذرهم الآن وقد طبقت شهرة الكتاب الآفاق، وشاعت ترجماته، ونُشر كثيرٌ من الدراسات عنه؟

تأله ناسوت الرب يسوع[1]

وصل إلى بريد الموقع سؤال من الأخ مينا يقول فيه:

سلام ونعمة, اني أتساءل متى اكتمل تأليه الناسوت.. إن قلنا قبل القيامة، إذن فكيف يموت جسدا متألها (ممجداً) والكتاب نفسه يقول عن الرب إنه لم يكن قد مجد بعد؟ وإن كان بعد القيامة (مباشرة وقبل الصعود)، فكيف أكل مع تلاميذه جسديا. وإن قلنا بعد صعوده إذن فمتى، خاصةً أن الرب يسوع قال في سفر الرؤيا عن الاب (إلهى) أي تكلم عنه كما كان قبل القيامة اذ لم يكن قد تمجد بعد..؟؟

قبل القيامة، إذن كيف يموت جسد متأله بعد القيامة. وقبل الصعود، فكيف أكل مع تلاميذه جسدياً بعد صعوده؟

هذه هي اعتراضات الأخ مينا، وهي تعني أن جسد الرب ظلَّ جسداً بشرياً بيولوجياً يتغذى، وقابل للموت، ويحيا حسب الطبيعة الإنسانية بما فيها من شيخوخة وأمراض .. الخ.

والأخ مينا مثله مثل جيلٍ كبير فقد الرؤيا الآبائية للتدبير؛ لأن التأله لا يقضي على ما هو إنساني. اتحاد اللاهوت بالناسوت ليس انقضاض اللاهوت على الناسوت لكي يلاشيه تماماً، بل يظل الجسد المتألِّه القابل للموت، وتأله الناسوت هو الذي جعل جسد الرب بلا فساد في القبر حسب شهادة المزمور واعتراف القديس بطرس في يوم الخمسين (أع ٢ : ٢٤-٣١). وتأله الناسوت هو الذي

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٥ أغسطس ٢٠١١.

جعل المسيح يلمس نعش ابن الأرملة فيقوم. وهو الذي جعل من التفل طيناً وفتح عيني الأعمى، وهو الذي لمست نازفة الدم هدب ثوبه فتوقف نزيف الدم. فيا أخي مينا لو منع اتحاد اللاهوت بالناسوت، صفات الناسوت، أو مُحيت تماماً بمجرد الاتحاد، لظل الإنسان بلا خلاص؛ لأن الرب قبل الموت في جسده القابل للموت وغير القابل للفساد بسبب الاتحاد، وهو الذي تجلى على جبل طابور بنور أكثر من بهاء الشمس. ولذلك، عندنا شهادة القديس أثناسيوس في الرد على الأريوسيين، وهو يقول لي ولك وللأنبا بيشوي المعارض عن جهل، في المقالة الثالثة ابتداء من ٣١ حتى نهاية المقال حيث يؤكد أن الجسد أخذ من اللاهوت (٤٠) كل ما نحتاجه نحن البشر في تجديد الطبيعة الإنسانية؛ لأن هذا التجديد لم يكن يتم من الخارج، بل من الداخل، أي في ناسوت الرب نفسه، ولذلك جاءت القيامة مؤكدة لنا بأن الجسد قد تأله (٤٨) وصار كاملاً ويعطي الكمال والنعمة لكل من يتحد بالرب (٤٩). ولذلك، في الفقرة (٥٢) يقول معلمنا الرسولي إن "الألوهة كانت تظهر تدريجياً في الجسد"، ليس بسبب غياب الاتحاد أو عدم التأله، بل لكي يتم الاستعلان حسب التدبير (٥٢ – ٥٣)؛ لأنه كان يتقدم مع مراحل نمو الجسد ويظهر التأله تدريجياً، وهو ما يؤكده الإنجيل بأن يسوع كان ينمو، أي جسده هو الذي ينمو صاعداً نحو غلبة كل أوجاع الجسد بقبول هذه الأوجاع **قبولاً حقيقياً في اتحاده بالناسوت لا بمجرد معرفتها عقلياً فقط**. والجسد المتأله الذي نأخذه في الإفخارستيا هو جسد الرب الحي القائم من بين الأموات "ذبيحة إلهية غير مائتة سمائية"، هو ما نعترف به في الليتورجيا؛ لأننا نتدرج في الاتحاد به بالميلاد البتولي نأخذ الأصل أصلنا الجديد من الماءِ والروح، بالصلب نأخذ نهاية الموت والدينونة، وبالقيامة نأخذ عربون الخلود، وهذه كلها في المعمودية والميرون والإفخارستيا.

إن تقسيم الرب إلى قبل وبعد، هو تقسيم جائر لا يجوز لأن يسوع المسيح هو هو أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣ : ٨).

أعود الى ما بدأت به، وهو صعب:

قبل القيامة؟ نعم؛ لأن كل أعماله الإلهية تمت بجسد متأله، حملته الأمواج، وسار عليها لكي ينقذ التلاميذ، وهنا ظهر اتحاد اللاهوت بالناسوت بشكل باهر.

في القبر؟ نعم؛ لأن جسده لم يرَ فساداً.

بعد القيامة؟ نعم؛ لأنه دخل والأبواب مغلَّقة.

أما الأكل والشرب واستعلان الجروح، فهو عمل تدبير الابن، إذ يعلن جسده بشكل مرئي لتوما وللرسل لكي يبرهن على قيامته.

رجاءً لا تقسِّم الرب الواحد من أجل جدلٍ يسعى إلى هدم ركن ركين في ثوابت حياتنا الأبدية؛ لأننا نتأله بالنعمة، ونظل بشراً نمر بالمرض والموت والدفن، رغم تألهنا؛ لأن هذا من التدبير.

كن معافى في الرب الواحد.

د. جورج حبيب بباوي

تدبير الخلاص، أم الهلاك؟[1]

أريد أن أوجه سـؤالا للدكتور الفاضـل جورج حبيب أليس الله مالئ الكل بلاهوته فهل معني ذلك أن الله حال باقنومه علي كل جسـد أم هو حال حلول آخر علي الكل وليس حلول اقنومي فحلول الروح القدس علينا نحن المسـيحيين حلول من نوع آخر غير الحلول الاقنومي و هذا الحلول الخاص ليس لسـائر البشـر بل للمسـيحيين فقط وذلك بالرغم من أن الروح القدس يملا الكل بلاهوته إلا أن البشـر من غير المسـيحيين محرومين من هذا الحلول الخاص أما عن حلول الروح القدس علي السيدة العذراء حال فيها أقنوم الله الكلمة المتجسد الذي يستوجب بالضرورة حلول أقنوم الروح القدس حلولا اقنوميا وذلك لكي يكون صانع الجسد شـخص له رتبه إلهية أي أقنوم الروح القدس و ليس شـخص اقل منه لأنه لو كان صـانع الجسـد ليس هو أقنوم الروح القدس وكان شـخصـا آخر بديلا عنه كملاك مثلاً؛ لكان المسـيح ليس هو الله؛ لان في هذه الحالة يكون الذي صـنع جسـد المسيح هو الملاك الذي له رتبه أدنى من الرتبة الإلهية ولذلك نقول إن الروح القدس حلَّ علي السـيدة العذراء في نفس وقت حلول الله الكلمة، وذلك لان الله فوق الزمان أي أنـه لا يرتبط بـالزمن، فلا يوجد فـارق زمني في ولادة الابن وحـده من الآب أو في انبثاق الروح القـدس وحـده من الأب وبـالتـالي حلول الروح القـدس حلول اقنومي يكون في نفس وقت وجود الله الكلمة في أحشـاء السـيدة العذراء وبالتالي سبب حلول الروح القدس أقنومياً هو وجود الله الكلمة في أحشاء السيدة العذراء وليس قبل ذلك، وكما أن ناسـوت المسـيح الذي حل فيه أقنومه جعل

---

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية رداً على سؤال الأخ جورج وجدي في نوفمبر ٢٠١١.

جسده متألهاً مستحقا العبادة هكذا أيضا لو حل فينا الروح القدس حلولا أقنوميا لجعل جسدنا مستحقا للعبادة إذ أن لاهوت الروح القدس مساوي للاهوت المسيح وهذا يكون غير منطقيا لأننا ليس فينا خصائص الألوهة كالقدرة علي كل شيء والخلق والكمال في الحكمة والعلم فالملائكة تعرف أكثر من البشر ولهم قدره أعلي من البشر فكم بالأولي الله خالق الكل وهذا ضد أقوال الكتاب إذ أن الإله لا يتغير أما البشر فمتغيرون إذ أن المسيح طيلة حياته لم يرتكب خطيه واحده وذلك حينما قال من منكم يبكتني علي خطيه وقد دعي بالقدوس كما جاء وكذلك القدوس المولود منك يدعي ابن الله وليس عنده تغيير ولا ظل دوران أما نحن فنسقط في الخطية فالبشر يتغيرون ويتحولون من الشر إلي الخير و العكس أما الله الكلمة فليس كذلك ولو حل فينا الروح القدس حلولا أقنوميا فيكون في هذه الحالة تجسد للروح القدس إذ أن المسيح هو لاهوت وروح إنسانيه وناسوت وأيضاً إذا حل فينا الروح القدس حلول أقنومي يكون تجسد لاهوت الروح القدس وروح إنسانيه وناسوت الذي هو جسد الإنسان ونحن لم نسمع قط في الكتاب المقدس عن تجسد للروح القدس ففي النهاية يكون حلول الروح القدس بطرق مختلفة فهو حال في العالم كله و ذلك نتيجة لوجوده إذ قيل عن المسيح في رسالة بولس الرسول الأولي إلي أهل كولوسي ١٦:١ إذ فيه خلق الكل ما في السموات وما علي الأرض فهو موجود في السماء وعلي الأرض وفي كل مكان بلاهوته وبالتالي هو موجود في الكل ولكن بصوره تختلف عن وجوده فينا نحن المسيحيين وبصورة مختلفة في اتحاده مع المسيح.

الأخ جورج:

تحية المحبة في المسيح يسوع ربنا، وفي روحه القدوس.

الأسـئلة أو الافتراضـات التي قدمتها، جديرةٌ بالاهتمام، فهي كلها تدور في دائرة الضباب الكثيف الذي أحاط بالفكر الكنسي، وهي كلها تعود إلى:

١- غياب تام لتاريخ المصطلحات اللاهوتية مثل: جوهر – أقنوم – حلول – ملء، وعدم البحث عن هذه المصطلحات في كتابات الآباء، ولذلك عبارتك: "الله مالئ الكل بلاهوته"، هي عبارة صحيحة، وهي تعني الحضور الإلهي الكامل في كل الخليقة؛ لأن الخليقة كلها هي في الله، ولكن باقي العبارة في شكل سؤال: "هل معنى ذلك أن الله حال بأقنومه على كل جسد .. الخ"؟ وخلف هذه العبارة تجد الضباب الذي نشره أساقفة وغيرهم عن عدم تمييز؛ لأن حلول الله في كل الخليقة وملء الخليقة يعني: الوجود – الحياة – وصول كل كائن من أصغر خلية (أميبا) إلى الإنسان تاج الخليقة وصورة الله ومثاله إلى غاية خلقه، فهذا هو الذي يُبقي ويحفظ الخليقة من العدم.

٢- أمَّا ما جاء به تدبير الخلاص، **فهو العلاقة الخاصة التي أُسِّست على اتحاد لاهوت ابن الله الكلمة بالإنسانية** – وقد غاب من فكر الذين يكتبون (البعض وليس الكل) أن الكلام عن اتحاد لاهوت ابن الله بالناسوت هو اتحاد: بالرأس – البكر بين أخوة كثيرين – آدم الأخير الرب من السماء، وهي المصطلحات الخاصة باتحاد الإنسانية بيسوع المسيح. لأن:

* الرأس هو رأس الجسد الواحد أي الكنيسة.

* البكر بين إخوة كثيرين هو آدم الأخير – الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٧) القائم من الأموات بحياة عدم الموت والخلود.

ولذلك يا أخي المحبوب من الله، لا يوجد لدينا في تدبير الخلاص خطاب عن لاهوت وناسوت، بل عن الإله المتجسد الذي جاء وسكن بيننا، أو فينا حسب

الأصل اليوناني / القبطي (يوحنا ١ : ١٣ – ١٤).

٣- يجب الابتعاد تماماً عن الفكر المتأصل في الميكانيكا وعلوم الطبيعة؛ لأن الله ليس قوة عمياء أو مجرد آلة، بل هو أقانيم الثالوث القدوس التي لها حركة وحياة واحدة. فالله ليس مثل التيار الكهربائي – أنت طبعاً تكتب ولم تقصد ذلك، ولكن بعد عدة أسطر تسأل وربما تعترض وتقول: "لو حل فينا الروح القدس أقنومياً جعل جسدنا مستحقاً للعبادة". وهذا كلام عجيب حقاً: عبادة من البشر الذين هم مثلك قد نالوا سكنى وحلول الروح القدس ... عجيب حقاً.

ثم تعود إلى اعتراضات الأنبا شنودة على الشركة في الطبيعة الإلهية، وتردد نفس كلام الأنبا شنودة. ليس فينا خصائص الألوهة كالقدرة على كل شيء والخلق والكمال في الحكمة ... الخ. يا أخي ألا ترى ما هو غائب، وهو جد خطير: إن خصائص الألوهة التي وُهِبَتْ للإنسان - ولاحظ كلمة وُهِبَتْ - هي: القيامة من الأموات في مجد يسوع (فيلبي ٣: ٢١) - الحياة الأبدية غير الخاضعة للموت – ميراث ملكوت السموات – البنوة. تُرى هل يمكن لمخلوق من العدم أن يكون خالداً ووارثاً ملكوت الله، وينال البنوة بقدرات إنسانية مخلوقة؟!!! هكذا يضيع الخلاص برمته ضياعاً كاملاً؛ إذا قام الإنسان لحياة خالدة بقدرات طبيعية وعاش في الدهر الآتي إلى الأبد بطبيعة مخلوقة من العدم ليس لها شركة في حياة الحي الذي لا يموت أي الله.

٤- حلول الروح القدس فينا يعني:

- عطية التبني (غلا ٤: ٤).
- وأيضاً نصبح هيكل الله (١كو ٣: ١٦، ١٧).
- كما نقوم من الأموات (رو ٨: ١٠-١١).
- ونولد من جديد من الماء والروح (يوحنا ٣: ٥).
- كما نصبح شركاء الروح القدس (عب ٦: ٣).
- ويعلن لنا الروح القدس يسوع الرب (١كو ١٢ : ٣).

– ويؤهلنا للاعتراف بألوهية الرب يسوع.

٥- كيف تم فصل كل هذه عن أقنوم الروح القدس. هل تم التبني بالروح القدس كما ذكر رسول يسوع: "أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبا أيها الآب" (غلا ٤: ٤)؛ لأننا هنا لا نقدر أن نتكلم عن آخر غير روح الآب الذي جاء لكي يعلمنا كل شيء ويذكرنا بكل ما قاله يسوع ربنا حسب كلمات الرب في إنجيل يوحنا (١٦: ١٣)؟ هل يمكن أن تنسب هذه إلى آخر غير الروح القدس؟ وعندما يقول الرسول: "أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم" (٢كو ٣: ١٦)، فكيف يمكن لهيكل أن يكون هيكلاً لله بدون الله؟ وعندما يقول أيضاً إن روح الذي أقام يسوع هو نفسه الذي سوف يقيم أجسادنا في اليوم الأخير، وهو نفس الروح الساكن فينا (رو ٨: ١١)، فهل يمكن – يا جورج يا أخي – أن تقول أنت أو أي إنسان آخر إننا لا نأخذ روح الله – الروح القدس؟

٦- لقد تجسد الرب من القديسة مريم بالروح القدس -هذا حق- ولكن لماذا؟ لكي يكون آدم الأخير – الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٨)، ولكي يفتح لك ولي باب الميلاد الجديد من الماء والروح. ولكن عندما تفصل بين تجسد ابن الله وتجديد الإنسانية في يسوع ... يقفز سؤال أليم جداً: ماذا بقى من المسيحية الأرثوذكسية؟ لقد جاء الاتحاد الأقنومي في تجسد ابن الله بكل سرائر الكنيسة – المعمودية – الميرون – الإفخارستيا – هذه أسرار أو سرائر الانضمام إلى جسد المسيح الكنيسة، وهي عودتنا إلى الحياة الإلهية عديمة الموت في يسوع، وحقاً في يسوع المسيح الينبوع؛ لأن الحياة الإلهية فُتحت لنا حسب التدبير وليس حسب شهوات الإنسان؛ لأن الله ليس تحت سيطرة وسطوة الإنسان، فيستولي على ما لديه، لا، بل هو يعطي حسب النعمة وحسب التدبير. لقد تحولنا في يسوع المسيح من آدم الأول المائت إلى آدم الأخير الحي إلى الأبد (١كو ١٥: ٢٢). هذا هو ذات تحول الناسوت أو إنسانيتنا نحن في يسوع المسيح.

إن بعض الإكليروس يخاف من هذا الكلام؛ لأن هذا يعطي مقاماً وكرامة

إلهية لكل أعضاء جسد المسيح الكنيسة، في حين أنهم يعشقون الاستبداد والتسلط والقهر، ولذلك ينزعون المسيح من أعضاء الجسد، أي الكنيسة؛ لكي يحلو لهم أن يمارسوا خطاياهم ضد أعضاء الجسد، وهذا هو قلب وجوهر العاصفة التي أثيرت حول الأب متى المسكين، وحول كاتب هذه السطور.

لذلك يا أخي: تمسك بالرب يسوع المخلص الذي يعطي لك حياته في الإفخارستيا، وقبل ذلك أعطاك شركة في مسحته في الميرون وفي ميلاده بالمعمودية .. وكم كان عجيباً حقاً عندما قال أحدهم: "إننا لسنا مثل المسيح"، وأنكر التبني – الميراث الأبدي – القيامة من الأموات – شركتنا في الآب (١يوحنا ١ : ١-٣)، ولم يقل إن المسيح أعطانا أن نكون إخوته حسب تجديد الطبيعة الإنسانية.

أرجو أن اسمع منك وأرجو أن لا تقل هذا منطقي؛ لأن التدبير له منطق خاص به يفوق منطق الفلسفة، وملامح هذا المنطق تجدها في (١كو ١٣: ١ - ٨)، أي منطق المحبة. كن هيكل الله حيث يحل روح الرب لكي يجعلك أنساناً جديداً المخلوق حسب الله (أفسس ٤: ٢٤).

الرب معك

عندما صار الكلمةُ إنساناً:

الإنسان والإنسانية في يسوع المسيح[1]

كل عام وأنتم بخير.

إطلالة الكلمة المتجسد ابن الله علينا نجدها في كل إنسان. لم يكن التجسد فكرة؛ لأن كل فكرة تفقد فاعليتها عندما تظل على الورق، إذ تنتهي على رف في مكتبة يقرأها الناس، ليس بالضرورة بقدرة عقلية، بل قد تدخل الفكرة في غابات الغرائز، أو الخوف، أو النسك أو الغضب .. وهي كلها تدور حول محور محبة الذات، والدفاع عن النفس، ولو كان ذلك بالهجوم على الآخرين ..

ما أكثر الأفكار! .. الديموقراطية عُرفت منذ أرسطو، فهو صاحب هذه الكلمة، وهو أول من كتب عن الدولة المدنية في تزامُنٍ مع جمهورية افلاطون .. ولكن تأمل مسيرة الفكرة عبر قرونٍ سُفِكَ فيها دم البشر، وهُدمت مدنٌ على رؤوس ساكنيها في قلب العالم المتحضر الذي أفرز الفاشية والنازية والماركسية .. وعلى رفوف مكتبات هذا العالم المتحضر ظلت أفكار دعاة الحرية معروفةً، وفي قدرة كل إنسان أن يقرأها .. ولكن كل هذه الأفكار والمبادئ الجيدة المدونة على الورق، للأسف، لم تجد من يجسدها.

---

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١٦ يناير ٢٠١٢.

أقدم الشرائع وتخلف البشر:

يقولون لنا في كتب التاريخ إن حمورابي ملك بابل هو أول من وضع شريعةً مكتوبةً للدولة .. وتزامن هذا مع ما نشأ في مصر الفرعونية .. ثم جاءت القوانين الرومانية .. وقد سبقت روما الكثير من الحضارات القديمة إلى تدوين شرائع لا زال بعضها يحتل نصوص القوانين الأوروبية، بل والعربية أيضاً .. ولكن القانون لم يحمِ روما، ولا حتى جيشها المنظم، استفاد من تجربة الإسكندر المقدوني ... وسقطت روما رغم تقدمها، ونقل قسطنطين عاصمة الإمبراطورية إلى ما يُعرف اليوم باسم اسطنبول ... وضاعت عاصمة الامبراطورية تحت ضربات العثمانيين. ولم تُنقذ مدونة جوستنيان –وهي أكبر موسوعة قانونية عرفتها الحضارة الرومانية اليونانية– الإمبراطورية من الانهيار.

القانون، كما قال أساتذتنا في كلية الحقوق – جامعة القاهرة، هو قواعد السلوك التي تحميها القوة عند الاقتضاء .. سمعت هذا أكثر من مرة، وهو وصفٌ شاملٌ صحيح .. ولكن لم نسمع لا في كلية الحقوق ولا في غيرها، كيف يُعلِّم القانونُ الإنسان السلوك، ولا كيف يمكن أن يغرس الخوف من العقاب، الأمانة، وكيف تستطيع كل القوانين أن تعلِّم الإنسان احترام الآخر دون خوف من عقوبة، أو لوم، بل مجرد احترام للإنسانية .. ثقةً في أن الكل يعرف الاحترام الذي تزرعه الحرية، بل وتدعمه تلك القوة الخلاقة التي نعرفها باسم المحبة.

فشل قانون العقوبات عبر العصور:

السلوك الجيد قناعةٌ في القلب، هو وليد المعرفة، وهو يشرب من محبة الوالدين، ومن صداقات في المجتمع تربي الاطمئنان وتحترم رأي الآخر، لا تقسِّم المجتمع؛ لأن التقسيم هو بذرة العداوة التي لا يمكن لأي قانون أن يستأصلها من قلب أي إنسان.

العقوبة تؤكد الدونية وتغرس احتقار النفس، أي نفس من تعدى وأخطأ.

والعقوبة تجيء من ينبوعٍ هو الخوف، والخوف صديقٌ حميم يغرس الاحتراس وتفضيل الذات، وبذلك يقتل التضحية والبذل الذي تزرعه المحبة.

لقد فشلت العقوبات في محكمة نورمبرج التي أعدمت قادة النازية في أن تستأصل الكراهية العرقية .. وعادت تطل برأسها في حرب البوسنة، وفي أحداث متفرقة في عالمنا العربي.

ونلاحظ أن الكراهية تأخذ عدة أثواب ترتديها في فخر: ثوب الانتماء الديني – الأصول العرقية – مصادرة الحريات الأساسية التي لا يمكن أن تعتبر ترفاً، مثل حرية التعبير عن الرأي، وغيرها .. سمعنا فكاهةً مؤلمةً عن قيادات شيوعية وسمعناها عن فرانكو اسبانيا، فعندما مات ستالين وفرانكو، كان أعوان كل منهما في حيرة: مَن الذي سوف يُبلغ الزعيم بأنه مات !!!

ومع ولادة طفرة الإعلام ... دخلت السينما والموسيقى عالمنا، وأسرتها الأنظمة الشمولية .. وشبكة المعلومات، صارت ملاذاً للباحثين عن الجنس والمخدرات، بل والإرهاب وصنع القنابل وسرقة البنوك، ويقف القانون عاجزاً عن أن يمس مجرمين أذكياء يسرقون ويصدرون الإدمان ويزرعون الخوف.

فما هي أسباب عجز أشد القوانين ضراوة؟

السبب الأول: هو تحايل الإنسان على القانون نفسه، والالتفاف على النص سهل ميسور، لا سيما في ظل انعدام الحرية.

السبب الثاني: هو غلبة الغرائز لصوت العقل، وشريعة الغرائز دائماً بلا عقل. ورغم إحكام الأنظمة البوليسية في النظم الشمولية إلَّا أن الفساد دخل قلوب النظام البوليسي نفسه؛ لأن فئةً تريد أن تحكم بالقوة والعنف لكي تهتك الأعراض وتسرق المال العام؛ لأن الوطن ليس وطناً للجميع، بل هو لفئة دون فئات أخرى.

السبب الثالث: هو ثقافة القهر وزرع الخوف بالسلطان، وهناك مقولة يرددها

البعض دون بحث: "الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن". ولكن سلطان مَن؟ ومَن الذي يمسك بعصا السلطان أو سيفه؟ فهو ليس الله، بل هؤلاء الذين يدَّعون أنهم يحكمون باسم الله، وهم بشر لا عصمة لهم؛ إذ لا يوجد قلب إنسان يخلو من رغبات خاصة وشهوات خفية.

ما بين التقدم للخلف وفقدان المستقبل:

غريب أن نقول: "التقدم للخلف"؛ لأن الخلف والتقدم هما معاً حركتان في عكس الاتجاه .. لكن ذلك الحلم الذي يراه البعض عن عصر ذهبي كان موجوداً منذ ألف سنة أو أكثر أو أقل ليس أكثر من خرافة أو خيال. تأمل إنساناً في القرن الـ ٢١ وعقله في القرن السابع أو الثامن أو العصر الوسيط .. هو لا يعرف الحاضر، ولا يفكر في المستقبل .. مأساة وأي مأساة أن تحاول استرجاع ما مضى رغم أنه مضى وغاب في الماضي القريب أو البعيد .. ويكون حجم المأساة أكبر؛ لأن ما نظن أنه العصر الذهبي كان بلا مقومات تجعله يحيا أكثر ويدوم لفترة أطول. وعندما قال ابن خلدون في "المقدمة"، وهو كتاب لا بُد من دراسته بعناية تامة: "ما طار طير وارتفع إلَّا وكما طار وقع"، فإن المغزى ليس في طيران الطيور، بل في تعاقب الثقافات والحضارات .. إن الصلاة والصوم وقراءة كل كتب ديانات الأرض لن تحرر فلسطين، فقد جاء قوم أخذوا بأسلوب الحرب الحديثة ولعبوا "لعبة الأمم" بمهارة دون صوم أو صلاة وبدون العودة للتوراة، وأخذوا الأرض.

التقدم للخلف هو أن نظن أن السابقين أقدر منا على كل شيء. هذا يساوي فقدان الثقة بالنفس، ويساوي فقدان الصلة بالحاضر، ويساوي ضياع المستقبل. والتقدم للخلف هو محاولة إحكام السيطرة على رقاب الناس وحياتهم بشرائع – مهما كان مصدرها – دون العودة إلى أصلها التاريخي، ومدى حاجات البشر في تلك الحقبة التاريخية إلى هذه الشرائع، وهي حقبة ذهبت ولن تعود لأن الأيام لا تسير إلى الخلف بل إلى الأمام.

كتب عبد الله العروي كتابه المشـهور، الذي لم يعد مشـهوراً "العرب والفكر التاريخي" في محاولةٍ منه لأن يقول إن ما حدث في حقبات التاريخ الماضي لا يمكن أن ينسجم مع التاريخ المعاصر، وإن النظريات والقوانين لا تقود التقدم، بل الذي يقود التقدم هو: حرية البحث – التجديد – الإبداع – ديناميكية العلاقات الانسانية التي تؤمن بالتقدم وتسعى دائماً الى البحث عن الأفضل.

هذا رأيناه في الطب – الزراعة – الهندسة – الاتصالات – وبكل أسف استفاد تجار الحروب من التقدم، كما استفاد تجار الجنس من شبكة المعلومات.

الإنسان هو مرجعية الإنسانية:

سألني صديق عن سبب إيماني بالمسيح، فقلت له دون تردد: تجسُّد الكلمة.

وابتسم صديقي، وقال: اشرح، فقلت له .. لقد مر الإنجيل، أي البشارة المفرحة، بكل منحنيات العجز والقهر والخوف والشك التي عرفها الإنسان. هاجمه النقاد. اتهمه الذين يدَّعون معرفة الديانات المقارنة بكل اتهام ممكن. صوَّره عابدي القوة بأنه دعوةٌ للضعف .. مئات من الملفات، بل ألوف من الأوراق تُكتب ضد الإنجيل، تحاول تحويل تجسُّد الكلمة إلى كتاب، مع أن الاسم نفسه "تجسُّد الكلمة" يفيد بأنه تجسَّد في حياةٍ إنسانيةٍ، وليس على الورق.

جاءت المجامع بكلمات دفاعية ضد الهرطقات: "المسيح واحد من طبيعتين"، ثم قال آخرون: "واحد في طبيعتين"، ودبَّ شجارٌ لا زال ساري المفعول منذ ٤٥١م. مر عليه ١٥٠٠ سنة! .. خلافٌ على "في" و"من"، ونسى المحاورون كلمة "واحد"... تحول التجسد إلى فكرة دفاعية .. وضاعت الإنسانية، نعم إنسانية يسوع، بل تخيَّل البعض إن الكلام عن إنسانية يسوع يتساوى مع إنكار ألوهيته. وصارت الكلمات هي معيار الحق .. ونسى الوجدان إن من قال: "أنا الحق" لم يكن عبارة أو كلمات، بل شخصٌ حي، علَّم، ومات، وقام وصعد إلى سماء الحياة العليا، تلك التي نزل منها ليجعل الحياة السفلى عليا ...

صار الحوار حول "آيات الكتاب المقدس"، هذا يضرب بآيات، وآخر يدافع ويهاجم بآيات أخرى ..

تحول التجسد من حياة إنسانية إلى أفكار .. كلمات .. نظريات .. لكن من قال: "أنا الحق" لا يدخل قفص الفكر؛ لأنه أضيق من أن يسعه .. ولأن صديقي فيلسوف محترم سألني على طريقة الفلاسفة: كيف يمكن أن يكون الإنسان هو مرجعية لنفسه؟ سؤال جيد، ولكن الالتزام عند يسوع ليس بالإنسان كفكرة، ولا بالإنسان في إطار نظرية .. الإنسان عند يسوع هو الإنسان الجائع الذي لا يحتاج إلى نظرية تؤكد أنه جائع .. الإنسان الغريب الذي بلا مأوى هو فوق كل الدساتير والأنظمة .. المريض الذي يصارع الألم، السجين خلف قضبان .. الإنسان كما هو في الحياة، كما نعرفه ... أمثال الملكوت كانت عبارة عن مناظر من الحياة اليومية: الزارع، الابن الضال، الفريسي والعشار – وغيرها. ٩٩ % من تعليم من قال: "أنا الحق" ليست نصوصاً، ولا هي آيات، بل كانت مبنية على حركة الحياة .. تُعلمنا حركة الحياة مَن هو الإنسان في أشد حاجاته وفي أعظم تطلعاته.

الإنسان فوق كل العقائد؛ لأن العقائد ليست سجناً للإنسان، بل هي أصلاً للدفاع عنه، ولكنها تحولت إلى سكاكين لقتل حرية الرأي .. الإنسان مكانه فوق كل ما يأتي به القانون؛ لأن القانون لا يُلزمنا أن نعطي الطعام للجائع، أو نأوي الغريب، أو نزور السجين .. وعندما يأمر القانون بذلك ويعاقب المخالف .. لا تصبح الصدقة من الصدق، بل تصبح اتقاءً للعقوبة. ولم تعد زيارة المريض رحمة، بل حملاً ثقيلاً وفرضاً يقتل الحرية.

هكذا حذف يسوع كل الأفكار والنظريات وقال: أنا هو الجائع – أنا هو الغريب – أنا هو العريان – أنا هو العطشان .. وظهرت هذه الملامح في وقائع الصلب، فقد هرب أعز أصدقائه عند المحاكمة، وأنكره صديق مخلص أمام جارية، وصرخ عطشاناً، وكان غريباً لم يجد من يدفنه إلَّا صديقٌ قديم، تقول عنه أُنشودة قديمة إنه تقدم إلى بيلاطس وفي رجاءٍ قال: "أعطني هذا الغريب ..".

وبعد،

يا من تجسدت في شكلنا الإنساني؛ لأنك تحب الإنسان .. يا من عبرت كل حواجز الزمن والقوانين لتقول: أنا الإنسان، ويا من قيل إنك ابن الإنسان الذي لأجله وضع السبت، وهو أعظم من كل هيكل وبناء .. يا ليتنا نلحق بك عندما نتمسك بالإنسانية.

وسألني صديقي أيضاً: ماذا قال يسوع عن الإنسان في أكمل حال؟ وقلت له: تكلم عن الكمال في المحبة .. فالمحبة هي طريق الكمال، وليس للمحبة شريعة أو قانون لأنها حركة الحرية في الإنسان، وللحرية باب واحد صحيح هو المحبة، إذا أغلق أمام الحرية ضاعت المحبة وضاعت معها الحرية .. فلا حرية بلا محبة ولا محبة بلا حرية.

عندما تخطئ المحبة تجد طريق الحق بسهولة؛ لأن طريق الحق يُكتشَفُ بالتقدم والاسم القديم للتقدم هو التوبة في لغتنا العربية، وفي لغة يسوع هو تغيير الاتجاه، أقصد اتجاه الحياة.

يوم تجسد الكلمة، يومٌ لا ينتهي[1]

يوم أسَّس وحدانية الله والبشر،

الحياة حلَّت في الحشا البتولي

حلَّت في الخاضع للموت،

فخضع الموت للحياة،

وحملت الحياةُ الترابيين إلى

عرش اللاهوت.

****

سَكَنَ غير المحوي

في جسد بشر،

فصار المحوي في حياة الله.

****

ذاق الخالق الحبل،

والولادة،

والنمو،

(1) نشرت على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٥ يناير ٢٠١٣.

ولما صار إنساناً،

بالحبل تخلى عن مجده.

****

بالولادة نقل أصلنا إلى أقنومه

بالنمو اختبر الوجع وحدود الطبيعة،

فصار معنا ومثلنا.

****

نقل القابل للموت إلى الخلود،

المتوجع إلى عدم الوجع،

الغريب عن الألوهة إلى الاتحاد.

****

حفظ التمايز بين اللاهوت والناسوت،

فأسَّس الوحدانية الحقة التي بلا افتراق،

عيد أبدي لله والإنسان.

****

يوم سكن الحي إلى الأبد

في موتنا نحن البشر،

حقق ما ذكره سفر الخليقة،

لم يأخذ تراباً من الأرض،

أخذ لحماً ودماً من البتول،
فرفع المرأة من وهدة حواء.

****

يوم لا ينتهي؛
لأن النور يشرق في الظلمة،
والظلمة لا تحتويه.

****

الاتحاد لم يكن مؤقتاً،
محبة البشر هي تجسد الكلمة
أعلنت لنا حقيقة الله والإنسان معاً
ليس في نظام ولا في قانون ولكن في شخصك
ولكننا قسَّمنا الحقيقة الواحدة إلى مواضيع
والتبعيضُ مرضُ المائتين
قابعٌ في عقولنا المنقسمة
تسعى لخلود رسمه خيالنا
هو زيف نهائية واضحة

****

الذين يكرهون الجسد؛
لأنهم فقدوا البراءة،

حملهم عار الدنس والخطية،

لرفضك متجسداً،

جدفوا على محبتك للبشر؛

لأنهم يكرهون حتى بشريتهم.

****

عابدو الأوثان

اسقطوا داء الوثنية القديم،

ولبسوا رداء الوثنية الجديدة،

هو رفض المحبة باسم العدل

تمزيق وحدانية الله إلى شخص وقانون،

سكروا بذات خمر الإلياذة،

في حانات القوة والكبرياء وجدوا ذواتهم،

شربوا كأس الخمر حتى آخر نقطة،

سحقوا الودعاء فسقطوا في بئر التحجر،

شربوا سُم التعالي،

تحولت الخدمة إلى عبودية،

فنام التقدم في كهف الجهل والكسل،

فصار القتل شريعة حق،

لأن عبداً يحكم عبيداً،

فلا شريعة للحاكم والمحكومين إلّا سيف القتل

****

في هذا البلاء الداهم أنت تتجسد

لا تراقب الظلم ولا تصمت على العدوان

بل تحرك نسمات الحرية

يا من أشرقت بتواضع المحبة

عشت في لحمنا ودمنا

لكي يشهد لك اللحم والدم

****

من أنشد لتجسدك

أنشد لعظمة الله والإنسان

أنشد للخلود والمحبة

تغنّى بالاتحاد في ليل الفرقة الداهم

****

كيف يصف لسانٌ مَن اتحد بنا

الإنسانية تعيش فيك

أنت تعيش في الإنسانية

صارت واحداً معك

بغير اختلاط لكي تبقى

بغير امتزاج لكي تحيا

بغير تغيير لكي تنال محبتك للبشر

****

بتجسدك صارت محبة البشر

صفة أبدية من صفاتك

كانت مستترة ثم أُظهرت

المجد لك هو مجد للإنسانية فيك

يا محب البشر

كل عام وأنتم بخير

تجسد الكلمة،
وحقائق لا يجب أن ننساها أبداً[١]

لا يوجد في عالمنا اليوم مَن يُقدِّس الجسد الإنساني كوجه إلهي للإنسان سوى المسيحية، ولو أضفت المسيحية الأرثوذكسية بالذات؛ أكون قد سجَّلت الحقيقة التاريخية التي أتمنى أن يحياها كل مسيحي وكل أرثوذكسي يعرف تراث وتسليم الأرثوذكسية المودَع في صلواتنا، التي كانت، مع الأسفار المرجعية، هي الأولى التي استند عليها الآباء في شرح الإيمان.

مَن يريد أن يشرب من ينبوع ماءٍ صافٍ نقيٍّ، عليه أن يصلي الإبصاليات لاسم الرب يسوع، فهي صافية بعيدة عن صراع اللغات والألفاظ، سبقت عقد مجمع خلقيدونية ٤٥١م، بل سبقت مجمع نيقية ٣٢٥م بعدة سنوات؛ لأن ملامح هذه القطع الفاخرة فيها صفاء ونقاء العهد الجديد نفسه.

أرجو من الأخوة والأخوات من الذين يكتبون للموقع، أن يكون لديهم سعة صدر ومحبة مسيحية حقيقية؛ لأن الإيمان المسيحي لا يعرف الصيغة أو الصيغ كمقياس لصحة الإيمان، وإنما يبحث أولاً في النية والقصد؛ لأن الرب نفسه لم يُعلِّم صيغةً معينةً، وإنما علَّمنا حقائق معينة يمكن أن تُكتب وتُقال بكل لغات العالم، والقصد من تعبير معيَّن هو المطلوب، وليس التعبير نفسه. وما أعظم الفرق بين المسيحية التي ترى أن نظرة القلب هي بداية زنى القلب، واليهودية والإسلام اللذان يريان الزنى في العلاقة الجسدية نفسها. القلب هو مركز الوعي كما قال الرب نفسه (مرقس ٧: ٢٢).

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١ مارس ٢٠١٣.

الكلمة أخذ لحمنا ودمنا:

العبارة الرسولية: "الكلمة صار جسداً"، لها شرحٌ رسوليٌ يصدم الذين يكرهون الجسد؛ إذ يقول رسول رب المجد: "ها أنا والأولاد الذين أعطاهم الله لي"، وهي عبارة على لسان المسيح له المجد، سبقها بقوله إن الرب "لا يستحي (أي لا يخجل) أن يدعوهم إخوة قائلاً أخبر باسمك إخوتي وفي وسط الكنيسة اسبحك" (عب ٢: ١١ – ١٣)، فهو يسبِّح معنا في الكنيسة؛ لأنه رأس الكنيسة جسده الذي به يقدم التسبيح لله الآب. أمَّا صدمة التجسد فهي:

"إذ تشارك الأولاد في اللحم والدم، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس ويحرر (أو يعتق) أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية" (عب ٢: ١٤ – ١٥).

لقد أخذ لحمنا ودمنا؛ لأن عبارة "اللحم والدم" كما وردت في الأسفار، تعني الإنسان كما هو في الواقع، وليس لهذه العبارة علاقة بالخطية أو الشر كما ساد في مدارس المانوية وشيع الغنوسية.

وعلى لسان الرب يسوع نفسه يمدح بطرس ويقول له: "طوبى لك يا سمعان باريونا لأن لحماً ودماً لم يُعلن لك ولكن أبي الذي في السموات". ويقول رسول رب المجد بولس العظيم: " لم أستشر لحماً ودماً"، بل حتى الولادة الجديدة من الله هي ليست "من دم ولا من إرادة جسد" (يوحنا ١: ١٣) أي ليست ولادة جسدانية.

أمَّا عبارة رسول رب المجد: "إن لحماً ودماً لا يقدر أن يرث ملكوت السموات ولا يرث الفاسد عدم الفساد"، فقد سبق هذه العبارة نصٌ طويل عن تحول اللحم والدم في القيامة، بل في السطر السابق على هذه العبارة: "وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس صورة السماوي"، وبعدها: "يُقام الأموات عديمي الفساد ونحن نتغير؛ لأن هذا الفاسد لابد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت" (١كو ١٥: ٤١ – ٥٤).

التحول العظيم والأخير للإنسانية في يسوع المسيح:

لقد أخذ الرب اللحم والدم؛ لأنه حسب التعليم الرسولي: "من نسل داود حسب الجسد" (رو ١: ٣)، ووُجِدَ في هيئة الإنسان، وهي اللحم والدم والعظام؛ لأن الرب لم يحتقر الخليقة التي خلقها هو نفسه، فهو خالق كل الأشياء، وخالق الجسد والنفس، وهو واهب الحياة لكل الكائنات (ليس للمسيحيين فقط)، فهو الكلمة اللوغوس رب الكون، مسيح الكون الذي جاء لكي يجمع كل شيء في كيانه الإلهي المتجسد. هو "من نسل داود حسب الجسد"، هذا في ولادته، ولكنه بعد أن جاز وادي الموت، وقام حياً بالروح القدس كما شهد بذلك رسول رب المجد:" إن كان روح الذي أقام يسوع ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة بروحه الساكن فيكم" (رو ٨: ١١)، فقد حوَّلت القيامةُ مَن هو مِن نسل داود إلى الإنسان الجديد الذي لا ينتمي إلى اليهود أو الأمم، بل الإنسان السابق على الخطية وشريعة موسى، "الخلقة الجديدة"، ولذلك يبشِّر رسول المسيح الأمم قائلاً: "لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط (الذي كان يمنع الأمم من دخول الهيكل)، أي العداوة (ولاحظ قوة ودقة التعبير) مبطلاً بجسده ناموس أو شريعة الوصايا في فرائض (أي هدم وساطة الشريعة الموسوية، والسبب) لكي يخلق الاثنين (اليهود والأمم) في ذاته أو نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً". ثم يؤكد الرسول أن ذاك الذي من نسل داود "يصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به" (أفسس ٢: ١٤ – ١٦). (رجاء مراجعة الترجمة القبطية فهي أدق بكثير من الترجمة العربية).

لقد صُلِبَ ذاك الذي أخذ اللحم والدم؛ لكي يحوِّل في كيانه الإنسانية من آدم الأول إلى كيانه بعد أن يحوِّل هو ذاته ذلك الكيان الإنساني الذي أخذه من القديسة مريم من فسادٍ إلى عدم فساد، ومن موتٍ الى حياة، تحوُّلٌ تم في كيان الرب نفسه، وهو التحول الذي جاء به الاتحاد الأقنومي.

التحول العظيم والأخير بسبب الاتحاد الأقنومي:

هو تحوُّلٌ جعل الرب آدم الأخير. تحوُّل الإنسان الأول من الأرض، أي الترابي إلى الإنسان الثاني الرب من السماء (١كو ١٥: ٤٥ – ٤٧).

لكن ذلك التحوُّل ليس تحوُّلاً ميكانيكياً يتم بالولادة من القديسة مريم وبالاتحاد وحده؛ لأن هذا هو تحوُّلٌ يتم بالتسلط والقهر والاستبداد ونفي حرية الإرادة وسلب النمو الإنساني، وهو تعبيرٌ عن النرجسية وليس المحبة الصادقة التي جعلت الرب يأخذ "الفاسد" والقابل للموت؛ لكي يتركه ينمو حسب قوانين الجسد وحسب النمو الإنساني؛ لأن يسوع كان ينمو في النعمة والقامة عند الله والناس (راجع لوقا ٢: ٥٢). لم يكن التجسد شريعة استبداد واستيلاء وقهر، بل اتحاد ومحبة واخلاء للذات (فيلبي ٢: ٦). لقد وضعت أم الشهداء هذا المعنى في سطرٍ واحد:

"أخذ الذي لنا

وأعطانا الذي له".

وخلف هذه العبارة ملفات كثيرة عند أثناسيوس – غريغوريوس النزينزي – كيرلس الكبير وغيرهم من أعمدة الايمان. وفي عبارة واحدة للقديس غريغوريوس النزينزي: "ما لم يتحد به لم يُفتدَ ولم يخلُص"، أو إن شئنا دقة الترجمة فهي: "ما لم يأخذه ويتحد به لم يُفتدى"؛ لأن الفداء تم داخلياً في تحوُّل كياني يقابل فيه رب المجد الموت، القبر، الفساد، ويبيد هؤلاء في جسده؛ لكي يتحول ذلك الناسوت القابل للموت إلى "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١)، فقد أخضع كل شيء تحت قدميه، وأباد الموت والفساد في كيانه هو، وهو ما نجده في رسالة أثناسيوس العظيم إلى أدلفوس، وفي الرد على الأريوسيين المقالة الثالثة، وفي رسائل القديس كيرلس.

الاتحاد الأقنومي ليس شركةً، بل اتحاداً طبيعيّاً أو حسب الطبيعة:

نحن نشترك في ألوهية الرب بسبب تجسده، فقد اشترك هو في اللحم والدم، وأخذ الذي لنا. ولكن هذه هي عبارات القديس كيرلس الكبير:

> "لسنا نقول إن كلمة الله حلَّ في ذلك المولود من العذراء .. إذ صار جسداً، فلا يُقال عن حلوله إنه مثل الحلول في القديسين، ولا نجد هذا الحلول فيه أنه يتساوى وبنفس الطريقة كالحلول في القديسين، ولكن الكلمة إذ اتحد "حسب الطبيعة κατά φυσιν" لم يتغير إلى جسدٍ، فإنه حقق حلولاً يمكن أن يشبَّهُ بحلول نفس الإنسان في جسده الخاص" (رسالة ١٧ رسائل القديس كيرلس – ١٩٨٨ – مركز الآباء ص ٢٤ – ٢٥).

الاتحاد الأقنومي هو اتحادُ طبيعتين، وليس شركة طبيعية إلهية أو طبيعة إنسانية في طبيعة إلهية؛ لأن تعبير الشركة خاصٌ بنا، وشركة الرب في اللحم والدم (عب ٢: ١٤)، هي خاصةٌ بالتجسد، وليست خاصة بالاتحاد الأقنومي؛ لأن الرب "وحَّدَ مع ذاته أقنومياً، جسداً" (رسالة ٤ ص ١٣ المرجع السابق). وبسبب الاتحاد الأقنومي "المسيح يسوع .. يكرَّم بسجدةٍ واحدةٍ مع جسده"، ولاحظ أن القديس كيرلس يقول بدقة:

> "بإخضاع جسده الخاص للموت، رغم أنه حسب الطبيعة هو الحياة، وهو ذاته القيامة؛ لكي بواسطة قوته التي تفوق الوصف، إذ قد داس الموت أولاً في جسده الخاص، صار البكر من الأموات (كو ١: ١٨)، وباكورة الراقدين (١كو ١٥: ٢٠)، ولكي يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان وبنعمة الله.." (المرجع السابق ص ٢٧-٢٨).

فلم يكن التجسد والصلب والقيامة تمثيلية، بل معايشة الله لكل حياة البشر، بل هي "لقد وُلِدَ لكي يبارك بداية وجودنا ذاتها. وإذ قد ولدته امرأة وحَّد في ذاته الجسد ليرفع اللعنة عن كل الجنس الإنساني.." (ص ٣٤)، ولذلك يقول القديس

كيرلس في الفصل الثاني أو الحرم الثاني:

"ومَن لا يعترف أن الكلمة الذي من الله الآب قد اتحد بالجسد أقنومياً، وهو مع جسده الخاص به مسيحٌ واحدٌ، وأنه هو ذاته بوضوح إلهٌ وإنسانٌ معاً، فليكن محروماً" (ص ٣٦).

وفي الفصل أو الحرم الخامس يقول:

"مَن يتجاسر ويقول إن المسيح حاملٌ لله وليس بالحري هو الله بالحق، والابن الواحد بالطبيعة، إذ أن الكلمة صار جسداً واشترك مثلنا في اللحم والدم، فليكن محروماً" (ص ٣٦-٣٧).

الاتحاد الأقنومي والتدبير:

"حسب التدبير" هي عبارة تُعدُّ من أهم مفاتيح الفهم المستقيم للأرثوذكسية؛ لأنه (حسب التدبير) أقام الرب موتى، وهؤلاء سوف يموتون من جديد، ولكنه أعلن قوة الدهر الآتي وقيامة الأموات قبل أن تحدث؛ لأنه -حسب التدبير- يعطي لنا علامات الدهر الآتي مثل شفاء المرضى، رغم أننا سنموت بعد ذلك، أو معرفة الأمور الآتية قبل أن تحدث. بل لقد شرح الآباء معجزة إشباع الجموع على أنها -حسب التدبير- هي علامة من علامات الدهر الجديد، حيث "الخبز النازل من فوق من عند الآب"، أي جسد الرب ودمه، ولذلك قد يسبق الرب -حسب التدبير- ويعطي ما سوف يُعطى كاملاً بعد القيامة مثل عطية الروح القدس الذي نأخذه الآن "عربوناً"، ولكن في الدهر الجديد هو العطاء الكامل. وعلى نفس القاعدة اللاهوتية (حسب التدبير)، سبق الرب وأعطى جسده ودمه في العلية للتلاميذ قبل أن يُصلب؛ لأن العطاء -حسب التدبير- يُعلَن في زمان العطاء وهو خميس العهد، وعطاء قبل القيامة، ولذلك كانت كبوة كل حصان سريع الجري إلى أن هذا العطاء هو عطاءٌ رمزي، تدل على تقسيم الرب نفسه حسب الزمان: ما قبل وما بعد، بينما -حسب التدبير- ما قبل، هو ما سوف يُعطى كاملاً، وما يعطى كاملاً هو ما بعد، ولذلك كان عطاء الجسد والدم قبل سفك الدم على الصليب هو استعلان إرادة العطاء (عب ١٠:

١٠)؛ لكي يؤسِّس الفصح الجديد، وهو عطاءٌ حقيقي مثل قيامة الأموات قبل يوم القيامة، وهو عطاءٌ يسبق فيه الرب ترتيب الزمان؛ لأن الزمان لم يعد له دورٌ في التدبير، فقد فَقَدَ الزمان دوره لأن الاتحاد الأقنومي تم "في ملء الزمان" (غلا ٤: ٤)، وملء الزمان، هو وصول الزمان إلى نهاية عمله. فالزمان حدد فصول الخلاص في العهد القديم، ووجود الأعياد، ولكنه بعد أن "حلَّ ملء اللاهوت جسدياً" في يسوع (كو ٢: ٩)، صار لنا نحن "أنتم مملؤون فيه الذي هو رأس كل رياسة وسلطان" (كولوسي ٢: ١٠)، ولذلك ليس لدينا فصول "عيد أو هلال أو سبت"؛ لأن هذه هي ظلال الأمور الآتية (كولوسي ٢: ١٦ – ١٧).

وسبق تحوُّل الماء الى خمر، تحوُّل الخبز والخمر في الوليمة السماوية. وسبق حلول الروح القدس على الرب نفسه، حلوله علينا في يوم الخمسين. وسبقت قيامة الرب، قيامتنا نحن، بل لقد صُلِبَ لكي نصلب نحن معه، ومات لكي نموت نحن معه، نموت قبل أن نموت لكي به نقهر الموت.

هذه هي بعض حقائق التدبير، وبعض ملامح التجسد، والأخوة والأخوات الذين يكتبون للموقع عليهم دراسة رسائل القديس كيرلس السكندري – تفسير إنجيل يوحنا – المسيح واحد – شرح تجسد الابن الوحيد – تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس – رسائل القديس أثناسيوس – الرد على الأريوسيين – وأخيراً نشرت شبكة المعلومات المقالات الخمس ضد تجاديف نسطور، وهي أدق تعليم عن كهنوت الرب يسوع.

لقد سبَقتَ ورسمتَ لنا -تدبيرياً- كل ملامح الدهر الجديد. جعلتَ الزمانَ يقف حائراً، فقد خلقته لكي يشهد لك، لا لكي يحكمك.

لم تُرتِّب خلاصاً زمانياً، بل حسب تدبير المحبة. وفي المحبة، الشِّركُ توحيدٌ، وبدون المحبة الشِّركُ عمل الشيطان. الشيطان لا يعرف الشركة؛ لأنه لو عَرِفَ المحبة لَعَرِفَ الله. ونحن يا رب المحبة لو تركنا المحبة؛ صرنا مرتدين عن محب البشر.

حَرِّرنا من سطوة الكلام، وسطوة الأفكار وأعطنا حرية المحبة.

كيف نفهم إيماننا؟
المسيح الإله الكامل والإنسان الكامل[1]

أستاذي الفاضل

إنني أدرك تماما أن الاتحاد الأقنومي -بالتعريف- يعني أن أي شق من عنصري الشخص يستعلن الشخص كاملا، ولا مجال لفكرة الإضافة أو التركيب او التجميع الميكانيكي، وأن أي تفكير في وجود منعزل لأي من العنصرين مع افتراض بقاء الشخص هو تفكير فاسد مدمر لمفهوم الاتحاد الأقنومي من جذوره.

إن مسألة موت الرب وقيامته مسألة كاشفة لحقيقة الاتحاد الأقنومي. وإنني إذ أطرح تأويلا جديدا لهذه المسألة فهذا لا يعني أنني لست على دراية بالآباء، بل على العكس تماما، لقد تتلمذت على الآباء -لاسيما أثناسيوس- بفضل تلمذتي عليكم منذ أكثر من ربع قرن من الزمان، ولكن هضمي لتراث الآباء -على الأقل لجوهر الفكرة المسيحية الرئيسية التي تعرف بمصطلح "الأمانة الأرثوذكسية"- لم يمنعني من أن أتقبل بالنعمة مزيدا من وضوح الرؤية التأويلية التي لم يطرحها الآباء ولكنها لا تصطدم معهم في ذات الوقت.

وفي هذا الصدد إنني أعصف ذهني معكم، ولا أتوقع ردا، كما تفضلتم وصرحتم، ولكنني أتوقع أن أخاطب رحابة أمانتكم العلمية في تحري أي جزئية وعدم المصادرة، فقد يكون العبد الفقير إلى الله ملهما بالنعمة بما لم يأت به الأوائل، وقد يكون مخطئا وفي هذه الحالة فلا أقل من أن تفند طروحاته بدقة حتى تكون هدايته

[1] مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية رداً على سؤال أحد القراء في مايو ٢٠١٣.

لصواب الفكر على يديكم كأستاذ له

كيف مات يسوع؟ والإجابة عند أثناسيوس في كتيب قديم لكم هي أن نفسه قد انفصلت عن جسده ولكن اللاهوت لم ينفصل عن جسده في القبر ولا عن نفسه في الهاوية إلى أن اجتمعت النفس بالجسد ثانية فقام الرب من الأموات. والسؤال هو: هل موت يسوع بهذه الطريقة هو موتنا نحن؟ ثم إذا كانت النفس قد حفظت - وكان الجسد قد حفظ - من الهلاك بفضل "الوحدة الأقنومية" مع اللاهوت، فكيف سمح من الأصل بموت من هو جسد الكلمة الخاص؟ هل يموت جسد الحياة؟ ألسنا بهذه الطريقة نكون قد انزلقنا إلى نظريات وهمية وفلسفات بعيدة عن الحقيقة الكيانية؟ هل الأمر تمثيلية تعسفية: ترك مؤد للموت واستدعاء مؤد للقيامة؟

ألا تبدو القيامة -على هذا النحو- حدثا تعسفيا طارئا، مغيرا لطبيعة شخص الرب المولود من العذراء؟

في لحظة موت الرب، هل ظهر شخص الرب يسوع كشخص انتقالي ينتظر التكميل بالقيامة؟

إن رؤيتي هي أن شخص الرب يسوع هو شخص كامل منذ أول لحظة له في رحم العذراء هو الإنسان الكامل بقدر ما هو الإله الكامل، ولكنه لأنه جسد الكلمة الخاص وبفضل الاتحاد فهو حي وخالد بطبيعته، بل هو مصدر حياة وخلود الجميع، وهو إذ قد سبق فسكن خيمة طبيعتنا الفاسدة فقد اختار بإرادته الحرة أن يجتاز الفساد والموت والعدم في هذه الخيمة وخرج منتصرا ومعلنا ذاته كخميرة لخلود جميع الذين يقبلونه كرأس لوجودهم الجديد.

ذلكم هو الطرح الذي وضعه أحد القراء على شبكة المعلومات، وهو في رأينا طرحٌ لا يخلو من تهور، بل وتجاوز لما هو معقول وثابت.

وفي البداية نشير إلى قوله بأنه تتلمذ على الآباء لا سيما أثناسيوس، وأن هذه التلمذة "لم تمنعني من أن أتقبل بالنعمة مزيداً من وضوح الرؤية التأويلية التي لم يطرحها الآباء، ولكنها لا تصطدم معهم ..". "وقد يكون العبد الفقير إلى الله ملهما بالنعمة بما لم يأت به الأوائل".

وعلى ذلك فهو -إن كان ملهماً- فالمقارنة بين ما لديه وبين ما عند الأوائل هي واجبه الأول، فعليه أن يذكر لنا بالتفصيل كيف تفوق على الآباء الذين يقول إنه درسهم، ويؤكد على القديس أثناسيوس الرسولي بالذات.

هل هذا إلهام أم تخبط؟

يقول: "إن رؤيتي هي أن شخص الرب يسوع هو شخص كامل منذ أول لحظة في رحم العذراء هو الإنسان الكامل بقدر ما هو الإله الكامل".

هذه الفكرة هي فكرة عامة تتجاهل ما ورد في رسالة العبرانيين: "لأنه لاقٍ بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل وهو آتٍ بأبناء كثيرين إلى المجد **أن يُكمَّل رئيس خلاصهم بالآلام** .." (عب ٢: ١٠).

بل وتتجاهل أيضاً ذكر صراع الرب في البستان: "الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتضرعات للقادر ان يخلصه من الموت وسمع له من أجل تقواه، مع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به، وإذ كُمِّلَ صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي .." (عب ٥: ٧).

وبالرغم من أن صاحب السؤال يقول إنه درس أثناسيوس، يبدو أنه لم يدرسه بشكل كاف. فعند أثناسيوس العظيم:

"أخذ الرب جسداً قابلاً للموت (تجسد الكلمة ٩: ١).

"جسدٌ لا يختلف عن جسدنا (٨: ١) قابلاً للموت ويبقى في عدم فساد بسبب اتحاده بالكلمة (٩: ١ – ٩: ٤ – ١٣: ٩).

ولا أدري ما إذا كان صاحب هذا الرأي قد درس الفصل العشرين من كتاب تجسد الكلمة أم لم يقرأه، فالفصل ٢٠ كله عن جسد الرب، يقول أثناسيوس:

"فالجسد لكونه من طبيعة البشر ذاتها لأنه كان جسداً بشرياً ... كان قابلاً للموت لذلك كان لابد أن يموت كسائر البشر نظرائه غير أنه بفضل اتحاده بالكلمة فإنه لم يعد خاضعاً للفساد الذي بحسب طبيعته، بل بسبب كلمة الله الذي حلَّ فيه فإن الفساد لم يلحق به" (٢٠: ٤).

وبعد ذلك يقول أثناسيوس، وأرجو الانتباه:

- "موت الجميع قد تم في جسد الرب".
- "الموت والفساد قد أبيدا من الجسد بفضل اتحاد الكلمة به" (٢٠: ٥).

هذا هو معنى "كُمِّلَ بالآلام"، وهذا هو معنى الكمال الحقيقي، لا ما وصل إلى السائل عن طريق الإلهام، حيث يقول: "لأنه جسد الكلمة الخاص وبفضل الاتحاد الأقنومي فهو حي وخالد، بل هو مصدر حياة وخلود الجميع ..".

أن يكون الجسد خالداً بطبيعته، فهو إذن جسد غير قابل للموت، وبالتالي لم يمت الرب على الصليب. وعلى ذلك لا يمكن أن يكون ما وصل إليه صاحب هذا الطرح سبقاً جديداً، بل تهوراً ورجوعاً إلى الخلف، يتمثل في إنكار فداء الإنسانية بسبب تسلط فكرة "الكمال" التي لا وجود لها في الأسفار حسب شرح هذا الأخ، لأن ما في الأسفار هو "الكمال" الذي تم بالصلب والقيامة، وهو تحرير الإنسانية.

ولأنه لم يدرس أثناسيوس كما يجب، فقد كان عليه أن يتوقف أمام عبارتين في الرد على الأريوسيين المقالة الثانية:

"الطريق الأول الذي كان من خلال آدم، قد ضاع وانحرفنا إلى الموت بدل الفردوس وسمعنا القول، "إنك تراب وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩)، لذا فإن كلمة الله المحب للبشر لبس الجسد المخلوق – بمشيئة الآب – لكي

يحيي بدم نفسه (بدم ذاته) هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه، كما قال الرسول "وكرس لنا طريقاً حياً حديثاً بالحجاب أي جسده" (عب ١٠: ٢٠) ..." (٢: ٦٥).

وبعدها يقول أثناسيوس العظيم:

"هكذا خُلِقَ المخلص -بحسب الجسد- وصار أول الذين خُلِقوا من جديد .. ومرةً أخرى حيث أن عمل الله — أي الإنسان — الذي خُلِقَ كاملاً قد صار ناقصاً بسبب المخالفة وصار ميتاً بالخطية، فلم يكن لائقاً أن يظل عمل الله ناقصاً .. لأجل ذلك فإن **كلمة الله الكامل** قد لبس **الجسد الناقص** ولهذا يقول (عن المسيح) إنه خُلق من أجل الأعمال لكي يوفي الدين عنا، ويكمِّل بنفسه ما هو ناقص عند الإنسان فالإنسان ينقصه الخلود والطريق إلى الفردوس... (٢: ٦٦).

فما هو الكمال الذي حقَّقَه المسيح؟

في نفس المقالة الثانية ضد الأريوسيين فقرة ٦٧ يقول أثناسيوس إن الأعمال التي أكملها الرب هي: "شافياً جراحنا ومانحاً إيانا القيامة من الأموات" هذه كانت "ناقصة ومشوهة بسبب التعدي"، والنتيجة هي: "إذن فقد كَمُل فيه الجنس البشري، وأُعيد تأسيسه كما كان في البدء، بل بالأحرى بنعمة أعظم من الأولى".

إن تحرير الجسد بالاتحاد الأقنومي فقط هو وضع التجسد خارج الحياة الإنسانية والتاريخ الإنساني برمته:

يقول أثناسيوس العظيم في المقالة الثانية فقرة ٦١:

"بما أن كل البشر قد هلكوا بسبب مخالفة آدم، فإن جسده كان هو أول ما تم تخليصه وتحريره؛ إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة ذاته، وهكذا إذ قد صرنا متحدين بجسده قد خلصنا على مثال جسده. وبهذا الجسد صار

> الرب هو قائدنا .. لأنه أخذ على عاتقه أن يموت لأجلنا وقد أبطل هذا الموت، فإنه هو الأول الذي قام كإنسان، إذ قد أقام جسده لأجلنا، وتبعاً لذلك حيث **أن ذلك الجسد قد أقيم، هكذا نحن أيضاً نقوم من بين الأموات منه وبه**".

لم يكن ناسوت الرب خالداً عديم الموت قبل القيامة، وإن كان الرب قد أقام الموتى وشفى المرضى، فهذا هو "التدبير": أن يُعلن لنا ما هو حقيقي وكائن فيه كشخص يسمح به وما يقبله هو "لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا" (قانون الايمان).

ومن ذلك يتبين لنا أن العبارات الغامضة الاعتراضية التي وردت في الطرح المشار إليه هي عبارات من لم يدرس أثناسيوس ولا قرأ –ولو بشكل سطحي– ما جاء في المقالة الثالثة ضد الأريوسيين، وليس هنالك من عذر؛ لأن هذه المقالات نُشرت في القاهرة باللغة العربية.

يقول العظيم أثناسيوس شارحاً الإنجيل، أي بشارة الحياة:

> "قيل عن خواص الجسد إنها خاصةٌ به؛ لأنه كان في الجسد، ومثالٌ لذلك أن يجوع، وأن يعطش، وأن يتألم، وأن يتعب، وما شابه ذلك من الأمور الخاصة بالجسد، ولكن كانت الأعمال الأخرى الخاصة بالكلمة ذاته مثل إقامة الموتى، وإعادة البصر للعميان .. قد فعلها بواسطة جسده، والكلمة حَمَلَ ضعفات الجسد كما لو كانت له، لأن الجسد كان جسده، والجسد خدم أعمال اللاهوت، لأن اللاهوت كان في الجسد، ولأن الجسد كان جسد الله، وحسناً قال النبي إنه حملها (أش ٥٣: ٤ — متى ٨: ١٧) ولم يقل إشعياء إنه شفى ضعفاتنا (من جسده) لئلا تكون هذه الضعفات خارج جسده هو وهو يشفيها فقط — كما كان يفعل دائماً ... ولذا كان يليق بالرب بأخذه جسداً بشرياً أن يكون لهذا الجسد كل الخواص التي للجسد ... فمن الذي لا يُعجب بهذا؟ أو مَن الذي لا يوافق على أن هذا

الأمر (التدبير) هو إلهيٌّ بالحقيقة؟ .. لو كانت الضعفات الخاصة بالجسد لم تُنسب للكلمة، لما كان الإنسان قد تحرر منها تماماً .. لظلت الخطية وظل الفساد باقيان في الإنسان، كما كان الحال مع الجنس البشري .." (٣: ٣١-٣٢-٣٣ ص ٦١-٦٣ طبعة مركز دراسات الآباء).

وبعد ذلك -وكأن أثناسيوس العظيم يراقب ما قد يحدث من تدهور للعقيدة- يكتب بروح النبوة؛ فهو لم ينل لقب الرسولي اعتباطاً أو لمجرد التفخيم؛ إذ يكتب في الفقرة ٣٤ من نفس المقالة، ويقول:

"ولكي نفهم وبمعرفة أدق عدم تألم طبيعة الكلمة رغم خصوصية الضعفات التي نُسبت له بسبب الجسد ... "فإذا قد تألم المسيح بالجسد لأجلنا" (١بط ٤: ١) ولذلك حينما قال عنه إنه يجوع وإنه يعطش وإنه يتعب وإنه لا يعرف وإنه ينام وإنه يبكي وإنه يسأل وإنه يهرب وإنه يولد وإنه يتجنب الكأس ... فإنه فعل هذا بالجسد لأجلنا ... وأيضاً بينما هو نفسه غير متألم بالطبيعة، ويظل كما هو دون أن تؤذيه هذه الآلام، بل بالحري هو يوقفها ويلاشيها لكي يلاشي ويغيِّر آلام البشر ... لكي يصبح البشر أنفسهم غير متألمين ... فلا يعترض أي من الهراطقة قائلاً: كيف يقوم الجسد وهو مائت بالطبيعة؟ وإن قام، فلماذا لا يجوع ويعطش ويتألم ويظل مائتاً؟ .. عندئذ يستطيع الجسد أن يرد على الهرطوقي المقاوم ويقول:

أنا من تراب وبحسب الطبيعة مائت

ولكني لأنني صرت جسد الكلمة، وهو حامل أوجاعي

....

صرت أنا حراً من هذه الأوجاع

ولم أعد بعد مستعبداً لها

لأن الرب حررني منها

وإن كنت تعترض على تحرري من الفساد

انتبه لأنك بهذا (الاعتراض) تعترض على كلمة الله الذي أخذ صورة العبد الخاصة بي.

وكما أن الرب بلبسه الجسد صار إنساناً

هكذا نحن البشر نتأله بالكلمة باتحادنا به بواسطة جسده

ونحن لهذا نرث الحياة الأبدية" (ص ٦٦-٦٧).

وقبل ذلك، وكأنه يسمع صوت الذين يريدون أن يضعوا الرب والمخلص خارج حياتنا يقول:

"أمَّا الآن، فإذ قد صار الكلمة إنساناً وجعل الأمور الخاصة بالجسد خاصةً به، فلم تعد تلك الأمور تمسك بالجسد بسبب الكلمة الذي جاء في الجسد، فقد انهزمت هذه الأوجاع بواسطته .. ومنذ ذلك الحين .. لم يعد البشر خطاة وأمواتاً بسبب أوجاعهم بل لقد قاموا بقوة الكلمة، وصاروا غير فاسدين وغير مائتين وأقوياء .. الكلمة نفسه قد وُلِدَ وهو الذي يعطي بداية الوجود للكائنات الأخرى، لكي ينقل بداية تكويننا (نحن البشر) إلى ذاته، ولكي لا نرجع فيما بعد مجرد تراب إلى التراب .. لأننا لم نعد نموت حسب بدايتنا الأولى في آدم، بل بسبب أن بدايتنا وكل ضعفات الجسد قد انتقلت إلى الكلمة فنحن نقوم من الأرض .. (المرجع السابق ص ٦٤).

مراهقة فكرية عقائدية:

يقول صاحب هذا الطرح: "إذا كانت النفس قد حُفِظَت، وكان الجسد قد حفظ من الهلاك (الأصح الفساد) بفضل الوحدة الأقنومية (الأصح الاتحاد الأقنومي) مع اللاهوت (الأصح الاتحاد الأقنومي للاهوت والناسوت أو اتحاد أقنوم

الله الكلمة بالناسوت) فكيف سمح من الأصل بموت مَن هو جسد الكلمة الخاص؟ هل يموت جسد الحياة؟ ألسنا بهذه الطريقة قد انزلقنا إلى نظريات وهمية وفلسفات بعيدة عن الحقيقة الكيانية؟ هل الأمر تمثيلية تعسفية: تركٌ مؤدٍّ للموت واستدعاء مؤدٍّ للقيامة؟ ألا تبدو القيامة – على هذا النحو – حدثاً تعسفياً طارئاً، مغيراً لطبيعة شخص الرب المولود من العذراء؟

في لحظة موت الرب هل ظهر شخص الرب يسوع كشخص انتقالي ينتظر التكميل بالقيامة؟

وهنا نرصد ما فُقِدَ تماماً من وعي هذا الكاتب، وهو بالتحديد:

١- إن ما قام به الرب لم يكن من أجل ذاته بل لأجلنا.

٢- إن الموت حقيقة كيانية، ولذلك تعذَّر تجديد الإنسان بمجرد كلمة من الله، بل كان من الضروري، وقد قال أثناسيوس نفسه:

"صار الموت داخل نسيج الجسد وبوجوده في كيان الجسد صار سائداً عليه، لذلك كان من الضروري أن تصير الحياة داخل نسيج الجسد أيضاً حتى إذا لبس الجسد الحياة بدل الموت، فإنه يطرح عنه الفساد".

وكأن أثناسيوس قد قرأ فكر صاحب هذا الطرح، فأضاف:

"لو افترضنا أن الكلمة قد جاء خارج الجسد وليس فيه، لكان الموت قد هُزِمَ منه (من الكلمة المتجسد) بحسب قانون الطبيعة إذ أن الموت ليس له سلطان على الحياة، ولكن رغم ذلك كان الفساد سيظل باقياً في الجسد، لهذا السبب كان من الصواب أن يلبس المخلص جسداً لكي إذ اتحد الجسد بالحياة لا يعود يبقى في الموت كمائت، بل إذ قد لبس عدم الموت، فإنه يقوم ثانيةً ويظل غير مائت فيما بعد، ولأنه كان قد لبس الفساد، فإنه لم يكن ممكناً أن يقوم ثانيةً ما لم يلبس الحياة ... لذلك لبس الكلمة جسداً لكي يلاقي الموت في الجسد ويبيده، لأنه كيف كان مستطاعاً البرهنة على أن الرب هو

الحياة ما لم يكن قد أحيا ما كان مائتاً ... كلمة الله الذي بدون جسد قد لبس الجسد لكي لا يعود الموت والفساد يُرهب الجسد لأن الجسد قد لبس الحياة كثوب وهكذا أُبيد منه الفساد الذي كان فيه" (تجسد الكلمة فصل ٤٤: ٥ – ٨ ص ١٣٠ – ١٣١ ترجمة د. جوزيف فلتس).

أن يتم تغيير كيان الإنسان في الرب نفسه، هل يمكن أن يوصف بأنه تمثيلية تعسفية؟ هل وصلت الجسارة إلى هذا الحد؟!!

٣- وكيف كان ممكناً بعد كل الذي اقتبسناه من أثناسيوس الذي يزعم الأخ كاتب هذا الاعتراض أنه دَرَسَه .. كيف كان من الممكن أن يتم تحول الإنسان؟ تحول خارجي، أم تحول كياني يقبل فيه الكلمة المتجسد الولادة — النمو — الموت — الدفن — ثم القيامة لكي نولد نحن وننمو فيه لكي نموت مع المسيح ونغلب معه (رو ٦: ١ – ٨) ولكي نقوم معه وهو مركز الحياة الجديدة..؟

أي مأساة هذه التي حلَّت بنا، أن يتحول الخلاص ومجد الإنسانية في يسوع إلى تمثيلية توصف بأنها تعسفية — تعسف مع من؟ وضد من؟ تعسف مع موت الإنسان الذي يحتاج إلى القيامة؟ أم مع الفساد الذي نشب في حياتنا ويحتاج إلى تجديد.

٤- ولعل ما هو أغرب ما في هذا الطرح هو السؤال: كيف سمح الكلمة لجسده أن يموت؟ وهو سؤالٌ غريب جداً على مَن درس أثناسيوس؛ لأن ابن الله "أنقص ذاته لأجلنا، لكي بتواضعه نستطيع نحن أن نتقدم وننمو .. تواضعه ليس سوى اتخاذه لجسدنا .. فالتقدم هو للجسد، لهذا ففي تقدمه كان يزداد أيضاً ظهور اللاهوت لأولئك الذين رأوه وكلما كان اللاهوت يُستعلن أكثر فأكثر كلما ازدادت نعمته كإنسان .." (ضد الأريوسيين ٣: ٥٢ ص ٩٣ – ٩٤). ويضيف: "لأنه هكذا بازدياد الجسد في القامة كان يزداد فيه ظهور اللاهوت أيضاً ويظهر للكل أن الجسد هو هيكل الله وأن الله كان في الجسد" (٣: ٥٣ ص ٩٥) فالتقدم هنا هو "للطبيعة البشرية" (٣: ٥٣ ص ٩٥).

لقد كانت "مريم قابلة للموت"، وهي التي "أخذ منها جسده" (٣: ٥٦ ص ٩٩) ولذلك ذاق أوجاع الجسد والموت لكي "يبطل أوجاع الجسد ويحرر الجسد منها" (٣: ٥٦ ص ٩٩).

وعن صلاة الرب في بستان جثيماني "إن أمكن أن تعبر عني هذه الكأس" (متى ٢٦: ٣٩) يقول المعلم الرسولي: "حينما أخذ جسداً يخاف ولأجل هذا الجسد ربط إرادته الذاتية (الخاصة) بالضعف البشري، لكي بإبادته لهذا الضعف يعطي للإنسان أن يكون شجاعاً أمام الموت .. خوفنا (نحن) ذلك الذي نزعه المخلص، لأنه كما أباد الموت بالموت .. هكذا أيضاً بهذا الذي يُدعى خوفاً نزع خوفنا، وأعطى البشر أن لا يعودوا يخافون الموت فيما بعد" (٣: ٥٧ ص ١٠١).

كيف مات؟

في شرح قول الرب الذي لم ينكر فيه صاحب الاعتراض "لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها" بل "ليس أحد يأخذها مني" (يوحنا ١٠: ١٨) يشرح المعلم السكندري: "له سلطان أن يضع نفسه وأن يأخذها حينما يريد، فهذا أمر لا يخص طبيعة البشر، بل بقوة الكلمة لأن الإنسان لا يموت بسلطانه الخاص بل باضطرار الطبيعة ورغم إرادته، أمّا الرب فلأنه هو غير مائت ولكن لأنه أخذ جسداً مائتاً، فله السلطان كإله أن يفصل النفس عن الجسد، وأن يعيدها أيضاً، حينما يريد، وداود يرتل عن هذا قائلاً: "لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدوسك يرى فساداً" (مزمور ١٩: ١٠) لذلك كان يجب أن الجسد الذي كان قابلاً للفساد أن لا يبقى فيما بعد مائتاً حسب طبيعته الخاصة، بل بسبب الكلمة الذي لبسه يبقى في غير فساد لأنه كما صار هو في جسدنا وشابه الذي لنا، هكذا نحن إذ نقبله، فإننا ننال عدم الموت الذي هو منه" (٣: ٥٧ ص ١٠١ - ١٠٢).

بعد كل هذا، هل يمكن لأي إنسان منا أن يتجاسر متهوراً، ويصف اتحاد الرب بنا في الولادة وفي الموت وفي تحولنا من آدم إلى حياته لكي ننال الأفضل، بأن هذه

تمثيلية ..؟ عيب كبير لا يليق، ومراهقة فكرية تحتاج إلى نمو ونضوج؛ لأن الرب شاركنا في كل شيء لكي نشترك نحن في حياته:

"أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له" (التسبحة السنوية).

التجسد ودعوة الإلحاد في مصر[١]

–١–

إذا كان سوء استخدام العقائد الدينية قد أوحى لبعض الشباب والشابات بالبحث عن الإلحاد كطريق للخلاص من السيطرة القهرية على الفكر وعلى الحياة، سيطرة لها منهج وسلطة عليا تضع الله أو نصوصاً مقدسةً لقهر واستعباد الإنسان، ففي تقديري أن الإلحاد ليس هو التحدي الحقيقي لسوء استخدام الإيمان، بل هو أضعف أنواع التحدي. فقد سمعت من أحد أبطال حرب أكتوبر ١٩٧٣ أن رماية مدافع القوات المسلحة على نقط حصينة في خط بارليف لم تكن تؤثر مطلقاً، وكان من الضروري تفجير هذه النقاط الحصينة من الداخل. والعلوم العسكرية منذ أرسطو هي تطبيق لما عرفه الإنسان من المنطق، فقد طبَّق الإسكندر الأكبر بعض نظريات أرسطو في الهندسة على توزيع المشاة ...

لذلك أقول إنه لا بُد من هجوم يقود حركة إصلاح من داخل التراث الديني، وقد رفع علماء الأزهر عَلَم "الوسطية"، وهو ذات الاتجاه الذي عَلَّم به بعض آباء النسك، والذي تلخصه العبارة المشهورة: "الطريق الوسطى (المعتدل) تخلِّص كثيرين".

ومن داخل تراثنا الديني المصري –كما أشار واحد من دعاة الإلحاد– أنه لم يقرأ ما يستحق التقدير سوى كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي.

---

(١) التجسد ودعوة الإلحاد في مصر، أربعة مقالات نشرت على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية خلال يناير ٢٠١٤.

هذه لمسة حق نابعة من قلب أدرك أن العقائد ليست "غيبية"، تشير إلى ما وراء الطبيعة، بل عقيدة المسيحية الأولى هي تجسد ابن الله، والتجسد هو استعلان الله نفسه في "لحم ودم الإنسان". فقد صار الإنسان نفسه هو كتاب الاستعلان الإلهي، أي أن هذا الاستعلان لم يعد حروفاً وكلمات، بل التعبير الحقيقي الإنساني الذي يعلو على كل اللغات، وصار فهم الإنسان لحياته وكيانه كإنسان هو أول فصل من فصول الإيمان.

كان الأب فليمون المقاري -الذي لم يدرس الفلسفة أو اللاهوت- يقول لنا: "قبل أن تؤمن بالله يجب أن تؤمن بنفسك". ولما سُئل عن معنى هذه الكلمات — وكان كلامه دائماً موجزاً- قال: "إن الإيمان يبدأ بمعرفة الإنسان لنفسه كإنسان. ما هو؟ وماذا يريد أن يكون؟ لأن هذه هي أساسات الحياة الحقيقية" (هكذا نقلت كلماته).

وكان ملخص الحكمة القديمة على معبد دلفي في اليونان هو "اعرف نفسك"، وهو ملخصٌ لما ورد أيضاً في سفري الأمثال والجامعة، وفي حكمة سليمان، وحكمة بن سيراخ. ولكن -بكل أسفٍ- غاب تدريس الحكمة من التعليم المعاصر، وكان ذلك هو أساس التعليم حتى في العصر الوسيط، وهو يعود إلى أكليمنضس وأوريجينوس، هذا إذا استطاع الباحثون عن الحكمة الابتعاد عن الدراسات اللغوية واكتشاف الأهداف الحقيقية للتدبير والثيؤلوجيا (راجع كتابنا: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي).

لقد جاء التجسد بحقيقة واحدة، وهي بحث الله نفسه عن الإنسان، ودخوله دنيا الإنسان، ليس بخطابٍ، بل بحياة إنسانية. ولذلك، الأناجيل، وهي حياة يسوع ابن الله المتجسد، تراه إنساناً. تعثر في ذلك الأريوسيون، وتبعهم شهود يهوه. ولذلك، الظن بأنه مجرد إنسان وليس إلهاً، يعيد التعليم إلى المربع الأول: مربع الخطاب. ودور الكلمات ومدارس تفسير الكلمات، هي حركة مضادة تماماً لتجسد الكلمة. والفرق الكبير بين الأسفار عند الآباء، والشرح المعاصر عند

عظماء الأكاديميين، هو أن الآباء شبعوا من التدبير وأعلنوا سر المسيح، وهو ما غاب من مؤلفات معاصرة لعلماء كبار في أكبر معاهد اللاهوت. والشبع من التدبير عند الآباء هو:

* شرح سر المسيح الإله المتجسد.

* شرح حقيقة وأبعاد الشركة الإلهية — الإنسانية التي جاء بها المتجسد. ولكي ندرك أننا لسنا إزاء مسائل غيبية، فإن أصدق وأسهل تعبير هو:

"الكلمة صار جسداً" (يو ١: ١٤).

والشرح لِما يعيشه الذي يقترب من إنسانية الكلمة المتجسد، هو:

"فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً وأنتم مملوءون فيه" (كولوسي ٢: ٨).

لقد جاء المسيح لكي يعلن لنا إنسانية الإنسان الضائعة، أي الإنسان الذي يحيا لنفسه فقط، فيخسر حياته. وأيضاً الإنسان الذي يتمسك بتقاليد القهر وسيطرة شريعة على الحياة، فقال: "قد سمعتم أنه قيل للقدماء ..."، ثم أضاف: "أما أنا فأقول لكم ..."، ولم يكن ذلك إلَّا تحرير الإنسان من تراثٍ دينيٍّ قديم استعبد الإنسان إلى الحرف.

تأمل هذه المفارقة: في وسط اليهود، يقدِّم الرب يسوع مثَل السامري الصالح، بينما السامري عند اليهود نجسٌ لا يحفظ الشريعة. ولكنه —السامري- هو الصالح الذي فعل الصلاح مع ضحية اللصوص الذين هاجموه في طريقه إلى أريحا، ولم يذكر يسوع شيئاً عن دين أو جنس الجريح. ولا بُد أن المثَل أصاب اليهود بالخيبة والغيظ معاً؛ لأن "المسيا"، أي المسيح يهدم تراثهم الديني؛ لأن اللاوي والكاهن لم يقدم كلاهما المساعدة للإنسان الجريح؛ لأن "لمس دم الإنسان هو نجاسة"، تمنع من الصلاة.

هذا ليس تعليماً "غيبياً"، بل تعليم إنساني يمس المجتمع المنقسم إلى فئات يحكمها تراثٌ قديم.

وثمة مسألة أخرى ذات دلالة، فقد مات يسوع مصلوباً، ولكن المصلوب دخل عالم ما وراء الطبيعة، عالم الغيبيات من وجهة نظر الذين قالوا إنه دفعَ ثمن خطايا البشر، فأخرجوا بذلك المصلوب من الواقع، ومن الحياة، ومن الليتورجية نفسها. أخرجوه من الواقع؛ لأن كل صاحب دعوة حق غالباً يُصلَب. وأخرجوه من الحياة ؛ لأن الحياة لا تتقدم إلّا بالمصلوبين من أجل خير وحرية الشعوب. وأخرجوه من الليتورجية لأن الليتورجية هي خدمة يسوع لنا عندما يدخل كذبيحة وقربان يقدِّم الحياة لكل خطاة الأرض، بينما دفع ثمن الخطايا يلغي كل ما تقدَّم، ويحول الصليب والمصلوب إلى فكرة في ورقة أو مقالة على رفِّ مكتبةٍ وليس في الواقع الحي الذي تحياه الجماعة، أو الشخص الذي يؤمن بأن تقديم الحياة هو طريق التقدم، وأن المعاناة هي إحدى وسائل الحرية التي لا يمكن للحرية أن تعبِّر عن نفسها إلّا بالمعاناة؛ لأن الحرية تغسل القهر والاستبداد. والذين يملكون سلطةً اخترعوها لأنفسهم ورضي بها العبيد، هؤلاء هم قتلة يسوع، وكل يسوع عندنا هو كل صاحب دعوة للحرية.

وثمة مسألة أكبر؛ لأن التصدي لقضية المصلوب سهلةً، ولكن الانغماس الكياني في الثالوث الآب والابن والروح القدس، هو التحدّي الحقيقي الذي حاول البعض الالتفاف عليه، فقالوا إن الثالوث هو صفات ذاتية جوهرية، فتحول الثالوث –عندهم– من استعلانات شخصية لأقانيم حية عاملة باذلة ومُحبة إلى صفات صامتة قابعة في جوف تلافيف الفكر. أمّا الثالوث، فهو تحول الإنسانية، هو شركة في محبة الله. ودعوة لاكتشاف هذه الشركة ليس بالكلام أو اللفظ، بل بتغيير الحياة (وسوف نعود إلى هذه النقطة بالذات في مقال خاص)؛ لأن الثالوث –حسب تعبير الأب فليمون المقاري– هو "معاملة"، وكان ذلك تعليقاً على عبارة "الدين المعاملة"، فقال: "الثالوث وحده هو المعاملة الصَّح، (أو الحق)؛ لأننا لا يمكن أن نزيِّف المحبة ... ". تلك كانت عبارة سمعتها منه في عام ١٩٥٨ أكَّدتها رحلة البحث الطويلة عن كتابات الآباء، حيث قادتني تلك الرحلة إلى ما سجَّله الآباء باليونانية والقبطية والعربية واللاتينية: أثناسيوس –كيرلس – هيلاريون –

أوغسطينوس – صفرونيوس – غريغوريوس أسقف قبرص (ق ١٢) – ريكاردوس الفيكتوريني ... ثم المؤلفات النسكية في مصر واليونان، وغيرها.

الثالوث هو انغماس الإنسان في المحبة الإلهية؛ لأن المحبة تجيء من مصدرها، وهو الآب، ومن إعلان بنوة يسوع، ومن عطية الروح القدس، تقابل الصدر والقلب في الإنسان، وحاجة الإنسان لأن يُحَب ويُحِب ويتحد أو يشترك، أي الحركة الثلاثية للمحبة. فإذا كان القلب هو مصدر المحبة في الإنسان، فإن العقل الباحث دائماً هو الذي يقبل الاستعلان، ولكن تبقى الروح أو النفس عارية تماماً بدون الاتحاد؛ لأن الروح هي أساس الاتحاد، وهي مجال قبول عطية الروح القدس.

هكذا خُلِقَ الإنسان بحركة ذاتية ثالوثية:

يُحِب	to love
يُحَب	to be loved
يتحد	to be limited

وعندما قلنا إن الزواج هو ذات الحركة الطبيعية، ثار علينا واحدٌ من الخصيان[١] لم يتذوق المحبة، ولا عرف كيف يلد أولاداً للآب السماوي؛ لأن أحد أقدم شرح ليتورجي هو للقديس أكليمنضس: "إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون أنا في وسطهم"، فقال: "إن الاثنين هما الزوج والزوجة، والثالث هم الأولاد".

في عيد تجسد ابن الله، يدعونا التجسد إلى:

أولاً: أن نقبل to receive إنسانيتنا كما هي، لكي نكتشف كيف يمكن أن

(١) هكذا وصف القديس أثناسيوس أريوس بأنه لا يعرف إلَّا الخصيان Ευνυχν. "كان الخصيان Ευνυχησ في قصر الامبراطور قسطنطين هم الذين دبروا المكيدة ضدنا، ومن المدهش حقاً ذلك الاتفاق الغريب أن الهرطقة الأريوسية التي تنكر ابن الله قد أخذت تأييدها من الخصيان الذين بلا خصوبة في أجسادهم ونفوسهم عارية بلا فضائل Both their bodies are Fruitless and their Souls barren of Virtue هؤلاء لا يحتملون أن يسمعوا كلمة ابن .. بل يحولون وجوههم بعيداً عندما يسمعون كلمة الآب أعلن الابن، ويجنون يقاومه بشراسة كل من يقول إن ابن الله هو ابن الله الحقيقي. هذه هي هرطقة الخصيان أنهم لا يؤمنون بالابن الحقيقي المولود من الآب. وعلى هذا الأساس فإن القانون يمنع هؤلاء الأشخاص أن يكونوا في مجمع كنسي" (راجع تاريخ الأريوسية للقديس أثناسيوس الرسولي، فقرة ٣٨، الترجمة الإنجليزية ص ٢٨٣).

نصبح أفضل، ليس بالتقدم الأخلاقي؛ لأن المسيح لم يؤسس مدرسةً سلوكية أخلاقية، بل جاء بهبة حياة لتجديد الكيان.

ثانياً: أن نعيد التفكير في أسلوب حياتنا لأن جذور الوجود الإنساني هو في ثالوثية المحبة التي أشرنا إليها: ما نحِب، وكيف نحِب، وغاية المحبة، وهي الاتحاد. فقد جاء يسوع بالمحبة الأعظم، ومكانها قلب الإنسان، وجاء بعطية أكبر من قلب الإنسان، وهي عطية الروح القدس، روح المحبة (رو ٥: ٥)، وجاء أيضاً بالاتحاد بالله كطريق لتقدم إنسانيتنا، وُصِفَ قديماً باسم Metamorphosis وهو الاسم الذي يصف تحول الدودة إلى فراشة،، وهو ما يعبِّر عن تحول الإنسان جسداً ونفساً إلى صورة جديدة هي "التجلي" (راجع النص اليوناني لمرقس ٩: ٢)، وعن الإنسان (رو ١٢: ٢)، وهي صورة يسوع الذي بدأ طفلاً ينمو مثل باقي البشر، ولكن ليس النمو بالإرادة الذاتية التي تبع من الذات وإلى الذات، وهي إرادة آدم الأول، بل الإرادة التي بالاتحاد بلاهوت الابن الكلمة لأن الإرادة الذاتية من الذات وإلى الذات المنغلقة هي أفضل ترجمة Gnomic Will وهي الحركة الطبيعية للإنسان الساقط بلا شركة الذي يسعى نحو ذاته، والتي قال عنها معلم الحياة إن شرط التلمذة هو جحد الذات وحمل الصليب والسير مع يسوع. وجحد الذات، أي الميول التي تحركها الإرادة المستقلة "من طلب ذاته يهلكها"، هكذا قال يسوع، ولكن "من جاد بذاته يجدها"، أي وجدها تنمو نحو ما هو أعظم في الإنسان، وهي مسيرة التجديد الكياني.

-٢-

الإنسان يُولد عارياً:

يُولد الإنسان عارياً، ليس فقط جسدياً، بل عقلياً (روحياً). وهو يأخذ اللغة والمعرفة من الأسرة – المدرسة – المجتمع. لم تكن قصة "عري" آدم في التكوين قصة قديمة، بل هي قصة الواقع الإنساني نفسه، ولم تكن شجرة المعرفة -أي معرفة الخير والشر- قصة قديمة، بل نمت هذه الشجرة وصار في كل عقل أكثر من شجرة لمعرفة الخير والشر. فالشجرة تنمو، ومكتبات الجامعات مملوءة بالأشجار، ومعرفة الخير والشر ملأت كل مكان في الكون.

ما يوصف "بالغيبيات" هو الفكر المجرد المتحجّر الذي وقف عند أطلال الماضي كعادة قدامى شعراء العربية. ونحن أمام فرعين للمعرفة كلاهما مدوَّن في الحضارات القديمة. فرع الدعوة إلى التوحيد، وفرع الوثنية. ووجهة الاختلاف بينهما هي أيهما سبق الآخر؟ وهل هما متلازمان، وهل ولدا معاً من ذات رحم الحياة العارية التي تبحث عن حدود تشبه "الخريطة" التي تحدد الوجود الإنساني، فترسم معالم الطريق الإنساني؟

من أجل تحديد الوجود الإنساني، خَلَقَ الإنسانُ:

– تقسيم الزمان إلى أيام وأسابيع وشهور.

– وخلق مدونات التاريخ.

– وخلق الأساطير، والأسطورة غير الخرافة[١] لأن الأسطورة Myth هي محاولة

(١) كان البحث الرائد للعالم Andrew Lang في كتاب أكثر من ممتاز بعنوان Myth, Ritual and

تاريخية وعلمية لتحديد الحقائق وجمعها في شكل قصة. وتلك هي محاولة الإنسان أن لا يكون عارياً.

الله قصة الإنسان:

لم تكن الوثنية في كل صورها سوى ذلك المزيج من رغبة الإنسان في اكتشاف الله، وإسقاط ذاته على الله Self – Projection نفسه، وتعدُّد جوانب الحياة النفسية في الإنسان خَلَق تعدد الآلهة. لكن الإنسان لا يرى في الولادة من الأب والأم السبب الحقيقي للوجود؛ لأن التسلسل البيولوجي، أي الولادة من الآباء والأمهات لا تعطي أي معنى ولا تشرح سبب وجودنا. لذلك جاء البحث عن خالق الأب والأم وعن خالق الكون وعن مصير الحياة بكل صورها؛ لأن القوة التي تضرب الذكاء بعنف شديد هي قوة الموت، وهي من العنف بحيث أنها تصطدم ليس بالشعور بالوجود، بل تصطدم بكل ما يمكن أن يوصف بالحياة كما قال شعراء قدامى وكما قال الخيام: لماذا جئت؟ أين المفر؟ فالحياة لا يمكن أن تنتهي بالموت، والبحث عن البقاء لا يمكن فصله عن البحث عن الخالق، والإجابات عبر التاريخ عن إله أو حتى آلهة، أعطت الإنسان قوة للبقاء، ودفعته للاستمرار في الحياة، ولم تدفعه إلى الانتحار (سوى بعض الذين صُدِموا في سبب وجودهم وعانوا العار والذل)، بل حتى هؤلاء الذين يُقْدِمون على الموت، هم بكل يقين مهما كان اليأس ومهما كانت الصدمات القاسية، يؤكدون لنا أن الحياة بدون معنى تساوي الموت، وأن الموت ليس إجابةً عقلانيةً، بل نهاية أليمة غير عقلانية.

هكذا جاء الإيمان بالخالق بحث عن معنى للحياة، وعن غاية أعظم تعلو على ما تقدمه الحياة البيولوجية من سبب للوجود، وهو زواج الأب والأم، إلى خالقٍ خَلَقَ حتى الأب والأم؛ لكي يرتفع الوجود الإنساني من محض وجود بيولوجي إلى غايةٍ أعظم وأكبر.

Religion نُشر عام ١٨٩٩ وأُعيد نشره ولم يُكتب ردٌّ واحد لتفيد ما ورد في الكتاب، ثم جاء بحث الأب Louis Bouyer في كتاب Le Fils Eternal نُشر عام ١٩٧٧ من الكتب الرائدة في نفس الموضوع .. ولكن لا زال لدينا غموض بين الخرافة قصة لا تمس الواقع والأسطورة التي تشرح الواقع بالمستوى العلمي الشائع في زمان الأسطورة.

هل يسوع كتاب الإنسان؟

من أفدح أخطاء العصر الوسيط أنْ تحوَّلَ الإنجيل — البشارة إلى كتاب، وعندما ظهرت المطابع لتطبع الكتاب المقدس بعهديه، تحول يسوعُ إلى كتاب، وأصبحت قراءة الأناجيل والتفاسير هي دنيا الحروف، والكلمات، بحر الكلمات الذي أغرقت به المطابع (وهي من أعظم الاختراعات الإنسانية) العقول في بحر كلمات ومصطلحات صارت تملأ الفراغ العقلي بفراغٍ آخر، وهنا مأساة محاولة الإنسان أن يملأ فراغاً بفراغ آخر، أي فراغ الحياة العقلية والتي تبحث عن رداءٍ، فلا تجد في المصطلحات سوى كلمات وعبارات تضيف المزيد من العراء. والسبب هو تحوُّل الشخص إلى كلمات. ولكن يسوع لم يأت بكتابٍ، بل بحياة (١ يوحنا ١: ١ — ٣). وهنا التناقض الغريب، أن نقدم كلمات تقول لنا إن يسوع حياةٌ من عند الآب أُعلِنت، وإن العهد الجديد هو شهادات عن هذه الحياة. وها هو يسوع لا يضع نظريةً واحدةً، ولا يقدم ولا حتى فكرةً واحدةً، بل يقدم:

— الأمثال التي تشغل ٩٠٪ من كل العبارات التي نطقها.

— والباقي ١٠٪ هو عن حياته الشخصية.

وقد شعر يوحنا الإنجيلي أن ما لدى الكنيسة من وثائق وشهادات لم تدخل إلى أعماق العلاقة الكيانية بين الآب والابن، فكتب الإنجيل لكي يؤكد لنا هذه العلاقة الكيانية. ولم تكن الأناجيل الثلاثة: متى — مرقص — لوقا هي أناجيل تاريخية فقط كما جرى الاصطلاح المعاصر، بل هي بشارة تنزع سلطان العهد الأول بكل ما فيه، وهو ما اقتضى الرسول بولس أن يكتب بحثاً مطولاً باسم "الرسالة إلى العبرانيين" ليقول فيه إن كل شيء قد انتهى، وإن القديم عتَقَ وشاخ ولا وجود له (عب ٨: ٢٣) وإننا أمام الجديد، لأن القديم هو ظِلٌّ ولأن الجديد هو النور.

من الأمثال نرى كيف يملك الله في حياة البشر في مشاهد من الحياة اليومية:

الزارع – الابن الضال – الغني ولعازر – الفريسي والعشار – السامري الصالح .. وكل هذه الأمثال لا علاقة لها بالعهد الأول؛ لأن العهد الأول تحوَّل في الحياة – بسبب تحوُّل الإنسان نفسه- إلى قيد، وأحب العبيدُ القيدَ، ووجدوا في الشريعة وفي الطقوس ما يؤكد العبودية، ولكن يسوع جاء لكي يقول: "ملكوت الله داخلكم" (لوقا ١٧: ٢١)، وفي نصٍ آخر شاء كاتبه أن ينسبه إلى الرب نفسه لكي يكتسب مصداقية قال: "لو كان ملكوت الله في السماء، فان الطيور سوف تسبقكم إليه" لأن الطيور تطير في السماء. ولكن تحول الملك الإلهي إلى القلب كان "النقلة" الخطيرة التي جاءت بالجديد، وهي عودة الإنسان إلى الإنسان، إلى ما في حياته هو، إلى رؤية الله في القلب، ولذلك قال يسوع: "طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله" (متى ٥: ٨). وحتى في عهد الظلال، كان أشعياء يسكن في وسط شعب "نجس الشفتين"، وهو تعبير عبراني جيد، يؤكد أنه شعب يجدِّفُ على الله ولا يشكره، ولم يكن أشعياء يشعر بأنه أفضل من الشعب، ومع ذلك فقد رأى الله وسمع تسبيح القوات السماوية (أش ص ٦). ونقاوة القلب لم تعد النقاوة التي يطلبها الطقس القديم، بل نقاء الرؤيا، أي تلك التي لا تُمزَج فيها القدرات العقلية وتخلطها، هي "العين النيرة" التي تجعل الجسد كله في وحدة واحدة منسجمة مع الروح (متى ٦: ٢٢-٢٣)، بينما القلب المنقسم هو القلب غير النقي.

وجاء يسوع ليقول إنه جاء لكي يعطي الملكوت لمن يريد دون أن يكون لديه مؤهلات، ولم يكن غريباً أن يقدم العهد الجديد شهادتين:

الأولى: أن تلاميذ يسوع كانوا من عامة الناس وليس من حكماء الشريعة.

الثانية: أنه هو أي يسوع مُعلِن الملكوت بالمحبة وبصلاح الله الذي لا يميِّز بين الصالح والشرير، لأنه يعطي خيرات الكون للكل .. برهان كوني هو الشمس والمطر (راجع متى ٥: ٤٥).

وكلتا الشهادتين هما معاً في شخص يسوع نفسه، فهو لم يكن من سبط لاوي. بل من سبط يهوذا الذي لم يخدم أحد منه في العهد الأول (عب ٧:

١٤)، هو نفســـه لم يميز في معاملته بالمرة بين تلميذ يتبعه، وزانية كادت ترجم (يوحنا ٨: ١ – ١١) كلاهما في حاجة إلى رحمة الله ومحبته.

هكذا نقل يســـوع الإيمان بالله إلى الحياة اليومية لا إلى ما وراء الطبيعة. وقد قرأت أخيراً في إحدى الصحف العربية أن سبب رفض المسيحية هو الآب والابن والروح القدس، باعتبارها أسماء أُخذت من الحياة الإنســـانية، وانتابتني موجة من الضـحك؛ لأننا لا يمكن أن نتكلم عن الله نفســه إلَّا بلغةٍ بشــرية، وحتى الإيمان بالتنزيل جاء بلغة بشرية سواء كان هي العبرانية أو العربية أو اليونانية. فكيف يمكن لنا أن نخاطب حتى بعضنا البعض عن الله إلَّا بلغة بشرية ..!!

مأساة الإنسان أنه كان يبحث عن ما هو إلهي، فوجد ما هو إنساني، فرفض ما هو إنساني، وبذلك رفض ما هو إلهي.

وكان يبحث عن ما هو إنســاني ورفض ما هو إنســاني، بحثاً عن ما هو إلهي فأنكر الإنسان، فتم ليس نفي الانسان، بل إلغاء الإنسان إلغاءً كاملاً.

لكن يسـوع جاء لكي يُولد الله والانســان، ليس في كتاب، بل في شـخصـه الواحد – شخص الاله المتجسد الذي هو إنسانٌ عند الله، وإلهٌ عند البشر؛ لأن الله والبشر يتقابلون معاً في شركة في شخص يسوع المسيح.

-٣-

من الإنسان وإلى الإنسان

آية تعليم يسوع ابن الإنسان -كما ذكرنا سابقاً- هي في الأمثال، تلك التي تشكل ٩٠ % من تعليم الرب. لم يجيء ابن الإنسان بكتاب أو نصوص، ولكن بثلاث حقائق أساسية:

أولاً: جاء من أجل الإنسان، وقد عبَّرت الكنيسة الجامعة كلها عن هذه الحقيقة في عبارة قانون الإيمان: "هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسَّد من الروح القدس ....".

ثانياً: وكانت دعوة الإنسان لأن يكون إنساناً، منسجمةً تماماً مع ما جاء في التعليم بالأمثال عن ملكوت الله في واقع الحياة اليومية: الزرع – الصلاة – صيد السمك – إعداد العجين – الرفق بالآخر – تجاوز الحدود العرقية والشرعية التي خلقت انفصال البشر عن بعضهم البعض .... وهكذا كانت هذه الأمثال هي رواية عمل الله في دنيا الإنسان، وبكل ما هو إنساني.

ثالثاً: على أن ما هو إنساني، ليس كافياً في حد ذاته لأن يقود الإنسان إلى أن يجد في إنسانيته حقيقة ثابتة، وهي الإحساس بالله؛ لأن هذا الإحساس، لما افتقده الإنسان في مراحل سابقة، أدَّى به إلى الوثنية.

الآخر، الله والإنسان

لا يمكن أن ننتزع الآخر من حياتنا، هو كائنٌ في الوعي – في النطق – في

"أنا والآخر I and Thou" حسب تعبير مارتن بوبر Buber[(١)].

وفي أمثال ابن الإنسان، الآخر هو البشر مثل الابن الضال، واللصوص، والسامري الصالح، والزارع، والمرأة التي تعجن، والمرأة التي تفتش عن الدرهم المفقود.

والآخر هو البيئة: بحيرة – صحراء أو برية – أورشليم – السامرة ... فلا يمكن للآخر أن يحيا إلّا في بيئة، والبيئة ليست دائماً على وفاق مع "الأنا". العداء الظاهر في الحوار الدائم الذي يشكل حوالي ثلث إنجيل يوحنا، ورد يسوع على من دعاهم الإنجيل "اليهود"، ليس أولئك الذين ينتمون إلى أصلٍ عرقي، بل لو كنتم أولاد إبراهيم لكان لكم إيمان أعمال إبراهيم (يو ٨: ٣٩)، بل في لمحة ضرورية لنا: "أبوكم هو الشيطان"، وهي ردٌّ عنيفٌ قاس على اتهامات أكثر قسوة من رد يسوع نفسه.

والآخر هو من لا يمكن فصله عن الملكوت. هو في الملكوت ولكن ليس بالضرورة –حسب سر الأمثال نفسها– يقبل الملكوت، مثل الابن الأكبر في مثل الابن الضال، بل –وهنا المفارقة– الفريسي في مثل الفريسي والعشار هو خارج الملكوت رغم أنه في الملكوت لأن الملكوت ليس مكاناً جغرافياً، بل هو قلب الإنسان وحياته الإنسانية التي ليست للفرد Individual بل للشخص Person، وبدون أن ندخل في مساجلات عن الفرق بين المصطلحين، لا سيما الفلسفة وعلوم الاجتماع والنفس، فإن أي مصطلح يجب أن يعبِّر عن حقيقة كيانية؛ لأن النطق هو خطاب Discourse وهو لا يوجَّه للذات بل للآخر صديقاً كان أو عدواً، فرداً كان أو شخصاً. والخطاب هو بحث، والبحث هو محاولة اقتراب قد تكون لكسر العزلة، أو تأكيد للخصوصية، أو لغيرها من المشاعر الدفينة التي لا يُدرك كنهها المتحدثون؛ لأن النفس كما قال أستاذنا السابق F.Lack أعمق من المحيط الأطلسي، وما يطفو على السطح –إذا جاز التعبير– هو أقل القليل من الحقيقة الراكدة أو النائمة في الوعي.

---

(١) ولد عام ١٨٧٨ وتوفي ١٩٦٦ في النمسا. كتب بالألمانية. من أصل يهودي وهو أقرب مفكر يهودي إلى المسيحية. وقيل إنه اعتنق المسيحية، ولكن هذا غير ثابت.

عندما أتى الأديب والفيلسوف ميخائيل باختين Bakhtin بتعبير Heteroglossia وهي كلمة يونانية الأصل تؤكد أن تعدد معاني كلمة واحدة في اللغة الواحدة، أكَّد على وجود طبقات من الوعي والإدراك وكثافة الخطاب لاسيما في الحوار، في الرواية، في القصة. ولذلك، الأناجيل هي قصة يسوع والآخر بالمعنى الذي أراده باختين: رواية أحداث وحوار تحمل ليس معنىً واحداً في نصٍّ واحد، بل المعاني المتراكمة في نصٍّ واحد مثل: أخطأت يا أبتاه إلى السماء وإليك (قدامك)، (مثل الابن الضال):

- فهناك قراءة سطحية تتمثل في الاعتراف بالخطية.
- وهناك قراءة أخرى تعبِّر عن تمسك الابن الضال بالآب كأبٍ له.
- وقراءة ثالثة بمثابة طلب غفران، لا سيما وقد أسرع الآب جارياً نحو ابنه.

هكذا قرأ كل من متى ومرقس ولوقا ويوحنا، يسوع. ليس قراءة كتاب، بل تعبير عن كثافة وتعدد معاني الرسالة التي تدور كلها حول الإنسان في انكساره، وفي لهفته على معرفة الله، وفي عدم البقاء عارياً، أي البحث –بلغة الخطاب السياسي المعاصر– عن "خارطة طريق" تجعله يحيا مع الآخر ومع البيئة.

الشيطان هو الآخر، ولكن بأي صورة؟

عندما سجَّل سفر التكوين "سقوط آدم" –بشكلٍ رمزي– في الحية والشجرة، فإن القصة يمكن أن تُقرأ بشكلٍ سطحي يساعد على الإلحاد؛ لأنه من غير المعقول أن يدور حوارٌ بين حيةٍ وإنسان، بل ونذهب إلى ما هو أبعد من النص عن شيطان يدخل في الحية لكي نبرر القراءة السطحية، في حين أن هناك مستويات مختلفة لقراءة هذه القصة:

- الصراع بين الإنسان والزواحف، وهو صراعُ الحياة والموت.
- تحديد الموت كخطرٍ آتٍ من مصدرٍ آخر غير الذات الإنسانية.

- دور المعرفة المتعدد في الصراع بين الإنسان والزواحف، ثم الشيطان الذي صارت له "الحية القديمة" رمزاً. والاسم نفسه يحتوي على:

- الإشارة إلى ما حدث في الماضي، الذي لا يمكن فصله عن الحاضر؛ لأن الإنسان كائنٌ حيٌّ له تاريخ.

- اشتراك عناصر من البيئة، مثل الحية في مشكلة انكسار الإنسان وفشله في المشروع الإلهي أن يكون "صورة الله"؛ لأن صراعاً دار على أرض المعرفة، وعلى ذات الأرض خسر الإنسان ولا زال يخسر كل معاركه التي تدور على أرض المعرفة وحدها.

وعندما وضعت صلاة الصلح "الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس"، وهو نصٌّ مأخوذٌ أصلاً من أقدم كتب الحكمة (يشوع بن سيراخ ٢: ٢٣ – ٢٤)، فإن القراءة المتعددة تأخذنا إلى كثافة القصة:

- البحث عن المصدر المجهول للشر الذي يدفع الإنسان إلى تصرفات غير عقلانية عبَّر عنها فرويد باسم "اللاشعور"، أو "العقل الباطن"، وعند رسول المسيح "الإنسان القديم"، الذي له مرجعية أخرى للتمييز بين الخير والشر.

- إغراء غير واعٍ بأن يكون الإنسان هو قانون أو شريعة الخير والشر لنفسه، وهذا الإغراء مازال سارياً وسيظل كذلك حتى نهاية التاريخ: يوم تأكل تصير مثل الله عارفاً الخير والشر (تك ٣: ٥، ٢٢). فالإنسان الذي يدخل مجاهل المعرفة بلا مرجعية، وبلا خارطة طريق يسقط في أوهام، ولذلك في خبر قديم ورد في أساطير اليهود، تقول الأسطورة إن الشيطان جاء بنكتة لكي يضحك مع آدم، ولكن آدم كان مغفلاً، فصدق النكتة وظن أنها الحقيقة، فتولد لديه حُب الاكتشاف، ولذلك تحتوي كل لغات العالم على تعبير "لازم نجرب"، و"لازم نكتشف". والفرق بين الحكمة الحقيقية التي تحسب النتائج قبل القرار، والغباوة التي تجمع النتائج بعد الخسارة أو النكبة، هو فرقٌ كبيرٌ جداً.

- البحث عن غير المنظور، وهو هنا عقل الإنســـان. وهنا ننبه إلى أن حياة القديس أنطونيوس الكبير بقلم العظيم أثناســيوس، لازالت في حاجة إلى دراســات؛ لأن الصراع مع الشياطين هو صراعٌ مع غير المنظور في مناظر عقلية، كان أنطونيوس يدرك أنها غير حقيقية، لاســيما هجمات وحوش وســباع وثعابين ... هذه رؤى عقلية من مصـــدر غير منظور، وكان أن تجاوز أنطونيوس الكبير كل هذا واحتفظ بإنسانيته كما هي، دون أن تصاب بالهزال أو الضعف كما ذكرت السيرة.

مَن هو الشيطان إذن؟

كل ما وصــل إلينا في تراثنا المســيحي، ومن قبله اليهودي، لا يقدم لنا ســبباً واحداً للسقوط غير "الكبرياء"، وأن الإنسان أراد أن يكون "مثل الله". ولكن هذه الإجابة بلا ثمرة لأن المخلوق لابُد له أن يتشبَّه بالخالق على قدر إمكانيات خلقته، وإلَّا لماذا خُلِقَ؟ وتأله الإنســان في تألقه في الطب والفلك والعلوم والفلســفة ... إلخ ظاهرٌ لمن يدفن رأسـه محاولاً أن ينكر أننا مثل الله في الإبداع الفلسـفي والأدبي والنحت والموسيقى والشعر، بل أليست كل الحضارات هي محاولات خلق الإنسان لتاريخه وكيانه من جديد في كل عصر؟ قارن بين الحضارة الفرعونية، ومصر الحديثة، وعلى ســبيل المثال جيش تحتمس الثالث، وجيش مصــر الآن، فقد أُعيد تكوين وخلق كل أسلحة الهجوم والدفاع، ألا يفصح ذلك عن تأله الإنسان؟

لكن إذا كانت القصــة القديمة تقول إن الشــيطان أراد الســيطرة على الكون كله، فإن أحد ملامح هذه القصـــة موجودة في تجربة الرب يســـوع في البرية: "أعطيك كل ممالك المســـكونة ومجدهن لأنه قد دُفِعَ إليَّ وأنا أعطيه لمن يريد إن خررت وسجدت أمامي يكون لك الجميع" (راجع لو ٤: ٦).

- الذي دفع المســكونة إلى الشــيطان هو آدم وليس الله؛ لأن آدم هو الذي تخلَّى عن ملكه الذي أُعطي له حســب (مز ٨)، وعن القوة الإلهية "صـــورة الله ومثاله".

– فلماذا لم يسترد الإنسان الملك من الشيطان؟ والجواب يكمن في الموت الذي أصاب الإنسانية كلها بالعجز وانعدام المعرفة وفقدان الشركة مع خالق الكون.

– وهنا، يسوع مع القوة القديمة، وقبل الخدمة العلنية، وقبل أن يتكلم مع الإنسان عن الإنسان (في الأمثال وغيرها)، لكي يعيد الإنسان إلى إنسانيته، يرفض الإغراء الكامن في ثلاث مصادر للقوة:

– الطعام.

– السيطرة على المسكونة بقوة غير منظورة.

– سوء استخدام مواعيد الله.

لو قرأ دعاة الإلحاد تجارب يسوع في البرية من جديد لوجدوا أنها كتاب كامل يحفظ تاريخ الإنسانية كله.

عندما درست الحرب العالمية الثانية، وهي أكبر مجزرة في تاريخ البشرية، وجدت أن عدد القتلى كان حوالى ٧٠ مليون إنسان من الجنود وغيرهم. وكانت الحرب تدور حول: السيطرة على العالم، والسيطرة على الموارد الطبيعية ... إلخ

وحلَّت نظريات السيادة العرقية (الجنس الآري، الألماني) محل مواعيد الله. وحلَّ هتلر محل الكتب المقدسة. ولم يكن الحلفاء أكثر طهارة، فقد جاء ضرب وتدمير المدن الألمانية نفسها مثل درسدن بحوالي ٥٠ ألف قتيل في غارة واحدة. ونصب الروس مدفعاً في كل متر لضرب برلين. لا أكتب هذا بدافعٍ من شفقة على أحد –فليس هذا محور الحديث– بل لأن العنف انفلت تحركه قوة العقل، وكل ما هو غير منظور من نظريات وأفكار وأيديولوجيات مثل الفاشية — النازية — الشيوعية ... إلخ ما وراء الطبيعة سواء كان من انتاج البشر أو من الحية القديمة، لا فرق لأن النهاية هي الدمار.

والآن، مشاكل مثل مشكلة الطعام والمياه والهواء، هي في الطريق لأن تكون أعقد مشاكلنا المعاصرة.

فمن يقرأ قراءة سطحية يحتاج إلى جرعة ثقافية من ميخائيل باختين[1] للبحث عما هو غائب من مستويات السرد السطحي إلى ما هو كامن في Heteroglossia لأن السرد الخالي من العمق في التعليم الديني، هو سردٌ عن الماضي وحده لا البحث عن كثافة ومستويات إدراك.

أخيراً، ونحن نعيِّد اليوم لختان الرب يسوع في جسده، نؤكد على أن الكنيسة القبطية ليست أوطاخية تنكر إنسانية يسوع. يا ليت العيد يوحي لنا بأن بشارة الملكوت للإنسان، ومن أجل الإنسان كانت لاتزال في كلمات قانون الإيمان: "نزل من السماء ... لأجلنا نحن البشر". فقد وحَّدت هذه البشارة السماء والأرض، الله والإنسان.

وليعلم الكل أن إنكار أيهما هو بالضرورة إنكارٌ للآخر.

(1) ولد في ١٧ نوفمبر ١٨١٥ وتوفي في مارس ١٩٧٦ ومُنعت كتبه من النشر في روسيا الشيوعية.

-٤-

لماذا التجسد في مواجهة الإلحاد؟

الفرق الكبير بين دنيا وعالم الحروف وبحر الكلمات، والإنسان نفسه -جسداً وروحاً- هو فرقٌ بين حبة رمل في صحراء، وجبال الهيمالايا. إن عالم الكلمات أو بحر الحروف هو من الاتساع والضخامة بحيث أن من لا يتوه فيه يعتبر معجزة. وخداع العقل بالكلام أو بالخطاب نفسه، هو أسهل أنواع الخطاب. ما من حدث أليم في حياة أي شعب إلَّا وخلَّف هذا الحدث خداع قائدٍ أو زعيم تمكن من السيطرة على عقول الناس. وعندما قال شاعر العامية المصري أحمد فؤاد نجم: "يا مسلسلين رجلين وراس"، وهي عبارة ذات دلالة، فقد أصاب كبد الحقيقة؛ لأن السلاسل ليست في الرجلين فقط، بل في داخل الرأس أيضاً. فقد ذكر شاعر الهند طاغور إنه كان كثير الحركة والنشاط، ولذلك سخَّرت أمه له خادماً من طائفة الهندوس لكي يراقبه ويهتم به ليلاً ونهاراً، وكان الخادم على قدر ثقافته، يريد بعض الوقت لحريته الشخصية، فكان يرسم على أرضية الغرفة دائرة بالطباشير ويقول لطاغور إنه لو خرج من هذه الدائرة، فإن وحشاً سوف يأتي لكي يأكله. وكبر طاغور وقال: أدركت أن الدائرة كانت في عقلي.

إذا كانت الحقائق والمعارف تدخل العقل عن طريق الكلمات والخطاب، فإن كل الأكاذيب تدخل أيضاً بالكلمات وبالخطاب. ولذلك، القصة القديمة في سفر التكوين ص ٣ عن حوار الحية مع حواء، ثم حوار حواء مع آدم، هي حوارٌ عن الخداع، فقد كُتِبَت لتحذير كل من يسمع ويقرأ عن الكذب الذي يدخل الحياة العقلية تحت جلد أو ثوب ما يبدو معقولاً.

بسبب هذه الفوضى العقلية، ولعدم قدرة الإنسان على التمييز؛ صار الكلمة جسداً. فقد جاء التجسد ليس بمثابة رسالةٍ لفظيةٍ، بل حقيقة تعبِّر عن نفسها باللحم والدم، لكي يصبح اللحم والدم من الثوابت التي لا يمكن النزاع أو الاختلاف عليها إلَّا بإنكار اللحم والدم، أي إنكار التجسد نفسه. وعندما سمعنا صوت الآب ينادي الابن بعد خروجه من مياه الأردن: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا". فقد غابت كلمات الآب في بحر الكلمات والحروف؛ لأننا مطالبون بأن نرى:

- الابن الحبيب

- له اسمعوا

ولذلك، نقول، وسوف نكرر دون ملل: **إن الرب يسوع هو الوحيد الذي تنطبق حياته وكلماته تطابقاً تاماً؛ لأن اللحم والدم أعطى مصداقية لكل ما قال.**

وحتى دستور الملكوت في متى (ص ٦ – ص ٧)، لو قرأه أي إنسان ذكي لوجد أيقونة يسوع بكل ملامح يسوع الشديدة الوضوح، تحدد التعليم وتقول لكل من يسمع عن الملكوت هو عني أنا لأنني أنا القريب near وأمَّا انعدام المسافة، فلأن "الملكوت قد اقترب"، وهو تعبير مركب ثلاثي:

- الملكوت، أي ملكوت الله قريب.

- الملكوت أمامك يمكن أن تراه.

- الملكوت ليس فكرة في العقل، بل ندخله بالتوبة.

وتجريد الملكوت من أن يكون فكرة، بل الواقع الذي يجب أن يدخله الإنسان بالتوبة –حسب المعنى الإنجيلي، أي تغيير الاتجاه والفكر– وليس حسب ما هو سائد في مؤلفات العصر الوسيط، الامتناع عن الخطية. لأن الامتناع عن الخطية لا يؤهِّل الإنسان لشيء، ولا يعطي له حتى الحرية لاكتشاف الخير والمحبة.

ثوابت الإنسان حسب تعليم يسوع

أول هذه الثوابت هي المحبة، **والثاني** الحرية، **والثالث** هو التحول أو الميلاد الجديد، **والرابع** هو النمو أو التطور والتجديد. لقد ابتعدت عمداً عن الاقتباسات من العهد الجديد، لعل القارئ يحاول بجهده أن يرى أن القوى الكبرى التي تحرك الإنسانية عبر التاريخ الإنساني كله متضمَّنَة في العهد الجديد، والتي يمكن حصرها هي:

- المحبة
- الحرية
- التغيير
- النمو أو التقدم.

عندما تنعدم الحرية، تموت المحبة، فلا محبة بلا حرية. والمجتمع أو الأسرة التي تفتقد إلى المحبة أو الحرية تصبح معتقلاً أو جهنم صغيرة.

عندما يتوقف التغيير، يتوقف النمو، وينعدم التقدم، ولذلك جاء زعيم الاتحاد السوفييتي السابق جورباتشوف ليقول إن النظام كله يمر بمرحلة ترهل Stagnation فقد سقط في مستنقع البيروقراطية، حيث يسود النظام الذي يُفسِد البشر، ويستغلون الفجوات التي في المجتمع في صراعاتهم ونزواتهم وبحثهم عن القوة.

لقد جاء يسوع ليعلِّم دستور الحياة، وكلمة "وصية"، ليست مثل كلمة Commandment التي تعني "أمر"، لأن الوصايا دخلت كهف القوانين، بينما هي خاصة -بالأساس- بالتوبة Metanoia أي تغيير الاتجاه لكي يصبح الإنسان إنساناً، ولكي يجد -كما يقول أثناسيوس العظيم- أنه ظِلٌّ يتبع اللوغوس Logos مثل تبعية الظل للنور (تجسد الكلمة ٣: ٣، ١١: ٣). وجاء معلم النسك الحقيقي أنطونيوس الكبير ليقول لكل من يريد أن يكون إنساناً: إن لدى الإنسان

"ناموس الطبيعة والحرية" التي خُلِقَ بها (الرسالة الأولى)، وأن الإنسان له "طبعٌ ناطق" (الرسالة الثانية)؛ لأنه ظِلٌّ الكلمة اللوغوس.

الثوابت في الإنسان

إذا ذكرنا: المحبة – الحرية – التغيير – النمو، فإن هذه قوى حيوية كافية في الإنسان لا يمكن أن تنفصل عن كيانه الإنساني. تحركه دائماً لكي يحيا ويفكر وينمو ويتقدم ... هذه كلها لها اسمٌ قديم مهجور هو "صورة الله"، وصفها القديس أثناسيوس بأنها –أي الصورة– مثل المرآة التي يرى فيها الإنسان الله نفسه (راجع الرسالة ضد الوثنيين ٢: ٢، ٣).

وعندما يفقد الإنسان هذه الرؤية، يفقد اتزانه، وهو ما نعبِّر عنه بالسقوط بالخطية؛ لأن غاية الإنسان هو الله، فإذا فقد هذه الغاية وتحول كيانه عن النظر إلى هذه الغاية إلى غايات أخرى، سقط في قبضة الموت ... والموت هو فناء الإنسان، أي أن يفقد حياته كإنسان.

وعندما قال يسوع على لسان الأب في مثل الابن الضال: "إنه كان ميتا فعاش"، فقد أضاف: "وكان ضالاً فوجِد"، أي عاد عن ضلاله إلى الوجود الحقيقي. يظل الله هو إلهام الإنسان في بحثه عن الآخر. وهنا الآخر هو المطلق – غير المنظور– الغاية الأعظم – الكمال.

قال أرسطو قديماً: "إن الجمال لا يحتاج إلى برهان"، و"الحرية لا تحتاج إلى مدافعٍ عنها". ولم تكن كل صراعات الإنسان عبر التاريخ سوى محاولات للحرية، ويظل أمام الإنسان الكمال – الجمال – الحرية – الصلاح – الخير – المحبة – الحرية، هذه كلها هي حركة الحياة الإلهية، وهي كلها متجسدة في يسوع. ومرةً ثانيةً لن نقدم كلمات العهد الجديد؛ لأن القارئ مدعو لقراءة العهد الجديد بصورةٍ أخرى.

هذه بعض اللمسات من حياة يسوع: لأنه بلا خطية، لم يرجم الزانية، ولكن كماله في محبته؛ لأن العداوة أسر وعبودية للذات، ولذلك عندما جاد بحياته

وصُـــلِب، كان كمال محبته في حريته. وهنا لابُد من أن نضـــع أمام القارئ ذات كلمات يسـوع: "لي سـلطان أن أضـع حياتي وسـلطان أن آخذها. هذه الوصـية قبلتها من أبي"، وقبل ذلك قال: "لهذا يحبني أبي" (يو ١٠: ١٨). ولا يمكن فصـل المحبة عن الحرية، عن الكمال. النقص الذي فينا هو الذي يجعلنا نتشـدد في معاملة الآخرين، إذا أخطأوا، وكلما زادت الشـــدة في المعاملة كلما ظهر أن النقص الذي فينا أكبر؛ لأننا نقاوم ما نعجز عنه أو نخاف منه، ويأتي المخطئ ليقول لنا إن الخطية كشـــفت ما هو خفيٌّ فيكم. ولكن عندما قال الآب: "له اسمعوا"، لم نعد نسـمع يسـوع، بل نسـمع خطاب التهديد. وتلاحقنا كلمة العقوبة وغضـب الله على الخطاة، وهو ما لم يظهر في حياة يسـوع بالمرة. وعندك اللص — السـامرية — بطرس الرسـول، وغيرهم، بل لم يبكت زكا جامع الضـرائب، ولم يرفض المرأة الكنعانية ... مشـــاهد تعبر علينا كما لو كانت آتية من عالم آخر، في حين أنه عالمنا نحن الباحث عن الحرية.

تجسد الثوابت الإنسانية

لم يعلِّم يسـوع إلَّا بحياته ... وأذكر سـؤالاً سمعته من مئات من الأصـدقاء: هل ترك البابا كيرلس السـادس كتابات؟ والجواب: قليل جداً ... كان يؤمن بالقدوة، وكان قد أخلى ذاته وترك صـلاته الخاصـة للقلاية، وصـلاته العامة هي صـلوات الكنيسـة فقط ... وكان يقول أحياناً: "من كثرة المواعظ قلت المواعظ"، ونسب العبارة للقمص عبد المسيح المسعودي.

لقد تجسـدت الحرية في دسـتور الملكوت الذي عاش به يسـوع ونقله بالقدوة والمثال .. فبالنسبة للفقراء .. لم يكن له أين يسند رأسه .. ولصانعي السلام، كان هو السـلام ... والبحث عن أمثلة أخرى متروك للقارئ حتى لا نحرمه لذة الاكتشاف.

وتجسـد الثوابت يعني في النهاية أن الله دخل حياة الإنسـان، ليس فقط لكي

يعيش كإنسان بيننا، بل لكي يكون الإله المتجسد، وهو كإله لم يرعب أحداً ولم يهدد أحداً ... أخبر عن نهاية أورشليم وسقوط كل ما أُصيب بالترهل، وحدث ذلك فعلاً في عام ٧٠ ميلادية عندما دمر القائد الروماني تيطس الهيكل نفسه.

كان حراً، فلم يعِش حسب الشريعة الموسوية، وكان يكسر وصية السبت كما فهمها اليهود ورفض رجم الزانية، وقال عبارةً لابُد أن تُحفَر على جدران كل كنيسة: "السبت جُعِلَ للإنسان"، فلم يُخلق الإنسان لكي يحفظ السبت ... وله مساجلات ثابتة مع الذين كانوا وكلاءِ موسى.

الله والثوابت الإنسانية

نحن لا نعرف الله، ولا علاقة لنا بالله، بل نحن نعرف الآب، أبو ربنا يسوع المسيح ... كل صور الألوهة تطهَّرت بتجسد ابن الله، وكل إعلانات الألوهة السابقة على يسوع المسيح يجب أن تمر بمصفاة العهد الجديد، والعهد الجديد لس كتاباً، بل هو شهادة حياة. وعندما تحول العهد الجديد إلى كتاب وصار الناس يتبارون في شرحه، فَقَدَ مكانته، وتحول إلى قراءات مختلفة وتفاسير أحياناً متضاربة، ودخل –كأي كتابٍ– إلى أنفاق الشك، في حين أن كتاب الحياة يجب أن يقرأ بشكل آخر:

أولاً: هو شهادة لحياة الله المتجسدة في إنسان اسمه يسوع المسيح، وكل ما ذكره يسوع ابتداءً من بشارة الملكوت حتى صعوده هو الإنسان والإنسان والإنسان، ولكن مع الإنسان وفي الإنسان جاء الله. تلك صدمة قاسية للعقل الذي لا يريد إلَّا فكرةً يحشرها في عقله لكي يفعل بها ما يريد، ولكن عندما يصبح يسوع الإله المتجسد هو السجين والمريض والغريب والجائع، فقد نقل التجسدُ اللهَ إلى الآخر الذي نراه، ولذلك قال يوحنا الإنجيلي: "إن كنت لا تحب أخاك الذي تراه فكيف تحب الله الذي لا تراه".

ما نقرأه قد يقدمه لوقا بشكلٍ مختلف عن متى أو مرقس أو يوحنا، وقد سكبت

على الصــفحات كميات كبيرة من الحبر عن "اتفاق الأناجيل الأربعة"، ولا يزال هذا الموضوع على برامج الدراسة في معاهد اللاهوت في العالم. ولكن قراءة الكلمة بدون حياة، تجعل الكلمة أهم من الموضــوع، وتجعل النص مفتاح الحقيقة، في حين أن البشــارة المفرحة -وهذا هو معنى كلمة إنجيل في اليونانية والقبطية- هي اســتعلان ما هو جديد، والاســتعلان هنا هو في شــخص، لا في خبر يُكتَب، وما كُتِبَ هو شهادات، ولو اتفق الشهود، فإن الاتفاق يحول الشهادة إلى شهادات زور.

يجب أن تختلف البشــائر الأربع؛ لأن الاختلاف الحقيقي هو ما يجيء على مستوى الحياة، لا اللفظ. الاختلاف اللفظي واختلاف الكلمات لم يغيِّر شيئاً من الحقيقة، وهي العلاقة الجديدة الثابتة مع إله متجسد يتكلم ويشهد له الذين سمعوه عن الجديد. وهو نفسه قد يغيِّر كلماته، وهي ليست مشكلة ترجمة من الآرامية إلى اليونانية، ولا هي مشكلة أصلاً، وإنما نحن هنا أمام طريقين:

- موسى

- يسوع

- الأول: هو وساطة الشريعة وحكم النص ثابت.

- والثاني: هو عطاء الحياة، وعطاء الحياة هو للحرية — المحبة — النمو — التقدم.

وعندما قال بولس تلميذ يسوع: "الحرف يقتل"، فماذا يقتل؟

يقتل التقدم — النمو — الحرية — المحبة، وهذا حديثٌ آخر.

ثانياً: وشــهادات الحياة تعني أن يكون لنا ثوابت الحياة نفســها، أي ثوابت الإنسانية التي سبق وأن ذكرناها. فكيف نقرأ على سبيل المثال اختلاف الأناجيل عن عنوان يسوع المصلوب الذي عُلِّقَ على عود الصليب؟

والجواب هو ماذا نريد من المصلوب:

- ملك اليهود

- يسوع الناصري

- يسوع المسيح

فالحياة لا تقف عند كلمة أو عبارة، بل السؤال الحاسم هو ماذا تريد من الحياة؟ ماذا تحب أن تكون؟ وهنا لابُد أن تكون القراءة مختلفة، بل لابُد أن تكون القراءات مختلفة. لقد درست الأناجيل باللغة الآرامية (السريانية)، وكانت القراءات أحياناً مختلفة عن اليونانية؛ لأن الكلمات الآرامية جاءت من البيئة الآرامية، ولكن مع ذلك، التقدم على طريق الحرية والمحبة كان بيسوع المسيح نفسه كشخصٍ وحَّد الله والإنسان في كيانه.

وعندما يوحِّد يسوع الله والإنسان، فإننا كما قال أسد كبادوكية -غريغوريوس النزينزي- نحتاج إلى لغةٍ جديدةٍ، وهو ما وعد بهه الرب يسوع نفسه: "يتكلمون بألسنةٍ جديدة" (مر ١٦: ١٧)، ولم تكن كلمة الرب هنا عن موهبة التكلم بألسنة فقط، بل عن الألسنة التي نطقت باللاهوت في ٣٢٥ – ٣٨١ – ٤٣١ أي في المجامع المسكونية ... لسانٌ نطق بالحياة، وهو مجموع ألسنة، ومع ذلك فهو لسانٌ واحد؛ لأن بشارة الحياة (الإنجيل) في ٣٢٥ كان هو الله المساوي للآب، وفي ٣٨١ عن الروح المعزِّي (الذي يعاني اليوم من عذابٍ دائمٍ في الكنيسة)، وعن الاتحاد الأقنومي الذي يحتاج إلى قوة حياة فينا من روح يسوع لكي نفهم أن "الحياة أُظهِرَت" (١ يو ١: ١ – ٣)، وأن "كلمة الحياة" هي بشارة وليست نصاً. ولذلك، ما نما في المجامع هو نمو الحياة، وهو نورٌ يجعلنا نقرأ العهد الجديد بنور الحياة حتى لا نعود إلى ظلمة الدهر التي حاولت إخضاع البشارة إلى الفلسفة اليونانية في الأريوسية، وكراهية الجسد في المانوية والغنوسية، وإلى انفصال الله عن الإنسان في النسطورية ... وها هي ذي قواعد مدارس تفسير العهد الجديد لا تزل موجودة ولا زلنا نسمعها، بل لازال أوطاخي يصول ويجول في عظاتٍ ومقالات تنكر علانيةً تجسد الابن.

مع المسيح في تجاربه في البرية[1]

-١-

بعد نداء الآب واستعلان بنوتك: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، بعد مسحة الروح القدس لتصير المسيح، يقودك الروح نفسه الذي مسحك إلى البرية. لم تكن في البرية شجرة معرفة الخير والشر. أنت تعرف ذاتك ولا تسعى لأن تبرهن لأحد على أنك ابن الله. سؤال الشك: "إن كنت ابن الله" يسعى إلى استعراض القوة. الشيطان محب للقوة، محبة للقوة بلا رحمة، ومحب للقوة بلا حكمة، ومحب للقوة للاستعراض الرخيص. لكنك يا سيد ورب المحبة لم تأتِ لكي تعلن قوةً بل محبة.

محبة الحياة تدعو المجرِّب أن يطلب قوة تحول الحجارة خبزاً (متى ٤: ٣). التحوُّل هو شيمة الشيطان. في الآرامية، كلمة "شيطان" تعني المتحول دائماً، الذي بلا ثبات. ليس رفضاً لمشورة ولا خضوعاً للوصية، فكلاهما لم يكن المحرك الحقيقي لرفض الطلب، وإنما لأنك جئت لا لكي تحيا لذاتك، الشيطان يحيا لذاته، أنت الوحيد في تاريخ الانسانية الذي عاش لغيره.

"ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". مركزية الخبز هي مركزية الأنا التي تحيا لذاتها من أجل ذاتها، ولكن "يحيا الإنسان ليس بالخبز وحده، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى ٤: ٤). الإنسان الجديد يحيا بالخبز وبالكلمة، تلك القوة الفاعلة في لغة الشعب القديم ففي العبرانية "د ب ر" أو "د ف ر" هي عمل وليس كلمة

---

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في مارس ٢٠١٥.

فقط. لقد جئت لكي تحيا للآب وتنقل وعي الإنسان من الذات المنغلقة إلى الذات المنفتحة على عمل الله الذي تظهره الكلمة.

-٢-

على جناح الهيكل، وتحت هذا الجناح وادٍ عميق. أخذك المجرِّب (متى ٤: ٥). لم تذهب طواعيةً، بل قادك، وقبلتَ مثل مصارعٍ نبيل كريم، يقبل أن يمسك به الخصم لكي يصرعه (تجسد الكلمة ٢٤: ٣). وسؤالُ الشكِ لم يعد خاصاً بالهوية وحدها، بل شمل مواعيد الله. فلماذا لم ترمِ نفسكَ وتعلن أنك ابن الله؟ من المستفيد؟ الشيطان لن يستفيد؛ لأنه متحول دائماً، والبشر قد ينتابهم الذهول والدهشة، ولكن الشر الأكبر هو أنك دُعيت لأن تتحدى الآب، وأن تدعوه لأن يبرهن على صدقه وأمانته ... في ثنايا هذا التحدي امكانية أن تشكَّ أنت في صدق الآب.

"لا تجرب الرب إلهك"؛ لأن تجربة الرب تعني انعدام الثقة، وانعدام المحبة، بل هي جهلٌ بأمانة الله في صدق ما وعد به.

-٣-

على جبلٍ عال حيث الرؤيا أعظم، وفي منظر ممالك العالم يقول: مَن لا يملك هذه الممالك أنا أعطيها لك. دخل عنوة إلى الكون فاسد المقاصد، لا يريد سوى السرقة، وأن يأخذ ما لا حق له فيه، ولم يخلق له أصلاً. أُعطيك ما لا أملك إذا قدَّمت السجود. هنا، لم يكن الرد كافياً. كان الانتهار ضرورياً: "اذهب يا شيطان" (متى ٤: ١٠). انتهار اللص المخادع الذي لا يملك الأرض. هو يجول كما قال في سفر أيوب، ويزمجر مثل أسد، ولكن عجباً، المتواضع القلب يقف أمام الأسد المفترس؛ لأن المتكبر تخلى عن قوة من يملك كخالق، وهو الله، والمتواضع يضع نفسه في معسكر الحياة والحق في "معية الخالق".

السـجود -يا أحبائي- هو تسـليم الذات. ليس هو الانطراح على الأرض بعقل يفكر في غير الله ورحمته، من يسـجد يُسـلِّم لمن يملك كل الكائنات، أي "به نحيا ونوجد ونتحرك".

- ٤ -

برية العالم يا يسـوع ممتدةٌ في البيت والعمل والكنيسـة. وفي كل مكان نعيش فيه، تجربة، بل تجارب تحيط بالقوت، بالطعام، وأخرى بمواعيدك، وثالثة بما يجب أن نملكه، لكن مع كل تجربة تظل أنت الراعي الصالح الذي يعطي استنارةً، يتقدم أمام الخروف لكي يقوده ويناديه باسمه؛ لأنك تعرف كل من في قطيع ميراثك.

- ٥ -

لقد دحرت الشـيطان في البرية، وجاء نفس الصـوت وأنت معلَّقٌ على عود الصليب: "إن كنت ابن الله خلِّص نفسك وآخرين"، أو "انزل عن الصليب". إنه صوتٌ آتٍ من البرية، ولكن الآن بواسطة البشر من السلطة الدينية الفاسدة، ومن قوة روما الحاكمة، ومع نغمات الاستهزاء والسخرية: "خلَّص آخرين في معجزات الشفاء"، و"أمَّا نفسه فما يقدر أن يخلصها" (متى ٤: ٤١). ولكن الذي جاء، لا لكي يحيا لنفسـه، بل لنا، ويعطي حياته طعاماً للآخرين، كان الصـليبُ وحده هو طريق العطاء. ومن عرف طريق العطاء الحقيقي، وجد أنه طريق الصـليب، ومُعلَن في تعليم المصـلوب، فلم ينزل عن الصـليب؛ لأنه رغم سـخرية وعداوة وشماتة كل من حوله، لم يترك الهدف الذي جاء لأجله؛ لأنه ببذل ذاته سـوف يفيق البعض ويعود إليه. قبولُ الشـماتة والتعيير، سـوف ينهي الشـماتة عندما يتحقق الهدف الذي جاء لأجله، وفي نفس مكان صلبه، ارتفع الصليبُ فوق قبة كنيسته تعلِن أن البذلَ أثمر، وأنه لم ينزل عن الصـليب لكي يبقى الصـليبُ عرشَ المحبة، وعرشَ الله نفسه، وهو ما يرعب الشياطين ويثير غضبهم.

نحن والمسيح شركاء جسده الواحد،
ولنا فيه حياةٌ واحدةٌ[1]

على بوست نشره الأخ يسري عازر على الفيسبوك علَّق الأخ د. شنودة جرجس سعد على عبارة: "اتحاد اللاهوت بالإنسانية التي أخذها الرب من أم النور"، وهي عبارة أوردها الأخ يسري من مقال لنا منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية بمناسبة عيد الميلاد ٢٠١٥، وهي حسب النص:

"حرية البنين لها أساس واحد وهو اتحاد اللاهوت بالإنسانية التي أخذها المخلِّص من أم النور القديسة مريم .. فتح لنا التجسد ينبوع الحياة الإلهية. فصرنا نأخذ منه في السرائر كل ما حدث في التدبير: الولادة من الروح القدس والماء (المعمودية) مسحة الروح القدس (الميرون) — إبادة الموت وعربون الحياة (الإفخارستيا) — شركة في ميراث الملكوت (الإفخارستيا)".

وقد كتب الأخ د. شنودة تعليقاً على هذه العبارة فقال: "عندك خطأ لاهوتي كبير يا دكتور، وهو أن اللاهوت لم يتحد بالإنسانية، بل اللاهوت اتحد بطبيعة المسيح الناسوتية بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا استحالة وليس بالإنسانية.. هناك فرق كبير .. أيها الأخ العزيز".

ونحن من جهتنا نتقدم بوافر الشكر للدكتور شنودة وأقول له: أولاً أشكرك على أنك تحذِّر من الخطأ الكبير، ثم تعود وتتكلم عن فرق كبير، دون أن تحدده.

---

[1] مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ١١ يونيو ٢٠١٥.

ولذلك، أريد منك أن أعرف ماذا تقصد بدقة؟ أنا لم أقل إن الرب اتحد بالإنسانية بشكلٍ عام، بل "بالإنسانية التي أخذها المخلص من أم النور القديسة مريم"، وهو ما درجنا على أن نقول عنه الناسوت. ولكن التمييز بين ناسوت الرب -وكلمة ناسوت كلمة سريانية الأصل تعني ما هو إنساني- وبين الطبيعة الإنسانية ينطوي على تعسف ليس له سبب واضح، وربما يكون لدى الدكتور شنودة سبب أو أسباب.

وطالما أنني اتُّهمت بخطأٍ كبير، فالاتهام هو خاصٌّ بالتعليم وليس بشخصي أنا. ورغم عدم تحديد الخطأ، وهو ما يُعد قصورٌ شديد الخطورة في مجال التعليم، حيث لا يجب أن يكتب إنسان عن إنسان آخر بأنه أخطأ دون أن يذكر ما نسبه إليه من خطأ. لكن لا بأس، فنحن نعيش عصر تفشِّي العموميات.

فهناك صديقٌ آخر كتب عن وجود تناقض صارخ، رغم أن التناقض هو أن تؤكد شيئاً، ثم تذكر عكسه. هذا أيضاً نتيجة أخذ الأمور بخفة.

لديَّ أسئلة هامة لك يا أخ شنودة، ولكل القراء والقارئات أيضاً:

أولاً: هل الكنيسة هي جسد المسيح الواحد، والرب هو رأس هذا الجسد؟

أليس هذا هو التعليم الرسولي المدوَّن في العهد الجديد (في ١كو ١٢ — ١٤ وأفسس ٥)؟ أليس هذا اتحادٌ بالرب، أم ماذا؟ ألم يرد فعل الاتحاد في (رو ٥: ٥) في قول معلمنا الرسول بولس: "إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته"؟ وهنا يجب أن تنتبه إلى أن الفعل الخاص بالاتحاد هنا، خاصٌّ بالصلب والقيامة مع الرب بدليل ما ورد في نفس السياق (رو ٥: ٨): "فإن كنا قد متنا مع المسيح. نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه .."، ثم "أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا" (رو ٥: ١١).

أليس هذا اتحادٌ بناسوت الرب، أو حسب تعبير الأخ الدكتور شنودة "طبيعة المسيح الناسوتية" فقط؟ أليس نحن جميعاً في آدم الذي فيه "ملك الموت" (رو ٥:

١٧)، والذي فيه أيضـــاً "ملكت الخطية بالموت" (رو ٥: ٢١): "في آدم يموت الجميع"، هذه حقيقة، ولكن جاءت حياة الابن، ولذلك يقول بولس في نفس السطر: "هكذا -كما مات الجميع- في المسيح سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢٢).

هل هي مجرد استعارة أن يقول رسول الرب: "ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح. أفآخذ أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء زانية. حاشا" (١كو ٦: ١٥)؟ وبعد ذلك، ماذا يقول بولس؟ "أم لستم تعلمون أن كل من التصق بزانية هو جسد واحد .. وأما من التصق بالرب فهو روح واحد" (١كو ٦: ١٦-١٧).

ولكن يجب أن نعلم أن المقارنة بين الزنى وإساءة استخدام أعضاء المسيح تنفي الاستعارة. لقد أباد تجسد الرب الابن الوحيد، الاستعارة والرموز وكل أباطيل حيل اللغات.

ثانياً: يا أخي الكريم. لقد عشنا في ظل عصر انفصال الإنسان عن الثالوث، وقدَّم الأنبا شنودة لنا نظرية الأجساد الثلاثة: جسد من القديسة مريم — وجسد الرب في الإفخارستيا — وجسد الرب الكنيسة[1]. هذه أعظم سقطات هذا العصر؛ لأن الرب واحد وجسده واحد. وجسده من العذراء هو الذي يحمله كل خادم للسر المجيد، ويقول في الاعتراف في القداس الذي أخذتُ منه بعض كلمات وتركت الباقي: "هذا هو الجسد المحيي ... أخذه من سيدتنا كلنا والدة الاله ... هذا هو بالحقيقة آمين".

وأن يكون في وعينا أن جسد الرب من العذراء هو جسده في الإفخارستيا، فهذه أول خطوة، ولكن يجب أن تتبعها خطوة أخرى تذكرها كل القداسات الأرثوذكسية، وأساسها هو التعليم الرسولي:

— الخبز الذي نكسره، أليس هو شركة جسد المسيح

— فإننا نحن الكثيرين خبز واحد وجسد واحد؛ لأننا جميعاً نشترك في الخبز

(١) راجع في ذلك بالتفصيل كتابنا: الكنيسة جسد المسيح، المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد، القاهرة، الطبعة الأولى يناير ٢٠١٤، ص ١٤٩ وما بعدها. والكتاب منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية.

الواحد (١كو ١٠: ١٥-١٧).

وبعد استدعاء الروح القدس، يقول الكاهن:

"اجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا .. لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين".

وهكذا تطلب الكنيسة أن تصير واحداً مع الرب، أي أن تكون جسده، وبالتالي لم يعد لدينا ثلاثة أجساد، بل جسدٌ واحد.

السؤال الحاسم: هل هذا الاتحاد هو اتحاد بيولوجي طبيعي، أي ضم أجساد إلى أجساد؟ أم أنه اتحادٌ إلهيٌّ حيث يوحِّدنا الرب الإله المتجسد بجسده؟

تاريخياً، وفي الغرب فقط، تجسد الرب؛ لأنه:

+ دفع ثمن خطايا البشر.

+ قدَّم ترضيةً لله الآب.

+ احتمل غضب الآب (وتمادى الأنبا شنودة الثالث، وكتب في كتابه أسبوع الآلام، ٥ تأملات، أن الآب أشعل نار العدل الإلهي في الابن، وجعل الابن المتجسد مجرد رماد).

+ تحوَّل الجسد الذي أُخِذَ من العذراء إلى أداة أو وسيلة، لا ذِكر فيها لمحبة الابن للبشر، بينما "محب البشر" هو لقب الرب في كل قُدَّاسات الكنائس الأرثوذكسية.

التجسد هو استعلان الابن في الجسد، واستعلان الآب الذي أرسله، واستعلان الروح القدس الذي أرسله الآب عليه لكي يُرسل في يوم العنصرة.

ثالثاً: شرحاً لما ورد على لسان الرب يسوع: "أنا الكرمة وأنتم الأغصان"، يقول رسول الرب: "هو رأس الجسد الكنيسة؛ لأنه فيه (المسيح) سُرَّ أن يحل كل الملء" (كولوسي ١: ١٨). وعاد يكرر مؤكِّداً: "فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت

جسـديًا" (كولوسي ٢: ١٩). ثم، لماذا يحل فيه كل ملء اللاهوت جسـدياً، أي عندما تجسـد؟ يجيب الرسـول بولس في نفس الجملة: "وأنتم مملؤون فيه الذي هو رأس كل رياسـة وسـلطان"، وهذا هو ما ذكرته قبلاً من أن تجسـد الرب فَتَحَ لنا "ينبوع الحياة الإلهية في السـرائر"، وذكرتُ أسـرار الانضـمام إلى جسـد الرب: المعمودية – الميرون – الإفخارستيا". ويبقى السـؤال: هل هذه السـرائر هي اتحادٌ بناسـوت الرب وحده؟ وما هو نوع الاتحاد إذا وُجِد؟ حتماً ليسـت هي اتحادٌ بناسوت الرب وحده؛ لأن الناسوت وحده حسب كلمات الرب: "لا يفيد شيئاً". الأريوسـية الجديدة هي التي جعلت من ربنا آلة وأنكرت أُلوهيته وهو مصـلوب، وحوَّلته إلى رماد لإرضاء الآب، وقد جاءت بعدها النسطورية الجديدة لتقول أيضاً إننا نتناول جسد الرب ودمه فقط، وليس لنا شركة في أُلوهية الرب!!!

رابعاً: نحن هيكل الروح القدس (١كو ٦: ١٩).

وحسـب كلمات الرسـول التي لا يمكن لأي مُراوغ أن يتملص منها، وأنا لا أتهمك بالمرة؛ لأن المراوغين يعرفون أنفسهم، ولكن عندما يقول الرسول: "جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي من الله وأنكم لسـتم لأنفسـكم"، فهل يمكن لأي إنسـان مستقيم الإيمان، أي أرثوذكسي أن يقول إن الذي فينا هو غير الروح القدس؟ ألم يقل الرب إنه سـيأتي مع الآب ويقيم أو يصـنع منزلاً (يوحنا ١٤: ٢٣)، وأن الروح المعزِّي سـيمكث معكم إلى الأبد .. أنتم تعرفونه لأنه مـاكث معكم ويكون فيكم" (يوحنا ١٤: ١٦-١٧)؟ فهل يجوز إلَّا لمكابر وجاحد للنعمة أن يقول إننا لم نأخذ الروح، بل مواهب الروح القدس فقط؟ هل صـلاة المسـيح في (يوحنا ص ١٧) هي كلامٌ في الهواء؟ أم أننا واحدٌ على مثال وحدة الثالوث (١٧: ٢٠-٢١)؟ على أن هذه الوحدة ليست وحدة صناعية من إرادتنا، بل هي: "ليكونوا هم أيضـاً واحداً فينا" (١٧: ٢١). وأيضـاً: "أنا فيهم وأنت فيَّ"، وهنا تصـل النعمة إلى أقصـى حدٍّ يمكن للإنسـانية أن تناله: "ليكون فيهم الحب الذي احببتني به وأكون أنا فيهم" (١٧: ١٦).

خامساً: بولس مثالٌ حيٌّ للاتحاد.

رجاء المحبة المسيحية يا أخي، أن تدرس كتابنا: "الكنيسة جسد المسيح – المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد – يناير ٢٠١٤.

وأرجو أن تراجع عبارات هذا الرسول العظيم المتَّحد بالرب، الموجود في المسيح (فيلبي ٣: ٧-٩)، ومحور التعليم الرسولي هو: "في المسيح"، و"مع المسيح"، و"واحد في المسيح". نموت معه ونحيا معه (رو ٦: ٨)، مع (فيلبي ٣: ١٠)؛ لأن الموت هو أن "تظهر حياة يسوع في جسدنا المائت" (٢كو ٤: ١١)؛ لأن المسيح هو حياتنا (كولوسي ٣: ٤).

وبعد، ماذا يمكن أن نقول سوى أننا أمام اختيارين لا ثالث لهما:

الاختيار الأول أن نقبل هذا الاتحاد من الذي أعطانا الاتحاد؛ لأنه "أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له"، وبالذات، وحدته مع الآب، وجسده ودمه، والروح القدس العطية الأبدية.

الاختيار الثاني هو أن نقبل علاقة خارجية بلا شركة وبلا محبة؛ (لأن المحبة توحِّد)، وبلا حياة أبدية من الثالوث.

إين إذن، الخطأ الكبير؟ ليتك تُفصح عنه.

لقد أعطاني البطريرك أغناطيوس هزيم لقب "المعترف"، ولكنني قلت له إنني لستُ مثل مكسيموس المعترف، قطعوا لساني ويدي (بواسطة بطريرك القسطنطينية) ومات في المنفى –كما سأموت أنا أيضاً في المنفى، وعلى الرغم من ذلك، نجد أن البعض من الذين ماتت ضمائرهم يقول: "إنني مطرود من الكنيسة"، وكأن هذا حكم شرف، وكأن الراعي الصالح يطرد أولاده ولا يبذل نفسه، وكأن الطرد بلا جريمة وبلا محاكمة هو أمرٌ نفتخر به!!!

عندما يموت الحس الإنساني، فإن التعليم المسيحي يتحول إلى سرابٍ لا يراه ميِّتُ الحسِّ، وللعجب العجاب، يصبح من يقف عند نهر الحياة، هو الضال

والمطرود!!!

– عجبي لزمانٍ يقول فيه الميِّت للحي: أنت ميِّتٌ، وكيف يجيب الحيُّ مَن مات، وأصبح لا يسمع ولا يفهم إلَّا نفسه فقط.

مرةً أخرى، أنا لا أقصدك يا أخ د. شنودة.

مع محبتي.

خواطر أرثوذكسية في احتفالنا بتجسد الكلمة[١]

-١-

نحن فيه حسب الإنسانية والألوهة

-١-

"في المسيح يسوع"، أو "في الرب"، أو "في المسيح"، تعبيرات مميزة للرسول بولس بالذات. هي صدى وشرح لِمَا ورد في إنجيل القديس يوحنا، لا سيما في الإصحاح السابع عشر. نقلنا التعليم الرسولي مفصلاً في كتاب "المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد"[٢]. لكن يجب أن نضع النقط فوق الحروف:

- نحن فيه بسبب تجسده، ولكننا أيضاً، نحلُّ فيه هو حلولاً متبادَلاً لا يتم بشكل ميكانيكي. حيثما توجد إرادة ومحبة وإيمان ونعمة وغاية أو هدف، فإن الاتحاد والحلول والملء، وكل العبارات الأخرى التي وصلتنا من الآباء الرسل ومن الآباء، يجب أن تُفهَم على أنها نمو الحياة الجديدة، ليس بالقهر، بل نمو بالمحبة وبالتنازُل عن الذات، الذي يسمح لعمل النعمة بقوة.

والاتحاد له غاية، وهو الخلاص. وهو، أي الخلاص، أن يظل الإنسان إنساناً، ولكن حسب الخلقة الجديدة التي صار أصلها ليس آدم، بل المسيح (القديس أثناسيوس الرسالة إلى أدلفوس).

(١) مقالان نشرا على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية ما بين يناير، وفبراير ٢٠١٥.
(٢) راجع بالتفصيل كتابنا: الكنيسة جسد المسيح، المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد، القاهرة، جذور للنشر، يناير ٢٠١٤.

-٢-

- ألوهية الرب لا تعمل بدون الناسوت، كما أن الناسوت وحده، كما قال الرب نفسه لا يفيد شيئاً (يوحنا ٦: ٦٣). المسيحُ فينا، ولكننا نحن أيضاً فيه، فقد حلَّ الكلمةُ أو سكن بيننا أو فينا؛ لكي نحل نحن ونسكن فيه. وحروف الجر التي استعملها رسول الرب في عبارات: "في المسيح"، و"من المسيح"، و"بالمسيح" تعني سكنى وحلول ونوال النعمة الإلهية.

-٣-

- سر المائدة السماوية هو استعلان وظهور المخلص، ولذلك، عبارة الرسول بولس: "عظيمٌ هو سر التقوى الله ظهر في الجسد" (١تيمو ٣: ١٦)، تبدأ بها الليتورجية في تقديم العطية الإلهية الفائقة، جسد ودم الرب، إذ تقول الصلاة:

"ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى؛ لأنه فيما هو راسم أن يسلم ذاته عن حياة العالم .. أخذ خبزاً". هكذا، يُستعلَن الرب، ولذلك يأخذ "بيت لحم" وهو مكان إعداد القربان، مكانه في الكنيسة، وعلى بُعد أمتارٍ قليلة منه، يوجد "الأردن"، أي جرن المعمودية، وفي داخل الكنيسة توجد "المائدة، أو المذبح" (لاحظ: أن صلاة الشكر تذكر المائدة".

عيد تجسد الكلمة، هو إذن عيدٌ دائم؛ لأنه عيدُ استعلان الكلمة لنا في الليتورجية.

-٤-

- السر العظيم الذي للتقوى، لا يفصل بيت لحم عن العِلِّية في أورشليم، ولا عن الذبيحة؛ لأن قوة حياة الرب لا تعرف الفواصل الزمنية، ولا يوجد لدينا زمانٌ أعظمُ من زمانٍ، ولا "عيدٌ صغير" و"عيدٌ كبير"، بل كلُّ عيدٍ هو "عيدٌ كبير".

والتعبير الكنسي السائد: "الأعياد السيدية أو الربانية"، أي الخاصة بالرب والسيد، هو تعبيرٌ يفصح عن تفضيل حدث معين في حياة الرب أو التدبير، وبالتالي يخفي خلفه مدرسةً فكريةً معينة تحاول أن تبني قناعات فكرية بأن الصَّلبَ أهمُّ من التجسد، في حين أنه بدون التجسد لا يوجد صَلب. أو هي تحاول أن تقول إن التجسد كان له هدفٌ، وهو الموت على الصليب.

هذا التقسيم تجاهل أن التجسد جاء باتحاد الابن بنا، وأننا نحتاج إلى الصليب أكثر من الماء والهواء؛ لأن الرب أباد الموت بالصليب. ولذلك، فإن تقسيم المسيح يسوع يؤدي إلى الفشل في فهم وتذوق وحدانية الاستعلان؛ لأننا لا نشترك في حدث، بل في الأقنوم، وحتى الأقنوم، لا يقدِّم ذاته من خلال الفكر الإنساني، بل بواسطة الروح القدس الذي أعطى له الدخول إلى العالم إنساناً (عب ١٠: ٥)؛ لكي نقبله نحن بالروح القدس.

كل عام وأنتم بخير ،،،

-٢-

التاريخ وتجسد الرب

-١-

سـجَّل لنا لوقا البشـير الجانب التاريخي لميلاد الكلمة المتجسـد (لوقا ص ١)، ولكنه لم يكن يسجِّل لنا تاريخ عيد ميلاد، بل تجسد ابن الله. عيد الميلاد - كما درجنا على القول- هو بداية حياة أي إنســان، وهي بداية لها نهاية، ولكن ابن الله كان كائناً قبل أن يولد بالجســـد "لا بداءة أيام ولا نهاية لحياته" (عب ٧: ٣)، فهو لم يبدأ في زمان مثل زمان بدء أي إنســان، ولم ينتهِ بالصــلب، بل عاد بالقيامة ليفتح آفاق الحياة والتاريخ على نهاية هي القيامة، وليس على زمان ينقضي، بل زمان شهد -في مُلك أوغسطس قيصر- ميلاد ابن الله، ولم يسجل الزمان نهاية حياته، بل قيامته وصـعوده وحلوله الإلهي في حياة كل مسـيحي، وحلوله الإلهي الدائم في الكون؛ لأن الكلمة Logos الخالق لم ينتهِ بالتجسـد؛ لأن تدبير الخلاص لم يحصر حضور الكلمة في الكون كله بتجسده، بل أعلن تجسده محبته الفائقة للإنسان، وهي محبة خاصة، وتبقى محبته للخليقة باقية كما كانت قبل التجسد. أظهر هذه المحبة بالتعامل الخاص مع الماء والرياح والطعام وغيرها، كمانح للبركة، ولكن محبته للإنسان جعلت لقب "محب البشـر" يتصـدر كل صـلاة في الليتورجية؛ لأننا في الليتورجية ندخل هذه العلاقة الشخصية التي ننال فيها شـركة محبته.

لا أذكر تاريخ نشـر كتاب "صـدى النبوات"، وهو كتابٌ أحدث بلبلةً كبيرة، فقد كنت شـاباً أدرس في الإكليريكية القسـم النهاري، وقد حاول المؤلف قراءة أحداث تاريخية في شـرقنا العربي من خلال صـفحات كُتب الأنبياء في العهد القديم، محور الكتاب كله هو أن دولة اسـرائيل ١٩٤٨ لا زال لها وجود في تدبير الله، وأن عودة اليهود هي إتمام للنبوات. وقد سـبق نشـر الكتاب -في أدبيات الشـيع التي خرجت من رحم حركة الإصـلاح- دعوات للبحث عن أدلة تاريخية تؤكد صـدق الأسـفار المقدسـة، وتزامَن هذا مع دعوات أخرى عن عودة اليهود، بالإضـافة إلى دراسـة خاطئة لفصـول ٩-١١ من رسـالة رومية للقديس بولس اليهودي المتنصـر. وفي أوسـاط هذه الشيع كانت عبارات مختارة من أسـفار العهد القديم كلها كانت تاريخياً عن العودة من سـبي بابل، ولكنها أُخذت على أنها على قيام دولة إسرائيل ١٩٤٨.

لا يوجد في العهدين معاً، ولا في العهد القديم ذاته أية إشـارة إلى قيام دولة إسرائيل. هذا موضوع سياسي بحت لعدة أسباب خاصة بالإيمان المسيحي:

أولاً: إن المسـيح رب الحياة، أعطى لنفسـه لقب ابن الإنسـان الذي سـوف تخضـع له كل الشعوب حسـب نبوة دانيال (٧: ١٣)، وهو خضـوع الإيمان، لا خضوع لقوة عسكرية، بل لأنه جاء من أجل كل البشر "أبناء الله المتفرقين" (يوحنا ١١: ٥١)، وهو سوف يجمع هؤلاء إلى "واحد"، لا إلى أرض أو مكان جغرافي.

ثانياً: إن إصـحاحات رومية ٩ — ١١ تحتاج إلى قراءة متأنية: ولاحظ قوة عبارات الرسـول: "ليس جميع الذين من إسـرائيل هم إسـرائيليون"، "ولا لأنهم من نسـل إبراهيم هم جميعاً أولاد (إبراهيم)" (٩: ٦) ويقول الرسـول إن مولد اسـحق المعجزي "ليس أولاد الجسـد هم أولاد الله" (٩: ٨)، فقد انتهى الانتماء العرقي، "بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً". وبعد أن يناقش الرسول اختيار يعقوب، يؤكد أن

الدعوة لكل الجنس البشري "دعانا نحن أيضاً ليس من اليهود فقط، بل من الأمم" (٩: ٢٤).

ثم في الإصحاح العاشر يؤكد بعبارة لا يجب أن تفوت: " .. غاية الشريعة هي المسيح" (١٠: ٤)، وهي عبارة لها ما ينسجم معها في (غلا ٣: ٢٤) كانت الشريعة مؤدبنا إلى المسيح.

في الاصحاح الحادي عشر، يؤكد عدم رفض إسرائيل (القديم)، ولكن لاحظ: "كذلك في الزمان الحاضر أيضاً (زمان كرازة بولس)، قد حصلت بقية (من الذين آمنوا) حسب اختيار النعمة" (١١: ٥)، لكن باقي الاصحاح هو عن عودة مَن يريد العودة إلى الإيمان بالإنجيل: "من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم، وأما من جهة الاختيار، فهم أحباء من أجل الآباء" (١١: ٢٨)، ويجب أن نقرأ هذا مع غلاطية (٤: ٢١-٣١). ولاحظ أن بولس اليهودي يعتبر اليهود هم أولاد هاجر، وهاجر هي رمز إلى "جبل سيناء الوالد للعبودية"، وهو يقابل "أورشليم الحاضرة" (٤: ٢٥)، وهنا يضع الرسول مفتاح تاريخ الأسباط، وهو أن الولادة حسب الجسد لا قيمة لها؛ لأن الولادة الجديدة في المعمودية لا تعطي ميزةً لأحد، بل كل الذين اعتمدوا هم واحد في المسيح "ليس يهودي ولا يوناني ..."، أمَّا بقية العبارة، فقد تاهت من دعاة التشيع وقادة الشيع: "إن كنتم للمسيح، فأنتم نسل إبراهيم وحسب الموعد (وهو اسم الروح القدس) ورثة (المواعيد لا الأرض)" (غلا ٣: ٢٨)، وينتهي الرسول إلى أن مَن يؤمن هو ابنُ سارة، وهي رمز السماء.

ثالثاً: من ينفرد برسالة بولس إلى رومية ويترك باقي الرسائل يقع في أخطاءٍ جسيمة، ولذلك في العبرانيين يضع الرسول اللمسات الأخيرة:

١- تغيُّر الكهنوت لأن الرب جاء من سبط يهوذا (٧: ١١).

٢- وعندما تغيَّر الكهنوت، تغيَّرت الشريعة (٧: ١٢) ولكن لا زال عندنا من لا يعرف ذلك!!!

٣- صار يسوع ضامناً لعهد افضل (٧: ٢٢).

٤- صار يسوع رئيس كهنة بخدمةٍ أفضل؛ لأنه وسيطٌ لعهدٍ أعظم، وقد تثبَّت على مواعيد أفضل (٨: ٦).

٥- ولأن هذا العهد الجديد قد سبق ووعد به الرب في (ارميا ٣١: ٣١)، فقد صار العهد الأول قديماً. "أما ما قد صار قديماً، فقد شاخ وهو قريب من الزوال" (عب ٨: ١٣).

٦- كل ما جاء في العهد الأول هو فرائض جسدية (مؤقتة) موضوعة إلى وقت الاصلاح (٩: ١٤).

٧- الشريعة هي ظل النور وليس الحقيقة، ولذلك كل الذبائح مرفوضة، وكل تقدمات الشريعة لم يُسر بها الله (١٠: ٨). والمحصِّلة:

- ينزع الأول والعهد الأول وكل ما فيه، لكي يثبت الثاني.

إذن، إسرائيل ١٩٤٨ ليست هي اسرائيل في العهد القديم. هي هوية سياسية، وهي هوية ١٩٤٨ أو التي لها جذور في يهودية الشتات. لا مكان لها في نبوات العهد القديم. وعيد تجسد الرب يجب أن يدعونا إلى مراجعة حقيقية لِمَا استقر في وعي البعض ونقله إلينا بعض قيادات الأخوة والشيع الإنجيلية الأخرى. فقد جاء التجسد بعهدٍ جديد، ليس هو كتابُ العهد الجديد، بل هو الرب يسوع نفسه، وهذا هو مجمل الرسالة إلى العبرانيين، وأيضاً الرسالة إلى غلاطية، وصرخات رسالة كولوسي.

-٣-

إن عيد ميلاد الرب بالجسد، ليس دعوةً للانغلاق ورفض ما نظن أنه غير مسيحي. ليس للمتجسد دين، رغم أنه وُلِدَ في أحضان اليهودية. ولذلك كانت رسالة المسيح يسوع المولود في أحضان اليهودية، هي "للعالم"، وهي "ملكوت الله"

الذي يعطي من الله، والذي يقبل العطية هم أولئك:

المساكين بالروح – الرحماء – صانعي السلام – الأنقياء الذين لا يعرفون ولا يعطون للرفض وهو جذر الكراهية مكاناً في القلب – الذين يحبون الأعداء – يباركون الذين يلعنون.

لقد جاء الرب ليملك من على عرشٍ بلا قوة، فقد ظهر أولاً في المزود، ثم في الصليب والقبر والقيامة. هذه هي دعائم الملكوت. وثانياً يعطي لمن يقبل، الميلاد الجديد الذي ينزع "الانتماء العرقي"، ويعطي الاتحاد بالثالوث، لمن يسلك حسب شريعة المصلوب، وهي شريعة المحبة الباذلة؛ لأنها طريق القيامة من موت حقيقي.

والبشر، كلُّ البشر هم الذين نالوا هذه الدعوة، والذين سلكوا "الطريق" هم الذين لهم ذات رؤية يسوع، فالآخر مدعوٌّ، ويظل مدعوّاً دائماً والرفض لا يلغي الدعوة.

– ٤ –

من يؤمن بالتجسد لا يقرأ العهد القديم قراءة يهودية محورها الشريعة وموسى، بل عليه أن يرى في العهد الجديد، النور الذي يشرح سبب وجود الظل. وما أعظم الخطأ أن نظن أنَّ الظلَّ هو سبب وجود النور، وأن نضع يسوع رب الحياة تحت حكم الشريعة، ونشرح الخلاص والتبني وميراث الملكوت من خلال الشريعة، حتى لا تصبح النعمة مجرد كلمة، عندما يكون ربُّ النعمة نفسه خاضعاً للشريعة.

هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. له اسمعوا ...

يا مسرة الآب. المتجسد بالمحبة الأزلية، هكذا (بِكَ) صرنا عيد الثالوث. يفرح الآب بك يا يسوع، فرحاً بالحبيب.

لنسمع يا أحبائي ذلك؛ لأن الابن متجسداً، هو بشارة المحبة، هو بشارة مسرة الآب بنا. فرحٌ ومسرةٌ أبدية، تجعل النعمة الإلهية تنسكب من الآب بالابن في الروح القدس، ولذلك استُعلِن الروحُ معزياً؛ لأنه ينقل المسرة الثالوثية، ويعمل فينا كما عمل في المتجسد. يعمل بذات مسرة الآب والابن، فقد حلَّ على الوسيط يسوع المسيح؛ لكي يعطي كل ما ليسوع لطالبي الاتحاد الذي وُهِبَ بمسرةٍ أبدية.

لنسمع البشارة، بشارة المحبة. يا يسوع أنت عيدنا الأبدي. وعندما نعيِّد لك، ننال مسرة الآب: أن نكون شركاء ملكه الإلهي. بهذه الشركة نحن متألِّهون[1].

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٦ فبراير ٢٠١٥.

لماذا نخطئ في فهم تجسُّد ابن الله الكلمة؟[1]

على مدى أربعين عاماً، بل أكثر، قبل أن يولد موقع الدراسات القبطية، بل منذ أن فُتح كتاب "تجسد الكلمة" للقديس اثناسيوس. وكان الكتاب ممنوعاً في الكلية الإكليريكية، ومع إصراري على تدريس الكتاب، واجهت حرباً من أسقف التعليم، ومن البعض الذين لا أريد أن أذكر أسماءهم، لا سيما الذين رحلوا إلى عالم الخلود.

كانت الدهشة هي أول رد فعل، ولكن مع استمرار الهجوم على الكتاب وعلى المؤلف نفسه أثناسيوس العظيم، رغم أن أستاذنا د. وهيب عطا الله لم يساوره الشك في أصالة مؤلفات أثناسيوس، إلَّا أن أسقف التعليم كان له رأيٌ آخر، وهو في عبارة واحدة: إن الذين نشروا هذه المؤلفات هم الكاثوليك والبروتستانت لدعم التعليم بالطبيعتين!! هكذا، رغم أن اثناسيوس لم يكن له دور أساسي في الصراع حول تلك المسألة، ولم يستخدم كلمة طبيعة وطبيعتين في تجسد الكلمة بالذات.

تُرى ما هي الأسباب الخفية غير المعلنة التي بسببها يحارب البعض تجسد الابن سواء أكان ذلك عن جهل أو عدم معرفة؟ ليس هو موضوع هذا البحث، ولكن البحث هو عن الأسباب الحقيقية لرفض التجسد.

أولاً: دونية الجسد الإنساني. فهو حقير وتراب ونجس وشرير. وقع في هذا الفخ العديد من رجال أشداء أذكياء مثل أبوليناريوس، أكثر من درس علوم

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٤ إبريل ٢٠١٥.

الفلاسـفة القدماء. بل الناسـك أوطاخي، وعند بعض النسـاك، يبدأ النسـك بكراهية الجسـد. لم يحتمل ابوليناريوس أن يكون للرب المتجسـد عقلاً ونفسـاً إنسـانيةً؛ لأن هذا يعرِّض الرب للخطية. وكراهية أوطاخي للجسـد جعلته يتخيل أنه (أي الجسد) ذاب في اللاهوت مثل قطرة عسل في بحر من الماء.

ثانياً: ومع دونية الجسـد، لكل إنسـان مهما كان تاريخ شـخصـي كُتِبَ في داخل قلبه، يجعله تحت وطأة الشـعور بالذنب، يرى في ضـعف الجسـد أن الرب يسوع أخذ جسداً لا يمت للإنسانية بصلة، فهو لا يأكل ولا ينام ولا يستحم .. الخ. هذه كلها أمور نراها محاطة بالمفاهيم الاجتماعية السـائدة في كل مجتمع، والتي ترى أن الأكـل والملابس والنوم ..إلخ كلهـا حقـارة ودونيـة؛ لأن كـل من يعتقـد بالدونية له تاريخ جسـدي خاص به جعله يلصـق الحقارة والذنب والشـر بأعضـاء الجسـد. ذكرتُ مرةً في إحدى كنائس القاهرة إن إفرازات الجسـد كلها موجودة في داخل الجسم، وانها فينا مهما اغتسلنا، هي في البطن والكلى، وأنها ليست نجاسة؛ لأنها من ضـرورات الطبيعة الإنسـانية التي خلقها الله الصـالح، وأن خروج هذه الإفرازات هو عمل أعضـاء الجسد الطبيعي. واعترض بعض الأخوة الذين يعيشـون حسـب شـريعة موسـى. وقلت إن ما يذكره العهد القديم هو محاولة "فرز" شـعب عن باقي الشـعوب، وإن المزامير التي تؤكد صـلاح الله ورحمته في خلق وخدمة الخليقة مثل مزمور ١٤٧ يجب أن تجعلنا نقرأ شـريعة موسـى بشـكلٍ آخر مختلف؛ لأن المزامير أعادت الإنسـانية إلى التجديد وإلى العهد الجديد الذي يفوق العهد القديم (عب ١٠: ١-١٠).

ثالثاً: والسبب الأخطر هو الفصل التام للرب المتجسد عن حياتنا الإنسانية؛ عندما لا نفهم أن ما حدث في حياة يسـوع هو "لأجلنا نحن البشـر". وقد جرى إبعاد الرب عن حياتنا بأكثر من وسـيلة، لعل أهمها هو الخلاص بالأعمال، وهو تعليمٌ يُقال دون تحديد بالمرة، وإنما له الوجه الكنسـي الذي يظهر في التعسـف في الاسـتعدادات الجسـدانية قبل التناول، واعتبارها مؤهلات للتناول، وهي صـورة

طقسية للخلاص بالأعمال. وهناك صورة أخرى لإبعاد الرب المتجسد عن حياتنا الإنسانية، مؤداها وضع إطار لاهوتي خاص بالمسيح وحده، فهو فديةٌ دُفِعَت للآب، وبالتالي لا شركة لنا في الصلب والقيامة، نحن فقط متفرجين على ما يحدث بين الآب والابن، ونسمِّي هذا إيماناً، بينما الإيمان هو شركة حقيقية فيما نؤمن به، وليس مجرد "فُرجة" أو جمع أفكار عقلية عن الرب.

رابعاً: ولدى الكثيرين هاجس أوطاخي يجعلهم يظنون أن المسيح الرب أخذ طبيعة آدم قبل السقوط. واعتبروا هذا تعليماً أرثوذكسياً، في حين أنه تعليمٌ وافدٌ من الغرب، تعتقد به الشيع الإنجيلية التي ترى أن الرب تجسَّد لكي يُقدِّم ذبيحة فقط، ولذلك هو يولد بلا خطية، وهو ليس من نفس اللحم والدم (عب ٢: ١١)، وهذا إنكارٌ صريحٌ لتجسد الرب؛ لأنه -بذلك- يكون قد وُلِدَ وعاشَ وماتَ خارج الانسانية الجريحة الساقطة الخاطئة.

خامساً: وخلف الفكرة تكمن ألفاظٌ برَّاقةٌ لامعةٌ، ولكنها بلا أساس مثل ما يردده البعض: "عتيق يسوع"، و"جديد يسوع" ولكن "ابن الانسان" هو الاسم الذي أعطاه الرب نفسه لذاته. هو آدم الأخير أو الثاني الذي لم يحدث فيه تحوُّلٌ من عتيق إلى جديد بمجرد الاتحاد الأقنومي؛ لأن هذا يلغي التعليم الرسولي برمته.

فهو **أولاً**: أخذ صورة العبد بعد أن أخلى ذاته من صورة الله (فيلبي ٢: ٦).

وثانياً: وُجِدَ كإنسان في هيئة أو شكل كل إنسان، وهذا يعني أن الحبل والولادة والجوع والعطش والموت والدفن هي أحداثٌ حقيقيةٌ، ولم تكن مجرد تمثيلية يظهر فيها يسوع كأنه إنسان وهو ليس كذلك، وأن القديم الذي فيه هو مجرد شكل لا أساس له في واقع تجسده. هذه كارثة؛ لأن قبول الابن بالاتحاد بما فينا من ضعفات جسدانية، بل وروحية مثل الخوف، هو الذي يجعله يتَّحد بنا، ولأنه أباد هذه الضعفات الجسدانية والنفسانية، يستطيع كما يقول رسول الرب "يقدر أن يعين المجرَّبين" (عب ٢: ١٨).

فالتحول الذي حدث في الناسوت، أي إنسانية الرب يسوع، هو تحولٌ حقيقيٌّ يتم في داخل الرب؛ لأن الاتحاد لم يمنع عن الجسد:

- الألم
- الموت
- الضعف

وهذا لا يحتاج إلى اقتباسات من الأناجيل الأربعة؛ لأن الرب يسوع عرف ضعفات الإنسان ليس كفكرة، بل كواقع عاشه – مجرَّبٌ "مثلنا في كل شيء" (عب ٤: ١٥). وتجربة الرب لكي يكون مثل إخوته هي انتصارات تُضاف للإنسانية –لم يكن الرب محتاجاً لها– بل كان يحول إنسانيتنا نحن فيه.

الاتحاد لم يمنع الألم ولا الموت ولا الجوع ولا الحزن: "نفسي حزينة جداً حتى الموت" (متى ٢٦: ٣٨)، بل والبكاء (لوقا ١٩: ٤١). لا نمو في الاتحاد، ولكن هناك نمو للإنسانية في المعرفة. كان فعلاً يجهل اليوم والساعة؛ لأنه "ابن الانسان"؛ ولكن إدراكه ينمو رغم الاتحاد؛ لأنه جاء لكي يبيد جهل الإنسان بالمستقبل. وعلى أساس إبادة جهل الإنسان فيه هو، أي في إنسانيته، جاء روح يسوع باستعلانات المستقبل، وبسبب ما حدث للناسوت من تقدُّم قال الرب عن الروح: "يخبركم بأمورٍ آتية" (يوحنا ١٦: ١٣).

أكتبُ محذِّراً الأخوة من أي محاولة لإنكار جهل الرب وهو في الجسد. هذه المحاولة لها ردٌّ قصير للرسولي: "لم يكن يعرف اليوم ولا الساعة حسب الجسد" (ضد الأريوسيين ٣: ٤٨). وهكذا –في ضوء ذلك– يجب أن نفهم ما قيل قبل القيامة والصعود من بكاء وخوف.

وفي فقرة جديرة بالاعتبار يقول الرسولي أثناسيوس:

"حينما يُقال عنه إنه يجوع، وإنه يعطش، وإنه يتعب، وإنه لا يعرف، وإنه ينام، وإنه يبكي، وإنه يسأل، وإنه يهرب، وإنه يولد، وإنه يتجنب الكأس،

وعموماً أن يحتمل كل ما يخص الجسد، فينبغي أن يُقال إنه في كل هذه الأمور إنه عندما يجوع ويعطش، فإنه يفعل هذا بالجسد لأجلنا. وبينما هو نفسه غير قابل للتألم بالطبيعة، ويظل كما هو دون أن تؤذيه هذه الآلام، بل بالحري هو يوقفها ويلاشيها، فإن آلام البشر تتغير وتتلاشى في ذلك الذي هو غير متألم لكي يصير البشر فيما بعد هم أيضاً غير متألمين وأحراراً من هذه الأوجاع إلى الأبد (ضد الأريوسيين ٣: ٣٤).

ويعيد تأكيد التعليم بصورة أبسط، وكأن ناسوت المسيح هو الذي يجيب على أسئلة الهراطقة:

- أنا من التراب وبحسب الطبيعة (الترابية) مائت.

- قد صرتُ جسدَ الكلمة.

- هو حمل أوجاعي مع أنه هو غير متألم.

- هكذا صرتُ أنا حراً من هذه الأوجاع، ولم أعد بعد مستعبَداً لها بسبب الرب الذي حررني منها.

- لأنك أن كنت تعترض على تحرري من ذلك الفساد الذي هو طبيعتي، انتبه لأنك بهذا تعترض على أن كلمة الله قد أخذ صورة العبد الخاصة بالجسد (المرجع السابق ٣: ٣٤).

ولكن علينا أن لا نفقد إنجازات التدبير؛ لأن تحرر الإنسانية هو ذات التحرر الذي يتم فينا نحن بسبب اتحادنا بالكلمة غالب الأوجاع كلها، ولذلك يؤكد الرسولي بعد الكلمات السابقة:

"كما أن الرب بلبسه الجسد قد صار إنساناً،

هكذا نحن البشر، فإننا نتأله بالكلمة باتحادنا به بواسطة جسده

ولهذا نحن نرث الحياة الأبدية" (المرجع السابق).

هكذا استطاع الكلمة بقبوله كل ضعفاتنا أن يحول هذه الضعفات. وهنا يقدم الرسولي آدم كمثال، فقد أخذ وفقد، ولكن جاء المتجسد لكي يعطي للنعمة الضمان ولكي:

"تبقى النعمة غير متغيرة وغير قابلة للضياع وتظل محفوظة للبشر ومضمونة لأنه يملك (الرب) هذه العطية لنفسه" (المرجع السابق: ٣٨).

قبوله هذه الضعفات لم يكن من أجل ذاته:

يقول الرسولي:

"لأنه لو كان الكلمة نفسه باعتباره الكلمة، قد أخذ وتمجد لأجل نفسه، لو كان هو بحسب لاهوته، هو ذاته الذي نال التقديس وأقيم ثانيةً، فأيُّ رجاءٍ يكون للبشر؟ لأنهم سيظلون، كما كانوا عرايا وتعساء ومائتين" (المرجع السابق: ٣٩).

قال أحد الأخوة الذي لم يدرس بعناية وفهم، إن عبارة "يُقال إنه"، هي من قبيل الوصف ليس إلَّا، وليس لها أي معنى حقيقي. وهذا ليس فقط خروجاً على ما جاء عند أثناسيوس وكيرلس الكبير الذي يقول:

"يُقال إنه وُلِدَ جسدياً .. فيقال إن الكلمة قد قَبِلَ الولادة الجسدية لكي ينسب إلى ذاته ولادة جسده الخاص" (ق. كيرلس الرسالة الثانية إلى نسطور فقرة ٤).

ثم:

"وهكذا نقول إنه أيضاً تألَّم وقبر وقام، ليس أن كلمة الله قد تألم في طبيعته الخاصة (اللاهوت) أو ضُرِبَ أو طُعِنَ أو قَبِلَ الجروح الأخرى لأنه الإلهي غير القابل للتألم حيث أنه غير مادي، لكن حيث أن جسده الخاص الذي وُلِدَ، عانى هذه الأمور، فإنه يقال إنه هو ذاته أيضاً قد عانى هذه الأمور

لأجلنا ... كلمة الله حسب الطبيعة غير مائت، وغير فاسد؛ لأنه هو الحياة ومعطي الحياة، ولكن جسده الخاص ذاق بنعمة الله الموت لأجل الجميع .. لذلك يقال إنه هو نفسه قد عانى الموت لأجلنا .. نحن نعترف بمسيحٍ واحدٍ وربٍّ واحدٍ" (المرجع السابق: ٥).

"داس الموت أولاً في جسده الخاص، فصار البكر من الأموات وباكورة الذين رقدوا، ولكي يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الإنسان .. سلطان الموت قد انحلّ" (المرجع السابق: ١١).

"لقد وُلِدَ لكي يبارك بداية وجودنا نفسها" (المرجع السابق: ١٨).

"هو لم يعرف الموت، نزل إلى الموت بواسطة جسده الخاص، لكي نصعد نحن أيضاً معه إلى الحياة، لأنه عاد إلى الحياة ثانيةً سالباً الجحيم، ليس كإنسان منَّا، بل كالإله في الجسد .. وسحق الموت" (الرسالة الأولى فقرة ٣٨).

نمو الجسد ليس في الاتحاد، ولكن بالاتحاد ينمو لأجلنا:

كانت النسطورية ترفض الاتحاد وتستخدم كلمة "اتصال" و"مَعيَّة" (الرسالة ١١ من رسائل القديس كيرلس). وكانت كلمة اتصال συναφεία تنكر الاتحاد الحقيقي. لكن الرب ذاق الموت بالجسد وتألم بالجسد، رغم أنه بالطبيعة غير متألم. مشكلة النسطورية هي ذات مشكلة كل مَن يريد إبعاد الابن عن الاتحاد بالإنسانية، والذي يعني بقاء هذا الاتحاد الأبدي.

مشكلة النسطورية هي ذات مشكلة كل مَن يحاول إبعاد الرب عن:

+ بقاء الرب متحداً بجسد قابل للموت ومات فعلاً.

+ قبول الطبيعة الإنسانية بكل ما فيها من ضعفات.

ما حدث للربِّ، هو ما يحدث لكل مؤمن اتحد بالرب نفسه من خوف وجزع وموت وسائر الضعفات الأخرى، رغم اتحاده بالرب. فقد ترك لنا الربُّ

مثالاً لهذا الاتحاد: فقد قَبِلَ ما لنا كله، وحوَّله وأعطى لنا ثمار التحول لكي نتحول نحن فيه.

من الصعب علينا أن نتصور أن مَن هو الحياة وواهب الوجود والبقاء، يقبل موت الإنسان في جسده الخاص.

إن سِرَّ تجسد الرب هو في إخلاء ذاته، وإخلاء الذات هذا نستطيع أن نقترب منه على قدر ما يمكن لنا أن نستوعبه من الخبرة المسلَّمة لنا من آباء الكنيسة، ولكن تبقى معرفة المسيح الشخصية بحياته، وفهمه، واستعلانات الآب فيه، واستعلان ذاته، خاصةٌ به، هي "قُدس أقداس يسوع"، ونحن وقوفٌ، البعضُ منّا في "القُدسِ"، والبعضُ الآخر في "الدار الخارجية".

كيف سكن وحلَّ ملءُ اللاهوت في جسدٍ قابلٍ للموت؟ أو حسب تعبير الشهيد أغناطيوس الأنطاكي "حياةٌ في موت".

كيف يمتلك خالق الكون المعرفة، ثم يدخل في قلب الحياة الإنسانية التي لا تعرف اليوم ولا الساعة (مرقس ١٣: ٣٢)؟

إن ما كُتب في شرح كلمات الرب هو جديرٌ بالدراسة، لكن يظل سرُّ المسيح مغلقاً على المسيح نفسه.

في إخلاء الذات ينكر الرب ذاته في ثلاثة أشياء:

أولاً: حرية استخدام سلطانه، فهو يقول لبطرس: "أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثنى عشر ألف جيشاً من الملائكة. فكيف يتم ما جاء في الكتب أنه يجب أن يكون هذا" (متى ٢٦: ٥٣-٥٤).

لقد جاءت مرحلة التدبير بالامتناع عن استخدام سلطانه. هو امتناعٌ حُرٌّ.

ثانياً: العمل والخدمة حسب المعرفة وحدها. فكم من مرةٍ عَرِفَ الربُّ أفكار الذين حوله. عرف خيانة يهوذا، ومع ذلك غسل قدميه، وأعطاه شركةً في العشاء

في العلية[١]. المحبة تسبق المعرفة، ولذلك، الذين لم يكن لهم محبة، قال الرب عنهم: "اذهبوا عني لأني لا أعرفكم".

ثالثاً: إنكار الذات، وهو ممارسة إخلاء الذات؛ إذ سلَّمَ نفسه لليهود والرومان، ومن ثمَّ للموت. هذا ظاهرٌ لنا، أمَّا ما هو خفي، فهو المحبة الحُرة التي لا تعمل بواسطة المعرفة، بل تترك المعرفة جانباً؛ لأنها لا تريد أن ترى الشَّرَ الذي فينا، ولا تريد أن ترى أن شر قلب الإنسان يمنعها عن العطاء.

التجسد حقيقةٌ وليس فكرةً:

لعل أكبر ضربة وُجِّهَت إلى المسيحية في الغرب هو قيام حركة الإصلاح بوضع المعرفة المحددة في قوالب لفظية مثل "التبرير بالإيمان"، وغيرها. وقد طالتنا هذه العدوى فأصبح لدينا في كنيستنا أُم الشهداء الكثير من هذه القوالب اللفظية التي جعلت الإنسان خُلِقَ من أجل السبت، ولا داعي للاستطراد. على أن ما نؤكد عليه، وعلى أهميته هو:

١- التجسد هو حياة إنسانية حقيقية تنطوي على الألم والموت. فقد قَبِلَ الربُّ كل ما في الإنسان لكي يحوِّله في كيانه، ولذلك من العبارات التي لم يتهم بها علماء الشريعة من الإكليروس، ما يذكره الرسولي بخصوص شرح (أفسس ٢: ١٤-١٥)، وهو عن خلق الإنسان الجديد، يقول أثناسيوس:

"فإن كان قد أتى ليس لأجل ذاته، بل لأجلنا، فهو إذن لم يُخلَق لأجل

---

(١) تناول يهوذا ثابتٌ عند ذهبي الفم، وغيره، وكانت عظة ذهبي الفم التي تقرأ في ترتيب أسبوع الآلام: "هذا هو يوم التقدم إلى المائدة الرهيبة. فلنتقدم كلنا إليها بطهارةٍ ولا يكن أحدنا شريراً مثل يهوذا لأنه مكتوبٌ لما تناول الخبز دخله الشيطان" (راجع العظة ٨١ على إنجيل متى ٢٦: ١٧ — ١٨. راجع أيضاً عظة ٥٠ على متى ١٤: ٢٣ — ٢٤ لذهبي الفم. وكيرلس الأورشليمي عظة ٢٣ في شرح قانون الإيمان فقرة ٦، وجيروم في الكتاب الثاني إلى Jovinianus فقرة ٢٥ وامبروسيوس الرسالة ٦٨ فقرة ٩٥ — اوغسطينوس المقالة ٦ على انجيل يوحنا الفصل الأول: ١٤). أما القديس كيرلس الكبير، فيقول: "لذلك، فما حدث هو أن الخائن لم يفزع من التوبيخات التي قيلت سراً وبهدوء، ولم يقدِّر قوة المحبة غير المغلوبة، ولا الكرامة والمجد والنعمة، **ولا قدَّر موهبة الإفخارستيا التي نالها من المسيح**، بل أسرع دون تريث ليفكر أو يراجع نفسه لحظةً واحدة". راجع شرح يو ١٣: ٢٦ ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، سلسلة نصوص الآباء ١٦٨، المجلد الثاني، ص ١١٣ وما بعدها. والجدير بالذكر أن الدكتور مجدي وهبة (القس صموئيل) قد دفع ثمناً غالياً عندما ذكر تعليم ذهبي الفم، فقد مُنِع من التدريس في الإكليريكية، وقُطِعَ مرتبه، بل حُذِفَت عظة ذهبي الفم من بعض طبعات كتب ترتيب أسبوع الآلام.

نفسه، بل لأجلنا ... فإن جسده كان هو أول ما تم تخليصه وتحريره، إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه". (الرد على الأريوسيين ٢: ٥٥، ٦١).

ثم بعد ذلك يقول إن:

"كلمة الله المحب للبشر لَبِسَ الجسد المخلوق بإرادة الآب لكي يُحيي بدمِ نفسه هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه" (المرجع السابق ٦٥).

فقد تمَّ فداء جسد المسيح نفسه من الموت بقبول الرب الموت، وهو ما يجعل الرسولي يقول في جرأةٍ سوف تُفزِعُ من لا محبة له:

"هكذا خُلِقَ المخلِّصُ بحسب الجسد، وصار أول الذين خُلِقوا من جديد" (المرجع السابق: ٦٦).

٢- لا يوجد جديد وعتيق في يسوع، بل يسوع الواحد قاهر الموت والفساد الذي اجتاز الموت؛ لكي يخلِّص جسده من الموت، ودخل القبر؛ لكي يبيد الفساد، وقام من القبر؛ لكي يعطي الخلود والحياة الأبدية.

أخيراً:

هذه هي أعمال الرب في الجسد. وهي أعمال التدبير، فكلُّ عملٍ منها – بسبب الاتحاد- ينقل الجسد والنفس إلى ما هو أعظم، ليس لأن الجسد يتحول بقدراته، ولا لأن النفس الانسانية قادرةٌ على أن تعرف أسرار الله، بل لأن الاتحاد وَهَبَ الجسد والنفس ذلك التحول الداخلي الذي يُوهَب لنا.

نحن نعطِّل هبات الله لنا في الابن، ولكن ليس الأمر كذلك في يسوع، بل تقدُّمُه المطَّرد لأجلنا، قوته هي الاتحاد الأقنومي، ونموه نحو معرفة وبذل المحب، هو حركة المحبة الإلهية المتأنِّسة التي حَفِظَت لنا كل هذا؛ لأن الرب يسوع هو ميراثنا.

يا يسوع، لأجلِكَ قبلتُ العارَ

كما قبلتَه أنت

لكي يكون لي ذات المصير الذي أخذته لي بمحبتك

الأحد الأول بعد القيامة ٢٠١٥

ذكرى الأب يعقوب فرج خادم كنيسة الأنبا شنودة الذي خدم لي سر الميلاد الجديد في ذلك اليوم.

صدمة تجسُّد ابن الله[1]

الاعتراضات على تجسد ابن الله ليست وليدة العصر، بل سبق أن سجَّل القديس أثناسيوس الرسولي الكثير منها في الرد على الأريوسيين، المقالة الثالثة، وفي دفاعه عن تجسد ابن الله. ولم يقتصر الأمر على الأريوسية، بل تواصلت هذه الاعتراضات واتسعت تحت مظلة النسطورية: كيف يكون إلهاً وإنساناً في نفس الوقت؟ وهل كان في المسيح الواحد كائنين، واحدٌ إلهي وآخر إنساني؟ وما هي العلاقة بينهما؟ بل كيف يجوع ويعطش ويتألم ويحزن ويجهل، وبعد ذلك يموت؟

إن استهوال الإنسان الساقط في الموت لعمل الله في التدبير، وما يترتب عليه من آثار، وعدم تصديقه أو عقله، يصيبه بصدمة شديدة تجعله يعترض عليه محاولاً أن يجد أية حجة تسند هذا الاعتراض. قد يلجأ البعض للفلسفة، كما رأينا عند أريوس أو نسطور، وقد يلجأ البعض لما رسخ لدى الشعوب من عادات، وما استقر لديها من تقاليد، يحاول من خلالها تفسير عمل الله بما يفرغه من محتواه ويبعد به عن القصد الإلهي، فيستكين للموت، ويسعد بالفقر، ويأنس للأوهام. وإذا كنا لا زلنا نسمع هذه الاعتراضات في أيامنا، ألا أن التطاول بلغ أوجه في دراسة J. G. Frazer, The Goden Bouch التي صدرت في عدة طبعات، ولا تزال معروضةً على آمازون. هذا الكتاب هو من شطحات القرن التاسع عشر. لم يهتم به أحد لِما فيه من تلفيق، ورصد ممارسات وأفكار عامة من كل مراحل الحضارة الإنسانية. ولكن ما أن تصلنا "قمامة الغرب" في الشرق العربي، حتى ولو بعد

---

(1) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٩ يناير ٢٠١٩.

١٠٠ سنة من انتشارها، نجد أن العديدين ممن لهم خصومة ذاتية، لا تاريخية ولا علمية مع المسيحية ينقلون عنها وكأنها الحقيقة، كل الحقيقة.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، استخدام "زيت الزيتون" في الطب معروف في كل حضارات الشعوب، فإذا ظهر استخدام زيت الزيتون في طقس المعمودية المسيحية سرعان ما تجد بعض الأقلام مادةً للإتهام بالاقتباس أو النقل. كذلك، الاغتسال بالماءِ معروفٌ منذ عرف الإنسان الماء واستخدامه في الحياة اليومية، فإذا ظهر في اليهودية أو في المسيحية أو في الإسلام، كان أسهل تحليل أنه نقلٌ عن الوثنية، في حين أنه استخدام قديم قِدم الحضارة الإنسانية نفسها في كل بلاد العالم.

هل تجسُّد ابن الله، نقلٌ عن ميثولوجيا الإغريق والفراعنة؟

طبعاً، يلغي هذا السؤال الدور النبوي لأنبياء بني إسرائيل، وتمنى الشعب القديم أن يأتي مخلِّص "الممسوح" أو "المسيح".

وفي الرد على الوثنيين للقديس أثناسيوس نرى الوعي لدى المؤلف بما هو في بشارة الإنجيل، بالرغم من أن الوثنية كانت حاضرة وقوية في الإسكندرية، وفي كل مدن وادي النيل.

ونحن نرى، حقيقةً، أن صدمة تجسُّد ابن الله تعود إلى:

١- فقدان الإيمان بمحبة الله للإنسان.

٢- دونية الإنسان الخاضع لكل أهواء وتطرُّف الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية.

٣- الجهل الشديد لدى بعض الكُتَّاب، حتى من الأقباط الأرثوذكس الذين وُجِدَ لديهم ميلٌ شديد إلى تعقُّب العقائد والطقوس في "الفرعونية"، وهي دعوةٌ سادت بعد اكتشاف الآثار المصرية في الأقصر، واشتعال الوطنية المصرية، لا سيما

إبان الصراع ضد الاحتلال البريطاني.

تلك أسبابٌ عقلية ونفسانية، ليست لها إلا شِبه علاقة بالتاريخ القديم.

ولبيان ذلك، نضع أمام القارئ بعض الأسئلة: هل كان لدى المصريين القدماء ثالوث؟ إن قصة "ايزيس وأزوريس وست"، التي يدَّعون أنها هي أصل الثليث المسيحي، لم تكن معروفة كثالوث في مصر القديمة، بل باعتبارها قصة صراع الخير مع الشر. وإذا كان ست هو الشرير الذي قتل أزوريس في هذه القصة، فأيُّ علاقةٍ بين هؤلاء، وبين الآب والابن والروح القدس؟ وإذا كانت كلمة "الثالوث" لم تظهر إلا بعد انتشار الإنجيل، عندئذٍ ينكشف كم التلفيق في هذا الادعاء.

كان الختان يمارَس في مصر الفرعونية، ولا زال هناك نقشٌ في منطقة سقارة، نرى فيه ربما طبيباً يختن صبياً، فإذا ختَّن اليهود أبنائهم، فهل يكونوا قد نقلوا الختان عن المصريين القدماء؟ ولكن، هل يوجد نصٌّ مصريٌّ قديم يقول لنا إن الختان علامةَ عهدٍ بين يهوه وابراهيم؟ أبداً.

وذاع كتابٌ آخر لأستاذ سابق في جامعة مانشستر في بريطانيا J. M. Allegro, The Sacred Mashoom and Cross وطُبع أيضاً عدة طبعات. ودُعيَ الأستاذُ إلى محاضرةٍ في قسم اللاهوت في جامعة كامبريدج عام ١٩٦٦، وكانت مجرد عرض لما جاء في الكتاب، وهو أن فِطر الـ Mashroom في الجليل الأعلى كان يحتوي على مادة الـ LSD وهي مادة تسبب الهلوسة والخيالات، وأن يسوع قدَّم هذا الفِطر إلى التلاميذ، ولذلك ظنوا أنهم شاهدوا المعجزات والقيامة وصعود الرب إلى السماء. وسألتُ الأستاذ: هل كان إصحاح ٥٣ - ٥٤ من أشعياء هو أيضاً ثمرة الـ LSD وهل كل النبوات كانت مجرد هلوسة؟ وماذا عن اهتداء بولس الرسول الذي ترك لنا ١٤ رسالة عن إيمانه، وهو لم يكن أصلاً من الـ ١٢ رسول؟ هل كان أغناطيوس الأنطاكي مصاباً بهلوسة؟ وهل عاش هو في منطقة الجليل الأعلى؟ وهل كان أكل هذا الفِطر معروفاً ومنتشراً في اليهودية؟ وماذا عن مسح ملوك اسرائيل في انتظار

المسيح المخلِّص؟ هل كل هذه هلوسة الـ LSD وأُسقِطَ في يد الأستاذ الكبير الذي قيل إنه كان يجيد ١٠ لغات.

الهلوسة الحقيقية هي الاتهام بلا دليل، واستخدام ما هو عام في الحضارة، لشرح ما هو خاص لدى شعب معيَّنٍ.

هل كانت معمودية الدخلاء الراجعين إلى اليهودية هي أساس المعمودية في الكنيسة؟ ومَن الذي سبق الآخر تاريخياً: معمودية الكنيسة، أم تغطيس كل من جاء لكي يصير يهودياً؟ طبعاً لدينا شواهد من العصر الوسيط، وربما قبل ذلك عن الاغتسال قبل الختان في طقس اليهودية Mikveh ولكن، هل كان هذا الطقس بمثابة موتٍ ودفنٍ مع المسيح (رو ٦: ١ – ٨)؟ فإذا كان الموت يُعتبر نجاسةً في اليهودية حسب أسفار الشريعة: اللاويين والتثنية، بل كان دمُ الجريح يمنع من الصلاة حتى مساء اليوم، وبعد التطهر بالماء، إذا كان الأمر على هذه الحال، فكيف يمكن اعتبار أن معمودية الدخلاء في اليهودية هي أصل المعمودية المسيحية؟! وهل يمكن تأسيس ذلك على مجرد أن الماء هو العنصر العام والعالمي للاغتسال في كل الثقافات القديمة؟

وحتى أكل الخبز وشُرب الخمر، فهو جزءٌ لا يمكن إنكار وجوده في حضارات كل الشعوب، ولكن في أيٍّ من هذه الحضارات كان أكل وشرب الخبز والخمر هو شركة في جسد ودم آخر؟ وإذا كان الادعاء بأن عشاء الرب نشأ في داخل الفصح اليهودي، هو ما جعل بعض المؤرخين يظنون أن يسوع قدَّم جسده ودمه في العلية حسب الطقس اليهودي، فكيف يمكن مصالحة هذا الادعاء مع الطقس اليهودي نفسه الذي يمنع أصلاً تناول الدم حتى في اللحوم نفسها.

إن تخصيص ما هو شائع وعام في ثقافةٍ أو عادات شعبٍ من الشعوب؛ لشرح وتقديم الجديد، هو ما يجب علينا أن نعيه بكل دقة قبل الإسراع في التأويل.

يسوع، بشارة المتجسد:

كتب يسوعُ البشارةَ بحياته ودمه وجسده، ونقل الشريعة من اللوح الحجري إلى الإنسان. هذا هو هدف التجسد، وكلُّ مَن لا يدرك أن الإنجيل هو يسوع الحي في كل إنسان، يكون قد عاد إلى الوثنية دون أن يعرف، لأنه يكون حينئذٍ لم يرَ في الإنجيل سوى الحرف، أي ما هو مدوَّن، وهو المقصود في عبارة الرسول: "الحرف يقتل"، فحسب الأصل اليوناني، الحرف هو المدونات، لا حروف الهجاء.

إذن، إذا تجاوزنا تعديات المدعين، ما هي صدمة التجسد؟

الصدمة الأولى: المحبة التي لا حدود لها ولا شر يعادلها.

الصدمة الثانية: إن محور البشارة هو الإنسان نفسه، وليس النص، برغم أهمية النصوص.

كان أستاذنا السابق CH. D. Moule أستاذ العهد الجديد يقول لنا إن المعمودية والعشاء الرباني بشكلٍ خاص، هما أقدم دليل على موت وقيامة يسوع من الأموات، وإن الطعن في صدق ما هو مدوَّن في الأناجيل الأربعة عن قيامة يسوع يصطدم بشكلٍ مباشر مع الممارسة الكنسية، تلك التي شَهِدَ لها مؤرخو روما مثل Pliny وتاسيتوس وكررها كلسوس.

أما الصدمة الثالثة، فهي أن الحساب ليس على أعمال، بل على المحبة والإيمان، وأعظم الكل هو المحبة.

كل عام وأنتم بخير، ومصر كلها بخير؛ لأن تمني الشر للأشرار، يجعلنا نحن أنفسنا أشراراً، لا فرق بيننا وبين مَن يكرهنا. ومَن يبادُل كراهيةً بكراهيةٍ أخرى لا يختلف عن العدو الذي يكره، فقد جاءت سكين الإنجيل لكي تكشف عوار الكراهية.

"أحبوا أعدائكم".

د. جورج حبيب بباوي

التجسد،

بين خداع النظر، وخداع اللفظ[١]

لعل أكثر ما يثير عجبي هو عجز مَن يتصدرون للكتابة عن إيمان الكنيسة الجامعة -وهم فقراء عقلياً وروحياً- لا هَمَّ لهم سوى البحث عن كلمة أو سطر من هنا وهناك لتأليف اتهام: "مخالف لتعليم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية"، ومن ثمَّ يطرحون فكرةً خياليةً، لا وجود لها إلا في عقولهم الفقيرة التي لا تعرف التاريخ الكنسي، ولم يدرك هؤلاء أن لدينا إيماناً مشتركاً مع كل كنائس الشرق والغرب حتى ٤٥١ أي قبل الانقسام الحزين الذي أعقب مجمع خلقيدونية، ولذلك افترض هؤلاء أن الإيمان القبطي مختلفٌ عن الإيمان البيزنطي، وهذه كذبة من لم يدرس التاريخ.

افتراض الجهل وإنكار تجسد ابن الله:

يصر متعهدو إشاعة أفكار الأنبا شنودة الثالث على المخاتلة والخداع غير مدركين لخطورة تبعات ما يحاولون إثبات صحته من أفكار على الإيمان، ولا يتورعون في سبيل ذلك عن الاستشهاد بنصوص من كتابات الآباء، يظنون بها أنهم حصلوا على ضالتهم المنشودة، فينكرون على الرب أنه أخذ جسداً مماثلاً لجسد كل البشر، والغريب أنهم يستشهدون في ذلك بكتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي. ومحاولة الاستشهاد بالترجمة العربية وحدها لكتاب

(١) مقال منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٥ فبراير ٢٠١٩.

تجسد الكلمة للرسولي أثناسيوس، تثير في القلب دهشةً ورحمةً بالجهل وبالجهلاء.

هل أخذ ربنا له المجد جسد كل البشر؟

جسد كل بشر هو ما ذكره أثناسيوس نفسه: إن الرب أخذ "جسداً بشرياً"، أو إنسانياً (٤: ٣، ٤٣: ٤). وكأن أثناسيوس كان يرى ما سوف يُقال، ويُكتب في زماننا الذي عثر، فكتب: "أخذ لنفسه جسداً لا يختلف عن جسدنا" (٨: ٢)، وبعد هذه الفقرة: "أخذ جسداً من جنسنا" (٨: ٣)، تماماً مثل عبارة الرسول في العبرانيين "إذ اشترك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو فيهما أيضاً" (عب ٢: ١٤)، وهذا ما جعله يأخذ جسداً ليُظهر ذاته به (٨: ٣).

وتبقى مشكلة خداع اللفظ: حسب الترجمة العربية "أتخذ جسداً مماثلاً لطبيعة أجسادنا"، والكلمة "مماثل" جعلت البعض يكتب في ثقة أن "جسداً مماثلاً" لا تعني أن جسده مثل أجسادنا، في حين أن عبارة "مماثلاً لطبيعة أجسادنا" تحدد معنى "مماثل"، أي أنه من ذات الطبيعة الإنسانية، أي جسد إنساني حقيقي؛ لأنه كان "يأكل ويشرب وأنه ولد ... وأما هذه الأمور فإنها تُذكَر عنه لأن الجسد الذي أكل ووُلِد وتألم لم يكن جسد أحد آخر، بل كان جسد الرب نفسه" (١٨: ١).

جسداً قابلاً للموت (٩: ١):

إن تحول الفاسد إلى عدم فساد، والميت إلى حياة، لم يتم بمجرد كلمة من الله، مع أن هذا ممكن ومعقول، ولكنه لا يمنع:

١- الفساد من العودة مرة أخرى، أي تحلل الطبيعة الإنسانية.

٢- لا يقهر الموت الذي لصق بالإنسانية.

٣- لا يوفي مطلب الحق الإلهي، وهو استرداد الصورة الإلهية التي أفسدها الإنسان.

هذه العناصر الثلاثة تكوّن مشكلة الإنسان، ولذلك يضع المعلم الرسولي

العناصر الثلاثة التي أبادت المشكلة من جذرها:

١- بقاء جسد الكلمة في عدم فساد بسبب اتحاده بالكلمة (٩: ١).

٢- تقديم الجسد للموت عن "جميع نظرائه من البشر" (٩: ١).

٣- "وهكذا باتخاذه جسدا مماثلاً لجسد جميع البشر وباتحاده بهم، فإن ابن الله عديم الفساد ألبس الجميع عدم الفساد بوعد القيامة من الأموات" (٩: ٢).

وقد تمم ذلك:

أ- لأن تجسد ابن الله أبطل "فساد الموت" بسبب اتحاد الكلمة بالجسد (٩: ٤).

ب- "أبطل الموت" (١٠: ١).

جـ- "مات الجميع .. وهو مات لأجل الجميع" (١٠: ٢).

الأجساد المماثلة (١٠: ٤):

المثيل يشترك مع الأصل إما في ذات الطبيعة، وإما في ذات الخصائص أو الصفات التي تُرَدُّ إلى الطبيعة. فبطرس مثل الأسد في الشجاعة. والأشجار من ذات طبيعة واحدة. وإذا كان البشر يختلفون في الصفات، لكن لدى البشر، كل البشر طبيعة واحدة، ولذلك كما قال الرسول بولس (٢كو ٥: ١٤-١٥)[١]، وكما أعاد الرسولي ذات التعليم: "الكل إذاً ماتوا"، فكيف مات الكل؟

١- قَبِلَ الرب موتنا في حياته الإلهية، فقد "ذاق الموت بالجسد"؛ لأنه قدوس وبار وبلا خطية، فبذبيحة جسده الذاتي وضع نهايةً لشريعة الموت التي كانت ضدنا" (١٠: ٥). وكما "ساد الموت على كل البشر .. لهذا أيضاً فبسبب تأنس كلمة الله فقد حدثت إبادة الموت" (١٠: ٥).

٢- لو كان الرب قد أخذ جسداً مختلفاً عن أجساد البشر، فيما عدا أنه كان

(١) "لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا. إِذْ نَحْنُ نَحْسِبُ هذَا: أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ. **فَالْجَمِيعُ إِذاً مَاتُوا**. **وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ** كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ".

بلا خطية وحده، لَمَا كان -بكل يقين- إنساناً مثلنا في كل شيء.

٣- لكن المخلص "اكمل جانبين للمحبة: أنه أباد الموت من داخلنا، وجدَّدنا ثانيةً .. عرَّف ذاته بأعماله في الجسد" (١٦: ٥ — ١٨: ٢).

وفي عبارة واحدة قاطعة كتب الرسولي:

"لم يكن ممكناً أن يحوِّل الفاسد إلى عدم فساد، إلا المخلِّص نفسه .. ولم يكن ممكناً أن يُعيد خلق البشر ليكونوا على صورة الله، إلا الذي هو صورة الآب، ولم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت، إلا ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها" (٢٠: ١).

كيف ضاع تحوُّل الإنسانية في المسيح؟

بغير فَهمٍ وعدم مراجعة وعدم ادراك لنتائج التعليم القانونِّي الذي دخل عندنا مع الإرساليات، نقلنا عنه:

١- دفع الدين لله الآب.

٢- غضب الآب على الابن ومعاقبة الآب للابن على الصليب.

٣- إرضاء العدل الإلهي الذي خُصِّص لله الآب وحده، وكأن الابن له المجد له صفات غير صفات الآب.

كل هذا جعلنا نفقد زخم وغنى تعليم الإسكندرية، ولما نبهنا الأذهان إلى هذا، اندفع البعض إلى حشر عبارات من كتاب تجسد الكلمة للرسولي في محاولة منهم لإثبات النقاط الثلاثة السابقة التي تبدأ بدفع الدين وسكب نار العدل الإلهي على الابن المصلوب، في حين أن هذه كلها عناصر تعليم وردت في كتابات الغربيين من كاثوليك وبروتستانت، وإن كان لها إغراء عقلي لسهولة الصياغة، إلا أنها تبسط التعليم المسيحي إلى درجة تفريغه من محتواه الحقيقي وهو اتحاد الإنسان بالثالوث القدوس في الابن بالروح القدس.

التجسد ليس نصّاً ولا كتاباً:

يصدم التجسد كل فكرة وكل تصور ويبعثر خيالنا الرافض لحقيقة أزلية، وهي أن الابن الكلمة هو أقنوم أو شخص، هو كيانٌ من كيان "مولود من الآب قبل كل الدهور"، ونزل من السماء وتجسد من والدة الإله بالروح القدس"؛ لكي يعيدنا إلى الله، نعم يعيد كل البشر إلى الله، والحكم على أن هناك بشراً أفضل وأقدس هو حكمٌ غير مسيحي؛ لأن الوجود الإنساني ناقص، غير كامل جسدياً وروحياً.

ناقصٌ جسدياً؛ لأن كل إنسان تحت سلطان وقوة الموت. وناقصٌ روحياً؛ لأن كل إنسان لا يعرف خالقه معرفة تامة مطلقة، ولذلك جاء الرب لكي يُكمِّل هذا الوجود، فأباد الموت "وأشرق جسدياً من العذراء"، لكي نعرفه ونعرف الآب، ولذلك كتب رسوله يوحنا "الذي رأيناه .. سمعناه .. لمسته أيدينا" (١ يوحنا ١: ١-٣).

تزييف التاريخ:

الرواية أو السرد التاريخي هو الأساس الذي بُنيت عليه كل عقائد الأرثوذكسية. فميلاد الرب البتولي من العذراء بالروح القدس، صار أساس ميلادنا نحن في المعمودية من الماء والروح القدس، وهزيمة الشيطان في البرية، أعطى للرسل في أثناء خدمة الرب نفسه طرد الأرواح الشريرة، والصلب والقيامة هما أساس تقديم الرب حياته قرباناً في العلية وعلى الجلجثة، وقيامة الربِّ، صارت أساس قيامتنا نحن، والصعود هو مصيرنا الأبدي السمائي.

فكيف إذن يتم تزييف التاريخ؟

لقد بدأت مدارس كل الهرطقات بوثائق أبوكريفا مثل "إنجيل بطرس" وغيره، لكي تجعل من الروايات أساساً جديداً للتعليم عن ثنائية الله: إله الخير وإله الشر، وعدمية الجسد. وجاء تحدي الأريوسية، وهو سرد ما ورد عن وحدانية الذات الإلهية في العهد القديم -بشكل خاص- لنفي أُلوهية الابن، وبالتالي حشد

اعتراضات من كلمات الأسفار كلها بما فيها العهد الجديد مثل: "أبي أعظم مني"، وخضـــوع الابن للآب. ذلك لأن الرواية أو Narrative تهدف الى إبراز غاية التدبير، فإذا أمكن تغيير الرواية، تغيرت غاية التدبير.

أدوات التزييف:

١- قنص كلمة أو سطر أو عبارة لتأكيد فكرة مثل فصل المواهب عن عطية الروح القدس.

٢- إغراق القارئ أو المســتمع بأفكار منافية للتعليم مثل أن حلول الروح القدس فينا يجعلنا مثل الله في القدرة والحضور في كل مكان .. الخ.

٣- اعتبار الخطاب عن الشركة في الطبيعة الإلهية هو عودة إلى الوثنية، أو أنها كانت شهوة آدم ومن قبله الشيطان.

التجسد أساس الإفراز والتمييز:

حدَّد الآباء أن أهم ما يجب أن يناله المسيحي من روح الحق هو "الإفراز" أو "التمييز". ووضع تجسُّد رب المجد الإفراز على أساس:

١- إن الشركة تشرح اللفظ وليس العكس.

٢- إن هذه العلاقة الخاصـــة تفوق كل خطاب مهما كان، وأن أي خطاب يهدم شركتنا في بنوة الابن وحياته الإلهية غير الفاسدة التي تُوهَب لنا في السرائر، ما هو إلا خطابٌ أجوف كقول رسول المسيح "صنج يرن" ما يلبث أن يتبدد في الهواء.

٣- جاء المسيح لكي يعتق الإنسانية الأسيرة للشر والموت، فأيُّ خطابٍ ينفي أو يقدم روايات أخرى غير ذلك، هو مزيفٌ تماماً.

د. جورج حبيب بباوي